

الفرق بين
جبه

تفسير القرآن

بالقرآن والسنة

تأليف

محمد الصائغ

انتشارات فقه هند اسلام



مرکز تحقیقات کتاب و تفسیر علوم اسلامی

الفیه و تفسیر

۸ - ۹



مرکز تحقیقات کتب و تفسیر علوم اسلامی

الفرقان فی تفسیر القرآن	الكتاب
الدكتور الشيخ محمد الصادق	المؤلف
الثانية	الطبعة
اسماعيليان - قم	المطبعة
انتشارات فرهنگ اسلامي - قسم ٠ تلفن : ۳۴۰۳۵ قم ۲۴۴۲۵	الناشر
۱۴۱ هـ - ق	سنة الطبع
۱۰۰۰ نسخة	عدد المطبوع
۲۲۰۰ ریالاً	الثمن

مملكة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي

الفروقات

في تفسير القرآن
بالقرآن والسنة

المجلد الثامن و التاسع

سورة الأعراف مكيمة وآياتها ٢٠٦



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



سورة الاعراف

مرکز تحقیقات کتب و تفسیر علوم اسلامی



مرکز تحقیقات کاپیویر علوم اسلامی

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

مَكِّيَّةٌ وَأَوَّلُهَا ٢٠٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَرَّ ① كِتَابًا نَزَّلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ
خَرَجَ مِنْهُ لِنَذِيرٍ وَذِكْرٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ② اٰتِيعُوا مَا نَزَلَ
إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِ أَوَّلِيَاءَ قَلِيلًا مَا
تَلْعَكُونَ ③ وَكَذَمِنْ وَتَبَرَأْ أَهْلًا كُنَّا مَا جَاءَ مَا
بِأَسْنَابِنَا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ④ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ
بِأَسْنَابِنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ⑤ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ
أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ⑥ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ
وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ⑦

لقد سميت « الأعراف » بها ، لأنها سيدة الموقف البارز لرجال الأعراف ، حيث هم شؤونهم بارزة بالموقف الأعلى يوم القيامة على الأعراف، تعريفاً بفريقي الجنة والنار، وتقريراً لمصير كل بأمر الله، ولأنها برجالها لم تذكر في سائر الذكر الحكيم ، كما هم القمة العليا بين الرسل المعصومين ، فهم منقطعوا النظير . ذكراً في القرآن ومحتداً عند الرحيم الرحمان بمن يرأسهم من هذا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) .

ذلك ، إضافة إلى سائر الأعراف في مختلف حقول المعرفة الأعرافية المتميزة في هذه السورة عما سواها ، وكما هي طبيعة الحال في كل سورة أنها تختص بميزات ومواقف خاصة ليست فيما سواها كما هي فيها .

ندرس على أعراف الأعراف موضوع العقيدة بمختلف حقولها ، ومختلف العقلات المأمور بها ، ومختلف القابليات والفاعليات والواقعيات في مسارحها .

وهنا من مواضع العقيدة - البارزة - عرضها عبر التاريخ الإنساني ككل ، في مجال الرحلة الإنسانية ابتداءً بالجنة الإبتلائية الدنيوية ، وانتهاءً إليها الأخروية لمن عمل لها ، عرضاً لموكب الإيمان الوضيء من لون آدم إلى محمد (عليهما السلام) .

رحلة طويلة للغاية ، تقطعها السورة مرحلياً في مقاطع عدة ، واقفة عند المواقف الرئيسية ، البارزة المعالم منها ، درساً عابراً لمعتبر ، تذكراً لمذكر .

ومن مواقفها الرئيسية المعرفية تبيان واقع أحكام الفطرة بصيغة الحوار : « ألسن بربكم قالوا بلى . . . » عبارة أخرى من آية الفطرة في الروم .

أعراف وأعراف ندرسها على ضوء الأعراف عقيدية وأحكامية ، آفاقية وأنفسية ، وذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد .

وملامح السورة تؤيد نزولها كما هي ، أم ولأقل تقدير أنها مؤلفة

سورة الأعراف / آية ١ - ٧ ٩

كسائر التأليف القرآني زمن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد كان يقرأها في صلواته^(١) .

آلَمْص

مقطع من الحروف المقطعة القرآنية ، التي هي برقيات رمزية خاصة بمهبط الوحي و « هي مفاتيح كنوز القرآن » لا نعرف منها معنى إلا ما عرفه الله لنا أو أهلوها المعصومون عليهم السلام ، ابتداء برأس الزاوية الرسولية ، وانتهاء إلى الزاوية الأخيرة الرسالية .

لقد قبلت في « آلَمْص » أقوال - كما في غيرها - وغيلت أغوال ، لا تستند إلى ركن وثيق ، وإذا عنت فيما تعنيه معاني بحساب حروف الأعداد^(٢) فليست فوضى جزاف أن يحسبها كل كما يحب ويهوى ، إنما

(١) الدر المنثور ٣ : ٦٧ - أخرج سمويه في فوائده عن زيد بن ثابت قال : كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقرأ في المغرب بطولي الطولين « المص » ، ومنه أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قرأ في المغرب بالأعراف في الركعتين جميعاً ، وأخرج البيهقي في سننه عن عائشة أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قرأ سورة الأعراف في صلاة المغرب فرقها في ركعتين .

(٢) نور الثقلين ٢ : ١ في معاني الأخبار بسند أبي رجل من بني أمية - وكان زنديقاً - جعفر بن محمد (عليه السلام) فقال له : قول الله : « آلَمْص » أي شيء أراد بهذا وأي شيء فيه من الحلال والحرام ، وأي شيء مما يتنفع به الناس ؟ قال : فاستغاث من ذلك جعفر بن محمد (عليه السلام) فقال : أمسك ويحك ! الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون كم معك ؟ فقال الرجل : مائة وإحدى وستون ، فقال له جعفر بن محمد (عليه السلام) فإذا انقضت سنة إحدى وستين ومائة ينقضي ملك أصحابك ، قال : « نظر فلما انقضت إحدى وستون ومائة عاشوراً دخل المسودة الكوفة وذهب ملكهم » أقول : هذا طرف من الطرف « المص » بحساب خاص وليس فوضى جزاف .

وعن تفسير القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن علي بن رثاب عن محمد بن قيس عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : إن حي بن أخطب وأبا ياسر بن أخطب ونفراً من اليهود من أهل نجران أتوا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالوا له : أليس تذكر أن فيما أنزل إليك « الم » ؟ قال : بلى ، قالوا : أتاك بها جبرئيل من عند الله ؟ قال : نعم ، قالوا لقد بعث الله أنبياء قبلك ما نعلم نبياً منهم ما مدة ملكه وما أكل أمته غيرك !

هي حسابات خاصة بين الله ورسول الوحي ورسالته .

وهنا « كتاب أنزل إليك » بعد « آلمص » مما تلمح أن المخاطب بها خصوص الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ثم « فلا يكن في صدرك حرج منه » تلميحاً أخرى أن « آلمص » تحمل - فيما تحمل - طمأنة لخاطره الشريف أنه ماضٍ في سبيله ، مجتازاً عقباتها وعقوباتها ، بفضل من الله ورحمته .

﴿ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾^٢

« آلمص » هو « كتاب أنزل إليك » وهذا القرآن « كتاب أنزل إليك » وقد يعني ماضي النزول في « هذا القرآن » نازل محكمه ليلة القدر ، إلى نازل تفصيله في مثلث الزمان ، تلحقاً لمستقبله بماضيه لتحقيق وقوعه كماضيه ، فنازل الثلاث من مراحل النزول يزيل عنه كل حرج ، وفي « آلمص » طمأنة رمزية بهذه البشارة السارة ، أم - فقط - نازل ماضيه حتى الآن حيث لا يكلف إنذاراً وذكرى إلا بما نزل بالفعل .

- قال : فأقبل حي بن أخطب على أصحابه فقال لهم : الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون فهذه إحدى وسبعون سنة فعجب ممن يدخل في دين مدة ملكه وأكل أمته إحدى وسبعون سنة ، قال : ثم أقبل على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال له يا محمد هل مع هذا غيره ؟ نعم ، قال : هات ، قال : « آلمص » قال : هذا أثقل وأطول ، الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون فهذا مائة وإحدى وستون سنة ، ثم قال لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هل مع هذا غيره ؟ قال : نعم ، قال : هات قال : « الر » قال : هذا أثقل وأطول ، الألف واحد واللام ثلاثون والراء مئتان فهل مع هذا غيره ؟ قال : نعم ، قال : هات قال « المر » قال : هذا أثقل وأطول ، الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مئتان ، قال : فهل مع هذا غيره ؟ قال : نعم قال : قد التبس علينا أمرك فما ندرى ما أعطيت ثم قاموا عنه ثم قال أبو ياسر لحي أخيه وما يدريك لعل محمداً قد جمع هذا كله وأكثر منه فقال أبو جعفر (عليه السلام) : « إن هذه الآيات أنزلت منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات وهي تجري في وجوه آخر على غير ما تأول به حي وأبو ياسر وأصحابه .

« فلا يكن في صدرك حرج منه » وترى بالإمكان كائن الضيق من نازل القرآن في صدره المنشرح بما شرحه الله قبل نزول القرآن ليأهل له ، ومنذ بزوغ نزول القرآن ؟ : « ألم نشرح لك صدرك » ! ، ولقد شرح الله صدره (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل نزول القرآن لينزل عليه منشرحاً ، وشرحه بهذا القرآن ما لم يكن يشرح بغيره ، فكيف « فلا يكن في صدرك حرج منه » تعني واقع ذلك الحرج ! .

هنا في مثلث الحرج المحتمل نفسياً ، وبلاغياً كأصل ، وبلاغياً أمام ردود الفعل من المنذرين ، لا موقع للحرج المنهي إلا الثالث فان « أنزل إليك » من ربك يُكَمِّئُهُ أنه وحي الرحمن وليس من وحي الشيطان أم خليط منهما ودخل من دَجَل حتى يتخرج في نفسه ، فقير النازل من الله يخرج في نفسه لمكان الخطأ . ف : « لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممتريين » (١٠ : ٩٤) ، « حرج منه لتنذر به » مهما كان « ذكرى للمؤمنين » دون أي حَرَج أو مَرَج .

ف « لتنذر به » هي ذات تعلقين ثانيهما « حرج منه » مهما كانت « وذكرى للمؤمنين » ذات تعلق واحد وهو « أنزل إليك » . ذكرى للمؤمنين .

وقد تحتمل « ذكرى للمؤمنين » كـ « لتنذر » أنها ذات تعلق ثان ، حيث الصعوبات في سبيل « ذكرى للمؤمنين » واقعة مهما كانت أقل من « لتنذر به » .

إذاً فـ « أنزل » - « لتنذر به وذكرى للمؤمنين » - « فلا يكن في صدرك حرج منه - لتنذر به وذكرى للمؤمنين » .

وترى ما هو دور « ذكرى للمؤمنين » وغيرهم أحوج منهم إلى ذكرى ، ثم وهو ذكرى للعالمين ؟ : « إن هو إلا ذكرى للعالمين » (٦ : ٩٠) .

« ذكرى » هنا هي كما « هدى للمتقين » تعني حاصلها ، فمن يتذكر بالذكرى ، أو يزداد ذكرى على ذكرى، فهو من المؤمنين، مهما اختلف إيمان

أول من إيمان ثان ، فالأول حالة الإيمان حيث يفتش عنه ، والثاني حالته بعد حالته حيث يزداد به ذكرى : « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » (٥١ : ٥٥) .

فطالما الإنذار شامل يخلق على كافة المكلفين ، ولكن لا دور للذكرى إلا لمن ألقى السمع وهو شهيد ف : « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » (٥٠ : ٣٧) فهو « هدى وذكرى لأولي الألباب » (٤٠ : ٥٤) .

فالذين كانت فيهم أجهزة الاستقبال للذكرى مفتوحة ، كان القرآن لهم ذكرى معروفة ، ثم الذين أغلقوا على أنفسهم هذه الأجهزة هو عليهم صمى : « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » (١٧ : ٨٢) .

فقد اختص الحرج المنهي عنه رفعاً أو دفعاً بما هو من قضايا الدعوة بملايساته أمام الناكرين ، ولا سيما القوم اللد الذين كان يعيشهم منذ بزوغها .

وصحيح أنه « ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له » (٣٣ : ٣٨) إلا أن ملايسات هذه الدعوة - الملية بالأشواك والأشلاء والعقبات - هي التي قد تخرج الداعية فتحوجه إلى إنشراح أكثر وإنفتاح أوفر في استقبال هذه الدعوة الملتوية .

ذلك ، لأن هذا الكتاب بتلك الدعوة الصارمة الصامدة ، صدعاً بما فيه من الحق ، ومواجهةً للمرسل إليهم بما لا يحبون ، ومجابهةً لعقائد وتقاليد ورباطات جاهلية ، ومعارضةً لنظم وأوضاع ، لذلك كله وما أشبه من ملايسات الدعوة ، ليست طبيعة حال الداعية فيها إلا حرج واقع ليس ليزول إلا بتصبر زائد ، وصمود حائد ، وتوفيق خاص من الله ، و« إن الله تعالى لما أنزل القرآن إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : إني أخشى أن يكذبني الناس ويلغفوا - يكسروا - رأسي ويتركوه كالحبزة

فأزال الله الخوف عنه بهذه الآية (١).

أم وخرج مستقبل في مستقبلات الدعوة عليه أن يطارده بتصبر وصبود بما وعده الله النصر : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » (٤٠ : ٥١) .

لذلك « فلا يكن في صدرك حرج منه » لأنه « كتاب أنزل إليك » من ربك ، فالذي أنزله إليك هو حاسب كل حساباته ، فخذ يا صاحب الدعوة الأخيرة مسيرك إلى مصيرك ، ولا تتحرج في مواقفك ، ولا تتخرج إلا موقفاً محبوراً ، فسروعين الله ترعاك .

وهنا « لا يكن » نهى عن أن يكون ، وليس نهياً عما هو كائن ، فقد تعني كما تعنيه « فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » (٢٠ : ١٦) في موسى ، وفي أضرابها لأضرابه من الدعاة الرساليين ، ويأخري في هذا الرسول : « ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له » (٣٣ : ٣٨) .

و « لأن أشركت ليحبطن عملك .. » وما أشبه ، إعلاناً جاهراً في هذه الإذاعة القرآنية ألا خمود ولا ركود ولا إرتجاع لهذه الداعية عن الدعوة ، فليحسب الأعداء والمتاجرون كل حساباتهم ، وليأسوا عن القضاء عليه بمختلف المكائد والمصائد .

ثم ولو كان هنا واقع لذلك الحرج - لو خلي الرسول وطبعه - فهو كما كان لموسى أمام الدعوة الفرعونية حيث « قال رب إشرح لي صدري .. » قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ، (٢٠ : ٣٦) والنهي عن هذا الحرج يعني الأمر بإزالته بما هو يسعى ، وما يرجوه من الله ، أم يعنيهما رفعاً ودفعاً ، رفعاً لما كان ، ودفعاً عما قد يكون من حرج في هذه السبيل الطويلة الملتوية الصعبة ، فلقد نازلوه بضربات هدامة وواصلوا الدعايات المحتمالة المتواصلة في تكذبية لحد كان ينوي أن يترك بعض ما أوحى الله

(١) نور الثقلين ٢ : ٤ في مجمع البيان وقد روي في الخبر أن الله ..

فتزلت : « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كتز أو جاء معه ملك » (١١ : ١٢) « ولقد تعلم أنه يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين » (١٥ : ٩٨) « ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون » (٢٧ : ٧٠) .

وفي الحق إن ذلك الحرج هو حجر عشرة لكل داعية إلا من عصمه الله وهده ، وقد أمر هذا الرسول العظيم بالصبر : « فاصبروا ما صبرك إلا بالله ولا تكن في ضيق مما يمكرون » (١٦ : ١٢٧) « والإستقامة » فاستقم كما أمرت ومن تاب معك » (١١ : ١١٢) .

فهذا « كتاب أنزل إليك .. لتتذبر به وذكرى للمؤمنين » « فلا يكن في صدرك حرج منه لتتذبر به وذكرى للمؤمنين » فاشدد شيمرك ، وتغاض عن إمرك في أمرك ، فلا يمنعك عنه أي مانع ، ولا يفت عضدك في صراعه أي رادع ، مير فعين الله يرعاك .

ذلك كما و « آلمص كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج » مما يلصح أن « المص » تحمل - فيما تحمل - طمأننة لخاطر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أن دعوته ماشية ماضية مهما كثرت العراقيل أمامها .

إذا ف « آلمص » وهذا القرآن « كتاب أنزل إليك من ربك » الذي ربك بالقمة الرسالية ، فلم يكن ليدعك وحدك تتواتر عليك الرزايا التي ترضك ، فالله ربك هو الذي ينصرك ويرضيك ويوهن منا وثيك .

« كتاب أنزل إليك .. لتتذبر به وذكرى - فلا يكن في صدرك حرج منه لتتذبر به وذكرى » فإنما هو الإنذار بالقرآن دون سواء ، حقاً لرسول القرآن ، إنذاراً بثابت الوحي الرباني .

فلا تجوز الدعوة الربانية إلا بعلم الوحي دون سائر العلم ، وذلك طليق للرسول وسائر المعصومين ، وهو قدر المستطاع لمن سواهم .

ذلك ، فليس الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وحده هو صاحب

المسؤولية في هذا الميدان ، وإنما هو المسؤول الأول ما كان حياً ، ثم الذين يحملون رسالته إلى يوم الدين ، طول الزمان وعرض المكان ، فإن الإسلام ليس حدثاً تاريخياً حصل مرة ثم مضى ، بل هو - قضية خلوده على مدار الزمن - مواجهة دائبة للمكلفين أين كانوا وأيان إلى يوم الدين ، وعلى حَمَلَة هذه الرسالة - معصومين وسواهم - مواصلة الدعوة الصابرة الصامدة أمام كافة الجاهليات، غابرة متأخرة ، وحاضرة متحضرة ، حركة متواصلة وسبجاً طويلاً لاستنقاذ البشرية من مستنقعات الجاهلية الجهلاء : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك » « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ... » (٢٩ : ٤٨) .

ولقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء ذلك الدين المثين ، وانتكست البشرية إلى جاهلية هي أعرق وأحمق من الجاهلية الأولى ، حيث شملت كل جوانب الحياة دون إبقاء ، فإنها جاهلية علمية علمانية متحضرة تخيل إلى المجاهيل أنها تقدمية بيضاء ، رغم أنها رجعية سوداء ، ضاربة أطنابها في كل أرجاء الأرض بكل جنابات الحياة ، فلا بد من كفاح صارم قادر المستطاع ، ويقدر ما اتسعت هذه الجاهلية في وجه الشرعة القرآنية بين أغارب وأقارب .

ولقد تكفي الدعوة القرآنية صدىً لكل الهجمات الجاهلية بكل معداتها المتحضرة فانه كتاب الخلود : « أو لم يكفهم أنا أنزلنا إليك الكتاب يتلى عليهم ... » ؟ .

ذلك ، وهنا حرج آخر داخل في النهي هو الحرج عما أنزل إليه إذا كان باطلاً أم خليطاً من الحق والباطل ، ولأنه « كتاب أنزل إليك » من ربك ، تأكيداً جاهراً أمام العالمين لكي يعلموا على علمه (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه كتاب لا يحرج الدعية في الدعوة .

فعصمة الداعية إلى عصمة مادة الدعوة هما يعصمانه عن أي خطأ قصوراً أو تقصيراً ، ثم عصمة الداعية عن أي تقصير ، على عدم عصمته عن قصور غير مقصر ، تعصمه عن كثير من الأخطاء .

فأما إذا كانت مادة الدعوة غير معصومة ، أم هي معصومة والداعية مقصر أو قاصر بتقصير ، فهناك الطامة الكبرى ، ولذلك نرى تأكيد الأمر بالشورى من الرعيل الأعلى لرباني الأمة : « وأمرهم شورى بينهم » حتى يُجبروا عدم العصمة للدعات غير المعصومين ، وهنا « للمصيب أجران وللمخطيء أجر واحد » إذا كان خطأ قضية عدم العصمة فقط ، دون الخطأ القاصر عن تقصير .

ففي مثلث الحرج لا يُعنى منه حرج صدره من الوحي ، بل هو حرج في الدعوة تأثيراً ، ولها مادة ، فإن مادة الدعوة معصومة ، والداعية في دعوته على عين الله ورعايته .

ثم المسؤولية في حقل الدعوة القرآنية نذارة وذكرى ، ليست - فحسب - على عواقب الدعاة ، والمدعوون عليهم مسؤولية الإقبال والتقبل لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى - إذاً ف :

﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون ﴾ (٣) .

هناك « كتاب أنزل إليك » أنت كداعية ، بعد ما يصنعك الكتاب كأفضل صنع في محط الدعوة ، وهنا « ما أنزل إليكم من ربكم » كمدعوين ، ونازل الكتاب بنفسه في أي من منازل ، هو بنفسه حجة لربانيته مصدراً ومصدوراً ، للداعية والمدعوين به ، حجة بالغة بنفسه دون حاجة إلى إثباتات أخرى وتأيدات ، فانه رأس زوايا الحجج الربانية على مدار الرسائل بأسرها .

فقضية إتباع الله - الأولى - هي إتباع ما أنزل إليكم من ربكم ، توحيداً عملياً بعد العقيدي منه .

وهنا « من دونه » قد تعني مع من دون الكتاب من دون الله ، لمكان « أولياء » فاتبعوا الرب فيما أنزله ولا تتبعوا من دون الرب رباً ، ولا من دون ما أنزله نازلاً ، من أولياء غير الله وغير كتاب الله .

إذا فاتباع من دونه بكتابه من أولياء عملياً يصطدم وعقيدة التوحيد ،
فإنها ليست - فقط - تصوراً قاحلاً عن مظاهر ، إنما هي حقيقة تحلق على
كل جنبات الحياة ظاهرة وباطنة .

فولاية الطاغوت وعبادته بكتابات لا تعني - فقط - تأليهها ، بل واتباع
أحكامها مهما خيل إليه أنه موحد لله لا يشرك به شيئاً قليلاً ما تذكرون ،
حق الإتياع في حقه حيث يخيل إلى مجاهيل أن العقيدة الصالحة هي
الكافية مهما تخلفت طقوس وأعمال عما يرسمه المعبود الحق .

ذلك « ففي إتياع ما جاءكم من الله الفوز العظيم وفي تركه الخطأ
المبين »^(١) .

وهنا « اتبعوا » يحلق على كافة الإتياعات بأسرها للشرعة القرآنية ،
علمية وعقيدية وعملية ودعائية ، قفوا على آثارها دون إبقاء ولا إستثناء .

فالولاية التوحيدية لله هي ولاية إتياعه في شرعته ككل أصولاً
وفروعاً ، دون تشطير البلد شطرين وأخذ العصا من جانبيين ، إكتفاءً في
ولاية الله بمتخيل العقيدة ، ثم الأعمال تابعة لسائر الأولياء « قليلاً ما
تذكرون » !

« قليلاً » تذكركم و « قليلاً » الذي تذكرونه من الحق ،
اعتباراً بعنايتي الموصول والموصوف في « ما » ومن قلة التذكر إتياع سائر
الحجج اللجج ، غامرة في التيه ، بعيدة عن هدي القرآن بما فيه ، فكل
مستند غير « ما أنزل إليكم من ربكم » خارجة عما أنزل الله ، داخلية في
« من دونه من أولياء » من إجماعات وشهرات وقياسات وإستحسانات
وإستصلاحات ، أما هو آت من غير « ما أنزل الله » ، كما وكل آله من دون
الله طاغوت .

فهؤلاء الذين يفتنون بغير ما أنزل الله أم ضده هم أولياء من دون الله ،

(١) نور الثقلين ٢ : ٤ في تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله
(عليه السلام) قال قال أمير المؤمنين في خطبته : قال الله : « اتبعوا ... » ففي إتياع ...

فاتباعهم خروج عن توحيد الله إلى الإشراك بالله أو الإلحاد في الله .

ولئن قيل : إذا فاتباع السنة فيما لا توافق القرآن ولا تخالفه ، هو أيضاً خروج عن التوحيد الحق ؟ ولا يستغنى عن السنة فيما لا نص له من الكتاب ! .

قيل : السنة القطعية هي أيضاً مما أنزل الله مهما كان على هامش الوحي القرآني ، فمما أنزل الله هو فرض طاعة رسول الله : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم . . » ولا تعني طاعة الرسول بعد طاعة الله إلا طاعته في سنته الجامعة غير المفترقة ، فلله الولاية الطليقة في كل حقولها ، وكتابه والرسول ولاية شرعية طليقة لأنهما من الله ، ثم لا ولاية طليقة بعد الله وكتابه ورسوله والرساليين المعصومين بعده .

إذا ف « ما أنزل إليكم من ربكم » تعم إلى نازل القرآن نازل السنة القطعية ، وإلا لكان صالح التعبير « اتبعوا الكتاب » فالنازل من ربكم هو واجب الإتياع من أصل الكتاب وفرع السنة ، دون شتات الروايات المخالفة للقرآن ، أم غير ثابتة الصدور .

ذلك ، فهذا السلب « ولا تتبعوا من دونه أولياء » بعد ذلك الإثبات « إتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم » يحصران الإتياع المسموح في شرعة الله بما أنزل الله ، المحصور في الكتاب والسنة القطعية ، تمثيلاً لكلمة « لا إله إلا الله » .

ثم « لا تتبعوا من دونه » : الله وكتابه الله ، « أولياء » تنفي أية ولاية ربانية عن سائر الأرباب وسائر الكتابات ، فكما أنه ولي المؤمنين ، كذلك - وبأمره - كتابه وليهم الوحيد بين الكتابات .

فهاهي قضية دين الله - الأساسية - إنه إما إتياع خالص لما أنزل الله إسلاماً - فقط - الله ، إفراداً له بالحاكمة الطليقة ، وإما إتياع الأولياء من دونه إلحاداً فيه ، أو إشراكاً به ، أم جعلاً للبلد شطرين : عواناً بين التوحيد والإشراك ، وهذا الثالث خارج عن إتياع ما أنزل الله ، داخل في إتياع من دونه من أولياء .

ولأن المحاولة ضخمة فخمة ، فقد يمضي السياق يهزُّ الضمائر ، ويوقظ السرائر ، ويرجُّ جِبِلَّات الأجيال الشاردة عن دين الله ، السادرة في الجاهلية رجاً عنيفاً ، عرضاً لمصارع الغابرين من المكذبين :

وهنا في خطبة لعلي (عليه السلام) معتبر لمعتبر ، تحذيراً عن ترك الإتياع لما أنزل الله :

« أما بعد فإن الله لم يقصم جباري دهر قط إلا بعد تمهيل ورخاء ، ولم يجبر عظم أحد من الأمم إلا بعد أزل وبلاء ، وفي دون ما استقبلتم من عتب ، وما استدبرتم من خطب معتبر ، وما كل ذي قلب بلييب ، ولا كل ذي سمع بسميع ، ولا كل ذي ناظر ببصير -

فيا عجباً ومالي لا أعجب من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها ، لا يقتصمون أثر نبي ، ولا يقتدون بعمل وصي ، ولا يؤمنون بغيب ، ولا يعفون عن عيب ، يعملون في الشبهات ، ويسировون في الشهوات ، المعروف فيهم ما عرفوا ، والمنكر عندهم ما أنكروا ، مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم ، وتعويلهم في المبهمات على آراءهم ، كأن كل إمرئ منهم إمام نفسه ، قد أخذ منها فيما يرى بعري ثقات ، وأسباب محكمات » (الخطبة ٨٧) .

وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : أنا أول وافد على العزيز الجبار يوم القيامة ، وكتابه وأهل بيته ثم أمتي ، ثم أسألهم ما فعلتم بكتاب الله وبأهل بيته ،^(١) .

والأمة الإسلامية برمتها شيعة وسنة تاركة للثقلين ، فإن حديث العترة دون سناد إلى الكتاب لا ثقل له ، وذلك سند أنه غير صادر عنهم .

و « القرآن غني لا غنى دونه ولا فقر بعده » و « القرآن أفضل شيء »

(١) جامع أحاديث الشيعة ١٥ : ٦ عن الكافي عن الباقر (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) :

دون الله ، فمن قرأ القرآن فقد قرأ الله ، ومن لم يقرأ القرآن فقد إستخف بحرمة الله^(١) ، و « حرمة القرآن على الله كحرمة الوالد على ولده »^(٢) .

وفي كتاب للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى بعض عماله على اليمن :

« فإن هذا القرآن حبل الله المتين ، فيه إقامة العدل وينابيع العلم وربيع القلوب »^(٣) (١ ، ٧) : أجل إنه حبل بين الله وخلقه ، متين لا ينقص ولا يفصم ، عصمة لمستعصمهم ، ومسكة لمستمسكهم ، وهو ينابيع العلم ، الينابيع المعرفية المتفجرة ، من عيونه الجارية ، رياً لكل غليل ، وشفاء لكل عليل ، وهو ربيع القلوب الواعية الراحية ، حيث تنفع بتدبير آياته ، وتأمل بيناته .

ف « تعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب ، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور ، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص ، فإن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله ، بل الحجة عليه أعظم ، والحسرة له ألزم ، وهو عند الله أوم »^(٤) .

و « عدد درج الجنة عدد أي القرآن فإذا دخل صاحب القرآن الجنة قيل له : إقرأ وإقرأ ، لكل آية درجة فلا تكون فوق حافظ القرآن درجة »^(٥) .

(١) المصدر ٧ عن المجمع ١ : ١٥ - أنس بن مالك عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

(٢) المصدر ٧ جامع الأخبار عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ورواه الشيخ أبو الفتوح في تفسيره عن أبي الدرداء عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) مثله .

(٣) المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي ١٤١ .

وفيه عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول الله عز وجل : يا حملة القرآن تحبوا إلى الله تعالى بتوقير كتابه يزدكم حياً ويحببكم إلى خلقه .

(٤) المصدر (٨) عن نهج البلاغة (٣٣٠) في خطبة له (عليه السلام) .

(٥) المصدر ١٦ - البحار ٩٢ : ٢٢ كتاب الإمامة والتبصرة بسند مفصل عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ...

« من قرأ القرآن فكأنما أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى إليه » (١) .

« تعلموا القرآن واقرؤه واعلموا أنه كائن لكم ذكراً وذخراً ، وكائن عليكم وزراً ، فاتبعوا القرآن ولا يتبعنكم ، فإنه من تبع القرآن تهجم به على رياض الجنة ، ومن تبعه القرآن رُج في قفاه حتى يقذفه في جهنم » (٢) .

وعنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : « من قرأ ثلث القرآن أوتي ثلث النبوة ، ومن قرأ نصف القرآن أوتي نصف النبوة ، ومن قرأ القرآن كله أوتي النبوة كلها ثم يقال له يوم القيامة : اقرأ وارق ، بكل آية درجة حتى يختم ما معه من القرآن ، ثم يقال له : إقبض فيقبض فيقال له : هل تدري ما في يديك ؟ وإذا في يده اليمنى الخلد وفي الأخرى النعيم » (٣) .

ولا تعني هذه القراءة قراءة فاضية عن المعرفة والتطبيق ، بل هي الفائضة بمعرفة وتطبيق ، « ولكل درجات مما عملوا وما ربك بظلام للعبيد » .

« إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا مأدبته ما استطعتم ، وإن أصفر البيوت لجوف أصفر من كتاب الله تعالى » (٤) .

فالمأدبة - ضمّاً - هي الطعام (٥) وهي فتحاً مفعلة من

(١) المصدر ١٧ - مجمع البيان ١ : ١٦ عن علي (عليه السلام) انه قال : ...

(٢) المصدر ١٠ - ابن أبي الجهمور في در اللثالي عن أبي موسى قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ...

(٣) تفسير الكشف والبيان للثعلبي رواه عن أبي أمامة عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) : ...

(٤) أمالي الصدوق المرتضى (١ : ٣٥٤) عن نافع عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : إن هذا القرآن ...

(٥) فالمأدبة في كلام العرب هي الطعام يصنعه الرجل ويدعو الناس إليه ، فشبه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ما يكسبه الإنسان من خير القرآن ونفعه وعائدته عليه إذا قرأه ودرس

الأدب^(١) فقد أنزل الله القرآن طعاماً للأرواح ، وأدباً لها ربانياً ، لا طعام لها أطمع ، ولا أدب لها أمدب من هذا القرآن ، والتاء في الوجهين هي للمبالغة ، حيث تعني بالغ الطعام والأدب في القرآن للأرواح .

لذلك « وإن أصفر البيوت لجوف أصفر من كتاب الله تعالى » و « أصفر » هي تفضيل الصفر وهو الخالي .

إذاً فأخلى البيوت وأجوفها من الأثاث هو الجوف الأصفر من كتاب الله من الأساس ، مهما امتلأ مما سواه من علوم هي بجانب القرآن مخاطبة الحلوم .

والهرطقة الغافلة ، الغائلة : إن القرآن لا يفهم إلا بالرواية، معروضة عرض، الحائط لمخالفتها بيان القرآن التبيان ، إضافة إلى كرور الآيات أنه « بيان للناس » .

فليس باب تفهم القرآن مقفلة على الناس ، وإنما هي مقفلة مغفلة فمقفلة لمن لا يتدبرون القرآن : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » (٤٧ : ٢٤) بأغفالها وإغفالها ، تحريجاً على الذين يحاولون تفهم القرآن ، فتخريجاً له عن حوزته .

وما بيان المعصومين (عليهم السلام) لآيات مسؤول عنها ، إلا للقاصرين عما يسألون إفهاماً ، أو المقصرين إفحاماً، دون أهل القرآن العائشين إياه حياتهم .

وليس تفسيرهم (عليهم السلام) إلا سناداً إلى لفظية الدلالات المسؤول عنها قصوراً أو تقصيراً .

= ما فيه ، بما يناله المدعو من طعام الداعي وانتفاعه به ، يقال : أدب الرجل يأدب فهو أدب ، إذا دعى الناس إلى طعامه ، ويقال للمأدبة المدعاة .

(١) المأدبة من الأدب فقد أنزل الله القرآن تأديباً للمكلفين بأداب الله ، وتاء المأدبة على الوجهين للمبالغة .

إذا فنكران أن القرآن في الأصل بيان وتبيان نكران لمعجزة الفصاحة والبلاغة القرآنية ، بل ونكران لهما عادياً من الناس العاديين ! .

ولا يعني الحظر عن تفسير القرآن بالرأي في « من فسر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار » حظره عن كل مناهج التفسير ، تعطيلاً له عن صالح التدبر والتفكير فيه ، إنما هو تفسير خاص « بالرأي » أن تعتقد في رأي أنه صالح ، تقليداً أو اجتهاداً ، ثم تستند إلى القرآن لتثبيت رأيك ، الذي يخالف نصه أو ظاهره ، أم لا يوافق نصاً منه أو ظاهراً ، فانهما تفسير له بالرأي .

وأما تفسيره بنفسه وبالروايات والنظرات التي توافقه ، وبالفطرة السليمة والعقلية الصالحة ، والحس السليم ، فكل ذلك مجبور في حقل التفسير دون أي محذور .

وما تفسير « من فسر القرآن برأيه » بتعطيل القرآن عن التفكير فيه ، إلا تفسيراً لهذا الحديث نفسه بالرأي ، فليتبوء مقعد مفسره هكذا من النار .

وهل يقبل أي تفسير للقرآن إلا بالعقلية السليمة ، أم هل يقبل الحديث إلا بالعقل الذي يقبله تفسيراً للقرآن ؟ ! وليس العقل بالفطرة السليمة إلا ذريعة للحصول على مرادات الله من كلامه ، دون تحميل عليه وتوجيه ، إلا توجيه نفسه بصورة صالحة صادقة للكشف عن معاني القرآن بذريعة اللغة الصالحة والأدب الأديب الأريب ، وتفكير صالح في هذه السبيل .

وكما اللغة لا تحتمل على القرآن ، كذلك العقل ، وإنما هما كاشفان عما يراد من آيات الله البينات .

وكما أن خالص التوحيد هو طليق السلب : « لا إله » ومن ثم صالح الإثبات هو : « إلا الله » براحلة العقل والفطرة ، كذلك خالص التفسير ليس إلا سلب كافة التقديرات والمحتملات المسبقة ، ومن ثم الإثبات

براحلة الفطرة والعقلية السليمتين واللغة والأدب السليمين ، وصالح التدبر في القرآن .

هؤلاء الخارفون الهارفون يقصدون من وراء ذلك التفسير لحديث الرأي نفي روح القرآن عن أمته ، واختصاص تفسير القرآن بأرائهم ، كما عملته الكنائس في القرون الوسطى فحظروا تفسير الإنجيل على الأمة المسيحية حتى يفسح لهم مجالات التحريف والتجديف في تفسيره بأرائهم وشهواتهم .

وهنا المانعون عن تفسير القرآن فريقان اثنان ، فريق يمنع عنه نفياً له من أمته عن بكرته تحت نقاب تقديسه ، وآخرون هم مانعون لكي يفسح لهم مجال - دون منازع - لتفسيره بأرائهم فقهياً أو فلسفياً أو علمياً وما أشبه .

وهكذا أصبحت الأمة الإسلامية بعيدة عن روح القرآن ، ناحية منحى تفاسير مختلفة بأراء خاطئة .

ذلك ، وهذا القرآن مصون عن كل تحريف وتجديف بعصمة ربانية مضمونة طول الزمان وعرض المكان ، فأياته الـ / ٦٦٦٠ / وكلماته الـ / ٦٦٦٠٠ ، هما نفس العدد طول التاريخ الإسلامي دون زيادة أو نقصان وان في حرف أو نقطة أو إعراب أو مكان كل ، وهذه الكلمات لها سير تصاعدي سنوي منذ البعثة حتى ارتحال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وذلك السير منظم منضد نجده في تصاعد / ٥٠٠ كلمة سنوياً ، فمثله مثل الشمس في اشراقته التصاعدية ، فقد أشرقت آياته البينات بهذه الصورة على قلوب المكلفين .

﴿ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون ﴾ .

إن أتعس البأس هو الجائي علي غفلة آمنة « بياتاً » في أمن الليل نوماً أم رياحة أخرى « أو هم قائلون » نوماً نصف النهار : « أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون . أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا

ضحى وهم يلعبون » (٧ : ٩٨) .

و « قرية » - خلاف ما يزعم - هي المجتمع ، وتسمية مكان الاجتماع بـ « قرية » هي من باب المجاز دون العكس ، وهنا « أهلكتناها » دون « أهلكتناهم » لرعاية أنوثة اللفظ : « قرية » ثم « أو هم قائلون » رعاية لذكورة المعنى ، وما أجمله جمعاً بين قضية اللفظ والمعنى في عبارة واحدة ، وفيه عناية المعنى من القرية . أنها هم دون مكانهم ، إلا مجازياً . إضافة إلى أن الهلاك يشملهم وأماكنهم فد « تلك بيوتهم خاوية بما ظلموا .. » .

وترى كيف « فجاءها بأسنا » بعد « أهلكتناها » وليس الإهلاك إلا بالأس ؟ عل « فجاءها » تفريع بيان لكيفية الإهلاك ، أم وتعني « أهلكتناها » - مع ما عنت - قضاء الإهلاك بما افتعلوا « فجاءها بأسنا » أم وثالث هو أمره تعالى بهلاكهم عقيدياً وعملياً إذناً تكوينياً ، وعدم التوفيق لإيمانهم من باب « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » - « وقبضنا لهم قرناء فزينوا ما بين أيديهم وما خلفهم » - « إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا » .

وعل مثلث المعنى معني حيث يوافق أدب اللفظ والمعنى والله أعلم بما يوعون .

﴿ فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين ﴾ (٥) .

فطالما كانوا هم في رغد العيش والأمن لا يعترفون بظلمهم ، فهم « إذا جاءهم بأسنا » ليست لهم دعوى أمام بأس الله إلا الاعتراف : « إنا كنا ظالمين » عل الله يعفو أو يخفف عنهم بأسه ، ولكن لا مناص عن بأس الله إذا جاء ، فقد فات يوم خلاص فلات حين مناص ، حيث الإيمان عند رؤية البأس لا يقع موقع القبول إذ لا واقع له إلا الفرار عن بأس الله : « فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر

هنالك الكافرون » (٤٠ : ٨٥) .

وهكذا تأخذ السنة الإلهية من الظالمين دعواهم « إنا كنا ظالمين » حيث لم يكونوا ليعترفوا بظلمهم في غمرات الشهوات ، ويا له من موقف مُذهل مُرعب مُرجف حيث أقصى الدعاوي فيه هو ذلك الإعراف بالظلم .

ذلك ، وإن مصارع الغابرين المعروضة في مصارع الذكر الحكيم ، إنها خير منذر ومذكر ، والقرآن يستصحبها في المجالات المؤاتية لها كمؤثرات موحية ومطرقات موقظة للهائمين في ورطات الشهوات والغفلات .

هنا معرض الهلاك في الأولى ، وإذا بالسياق يتقل وينقل معه السامعين إلى مشهد الآخرة ، شريطة موصولة المشاهد حيث تضم الآخرة إلى الأولى ، متخطية طول الزمان وعرض المكان ، ومُلحقة عذاب الآخرة إلى الأولى ، ولا ينبئك مثل خبير : تشهيراً بهم على الملأ الحاشد في ذلك اليوم المشهود الشاهد :

﴿ فلنسالن الذين أرسل إليهم ولنسالن المرسلين ﴾^(٦) .

فالرسل والمرسل إليهم هناك مسؤولون في موقف الإستجواب ، ولكن الرسل يُسألون سؤال تقرير وتغريب وتعزير ، والمرسل إليهم يسألون سؤال تأنيب وتبكيك وتنكير ، اللهم إلا من وفى لرعاية الحق منهم : « فوريك لنسالنهم أجمعين . عما كانوا يعملون » (١٥ : ٩٣) وهو سؤال إستفهام دون استفهام .

فقد يسأل المرسلون - من الجنة والناس والملائكة - ماذا أجبتهم : « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتهم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب » (٥ : ١٠٩) وكما يسألون عن تأدية رسالاتهم^(١) ، ويسأل

(١) البدر المنثور ٣ : ٦٨ - أخرج أحمد عن معاوية بن حيدة أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : إن ربي داعي وإنه سألني هل بلغت عبادي وإني قاتل : رب إني ..

المرسل إليهم - وهم كافة المكلفين من الجنة والناس وسواهما - عما أجابوا الرسل ، لا جهلاً عما كانوا يعملون ، وإنما إستحصلاً لما في الصدور حتى يقرؤا بأنفسهم بما كانوا يعملون .

هنا سؤال المرسلين يجمع إلى تغيير لهم وتعزيز تقريراً في ذلك المشهد أنهم بلغوا رسالات ربهم دونما قصور أو تقصير ، فهو لهم إحترام زائد ولمن تخلفوا عنهم إخترام بائد .

ثم وفي وجه شمول « المرسلين » كافة الدعاة المسؤولين، تنديد بمن قصر منهم في بلاغ الدعوة الربانية ، ثم الله هو الذي يقص كلما حصل : ﴿ فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ﴾^(٧) .

قص رباني لأعمالهم وأحوالهم « بعلم » سابق سابغ إذ « ما كنا غائبين » ف : « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ (٤٥ : ٢٩) .

وذلك القص هو مربعة الجهات والجنيات ، هي^١ : قص رباني دون وسيط ،^٢ وبوسيط الأعضاء^٣ والأرض^٤ وسائر الشهداء من النبيين والملائكة الكرام الكاتبين ، ولكي تكمل الشهادة ويفرق المشهود عليهم في غمراتها فلا يجدوا سبيلاً لنكران .

= بلغتهم فليبلغ الشاهد الغائب ، ثم انكم تَدْعُونَ مقدمه أفواهكم بالفدام إنَّ أول ما يبين عن أحدكم لفخذه وكفه ، وفيه أخرج البخاري ومسلم والترمذي وابن مردويه عن ابن عمر قال قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالإمام يُسأل عن الناس والرجل يسأل عن أهله والمرأة تسأل عن بيت زوجها والعبد يسأل عن مال سيده ، وفيه أخرج ابن حبان وأبو نعيم عن أنس أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : إن الله سائل كل راع عما استرعاه أحفظ ذلك أم ضيعه حتى يسأل الرجل عن أهل بيته ، وفيه أخرج الطبراني في الأوسط بسند صحيح عن أنس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فاعدوا للمسائل جواباً قالوا : وما جوابها ؟ قال : أعمال البر ، وفيه أخرج الطبراني في الكبير عن المقدام سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : لا يكون رجل على قوم إلا جاء يقدمهم يوم القيامة بين يديه راية يحملها وهم يتبعونه فيسأل عنهم ويسألون عنه .

وهنا « عليهم » تعم المرسل إليهم إلى المرسلين ، قصاً بعلم لما فعل الرسل وما فعل المرسل إليهم ، قص غامر هامر لا يبغي ولا يذر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها : « ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » (١٨ : ٤٩) .

ولماذا هنا « قص » بديلاً عن « إنباء - أو - إخبار » ؟ لأن أخبار الرسل والمرسل إليهم ليست كلها تنبأ ، إنما هي مواضع المسؤولية حيث تقص قصاً عن كل ما حصل ، وكما يقص القرآن أنباء ما قد سلف دون عرض لكل ما حصل .

وهنا موازات بين المسؤول عنه وبين المقصود ، فكل ما يُسأل عنه يُقص ، وكلما يُقص فهو مسؤول عنه ، وقد يشمل السؤال والقص كافة المسؤوليات الفردية والجماعية وكما في حديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » (١) .

فـ « الذين أرسل إليهم » يشمل كافة المكلفين ، معروفين لدينا ومجهولين ، من الجنة والناس ومن سواهم من المسؤولين أجمعين ، كما « المرسلين » تشمل إلى رسل الإنس الرسل الملائكية والجنية ، ومن ثم كل المكلفين بالدعوة الرسالية من علماء ربانيين وأمرين وناهين ، وأية داعية راعية ، فقد تشملهم كلهم « المرسلين » ، فلا تجد مكلفاً يوم الدنيا إلا وهو مسؤول يوم الدين دون إبقاء ولا إبطاء : « وقفوهم إنهم مسؤولون » (٣٧ : ٢٤) .

ذلك ، ولأن الحشر يعم كافة ذوات الحياة وكما في آية الأنعام : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون » (٦ : ٣٨) فمثنى المسؤولية تشملهم يوم الدين ، مهما اختلفت درجاتها .

وهنا السؤال العام لا يناحر هناك عدم السؤال : « فيوميذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان » (٥٥ : ٣٩) حيث السلب يعني سؤال الإستفهام إذ

« يُعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام » ثم الإيجاب بين سؤال استجهاً أو إستفحام أو استعظام ، تقديرًا لطالِح ما كان ، وتقديرًا لصالحه في ذلك الحشد الحشر العام .

وليس هناك - فقط - تساؤلات ، وإنما يلحقها الوزن ، ، فما هو ذلك الوزن ؟ هل هو وزن الأبدان والأموال والتشخيصات المدعاة ، أم ووزن الأنساب والأسباب وسائر الروابط المتخلفة عن الضوابط ؟
أما هيه من أوزان من موازين الأرض ومقاييس أهلها المخلدين إليها ؟ كلا ! :

وَالْوِزْنَ بُيُوتِنَا لِمَن نَّشَاءُ

مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ① وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ
فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ
② وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ
قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ③ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا
لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ
مِنَ السَّاجِدِينَ ④ قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا
خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ⑤ قَالَ فَاهْبِطْ
مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ

الصَّاعِرِينَ ⑩ قَالَ نَظِرْنَا إِلَىٰ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ⑪ قَالَ إِنَّكَ
 مِنَ الْمُنْظَرِينَ ⑫ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي خَلَا فَعُدَّنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ
 الْمُسْتَقِيمَ ⑬ ثُمَّ لَا يَبْتَلِيهِمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
 وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ
 ⑭ قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ
 لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ⑮ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ
 وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ
 الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ⑯ فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ
 لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا
 رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ
 أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ⑰ وَقَا سَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٌ
 ⑱ فَدَلَسَهُمَا يَفْرِوْرٌ فَلَمَّا ذَاكَ الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا

وَهَلِفَ قَائِمًا خَصِيفًا نَ عَلَيْهِ حَامِرٌ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا
 رَبُّهُمَا أَلَمْ آتِيَهُمَا عَنْ لِكَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَكُمَا إِنَّا شَاطِئَانُ
 لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٣٦﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنَّ لَنَا
 تَغْفِرَ لَنَا وَتَرْحُمَنَا لَكَ كُنَّا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَا أَهْبِطُوا
 بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ
 ﴿٣٨﴾ قَالَا فِيهَا نَحْيُونَ وَفِيهَا نَمُوتُونَ وَمِنْهَا نَخْرُجُونَ ﴿٣٩﴾

مركز تحقيق كتاب توير علوم اسلامی

﴿ والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾^(٨)
 ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا
 يظلمون ﴿٩﴾ .

«الوزن يومئذ الحق» .

وهل الوزن هنا الموازن أو الميزان أو الموزون أم نفس الوزن
 مصدراً ؟ ثم الحق هل هو المعنى من «حق» أو «الحق» الله ، أم
 «الحق» المعروف من الله على العباد ؟ .

هنا احتمالات بضرب مثلث الحق المحتمل على الوزن فهي اثنا
 عشرة .

والصحيح منها أن « الوزن » هنا هو الميزان، حيث « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً » (٢١ : ٤٧) ثم الحق أن « الحق » هنا هو الثالث من احتمالاته ، حيث هو « القسط » في آية الأنبياء ، كما « الوزن » هنا هو الموازين هناك .

والتعبير عن الميزان بالوزن عنايةً إلى حق الميزان ، إنه خليصه دون خليطه ، فكأنه هو الوزن بعينه لا يشوبه شائب غير الوزن .

كما وأن « الحق » هو خالص الحق المرغوب غير المشوب ، إذًا فالحق الحقيقي بالإتباع من الله هو الميزان .

« فمن ثقلت موازينه » جمع الموزون ، لا الميزان ، حيث الموازين هذه توزن وتقاس بالوزن الحق القسط .

ثم الحق أن « الحق » خبر لمحذوف معروف هو « هو » والجملة - على تنكرها أدبياً - خبر لـ « الوزن » فلا تصلح « يومئذ » وما أشبه خبراً لـ « الوزن » ، ولو كان « الحق » خبراً لـ « الوزن » بنفسه لكان الصحيح أدبياً « حق » ثم لا يتم المعنى حيث يعني أن « الوزن حق » ثابت لا حول عنه ، وأما ما هو ذلك الوزن فلا خبر عنه اللهم إلا « هو الحق » الخالص غير الكالس ، الفالس .

ولأن الخسران في التعارف إنما هو النقص في الائمان ، وهو يخص الأموال لا النفوس ، فذكر الموازين هنا بثقلها وخفتها ، إنما هو بمناسبة الخسران ليكون الكلام متفقاً وقصص الحال متطابقاً ، فكأنه تعالى جعل نفوسهم لهم بمنزلة العروض المملوكة إذ كانوا يوصفون بأنهم يملكون أنفسهم كما يوصفون بأنهم يملكون أموالهم ، وذكر خسرانهم لها لأنهم عرضوها للخسار والبوار فوجبوا لها عذاب النار جهنم يصلونها ويشس القرا ، فقد تجاوزوا حد الخسران في الائمان إلى حد الخسران في الأعيان .

ووجه آخر هو أن الوزن لا يختص بالاثقال الجسمانية ، بل هو في الروحيات أوزن ، فالخسران فيها أخسر ، والربح أمتن ، فالحق - إذاً - أن «الوزن يومئذ الحق» .

وليس «الحق» هنا هو الله ، إذ لو كان هو الميزان للموازن لم يك وزن لأحد حتى يوزن به ، إضافة إلى أن ميزانية الله نفسه لموازن العباد ظلم بهم عظيم ، إذ لا يستطيع أحد أن يشابهه في أي شأن من شؤونه ! .

ولا هو «حق» حيث القصد تعريف الوزن : ما هو ؟ لا تثبت أصله دون معرفة بكيانه ، ثم «فمن ثقلت موازينه» تفرعاً على «الحق» لا دور له إلا بعد معرفة الحق بكيانه ، لا التأكد منه بكونه ، مع أنه حق لا فقط «يومئذ» بل في كل الأيام .

كما وليس «الوزن» هو الوزن مصدرياً حيث المصدر ليس هو «الحق» الواقع الموجود ، فإنما يخبر «الحق» عن واقع وهو هنا «الميزان» ، وليس هو الموزون حيث لا يوزن الموزون بالموزون .

فصالح المعنى الوحيد إذاً أن «الوزن» : الميزان - هو «الحق» المقرر من الله لعباده ، وحيّاً كأصل ، ورسولاً كمصدق واقعي عملي للوحي ، وكما تعنيه «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة» فالموازن هي الوزن هنا ، كما القسط هو الحق هنا ، فـ : «الوزن الموازين» هو «الحق القسط» فلأن الموازين - جمع الموزون - عدة ، كذلك الموازين - جمع الميزان - عدة ، عدة بعيدة ولا يظلمون نقيراً .

وكما الحق ليس هو صاحب الصالحات الموزونة ، كذلك ليس هو الوزن ، فإنما هو الحق علماً وعقيدة ونية وعملاً صالحاً وحالاً وقالاً^(١) .
والوزن الحق هنا وهناك هو كتاب الله وهو رسول الله المتمثل في

(١) في البحار ٧ : ٢٤٤ : «مثل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عما يوزن يوم القيامة ؟ فقال : الصحف ، أقول : ولا تعني الصحف إلا الأعمال بأوصافها حيث تقاس بالحق والقسط .

أقواله وأفعاله وأحواله كتاب الله^(١) ، وقد يروى عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) : « أنا ميزان العلم و علي كفتاه »^(٢) ، فقد يوزن الرسل بكتب السوحي ، وتوزن الأمم بهما ، دونما تخلف عن حق الله قيد شعرة^(٣) .

وليس الأعمال توزن بسائر الموازين روحية وجسمية^(٤) إنما هو قسطاس الحق من الله ، « فإذا أردت أن تعلم أصادق أنت أم كاذب فانظر في قصد معنك وغور دعواك وغيرهما بقسطاس من الله عز وجل كأنك في القيامة قال الله تعالى : « والوزن يومئذ الحق » فإذا اعتدل معنك بدعواك ثبت لك الصديق »^(٥) .

ذلك و « الموازين » هي جمع الميزان حقاً وقسطاً في آية الأنبياء : ما يوزن به ، أو الموزون كما في آيتنا ، وهي العلوم الربانية والعقائد والنيات والأقوال والأعمال الصالحة ، فهي في صيغة جامعة « الحسنات » فقد يوزن بها بوزن « الحق » فيها ، فكلما كانت أقرب إلى الحق المرام فهي أثقل ، وكلما كانت عنه أغرب فهي أخف وأسفل ، حتى تكون خاوية عن الحق عن

(١) في المعاني بإسناده عن المنقري عن هشام بن سالم قال : سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل : « ونضع الموازين القسط .. » قال : هم الأنبياء والأوصياء .

(٢) ملحقات إحقى الحق ٩ : ٢٠٩ و ١٨ : ٤١٧ و ١٣ : ٧٩ - ٨٠ .

(٣) تجد تفاصيل البحث حول الوزن والموازين في آيات الأنبياء والمؤمنون والقارة والكهف ، فراجع إلى مجالاتها في الفرقان .

(٤) نور الثقلين ٢ : ٥ في كتاب الإحتجاج للطبرسي عن أبي عبد الله (عليه السلام) حديث طويل وفيه : « قال السائل : أو ليس توزن الأعمال ؟ قال (عليه السلام) : لا - لأن الأعمال ليست بأجسام وإنما هي صفة ما عملوا ، وإنما يحتاج إلى وزن الشيء من جهل عدد الأشياء ولا يعرف ثقلها وخفتها وإن الله لا يخفى عليه شيء ، قال : فما معنى الميزان ؟ قال : العدل ، قال : فما معناه في كتابه « فمن ثقلت موازينه ؟ قال : فمن رجع عمله .

(٥) مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام) في كلام طويل : فإذا أردت ، وفي الخصال عن محمد بن موسى قال سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول : إن الخير ثقل على أهل الدنيا على قدر ثقله في موازينهم يوم القيامة وإن الشر خف على أهل الدنيا على قدر خفته في موازينهم يوم القيامة .

بكرته فهناك خفة الموازين عن بكرتها ، وبينهما عوان كما ولكل ميزان درجات ، وهذه الآية وأضرابها تتحدث عن محض الإيمان محضاً أو محض الكفر محضاً ، ثم العوان بينهما عوان في الإفلاح والإفلاج^(١) .

وأثقل الثقل في الميزان هو التوحيد الحق وحق التوحيد^(٢) ، كما أن أسفل السفل هو الإشراف بالله .

ولأن الموازين : الحسنات ، تعم الظاهر إلى الباطن والباطن إلى الظاهر ، فثقلها يعمهما : « فمن كان ظاهره أرجح من باطنه خف ميزانه يوم القيامة ، ومن كان باطنه أرجح من ظاهره ثقل ميزانه يوم القيامة »^(٣) والقصد من الرجحان الثاني ما يترك به الرئاء، وإلا فالمساوات بين الظاهر والباطن هي القصد والعدل .

ذلك، وفي مختلف الموازين بين أصحابها يقول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : « يوزن يوم القيامة مداد العلماء ومداء الشهداء فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء »^(٤) ولأن مدادهم هو الذي يمد المناصلين إلى خطوط النار بما وعوا منهم من آحاد الإيمان .

(١) الدر المنثور : ٧١ - أخرج أبو الشيخ عن جابر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « يوضع الميزان يوم القيامة فيوزن الحسنات والسيئات فمن رجحت حسناته على سيئاته دخل الجنة ومن رجحت سيئاته على حسناته دخل النار » أقول : قد ينالها « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً » وإن الحسنات هي ثقل الميزان والسيئات هي خفتها ، اللهم يتأويل أن الجامع بين الحسنات والسيئات له الموازنة بينهما دون أن يعني وزن السيئات .

(٢) المصدر أخرج الطبراني عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « والذي نفسي بيده لو جيء بالسموات والأرض ومن فيهن وما بينهن وما تحتهن فوضعن في كفة الميزان ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى لرجحت بهن . »

(٣) الدر المنثور ٣ : ٧١ - أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) : ...

(٤) المصدر أخرج المهرمي في فضل العلم عن عمران بن حصين قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ...

فالعلماء هنا هم الربانيون بما استُحفظوا من كتاب الله ، الذين تمتد علومهم إلى صحائف الصدور وسواها ، ومن حصائلها في ذلك المد المديد معرفة غالية عالية للممدود إليهم الذين يضحون بأنفسهم في سبيل الله ، إذا فمداد العلماء هو حقاً أفضل وأوزن من دماء الشهداء ، فأما إذا اجتمع العلم والشهادة فنور على نور ، ثم العلم غير الممدود والشهادة الخالية عن شروطها المعرفية والشرعية ، أو الجهل وعدم الشهادة ، فهي أضلاع أخرى بعد صالح العلم والشهادة ليست بذلك النمط المرموق .

ولأن « الوزن يومئذ الحق » ونصنع الموازين القسط « إذا فلا وزن للباطل ، وإنما يقام الوزن للحسنات ، ثم لا وزن للسيئات فإنها خفة الميزان ^(١) : « ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم » ومنهم الأخسرون أعمالاً : « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقاءه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً » (١٨ : ١٠٥) .

ثم لكل ميزان وزن يخصه ، فميزان التوحيد هو التوحيد الحق ، وميزان الصلاة هي الصلاة الحقة ، وهكذا كل ميزان بوزنه وكل وزن

(١) في التوحيد بإسناده عن أبي معمر السعداني عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في حديث قال : وأما قوله « فمن ثقلت موازنه وخفت موازينه » فلإنما يعني : الحسنات توزن الحسنات والسيئات ، فالحسنات ثقل الميزان والسيئات خفة الميزان . وفي الكافي بإسناده عن سعيد بن المسيب عن علي بن الحسين (عليهما السلام) فيما كان يعظ به قال : ثم رجع بالقول من الله في الكتاب على أهل المعاصي والذنوب فقال عز وجل : « ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين » فان قلت أيها الناس إن الله عز وجل إنما عني بها أهل الشرك فكيف ذلك ؟ وهو يقول : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كانت مثقال حبة من خردل أثينا بها وكفى بنا حاسبين » فاعلموا عباد الله أن أهل الشرك لا تنصب لهم الموازين ولا تنشر لهم الدواوين وإنما يحشرون إلى جهنم زمراً وإنما نصب الموازين ونشر الدواوين لأهل الإسلام - الخبر .

بميزانه ، ويجمع الكل « الحق - و - القسط » .

« فمن ثقلت موازينه « المؤاتية للحق والقسط « فأولئك هم المفلحون » في الآخرة كما أفلحوا في الأولى ، حيث يفلحون عقبات وعقوبات وصعوبات في الأخرى بثقل موازينهم التي هي أثقل من كل ثقل ، فلا تبقى عقبة إلا وهم يجتازونها ، فقد ربحوا أنفسهم دون خسران .

« ومن خفت موازينه « وهي كل موازينه ، إذ لا موازين له حسنات « فأولئك الذين خسروا أنفسهم « بكل موازينها « بما كانوا بآياتنا « آفاقية وأنفسية « يظلمون » : « ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون » (٢٣ : ١٠٣) .

ولأن الخسران في التعارف المتعود هو النقص في أثمان المبيعات وليست منها النفوس ، فالإتيان به لها قد يعني مناسبة « الموازين » في عرصات الحساب ليكون الكلام متفقاً ، وقصص الحال متطابقاً ، فكأنه تعالى جعل نفوسهم لهم بمنزلة العروض المملوكة ، إذ كانوا يوصفون بأنهم يملكون نفوسهم كما يملكون أموالهم ، وقد عرضوا أنفسهم بكل نفائسهم للخسار ، وأوجبوا لها البوار وعذاب النار « جهنم يصلونها وبئس القرار » ، فصارت في حكم العروض المتلفة ، وتجاوزوا حد الخسران في الأثمان إلى حد الخسران في الأعيان .

ويتعبير أعمق هو أليق بحق الكلام لله الملك العلام نقول : كل إنسان يملك نفسه بما ملكه الله إياه ، وعلى ضوئه يملك ما سواها ، ثم جعل في مختبر الحياة الدنيا ومتجرها لكي يتاجر بكل ما لديه من نفس ونفيس ليحصل على ما هو أنفس من النفس والنفيس ، بثقل الموازين بعد خفتها ، ولكنه باع نفسه بالأركس الأدنى وبقي صفر اليد عن كل نفسه ونفيسه ، خفيفاً عن كافة الموازين المعطاة والمكتسبة ، فقد خلق في أحسن تقويم ، وقرر له حسب مستواه أن يضيف تقويم كيانه إلى تقويم كونه ، ولكنه رد نفسه إلى أسفل سائلين « فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما

كانوا بآياتنا يظلمون» - «... في جهنم خالدون» وذلك من أخسر الخسران : «قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة» (٣٩ : ١٥) .

﴿ خسروا أنفسهم ﴾ .

«أنفسهم» هنا هي حق «أنفسهم» وهي فطرهم ، وعقولهم التي عليها أن تبني فطرهم ، وحواسهم التي هي بطبيعة الحال تتبع عقولهم وفطرهم .

فالخاسر نفسه هو الذي ضل عنها متغافلاً متجاهلاً ، فهو - إذا - خاسر ربه ، فإن «من عرف نفسه فقد عرف ربه» وخاسر - كذلك - حياته الإنسانية التي خلق لأجلها ، فقد وجد نفسه حيواناً سرشاً حرصاً على الحيوانات والشهوات ، فهو منغمس فيها ، تارك ما تعنيه الفطرة والعقلية السليمة من عنايات إنسانية على ضوء عنايات ربانية .

أجل فالخاسر نفسه خاسر كل موازين الإنسانية عن بكرتها ، والواجد نفسه واجد لموازينها في مجالتها الواسعة الفاسحة ، فاحصة عما يجعلها وزينة متينة ، فخسران النفس هو أساس كل خسران ووجدانها هو أساس كل وجدان .

ذلك ، فلنجد المسير إلى مصير الحق ليكون لنا وزناً و«إني أحذركم ونفسي هذه المنزلة ، فليتنفع امرؤ بنفسه ، فإنما البصير من سمع فتفكر ، ونظر فأبصر ، وانتفع بالعبر . ثم سلك جديداً واضحاً يتجنب فيه الصرعة في المهاوي ، والضلال في المغاوي ، ولا يعين على نفسه الغواية بتعسف في حق ، أو تحريف في نطق ، أو تخوف من صلق» .

فأفق أيها السامع من سكرتك ، واستيقظ من غفلتك ، واختصر من عجلتك ، وأنعم الفكر فيما جاءك على لسان النبي الأمي (صلى الله عليه وآله وسلم) مما لا بد منه ، ولا محيص عنه ، وخالف من خالف ذلك إلى غيره ، ودعه وما رضي لنفسه ، وضّع فخرك ، واحطط كبرك ، واذكر

قبرك ، فإن عليه ممرك ، وكما تدين ثدان ، وكما تزرع تحصد ، وما قدمت اليوم يقدم عليك غداً ، فامهد لقدمك ، وقدم ليومك ، فالحذر الحذر أيها المستمع ، والجذ الجذ أيها الغافل « ولا ينبئك مثل خبير » - إن من عزائم الله في الذكر الحكيم التي عليها يشب ويعاقب ، ولها يرضى ويسخط ، أنه لا ينفع عبداً - وإن أجهد نفسه وأخلص فعله - أن تخرج من الدنيا لاقياً ربه بخصلة من هذه الخصال لم يتب منها : أن يشرك بالله فيما افترض عليه من عبادته ، أو يشفي غيظه بهلاك نفس ، أو يُغر بأمر فعله غيره ، أو يستنجد حاجة بإظهار بدعة في دينه ، أو يلقي الناس بوجهين ، أو يمشي فيهم بلسانين ، أعقل ذلك فإن المثل دليل على شبهه . . » (الخطبة ١٥٢) .

فيا « عباد الله ! زنوا أنفسكم من قبل أن توزنوا ، وحاسبوها من قبل أن تحاسبوا ، وتنفسوا قبل ضيق الخناق ، وانقادوا قبل عنف السياق ، وإعلموا أنه من لم يعن على نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر لم يكن له عن غيرها زاجر ولا واعظ » (الخطبة ٨٩) .

« هنا عرض للرحلة الإنسانية الكبرى منذ البداية حتى النهاية ، مزودة برحمت ربانية مفاضة عليها ، دون إختصاص بأمر دون أخرى ، فلإنما الإنسانية ككل هي المخاطبة بهذه الخطابات المَنونة الحنونة ، المننحة بها لتخلفها عما فرض الله لصالحتها :

﴿ ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش قليلاً ما تشكرون ﴾ (١٠) .

.. إنها مقرة صالحة لهذا الجنس البشري بكل ما يصلحه ويصلح له من الحيوية الروحية وسواها إسكاناً وتمكيناً مكيناً متيناً أميناً في ذلك المهد المهيد غير الوهيد ، بمعاش كاصلح ما يكون ، ولكن « قليلاً ما تشكرون » ربكم بذلك الإسكان والتمكين وتلك المعاش ، حيث التمكين يعني إلى الإسكان - مكاناً - مكانة الإقدار والتسليط ، بل هو أمكن من الإسكان ، فكما لكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين » (٢ : ٣٦) كذلك « هو

الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً (٢ : ٢٩) .

وقد يعني « مكناكم في الأرض » إلى هذه الأرض وسائر الأرضين السبع، أرض الجنة التي أسكن فيها آدم وزوجه ، و « كم » إعتباراً بأنهما الأصل الأول ، الحامل لكل الأنسال الإنسانية ، وسائر سكتة سائر الأرضين المكلفين كما لمحت لهم آية الطلاق « ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن » .

فـ « قليلاً ما تشكرون » في الدور الأول لآدم الأول ، ثم « قليلاً ما تشكرون » لما بعد من أدوار الأنسال في هذه الأرض البلية الإختبار بالإختيار ، كما و « قليلاً ما تشكرون » لسائر المكلفين الساكنين في سائر الأرضين .

فليس ذلك التمكين - فقط - تمكين المكان ، بل والمكانة الحيوية المعاشة بتمكين كل الموافقات التي تسمح بحياة الإنسان عليها ، تمكينات متصلة فيها بما أودع الله لها من موافقات وخصائص ، وأخرى منفصلة بفصائل خاصة قاصدة بينها وبين الشمس والقمر وسائر الأنجم ، ودورها حول الشمس كدوران الشمس ، وميلها على محورها ، وسرعة خاصة لهما في ذلك التداور ، وإلى كافة التمكينات في كرتنا الأرضية التي إن تعدوها لا تحصوها « قليلاً ما تشكرون » !

لقد مكن الله أبويننا الأولين في الأرض ، ثم مكن ويُمكّن نُطفنا في قرار الرحم المكين : « ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه في قرار مكين » (٨١ : ٢٠) ثم التمكين العام رحمانياً لكل الأجنة في قرار الأرض ، ثم تمكينات خاصة رحيمياً لعباد بدرجاته على درجاتهم ؛ « أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجيى إليه ثمرات كل شيء » (٢٨ : ٥٧) وإلى تمكين ومكانة عامة : « وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم » (٢٤ : ٥٥) .

وهنا تصورات سخيفة تصور الكون عدواً للكائن الإنساني ، وتصوّر

كل تعرف للكون وانتفاع منه تسخيراً له في صراع بينه وبين الإنسان ؟ ولكنه صراع بين الإنسان ونفسه ، أو سعي في سبيل الانتفاع مما سخر الله له ، وأما الكون نفسه فـ : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » (٦٧ : ٣) .

فلو كانت النواميس الكونية معاكسة للإنسان فيما يمكنه ، ودون إرادة مدبرة له كما يزعمون ، ما نشأ هذا الإنسان في الأصل ، ولما استطاع أن يمضي قدماً في حياة ، لو أنه وجد دون تلك الإرادة الربانية ، أم أوجد دون حكمة عالية ، ولكنه بما أعد الله ومكنه في الأرض يتعامل مع الكون تعاملًا عاقلاً عادلاً ويشكر الله على ما منحه ومكنه ولكن « قليلاً ما تشكرون » .

ومن هذه القلة القليلة العليلة غير الشاكرة مأساة الوجودية الكبرى في هذه الصورة الجاهلة البائسة اليائسة ، أن الكون بكل ثقله الساحق يسعى إلى سحق هذا الكائن الإنساني ومحقه .

ذلك التصور الخائن الخاطيء عن هذا الكون المكين المتين تجاه الإنسان المخلوق في أحسن تقويم ، الذي ينشئ - فيما ينشئ - حالة من الإنزواء والإلتواء والمدمية والإنكماش ، أو حالة فردية تمردية تنمردية مستهترة ، نشراً في التيه بما فيه من الهلكة والإنهيار ! .

كلّا ! إن الإنسان هو ابن هذه الأرض المستعمر هو فيها فـ : « هو الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب » (١١ : ٦١) و « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل خلق عليم » (٢ : ٢٩) .

فالأرض بنفسها موطئة مؤاتية مطيعة لاستعمارها العادل ، ولكن المستعمرين الظالمين في صراع الاستعمار الغاشم هم الذين يخلقون جو الصراع والظلم والضييم في تطاولاتهم على الأرض وأهلها ، فـ « قليلاً ما تشكرون » تصوراً عن الحياة ، وتعاملًا مع أرض الحياة وعرضها ،

بِعَرْضِهَا ، وتعاملًا مع أحياء الأرض وإحياءها ، ومواجهة لخالق الأرض ومن عليها .

ذلك ، ومن الذكريات المخجلة له « قليلًا ما تشكرون » بداية العصيان من أبونا الأولين الذين مكنهما جتته ، واسجد له ملائكته ثم نهامًا عن الشجرة فعصياه بإغواء الشيطان :

﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾ (١١) .

من الأكيد أن « قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » كان قبل « خلقناكم . . » كمجموعة، فكيف تأخر هنا في هذا العرض العريض ؟ .

أفكان عرضاً مشوشاً خلاف واقع الترتيب ؟ وهو مشوش من التأويل يمس من كرامة القرآن الرتيب الأديب فوق القمم كلها في الأدب الأريب ! .

قد تعني « خلقناكم » بما خلق أبونا الأولين حيث كنا ذراً هناك ، وكما « وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون » (٣٦ : ٤١) بوجه الذرية الصحيح أنها هناك من إضافة الشيء إلى نفسه باعتبارين : حملناهم وهم ذرية في أصلاب وأرحام الآباء والأمهات المحملين في الفلك المشحون ، وكما تشهد له : « وأنا لم طفئ الماء حملناكم في الجارية » (٦٩ : ١١) .

فهنا « خلقناكم » بما خلّقنا في صلب آدم وترائب زوجته « ثم صورناكم » تصويراً بدائياً إنسانياً هو الصورة الأولى الإنسانية ، ثم : « النطفة » وما أشبه من سابقتها .

وعلى القصد من جمعية الخلق والتصوير هنا هو التلميح بأن سجود الملائكة لآدم بمعناه الصالح لم يكن - فقط - حرمة لشخصه الشخيص ، ومن ذريته من هم أعلى منه محتداً وأهليه لذلك الإحترام ، كالمعصومين المحمدين (عليهم السلام) الذين لم يكونوا يتركون الأولى بجانب الله فضلاً عن عصيان .

ذلك ، وبوجه آخر ضمّنه يلمح بالترتيب الثلاثي خلقاً وتصويراً ومن ثم حرمة السجدة الملائكية لهذا الإنسان المخلوق في أحسن تقويم ، والقصد هنا إلى الصورة الإنسانية الكاملة الواصلة إلى أحسن تقويم كيانا على ضوء شرعة الله بعدما هو أحسن تقويم كوناً بفضل خلق الله إياه .

فالكيان الإنساني المتكامل على ضوء الفطرة والعقلية السليمة والوحي ، هو الكيان المسجود له بملائكة الله ، ولا تعني « أسجدوا لآدم » - كما فصلناه في آيات البقرة - إلا سجدة الشكر لله بما خلق آدم معلماً لهم ومريباً ، وليست سجدة الحرمة لآدم نفسه ، فضلاً عن سجدة العبودية ، حيث التسوية بالله محرمة في شرعة الله : « تالله إن كنا لفي ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين » (٢٦ : ٩٨) .

وقد يتأيد كون المسجود له احتراماً هو الإنسانية دون شخص خاص هو الأول ، أن إبليس يهددهم أجمع بعدما دحر بتخلفه عن السجود لآدم : « لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً » (١٧ : ٦٢) « قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين » (١٥ : ٣٩) وهنا « فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم . . . » ، ولولا أن السجود كان لهم أجمعين بصورة إنسانية كاملة، لما هددهم بما هددهم أجمعين .

وكما أن خلق آدم كان خلقاً لنا أجمعين ، كذلك السجود له هو سجود لنا أجمعين ، اللهم من رد إلى أسفل سافلين ، فانما هو سجود الإحترام بساحة الإنسانية الكبرى ، ولا سيما أهل بيت الرسالة المحمدية كما يقول الإمام علي (عليه السلام) : « وأودعنا في صلبه وأمر الملائكة بالسجود له لكوننا في صلبه » (١) .

ولقد جاءت قصة آدم وإبليس بحذافيرها جملة أو تفصيلاً في سبعة مواطن : هنا وفي البقرة والحجر وبني إسرائيل والكهف وطه وص ، والقول الفصل حولها آت وقد مضى في البقرة فلا نعيد هنا ، اللهم إلا ميزات تختص بها هذه الآيات :

﴿ قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ (١٢) .

« ما منعك » تلمح بأن طبيعة الحال وقضية المجال كانت السجدة دونما فتور ، حيث الأمر هو الله المولى والمأمورن هم ذلك الحشد العظيم بمن فيهم إبليس ، المولى عليهم ربهم .

فلا بد - إذاً - من مانع هو أقوى من دافع ، كما هو قضية الحال في كل عصيان .

« قال أنا خير منه » فكيف يسجد « خير منه » لمن هو أدنى ؟ إذ « خلقتني من نار وخلقته من طين » ! والنار خير من الطين في كافة الفاعليات مهما كان الطين - عله - خيراً منها في قابليات ، ولكنها أيضاً على ضوء فاعليات النار حيث تفعل آثارها فيه فتنبت منه نباتاً وحيواناً وإنساناً .

ذلك ولكنه أخطأ في بعدين بعيدين ، ثانيهما أنه رد على الله بذلك البرهان ! وكأنه غافل عما خلق أو جاهل به ، أم هو ظالم في تقديم المفضل على الفاصل ، وكل ذلك إلحاد بل هو أنحس من الإلحاد في الله والإشراك بالله ، ولذلك استحق الدحر أبد الأبدين ، كما وأنه أخطأ في أصل البرهان (١) .

(١) وتقريراً لقياس إبليس يقال : إن النار مشرق علوي لطيف خفيف حار يابس مجاور لجواهر السماوات ملاصق لها ، والطين مظلم سفلي كثيف ثقيل بارد يابس بعيد عن مجاورة السماوات -

والنار قوية التأثير والفعل ، والإرض ليس لها إلا القبول والإنفعال والفعل أشرف من الإنفعال -

والنار مناسبة للحرارة الغريزية وهي مادة الحياة ، وأما الأرضية والبرد واليبس فهي تناسب الموت والحياة أشرف من الموت -

ونضج الثمار متعلق بالحرارة ومن النمو من النبات لما كان وقت كمال الحرارة كان غاية كمال الحيوان حاصلاً في هذين الوقتين ، وأما وقت الشيخوخة فهو وقت البرد واليبس =

حيث نظر إلى فعليته النارية ولم ينظر إلى نورانية ذلك التراب فعلية وقابلية ، « ولو قاس نورية آدم بنورية النار عرف فصل ما بين النورين وصفا أحدهما على الآخر » ^(١) ، وحتى لو كان هو خيراً منه ، فخير منهما ومن كل خير هو إتباع أمر الله ، وكما أمرنا بالسجود نحو الكعبة ولا ريب أن من الساجدين من هم أفضل من الكعبة المباركة .

فقد خَلَقْنَا بما خَلَقَ آدم من تراب هيكلاً ترايباً إنسانياً ، ثم صَوَّرْنَا بما صور آدم بالصورة الإنسانية جسمانياً ، ثم بما صور به بالصورة نفسياً .

فلنا خلق وتصوير إجماليان هما في خلق آدم وتصويره ، ثم خلق وتصوير تفصيليان هما في خلقنا أنسلاً متتابعة ، والقصد هنا من « خلقناكم ثم صورناكم » هو الأولان ، لمكان « ثم قلنا للملائكة أسجدوا لآدم .. » إذ لم يأت ذلك الأمر إلا بعد خلق آدم وقبل خلقنا تفصيلاً ، وقد يعنيهما هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة .. « (٢٣ : ٦٧) » .

فطبيق التسليم لرب العالمين لا يعرف حكمة وبرهنة حاضرة معروفة ، حيث القرض تخطئة كافة الحكم والعلل المناحرة لأمر الله ونهيه

المناسب للأرضية ، لا جرم كان هذا الوقت أردأ أوقات عمر الإنسان .

هذه أركان قياس إبليس المرتكبة كلها على الظاهر الحاضر ، ولكنه غفل عن واقع هذا الكائن الطيني انه أشرف من الملائكة فضلاً عن الجن .

(١) نور الثقلين ٢ : ٦ في الملل دخل أبو حنيفة على أبي عبد الله (عليه السلام) فقال له يا أبا حنيفة بلغني أنك تقيس ؟ قال : نعم أنا أقيس ، قال : لا تقس فإن أول من قاس إبليس حين قال : « خلقتني من نار وخلقته من طين » فقام ما بين النار والطين . . . ، وفيه أصول الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : إن إبليس قاس نفسه بآدم فقال « خلقتني من نار وخلقته من طين » فلو قاس الجوهر الذي خلق منه آدم بالنار كان ذلك أكثر نوراً وضياءً من النار .

وفي الدر المنثور ٣ : ٧٢ - أخرج أبو نعيم في الحلية والديلمي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده (عليهم السلام) أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : أول من قاس أمر الدين برأيه إبليس . . قال جعفر فمن قاس أمر الدين برأيه قرنه الله تعالى يوم القيامة بإبليس لأنه أتبعه بالقياس .

إذ نجهل كثيراً وهو يعلمه ، وخير برهان للحق هو أمر الله ونهيه .

وشر عصبية هي التي لا تعني أصلاً مهما كان باطلاً يعرف له هذا السبب :

فـ « انظروا إلى ما في هذه الأفعال من قمة نواجم الفخر ، وقدر طوالع الكبر ، ولقد نظرت فأوجدت أحداً من العالمين يتعصب لشيء من الأشياء إلا عن علة تحتمل تمويه الجهلاء ، أو حجة تليط بعقول السفهاء غيركم ، فإنكم تتعصبون لأمر ما يُعرف له سبب ولا علة ، أما إبليس فتعصب على آدم لأصله ، وطعن عليه في خلقته فقال : أنا ناري وأنت طيني -

وأما الأغنياء من مُترَفه الأمم ، فتعصبوا لأثار مواقع النعم فقالوا : نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين » فإن كان لا بد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال ، ومحامد الأفعال ، ومحاسن الأمور التي تفاضلت فيها المُجداء والنُجداء ، من بيوتات العرب ، وعاسيب القبائل ، بالأخلاق الرغبية ، والأحلام العظيمة ، والأخطار الجليلة ، والآثار المحمودة ، فتعصبوا لخلال الحمد . . . (الخطبة : ١٩٠) .

هنا « ما منعك ألا تسجد » وفي « ص » : « ما منعك أن تسجد » (٧٥) ولم يكن التنديد إلا بواحدة منهما فكيف التوفيق ؟ إضافة إلى أنه لم يمنعه شيء عن عدم السجود حيث المنع عن عدمه واقع لمكان واقعه وهو تاركه ! .

« ما منعك » تعني مانع السجود ، فـ « أن تسجد » هو الممنوع هنا : عن أن تسجد ، و « ألا تسجد » هي نتيجة المنع عنه دون « عن » فإن « أن » هنا مفسرة وهناك مصدرية ، فهما - إذاً - عبارتان عن معنى واحد إياً كانت العبارة عنه .

فـ « ما منعك » هنا يعني عن السجود ، ثم « ألا تسجد » بيان لنتيجة المنع عن السجود فـ « ما منعك عن السجود ألا تسجد » .

ومن الضوابط المستفادة هنا أن الأمر يفيد الوجوب فوراً ، فلولا الوجوب هنا لما صح تنديد ، ولولا الفور فلماذا فور التنديد ، فهذه طبيعة حال أمر المولى أنه يفيد فور الوجوب ، اللهم إلا أن تدل قرينة قاطعة على خلافه .

ثم وفي نظرة واقعية إلى طبيعة الأمر والنهي - بعد الدلالة القرآنية - نجد الإيجاب الطليق والمنع الطليق ، اللهم إلا بقرينة قاطعة تقطع طبيعة الدلالة إلى سواها .

ثم « إذ أمرتك » تصريحاً قاطعاً أنه كان تحت الأمر بصورة خاصة مع عموم الملائكة ، فلا يرد أنه « كان من الجن » فلا يشمل أمر الملائكة ، أو أنه أمر مرتين ثانيتهما في جمع الملائكة اعتباراً بأنه كان محسوباً منهم لمشاركته إياهم في مظاهر الأعمال الصالحة في الملأ الأعلى .

فلقد ورطه الاستكبار إلى سحق العذاب ومحيق المآب ، فهذا إبليس « اعترضته الحمية فافتخر على آدم بخلقه ، وتعصب عليه لأصله ، فعدو الله إمام المتعصبين ، وسلف المستكبرين الذي وضع أساس العصبية ، ونازع الله رداء الجبرية ، وأدّرع لباس التعزُّر ، وخلع قناع التذلل ، ألا ترون كيف صغره الله بتكبره ، ووضعه بترفعه ، فجعله في الدنيا مدحوراً ، واعدّ له في الآخرة سعيراً » (١) .

و « إن أول معصية ظهرت الأنانية من إبليس اللعين حين أمر الله تعالى ذكره ملائكته بالسجود لآدم وأبى اللعين أن يسجد ، فقال الله عز وجل : « ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » فطرده الله عز وجل عن جوار رحمة ولعنه وسماه رجيماً وأقسم بعزته لا يقيس أحد في دينه إلا قرنه مع عدوه إبليس في أسفل درك من النار » (٢) .

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٩٠ / ١ / ٣٥٦ ، وفي نور الثقلين ٢ : ٦ في علل الشرائع عن جعفر بن محمد (عليهما السلام) .

(٢) نور الثقلين ٢ : ٦ في علل الشرائع .

ذلك ، ومن الإبلّاس التأويلات القليلة لأحكام الله حسب الأهواء ، كهؤلاء الذين يؤولون أوامر أو نواهي لا يرون تأكيداتنا إلى أخلاقيات ، وكأنها كلها من راجحات دون واجبات ، فمن واجبات أخلاقية تحقيق الواجبات ومن محرماتها إقتراف محرمات ، وحتى لو انحصرت الأخلاقيات في غير الملزمات سلبية أو إيجابية ، لم يبرر حمل أوامر ونواهي - دون برهان - على هذه الراجحات ! .

ذلك فلما هبط إبليس بما عصى واستكبر أهبطه الله من دار كرامته إلى دار البلية ف :

﴿ قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين ﴾ (١٣) .

« فاهبط منها » بما هبطت فأحبطت ما قدّمت « فما يكون لك أن تتكبر فيها » : الجنة ، وهي دار الكرامة للمكرمين الصالحين « فاخرج » مع الأبد « إنك من الصاغرين » المخرجين الهابطين الخابطين الذي يستكبرون عليّ إلى يوم الدين . و « الصاغر » هو الدنيء الرذيل .

ك « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (٩ : ٢٩) والعالون يقابلونهم : « أستكبرت أم كنت من العالين » فقد استكبر صاغراً ولم يكن من العالين المكرمين ، أم ومن العالين على آدم ولم يكن .

« فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس إذ أحبط عمله الطويل وجُهدته الجهد ، وكان قد عبد الله ستة آلاف سنة لا يُدرى أمن سنّي الدنيا أم من سنّي الآخرة ، عن كبر ساعة واحدة ، فمن ذا بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته ، كلا ما كان الله سبحانه ليدخل الجنة بشراً بأمر أخرج به منها ملكاً ، إن حكمه في أهل السماء وأهل الأرض لواحد ، وما بين الله وبين أحد من خلقه هوادة في إباحة جمى حرّمه على العالمين » (١) .

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٩٠ / ١ / ٣٥٨ ، أقول « ملكاً » فيها لإبليس ليس باعتبار جنسه واصله ، إنما هو باعتبار محتده الملائكي في عياده وكما أدخله الله فيهم فيما أمر « إذ قلنا =

وترى « فيها » تختص حرمة الاستكبار على الله بالجنة ؟ فلا تحرم في غيرها ! إنها تحرمه إلى المكانة مكاناً في الجنة ، أن المحرم ليس ليؤتى به في ذلك المكان مهما كان محظوراً ككل ، فإن للمكان دخلاً في غلظ التحريم .

ثم ترى ذلك الهبوط هو من جزاء ذلك العصيان ؟ فكيف أهبط معه آدم وزوجه وقد تابا ! إنه من جزاء العصيان مهما كان أكد جزاء لمن لم يتب ، أم إنه طبيعة الحال لمن عصى تاب أم لم يتب ، قضية مكانة خاصة لهذه الجنة ، والتائبون داخلون جنتي البرزخية والأخرى قضية الإمتحان هنا ، والنجاح فيه هناك .

﴿ قال أنظرنى إلى يوم يبعثون ﴾^(١٤) قال إنك من المنظرين ﴿^(١٥) .

لقد تطلب إنظاره « إلى يوم يبعثون » لمواصلة إضلاله ، فأنظره الله ، لا إكراماً له وإجابة لدعائه ، وإنما إملاءً له بمتين كيده ، وإملاءً لعباده في دار الاختيار الاختبار .

وتراه أنظر إلى ما نظر واستنظر ؟ قد تلمح لعتته إلى يوم الدين إلى تحقق ما نظر، وهو المعنى - إذا - من يوم الوقت المعلوم : « قال فاخرج منها فانك رجيم . وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين . قال رب أنظرنى إلى يوم يبعثون . قال فانك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم » (١٥ : ٣٨) فلعتته إلى يوم الدين قبل إستنظاره إليه دليل إنظاره قبله ، فإن مديد اللعنة هو قضية مديد الإنظار على سواء ، وحديث إنظاره إلى يوم المهدي (ع)

= للملائكة ، ولكنه « كان من الجن ففسق عن أمر ربه » .

وفيه « ولو أراد الله أن يخلق آدم من نور يخطف الأبصار ضيائه ، ويهر العقول رواؤه وطيب يأخذ الأنفاس عُرْفَه لفعل ، ولو فعل لظلت له الأعناق خاضعة ، ولخفت البلوى فيه على الملائكة ، ولكن الله سبحانه يتلى خلقه ببعض ما يجهلون أصله ، تمييزاً بالاختبار لهم ، ونفياً للإستكبار عنهم ، وإبعاداً للخلياء منهم -

فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس ، إذ أحبط عمله الطويل وجهده الجهد ، وكان قد

عبد الله ستة آلاف سنة . . . (الخطبة ١٩٠ / / ٣٥٦) .

مأول بختام ثورته وفورته، قضية حق الدولة ودولة الحق التي لا تفسح له مجالاً كما كان ، حيث يضعف ساعده ويقل مساعده .

لكن هنا «يوم الوقت المعلوم» لا يعني «يوم يبعثون» إستثناء له عن الموت في قيامة الإمامة ، إنما هو إنظار إلى هذه القيامة الأولى حيث يموت مع كل من يموت، ثم يُبعث مع سائر المبعوثين ، فلم تُرد إجابته في إنظاره إلى «يوم يبعثون» إنما هو «إلى يوم الوقت المعلوم» وهو قيامة التدمير قبل قيامة التعمير^(١) كما ولعنته إلى يوم الدين تعني حتى قيامة الإمامة ، أم مع قيامة الإحياء حتى الأبد ، اللهم إلا في حالة الصقعة حيث لا يشعر فيها لعنة .

ثم في تبديل «يوم يبعثون» بـ «يوم الوقت المعلوم» وأنه ليس ممن شاء الله من المعنيين بـ «ونفخ في الصور فصعق من في السماوات والأرض إلا من شاء الله» ، (٣٩ : ٦٨) تلميحة أخرى باهرة أنه لم يُنظر إلى يوم الدين الإحياء ، بل هو إلى آخر زمن التكليف ، ولأن الإنظار إلى يوم الإحياء إحترام كما لمن شاء الله حيث يبعث حياً ، وهو إلى يوم قيامة الإمامة بلاء واخترام ، ثم الغاية من ذلك الإنظار هو تداوم الإضلال ولا مورد له بين الصقعتين ، فإن من دون المعصومين الأكارم مصقعون ، وهؤلاء المخلصون ليس له عليهم من سلطان ، فما هي الجدوى لإنظاره - إذاً - إلى يوم الدين ؟ إلا حياء .

ثم «المنظرين» قد تعم - إلى الإنظار المتصل للشيطان حيث يستمر حياً - الإنظار المتسلسل في حلقات مستتالية لسائر شياطين الجن والإنس ، كلما مات منهم شيطان أو شياطين ناب عنه شيطان أو شياطين ، أم هو إنظار جماعي لكل شياطين الجن أو بعضهم وهم حملة مشاكل الشيطنة ، حيث الإنظار المتسلسل ينعم شياطين الإنس، والقصد من «انظرنى» و«من المنظرين» هو الإنظار المتسلسل ، دون المتسلسل .

(١) لواسع الإطلاع على ذلك الإنظار راجع تفسير آية الحجرج ١٤ ص ١٨٠ من الفرقان .

﴿ قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ^(١٦) ثم لا تينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ ^(١٧) .

لقد نكد اللعين حينما نفذ جوار الرحمة ، ودخل بوار الزحمة ، فنسب غوايته إلى الله ، أم قد يعني من هذه النسبة أنه تعالى إبتلاه بما أغواه وأهواه ، وهو معترض على الله بما إبتلاه ! .

« قال .. لأقعدن لهم صراطك المستقيم » كحارس على مدخل الصراط ، حارص على الإغواء عن الصراط ، حارث للغواية إلى حزبه ، وهذه الحراسة لعنة ورحمة ، لعنة كما يعنيه إبليس ويحققه من إضلال المتطرقين للصراط المستقيم ، ورحمة لا يعنيها وهي إخلاص الوافدين إلى الله ، أن يغدوا إليه بمطاردة اللعين ، وكافة الأهواء الحاجبة بينهم وبين الله ، إذاً « فأعطاه النظرة استحقاقاً للسُّخطة ، وإستتماماً للبلية ، وإنجازاً للعدة فقال : إنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم » ^(١) .

وقد تلمح « لهم » لما لم يقصده من الرحمة ، ولما قصده من الزحمة إظهاراً لها بمظهر الرحمة، حيث يزين لهم موقفه من « الصراط المستقيم » فإنه يزين لهم الباطل حتى يروه حقاً ، وكما وعد : « قال ربّ بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين » (٢٩ : ١٥) وكان اللعين يعني بمكره هذا وإغوائه عدراً جزاءً لإغوائه من الله، رغم أن إغوائه عدل وإغواء الشيطان ظلم .

وعلى أية حال فقد كان قعوده على الصراط المستقيم لهم في ظاهر التصميم قصداً حيث يتظاهر به ، ثم هو في الصميم دون قصد ، وهو يخفي عنهم أنه قاعد الصراط المستقيم عليهم ، فلذلك قال « لهم » دون « عليهم » .

(١) نهج البلاغة من الخطبة القاصعة للإمام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) وقد أوردناها بتفسيرها في ج ١٤ ص ١٧٢ من الفرقان فراجع .

ومن أخطر ما يقعد لنا الصراط المستقيم ما يخيّل إلينا في الصلاة من وجدان ما نفقده حالتها ، حيث يزين لنا التفكير فيها لما هو خارج عنها حتى نحصل على بُغية لنا عزيزة فنحفظوه زاعمين أن الصلاة هي مجاله صالحة للحصول على ضالّاتنا المنشودة ، وكيف نعمل حتى نحصل على هذه الضالّات ؟ إنه يخيّل بيننا وبينها فترة مترقبة ، فيزول حجابها من هذا البين ، فيتبين لنا ما خفي عنا بحجابها هو ، فإننا نطلع على كثير من الحقائق لولا الحجب بيننا وبينها ، ومن أهمها حجاب الشيطان نفسه ، فبزواله ومزاولة التفكير نحصل على البعض من الحقائق المحجوبة ، فيخيّل إلينا أن الصلاة هي من أفضل المسارح للحصول على ضالّاتنا المنشودة التي لا نحصل عليها في غيرها .

ثم و « أغويتني » ليست لتعني الإغواء البدائي دونما إستحقاق ، بل هو إغواء المكر الربّاني عدلاً بمكره هو ، أنه أمره على علمه أنه لا يأنمر فيهبط ، وأمره لكي يظهر كفره ، فلذلك هو يمكر عباده كما يمكرون « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » .

ذلك ! « فأحذروا عباد الله عدو الله أن يُعديكم بدائه ، وأن يستفزكم ببدائه ، وأن يجلب عليهم بخيله ورجله ، فلمعري لقد فوق لكم سهم الوعيد ، وأعرق إليكم بالترع الشديد ، ورماكم من مكان قريب فقال : رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ، قذفاً بغيب بعيد ، ورجماً بظن غير مصيب ، صدقه به أبناء الحمية ، وإخوان العصية ، وفرسان الكبر والجاهلية ، حتى إذا انقادت له الجامعة منكم ، واستحكمت الطاعية من فيكم ، فنجمت الحال من السير الخفي إلى الأمر الجلي ، استفحل سلطانه عليكم ، ودلف بجنوده نحوكم ، فأقحموكم ولجأت الذل ، وأحلوكم ورطات القتل ، وأوطؤوكم إثنان الجراحة ، طعنا في عيونكم ، وحرّاً في حلوقكم ، ودقاً لمناخركم ، وقصداً لمقاتلكم ، وسوقاً بخزائن القهر إلى النار المعدة لكم ، فأصبح أعظم في دينكم حرّجاً ، وأورى في دنياكم قذحاً ، من الذين أصبحتم لهم مناصبين ، وعليهم متألّبين ، فاجعلوا عليه حدّكم ، وله جدّكم ، فلمعر الله لقد فخر

على أصلكم ، ووقع في حسبكم ، ودفع في نسبكم ، وأجلب بخيله عليكم ، وقصد برجله سبيلكم ، يقتنصونكم بكل مكان ، ويضربون منكم كل بنان ، لا تمتنعون بحيلة ، ولا تدفعون بعزيمة ، في حومة ذل ، وحلقة ضيق ، وعرصه موت ، وجولة بلاء ، فأطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصية ، وأحقاد الجاهلية ، فلنما تلك الحمية تكون في المسلم من خطرات الشيطان ونخواته ، ونزعاته ونفثاته ، واعتمدوا وضع التذلل على رؤوسكم ، وإلقاء التعزز تحت أقدامكم ، وخلع التكبر من أعناقكم ، واتخذوا التواضع مسلحة بينكم وبين عدوكم إبليس وجنوده ، فإن له من كل أمة جنوداً وأعواناً ، ورَجَلاء فرساناً ، .. (١) .

هنا « صراطك المستقيم » قد تعني الصراط المحيط بالإنسان حيث

(١) نهج البلاغة الخطبة (١٩٠) وفيه تحليلاً عن الكبر « ألا وقد أمتعتم في البغي ، وأفسدتم في الأرض ، مصارحة الله بالمناسبة ، ومبارزة للمؤمنين بالمحاربة ، فإله الله في كبر الحمية وفخر الجاهلية ، فإنه ملاحح الشئان ، ومنافع الشيطان ، التي خدع بها الأمم الماضية ، والقرون الخالية ، حتى أعنفوا في حنادس جهاته ، ومهاوي ضلالتهم ، ذللاً عن سيده ، سُلساً في قياده ، أمراً تشابهت القلوب فيه ، وتتابعت القرون عليه ، وكبراً تضايفت الصدور به » (١٩٠) .

« ألا فالعذر المحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم ، الذين تكبروا عن حسبهم ، وترفعوا فوق نسبهم ، والقوا الهجنة على ربهم ، وجاحلوا الله على ما صنع بهم ، مكابرة لقضائه ، ومغالبة لآلائه ، فإنهم قواعد أساس العصية ، ودعائم أركان الفتنة ، وسيوف اعتزاء الجاهلية .. ولا تطعموا الأدمية الذين شربتم بصفوكم كذبرهم ، وخلعتم بصحتكم مرضهم ، وأدخلتم في حقكم باطلهم ، وهم أساس الفسوق ، وإحلاس العقوق ، اتخذهم إبليس مطايا ضلال ، وجنداً بهم يصول على الناس ، وتراجمة ينطق على ألسنتهم ، استراقاً لعقولكم ، ودخولاً في صيرونكم ، ونفثاً في أسماعكم ، فجعلكم مرمى نبه ، وموطئ قدمه ، ومأخذ يده .. » (الخطبة ١٩٠) .

« وأستأدى الله سبحانه الملائكة وديته لديهم وعهد وصيته إليهم في الإذعان بالسجود له والخشوع لتكرمه فقال سبحانه « اسجدوا لآدم » فسجدوا إلا إبليس اعترته الحمية وغلبت عليه الشقوة وتمزز بخلفه النار واستهون خلق الصلصال فأعطاه الله النظرة استحقاقاً للسفطة واستملأاً للبلية وانجازاً للعدة .. » (الخطبة ١) .

يبتلعه أو يبتلعه السالك، دون صراط الرب المخصوص به « إن ربي على صراط مستقيم » (١١ : ٥٦) فانما هو صراطه الذي قدره للسالكين إلى مرضاته .

إذاً فلبيان السالك لصدده عن سلوكه بحاجة إلى حصر مربعة الجهات ، وهي بطبيعة حال الصراط روحياً ، وأن الإضلال ليس يتوجه إلا إلى الأرواح ، ثم الجهات المحيطة بالجسم ست وليست أربعاً ، فهي الجهات الروحية : صراط العلم والمعرفة به ، وصراط الإيمان، والتصديق له ، وصراط العبودية الخالصة ، وتعبير آخر صراطي المعرفة والعبودية فانهما واحد حيث يشكلان الهدي إليه والزلفى دونما تفلت أو تلفت عنه .

ف « من بين أيديهم » بكل ما يستقبله السالك ويستقبل السالك من الآخرة والأولى وما بينهما ، من أعمال وآمال وسائر الأماد المستقبلية ، استخداماً لها كلها لتضليله ، صدأً عن حاضره ومستقبله من صراط الله ، ولكيلا يستقبل خيراً .

« ومن خلفهم » مما يستدبره السالك من دنياه بأعماله المسلوكة سلك الصراط ، هدماً له وحبطاً إياه ، تزييناً لقبحه وتقيحاً لصالحه .

« وعن أيمانهم » وهي أيمان الدين حيث يأتي بنقاب القدسية الشرعية ويصد عنها ، إلى أيمان الفطر والعقول والأفكار والصدور والقلوب ، فتشل الأيمان التي هي ذرائع إلى الصراط المستقيم .

« وعن شمائلهم » وهي شهواتهم حيث يزينها لهم فيحسبون أنهم يحسنون صنعا^(١) وإلى أنفسهم الأمانة بالسوء وأعمالهم السيئة ، فالعقلية الإيمانية والشهوة الشيطانية هما من المداخل الأنفسية للشيطان ، ثم الآخرة

(١) عن مجمع البيان روي عن أبي جعفر (عليه السلام) « ثم لاثنين من بين أيديهم » معناه أهون عليهم أمر الآخرة « ومن خلفهم » أمرهم بجمع الأموال والبخل بها عن الحقوق لتبقى لورثتهم « وعن أيمانهم » أفسد عليهم أمر دينهم بتزيين الضلالة وتحسين الشبهة « وعن شمائلهم » بتحبيب الذات إليهم وتغليب الشهوات على قلوبهم » .

والأولى هما من المداخل الأفقية إلى إضلال الإنسان ، وحينئذ تنسد عليه كل منافذ الصراط المستقيم .

فقد يقعد لهم الشيطان « صراطك المستقيم » قعدة شيطانية تحلّق على هذه الجهات الأربع ، حصراً في الشهوات وحسراً عن العقليات ، والنتيجة الحاسمة : « ولا تجد أكثرهم شاكرين » حيث يتلفتون إلى الشيطان ويتفلتون عن الرحمن ، ثم يبقى أقلهم وهم المخلصون : « قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين » (٣٨ : ٨٢) .

أجل ، ولأن « صراطك المستقيم » ليس طريقاً حسيّاً ، فالجهات الأربع في قعدة الصراط - الإبلسية - كذلك ليست هي الجهات الحسية الجغرافية - وهي ستة - بل هي الجهات المعنوية التي تعني الحياة الإنسانية ، الناحية منحى الصراط المستقيم من تعمير مثلث زمان التكليف بإحكام العقلية الإنسانية وأحكامها على ضوء الفطرة والوحي ، وحصر الأهواء الطائشة وأسرها عما لا يحل .

ذلك ، وفي نظرة أوسع نرى « من بين أيديهم ومن خلفهم » تحلقان على كافة الآيات الأفقية ، ثم « عن إيمانهم وعن شمائلهم » تشملان كل الآيات الأنفسية ، ثم « ومن بين أيديهم » نعم كافة الآمال والأحوال المستقبلية ، مقبولة لديك أو محتملة ، واقعة أو متخيلة ، فمنها الحياة البرزخية والحياة الأخرى حيث يأتيان منهما نكراناً لهما أم تزييفاً لموقفهما حتى لا تؤثرا في صالح الأعمال .

و « من خلفهم » تشمل كل خلف للكون، ومنها هل له من خالق ؟ حيث يتفلسف مادياً لاثبات أزلية المادة ، أم في تفلسف آخر يقرر أصول الفلسفة المنحرفة كالأزلية الزمانية للعالم . ووحدة حقيقة الوجود بين الخالق والمخلوق ، ومسانختهما لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، وغل يدي الخالق حيث الواحد لا يصدر منه إلا واحد ، وما أشبه من خلاف العقل والنص كتاباً وسنة .

أم القول بالتعدد اللاهوتي ثنوياً أو ثالوثياً وما أشبه من الخرافات

المنحلة على فكرة « الله » .

ثم « عن أيمانهم » تعم العقل بجنوده « وعن شمائلهم » تشمل الجهل وجنوده ، إظهاراً للعقل بجنوده جهلاً ، وللجهل بجنوده عقلاً ، وخلطاً بين كل حق وباطل للبسطاء الذين لا يعقلون ، بل والخلط على العلماء ، اللهم إلا المخلصون والمخلصون .

وكما أن « ما خلفهم » تشمل كل خلف قريب أو بعيد ، كذلك « بين أيديهم » بل وهي أشمل منها حيث تشمل الحاضر إلى المستقبل .

فقد يحلق الشيطان في اغواءه على كل الآيات الأفاقية والآنفسية ^(١) .

وبصيغة أخرى الصراط هو الدين ، فـ « صراطك » هو دين الله ، جعله الله طريقاً للنجاة والمفاز ، وإنما قال : « صراطك » حيث الدين هو الطريق المؤدية إلى مرضاته ، إلى قربته وزلفاه ومشوته ، فكان إبليس لعنه الله إنما يوعد بالعود على طريق الدين - الشاملة على الجهات الأربع - ليضل عنه كل قاصد ، ويرد عنه كل وارد بمكره وخدائعه وتليساته ،

مركز تحقيق كاميون علوم إسلامي

(١) وهنا إجابة عن شطحات إبليسية سبع كلمة واحدة « لا يستل عما يفعل وهم يسألون » بالمعترفون بالله مشركين أو موحدتين ليس لهم سؤال الاعتراض على الله حيث المسؤول إنما هو الظالم - الجاهل - القاصر أو المقصر ، ولأننا لا نحيط علماً وهو بكل شيء محيط فلا سؤال إذاً اللهم ألا تفهماً .

والأمور أمامنا ثلاثة : منها ما نعرف حكمه لها ، وأخرى لا نعرف ، وثالثة يخيل إلينا أنها خلاف الحكمة ، فلأن الله تعالى حكيم عليم لا يخطأ ونحن نخطأ فحكمة العقل أن نتهم عقولنا المحدودة دون الحكمة الربانية الحكيمة العليمة .

فهما جاز لنا أن نخطيء من هو أعلم منا بما علمناه خلافه ، لا يجوز لنا أن نخطيء ربنا إذ لا يمكن منه الخطأ ، فحتى إذا وصلنا بعقولنا أم علومنا أم حواسنا إلى خطأ في خلق . فما لا ريب فيه جواز الخطأ لنا دون الله فلنخطيء آراءنا دون الله .

ثم الملحون في الله الناكرون إياه لا مورد لهم لسؤال ، اللهم إلا قولهم : إن كان الله هو الذي خلق ما خلق فلماذا . . ؟ والجواب أنه لأنه الله الخالق المحيط بكل شيء ، الغني عن كل شيء . فقد يجب عليكم أن تخطئوا حلومكم وعلومكم أمام علمه المحيط .

كالقاعد على مدرجة بعض السبل ليخوف السالكين منها ، ويعدل بالقاصدين عنها، فهو « يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ليقتحم غفلة ويستنب غرته »^(١) .

ولماذا « من » في الأولين و « عن » في الآخرين ، علّه لأن « بين أيديهم وخلفهم » هما جهات منفصلة عنا فهو يأتينا منهما إلينا حتى يضلنا عنهما ، ولكن « أيمانهم وشمائلهم » هما فينا ، فليأتنا تجاوزاً عنهما ، فالإيمان هي الفطر والعقول والأديان . والشمائل هي الأنفس الأمارة بالسوء والشهوات .

ثم وذلك الإتيان المربعة الجهات هو بوعده وتمنيّه : « يعدمهم ويمنيهم وما يعدم الشيطان إلا غروراً » (٤ : ١٢٠) وتخويفه عن سلوك الصراط : « إنما ذلك الشيطان يخوف أولياءه » (٣ : ١٧٥) كما « الشيطان يعدمكم الفقر ويأمركم بالفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » (٢ : ٢٦٨) .

وعلى الجملة كل خطواته المحلقة على مربعة الجهات : « ولا تتبعوا خطوات الشيطان » (٢ : ١٦٨) وذلك هو احتشاكهم كما وعد : « قال أرايتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً » (١٧ : ٦٢) .

وقد تعني « شاكرين » ما يعم المخلصين إلى المخلصين ، ويؤيده : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من أتبعك من الغاوين » (١٥ : ٤٢) والمخلصون - كما المخلصون - ليسوا من الغاوين مهما اختلفت الدرجات ، فإتيان الشيطان عن اليمين : الدين ، يعم الدينين وغير الدينين ، فالأولون يؤتون بتشكيكات حول الدين ، أو تأويلات بتسويلات ،

(١) نور الثقلين ٢ : ١٠ في نهج البلاغة من كتاب له (عليه السلام) إلى زياد بن أبيه - وقد بلغه أن معاوية قد كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه - وقد عرفت أن معاوية كتب إليك يستنزل بك ويستغل غريك فأحذره فإنما هو الشيطان يأتي المرء ..

وتسهيلات في الدين تُلائم كافة التخلفات والتحديات كالصوفية العارمة التي لا تبقي للدين إلا صورة خيالية لا واقع لها في واقع الحياة .

والآخرون يؤتون بما يبغدهم عن التحرّي عن الدين ، مهما كان صورة له بلا سيرة . وهكذا « شمائلهم » و « بين أيديهم » و « خلفهم » فإن له خطوات للتضليل حسب القابليات ، من ضيقة إلى واسعة وإلى أوسع حتى يورد السالكين موارد الهالكين فضلاً عن سواهم ، وكما قال أبو جعفر عليهما السلام : « يا زراة إنما عمد لك ولأصحابك فأما الآخرون فقد فرغ منهم » ^(١) .

فقد يأتينا الشيطان بخيله ورجله من كافة المداخل الأفاقية والأنفسية ، صدّا عنهما خلاف ما أراده الله منا « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » ف « ما بين أيديهم » تعم الحاضر إلى المستقبل وهما النشآت الثلاث بما فيها . و « ما خلفهم » تعم في الغابر كلما حصل منه وممن سواء ومن الله ، وهما مشركان في الانفصالية الأفاقية .

ثم « عن أيماهم » تعم أيما الفطر والعقول والعقيدة في مثلث الزمان ، و « عن شمائلهم » تعم شمائل النفس الأمانة بالسوء ومخلفاتها ، وهما العقل والجهل بجنودها ، ويشتركان في الإتصالية الأنفسية ، وهذا هو الفارق بين المعبر فيها بـ « من » وأخرى بـ « عن » حيث يختلف مجيئه « من » آفاقياً ، عن مجيئه « عن » أنفسياً ، هنا تجاوزاً عنها إلى الأنفس ، وهناك صدوراً من آفاقها إليها .

وهؤلاء الذين يحيط بهم الشيطان من هذه الجهات الأربع فيضلهم هم الذين : « اتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً ، واتخذهم له أشراكاً ، فباض وفرخ في صدورهم ، ودبّ ودرج في حجورهم ، فنظر بأعينهم ، ونطق

(١) نور الثقلين ٢ : ١٠ في روضة الكافي ابن محبوب عن حنان وعلي بن رثاب عن زراة قال : قلت له قوله عز وجل « لا تعبدن ... » فقال : ..

بألسنتهم ، فركب بهم الزلل ، وزين لهم الخطل ، فعل من شركه الشيطان في سلطانه ، ونطق بالباطل على لسانه » (الخطبة ٧) .

ذلك ، وفي توسع لـ « صراطك المستقيم » وهو شرعة الله ، قد يعني إلى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الدال على أعلى الصراط ، آل محمد عليهم السلام الدالون إلى الصراط المحمدي المستقيم . وذلك تأويل جميل بأصدق مصاديق « صراطك المستقيم »^(١) .

﴿ قال أخرج منها مذموماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾^(١٨) .

« مذموماً » من الذام : العيب ، أخرج معيوباً بأنحسه ، إستكباراً على ربك ، « مدحوراً » مطروداً عن ساحة قربه وجنته « لمن تبعك منهم » لحد يُحسب بحسابك ، ويدخل في حزبك « لأملأن جهنم منكم » تابعين ومتبوعين « أجمعين » .

وهنا « أخرج » تعني أمراً تشريعياً فلا إبليس إلا يأت امره وكما لم يخرج وقد تخلف عنه (٢١، ١) .

(١) ملحقات احقاق الحق ١٤ : ٦٤٢ روى الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ١ : ٦١ يستند عن علي عن سعد عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : آل محمد الصراط الذي دل الله عليه ، ورواه عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) مثله . وفيه ٤ : ١٧٠ و ١٤ : ٣٧٨ - ٣٧٩ قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) لعلي (عليه السلام) : أنت الطريق الواضح والصراط المستقيم و « الصراط المستقيم ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) » (١٤ : ٤٨٧) و « نحن الطريق الواضح والصراط المستقيم » (١٣ : ٨٣ - ٨٤) و « نحن أبواب الله ونحن الصراط المستقيم ونحن عيبة علم الله » (١٣ : ٨٢) و « من إقتدى بهم هدي إلى صراط مستقيم » (٤ : ٥٩) و « يا علي أنت صراط الحمية » (٤ : ١٠٣ و ٧ : ١٢٥) و « حب آل محمد جواز على الصراط » (٩ : ٤٩٤ - ٤٩٦ و ١٨ : ٤٩٦ - ٤٩٧) و « يا علي الصراط صراطك » (٧ : ١٢٤) و « علي يقعد على الصراط » (٦ : ٢١٢) و « لا يجوز أحد الصراط إلا بولاء علي (عليه السلام) » (٧ : ١١٥ - ١٢١ و ١٧ : ١٥٨ - ١٦٢ و ٢١ : ٥١٧ - ٥٢١) .

ولكن ذلك الخروج بالأميرين كان بعد فترة الإبتلاء لأدم وزوجه وكما فصلناه في آية البقرة :

﴿ ويا آدم اسكن زوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ (١٩) .

وهذا السكون والسكن المسموح بصيغة الأمر هو دوامته ما قاما بشرطها أن : لا تقربا هذه الشجرة فتكونا - إذا - من الظالمين شرعة الله ، والظالمين أنفسكما ، وقد مضى القول الفصل في البقرة أنه نهى بات شرعي كان إقترافه ظلماً وعصياناً وغواية وشقوة وضلالة وزلة وما أشبه ، المسرودة بطيات آياتها .

﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبيدي لهما ما ووري عنهما من سواتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ (٢٠) .

« فوسوس .. ليبيدي » كفاية من غاياته الشيطانية المحلقة على كل شيطناته المعنية من تلك الوسوسة ، و « لهما » هنا كما « لأقعدن لهم » تعني ظاهرة النفع في وسوسته وكما قال : « ما نهاكما .. » .

وترى ما هي « سواتهما » الموارى عنهما قبل الوسوسة البادية ؟ إنها عوراتهما الموارات بلباس هذه الجنة - منذ خلقا - حيث هما بعد ظهورها بنزع لباس الجنة « طفقاً يخصفان عليهما من ورق الجنة » (٢٤) أم وسوات أرواحهما إضافة إلى هذه السوات وهي أخرى بهذا الكيد اللعين حيث عرفا أنهما عاصيان ربهما بعد ما خُيِّلَ إليهما العصمة بما أسجد الله له ملائكته وكرمه عليهم ، ولكن ورق الجنة لا يخصف سوات الروح ، اللهم إلا أن بوسع ورق الجنة بمطلق سترها عن عورات ! .

وليست من هذه السوات عدم معرفة الحسن والقبيح لمكان المناهي المؤكدة المشددة عن هذه الشجرة ، ولا موقع لها إلا للعارف الحَسَن والقبيح ، فتفسير السوات بهذه المعرفة أمّا يشملها هي من سوات التفسير

في حقل المعرفة .

وليس من البعيد خفاء عورات الجسم عمن هو في بداية خلقه ولما يفتش عن جسمه وهو مواري بلباس الجنة الذي لا داعي لأهلها أن ينزعه ليكشف ما تحته المجهول لديه ، أم والمجهول أن تحته عورات ، حيث انشغلا بنعيم الجنة وجوار الرب والرحمة عما سواه ، حتى شغلتهما الشيطان بما وسوس لهما وقاسمهما « لييدي لهما ما ووري عنهما من سواتهما » .

و ووري مجهول واري ، فقد فاعلت رحمة الله واتجاههما إلى نعيم الجنة في ستر عوراتهما فلم يفتشا عنها .

« وقال » في وسوسته لهما « ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة » لأن فيها مضرة بكما ، أو معرفة عليكما « إلا أن تكونا ملكين » بلوقها تحولاً بها عن الحالة البشرية إلى حالة الملكية « أو تكونا من الخالدين » فيها .

وترى هذا « أو تكونا من الخالدين » مادة هي مادة لهما تمدهما إلى ذلك الغرور من الغرور ؟ فكيف مدتهما إليه « إلا أن تكونا ملكين » وآدم هو فوق الملائكة إذ أسجدهم الله له ، وعرفه كما عرفهم بتلك الفضيلة الكبرى وقمة المنزلة ؟ .

عليهما لم ينغرا إلا بالغرور الثاني ، أم - فقط - بغرور المقاسمة بين ثالثه كما تلمح له « فدلاهما بغرور » بعد « وقاسمهما » أم - لو انغرا بغرور « أن تكونا ملكين » فذلك لأن الملك خالد في الجنة مهما كان له تردد إليها في ذلك الخلود ، فمادة الغرور الأول هي « الخلود » سواء أكان بـ « أن تكونا ملكين » أو بأن « تكونا من الخالدين » غير ملكين .

ويوجه آخر إن « ملكين » هنا مضمّنة معنى المُلْك إلى الملكية ، وقد يدل عليه « قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ومُلْك لا يبلى » (٢٠ : ١٢٠) .

فـ « شجرة الخلد » عبارة أخرى عن « أن تكونا من الخالدين » فـ « مُلْك لا يبلى » عبارة عن « أن تكونا ملكين » فلم يكن القصد - إذا -

مجرد الملكية ، بل والسلطة الملكية ، أن تكونا قادة في الجنة .

ثم وللملكية ميزة عدم زحام النفس مع العقل إضافة إلى الخلود فقد يعني بـ « أن تكونا ملكين » زيادة هاتين الميزتين إلى ميزة الإنسانية .

ومهما يكن من شيء فظواهر الغرور الذي مدهما إلى عصيان هو ثالث ثلاثة ، فإن ساحة آدم (عليه السلام) بريئة عن تصديق الشيطان في تكذيب الرحمن ، فإن في تصديقه الأول والثاني تكديماً لله حيث نهى وهدد بخلاف الخلود عصياناً فغواية وزلة وضلالة وشقاء وعناء ، فلذلك :

﴿ وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ﴾ (٢١) .

ولو كان لهذين الغرورين تأثير لما كان بحاجة إلى المقاسمة ، إذ لا مجال لها إلا عند فقدان البرهان ، فلم يكن - إذاً - في هذين برهان يقنعهما بغروره إياهما ، مهما كان لهما تأثير ما لذلك المد المديد المنتهي دوره فيها بما قاسمهما .

هنا « قاسمهما » مفاعلة ، دون « أقسم لهما » فعلاً ، دليل تعاطي الإقسام بينه وبينهما ، بادئاً منه كما هي قضية المفاعلة .

فقد بدء بالإقسام بالله لهما « إني لكما لمن الناصحين » فطلباً منه مؤكداً الإقسام ، فخيّل إليهما - بعد تمام المقاسمة بشروطها المرضية - كأن الله نسخ ما نهى إذ لم يكونا يظنان أن أحداً من خلق الله يقسم بالله كاذباً ، ولكن كان عليهما ألا يصدقوا الشيطان الذي إستكبر على الله في تركه السجود له، وكما الله عرفه إياه مراراً وتكراراً « إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى » وكيف يعتمد على قيلة النسخ بغيلة الشيطان وهو عدو لله وعدو له ، وبالمآل « وعصى آدم ربه فغوى » (٢٠ : ١٢٣) .

وقد يبقى هنا أن نتساءل جدنا الأول ، هب إنك ما غرّك « إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » فكيف غرّك بعد « إني لكما لمن الناصحين » ؟ فهل اعتبرت عصيان ربك نصيحة من الشيطان فإله نهاك - إذاً - بخلاف النصيح ؟ وذلك كفر قاطع !

علّه في تلك المقاسمة المكيدة حاول ليثبت أن ذلك النهي منسوخ حيث قلّ حُرّاس الشجرة عما حولها بعد ما احتفوا بها - كما في الخبر - فقاسمهما أنني ناصح لكما بما نصح الله حيث نسخ النهي، ودليلاً عليه تفرق الحُرّاس !

ولكن كيف يعتمد آدم على ذلك التفرق ولا يُنسخ قاطع النص إلا بقاطع النص وليس فليس ، فالقدر المعلوم في هذا المسرح أن آدم انغمر بغرور الغرور حيث لم يكن يحسب أن أحداً من خلق الله يُقسم كاذباً بالله ، إضافة إلى إنجذابه إلى الشجرة إذ قد تُخلده في دار الكرامة ، فعلّ ربه نهاء عنها سلباً عنه هذه الكرامة إذ لا يليق لها، فقد اقترف عصياناً ، لا كفرأ كما غيل، ولا ترك الأولى كما قيل فيما غيل دون أي دليل .

إذاً فاحتمال أن آدم إنما انغر بغرور الغرور ، قضية المقاسمة واحتمال أن نهيه عن الشجرة يعني نفيه عن الخلود في دار القرب والكرامة ، فرجح القرب رغم النهي عن البعد إذا انتهى ، فهي معصية غير كبيرة إذ لم تضمن تكبراً على الله ، ولا تعمداً في اقرار نهى الله ، وإلا لكان مصيره مصير الشيطان ، إنما هو عصيان - فقط - للتخلف عن النهي ، ويصغره أنه كان بين مقاسمة وأمل للبقاء في دار القرب والكرامة .

ذلك الاحتمال وارد لا مردّ له ، كما لا مردّ لأصل عصيانه تخلفاً عن النهي الصارم المحارم إياه عن هذه الشجرة .

فلا إفراط - إذاً - بحقه أنه أتى بعصيان كبير يقارب عصيان الشيطان ، ولا تفريط أنه ترك الأولى ، بل هو عوان بينهما لا جَوَل عنه إلى أحدهما .

﴿ فلذالهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴾ (٢٢) .

فيا ويلاه من ذلك الأوان ببداية العصيان من أبوين الأولين ، حيث « أسكن سبحانه آدم داراً أرغد فيها عيشه ، وآمن فيها محلته ، وحذّره

إبليس وعدواته ، فاغتره عدوه نفاسة عليه بدار المقام ، ومرافقة الأبرار ، فباع اليقين بشكه ، والعزيمة بوهته ، واستبدل بالجذل وجلاً ، وبالإغترار نذماً ، ثم بسط الله سبحانه له في توبته ولقاء كلمة رحمته ، ووعد المرد إلى جنته ، وأهبطه إلى دار البلية ، وتناسل الذرية ^(١) .

« فدلّاهما » أنفسهما الغرور بدلائله الثلاثة « بغرور » فأصبحا دلوين دلاهما بحبل الغرور كالأرشية في هذه الطوي البعيدة ! بما وعدهما وقاسمهما « فلما ذاقا الشجرة » المنية « بدت لهما مساواتهما - الخفية - وطفقا يخصفان عليها من ورق الجنة » حيث نزع عنهما لباسهما بما غرهما « وناداهما ربهما ألم أنهما عن تلكما الشجرة . . . » .

﴿ قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ (٢٣) .

(١) نهج البلاغة (الخطبة ١ / ٢٨) وفيه « فلما مهد أرضه وأنفذ أمره إختار آدم (عليه السلام) خيرة من خلقه وجعله أول جبلته ، واسكنه جنته ، وأرغد فيها أكّله ، وأوعز إليه فيما نهاه عنه ، وأعلمه أن في الإقدام عليه التعرض لمعصيته ، والمخاطرة بمنزله ، فأقدم على ما نهاه عنه - موافقة لسابق علمه - فأهبطه بعد التوبة ليعمر أرضه بنسله ، وليقيم المحبة به على عباده » (الخطبة ٨٩ / ٣ / ١٧٤) .

وفي نور الثقلين ٢ : ١١ عن عيون أخبار الرضا (عليه السلام) من حديثه حول عصيان آدم وزوجه « ولم يكن آدم وحواء شاهداً قبل ذلك من يحلف بالله كاذباً » فدلّاهما بغرور « فأكلتا منها ثقة بيمينه بالله ، وكان ذلك من آدم قبل النبوة ولم يكن ذلك بلذنب كبير استحق به دخول النار ، وإنما كان من الصفات الموهوبة التي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي عليهم ، فلما اجتبه الله تعالى وجعله نبياً كان معصوماً لا يذنب صغيرة ولا كبيرة » قال الله تعالى : « وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدي » وقال عز وجل « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » .

وفيه عن تفسير القمي روي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : لما أخرج الله آدم من الجنة نزل عليه جبرئيل (عليه السلام) فقال : يا آدم أليس الله خلقك بيده ونفخ فيك من روحه واسجد لك ملائكته وزوجك أمته حواء واسكنك الجنة وأباحها لك ونهاك مشافهة أن لا تأكل من هذه الشجرة فأكلت منها وعصيت الله ؟ فقال آدم : يا جبرئيل ان إبليس حلف لي بالله انه لي ناصح فما ظننت أن أحداً من خلق الله يحلف بالله كاذباً . أقول : لمزيد الإطلاع على تفاصيل القصة راجع تفسير الآيات في البقرة .

إعتراف بالظلم العصيان ، وتطلب للغفران ، وإلا فورد المخسران ، وقد غفر لهما وإجتيبي آدم بعدما تاب عليه وهدى : « وعصى آدم ربه فغوى . ثم إجتباه ربه فتاب عليه وهدى » (٢٠ : ١٢١) ولكنه لم يرجعهما إلى جنته بتوبته :

﴿ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ (٢٤) .

هبوط جمعي يضم إبليس إليهما ويضمهما إلى إبليس ، فله هبوط حابط خابط ، ولهما هبوط عن الجنة إلى دار المحنة والبليّة : « فلما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢ : ٣٨) .

وهنا « لكم في الأرض » دليل أن الهبوط كان من عل فوق الأرض ، فهو هبوط في المكان كما المكانة ، وأما « اهبطوا مصراً » في أخرى ، فهو هبوط عن مكانة الدعة والراحة ، ولا يدل هذا الهبوط بقرينته القاطعة على أنه من أرض إلى أرض ، على أن « اهبطوا » أيضاً هكذا وقرينته مضادة لتلك ! .

والقدر المعلوم من العداوة في « بعضكم لبعض عدو » هو المعلوم بين الشيطان والإنسان ، عداوة لا تزول فانها لا تزال بينهما قائمة طول زمن التكليف ، فلا تعني العداة بين الناس أنفسهم ، فانها مرفوضة وأحيائية ، وتلك العداة مرفوضة وفي كل الأحيان ، اللهم إلا عداة ضمن عداة ، بما هو قضية ذلك العداة ، حيث « قل لعبادي يقول التي هي أحسن إن الشيطان يتزع بينهم » (١٧ : ٥٣) .

وأما « قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو » (٢٠ : ٢٣) فقد يعني هبوط قبيلي الشيطان والإنسان ، أم قبيل الإنسان، والمحصور إذاً فيهما قضية دار البليّة والإمتحان ، و « إن الشيطان يتزع بينهم » (١٧ : ٥٣) .

وعلى أية حال « قلنا اهبطوا منها جميعاً فلما يأتينكم مني هدي فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢ : ٣٨) وهي بعد « قلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين » (١) .

فالهبوط الجمعي بعد ذكر الشيطان وآدم وزوجه ، إنه نص في هبوطهم جميعاً دون ريب .

وهنا « مستقر ومتاع إلى حين » يعني حين الموت وحين قيامة الإمامة ، وهذه لمحة أخرى إلى مديد إنظار الشيطان أنه كان إلى هذه القيامة ، دون « يوم يبعثون » خلافاً لما تطلبه ألا يموت مع الموتى .

﴿ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ (٢٥) .

فأرض التكليف البلية ، والإختبار الإختيار، هي المحى والممات والمخرج إلى القيامة الكبرى ، سفرة مثلثة الجهات فيها .

وإلى هنا انتهت التجربة الأولى في حق الإنسان الأول بحقل الجنة ، وتكشفت خصائص الإنسان الكبرى ، واستعد - إذاً - لخصائصه الكامنة لمزاولة خلافته الأرضية عن الغابرين ، وللدخول في معركته المصيرية مع عدوه المعلن في بداية القضية ، فالعداوة مستمرة بينه وبين الشيطان ، ثم وبين بني الإنسان أنفسهم بنوازع شيطانية .

فلقد هبطوا إلى الأرض ، أرض الصراع الدائم والنزاع القائم ، بين محض الشر ، ومزدوج الإستعداد لكلا الخير والشر ، فانتتهت الجولة الأولى تتبعها جولات وجولات على مدى هذه الحياة .

وإليك على ضوء هذه الآيات الناصعة القاصصة الخطبة القاصصة لعلي أمير المؤمنين (عليه السلام) حيث يعرض فيها مداخل الشيطان ومخارجه من الإنسان :

« الحمد لله الذي لبس العز والكبرياء ، واختارها لنفسه دون خلقه ، وجعلها جميلاً وحراماً على غيره ، واصطفاهما لجلاله ، وجعل اللعنة على

من نازعه فيهما من عباده ، ثم اختبر بذلك ملائكته المقربين ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين ، فقال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب : « إني خالق بشراً من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس » إعترضته الحمية ، فافتخر على آدم بخلقه ، وتعصب عليه لأصله ، فعادو الله إمام المتعصبين ، وسلف المستكبرين ، الذي وضع أساس العصية ، ونازع الله رداء الجبرية ، وأدرع لباس التعزز ، وخلع قناع التذلل -

ألا ترون كيف صغره الله بتكبره ، ووضع الله بترفه ، فجعله في الدنيا مدحوراً ، وأعد له في الآخرة سعيراً ، ولو أراد الله أن يخلق آدم من نور يخطف الأبصار ضياءه ، ويبهز العقول روائه ، وطيب يأخذ الأنفاس عرفه لفعل ، ولو فعل لظلت له الأعناق خاضعة ، ولخفت البلوى فيه على الملائكة ، ولكن الله سبحانه إبتلى خلقه ببعض ما يجهلون أصله تمييزاً بالاختبار لهم ، ونفيّاً للإستكبار عنهم ، وإبعاداً للخلاء منهم -

فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس ، إذ أحبط عمله الطويل وجهده الجهد ، وقد كان عبد الله ستة آلاف سنة لا يُدرى أمن سني الدنيا أم من سني الآخرة عن كبر ساعة - فمن ذا بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته ؟ كلا ! ما كان الله سبحانه ليُدخل الجنة بشراً بأمر أخرج به منها ملكاً ، إن حكمه في أهل السماء وأهل الأرض لواحد ، وما بين الله وبين أحد من خلقه هوادة في إباحة جمل حرمه على العالمين .

فاحذروا عباد الله عدو الله أن يُعديكم بدائه ، وأن يستفزكم بنداءه ، وأن يجلب عليكم بخيله ورجله ، فلعمري لقد فوق لكم سهم الوعيد ، وأغرق لكم بالنزع الشديد ، وركبكم من مكان قريب وقال : « رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين » قذفاً بغيب بعيد ، ورجماً بظن غير مصيب ، صدقه به أبناء الحمية ، وإخوان العصية ، وفرسان الكبر والجاهلية ، حتى إذا انقادت له الجامعة منكم ، واستحكمت الطاعة منه فيكم ، فنجمت الحال من السر الخفي إلى الأمر

الجلبي ، استفحل سلطانه عليكم ، ودلف بجنوده نحوكم ، فأقحموكم
ولجأت الذل ، وأحلّوكم ورطات القتل ، وأوطأوكم إثنان الجراحة ، طعنا
في عيونكم ، وحزاً في حلوقكم ، ودقاً لمناخركم ، وقصداً لمقاتلكم ،
وسوقاً بخرائم القهر إلى النار المعدة لكم ، فاصبح أعظم في دينكم
جرحاً ، وأورى في دنياكم قدحاً ، من الذين أصبحتم لهم مناصبين ،
وعليهم متالبين ، فاجعلوا عليه حدكم ، وله جدكم ، فلعمراً الله لقد فخر
على أصلكم ، ووقع في حسبك ، ودفع في نسبكم ، وأجلب بخيله
عليكم ، وقصد برجله سبيلكم ، يقتنصونكم بكل مكان ، ويضربون منكم
كل بنان ، لا تمتنعون بحيلة ، ولا تدفعون بعزيمة في حومة ذل ، وحلقة
ضيق ، وعروة موت ، وجولة بلائ ، فاطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران
العصبية ، وأحقاد الجاهلية ، فإنما تلك الحمية تكون في المسلم من
خطرات الشيطان ونخواته ونزعاته ونفثاته ، واعتمدوا وضع التذلل على
رؤوسكم ، وإبقاء التعزز تحت أقدامكم ، وخلع التكبر من أعناقكم ،
واتخذوا التواضع مسلحة بينكم وبين عدوكم إبليس وجنوده ، فإن له من
كل أمة جنوداً وأعواناً ورجلاً وفرساناً ، ولا تكونوا كالمتكبر على ابن امه من
غير ما فضل جعله الله فيه ، سوى ما ألحقت العظمة بنفسه من عداوة
الحسد ، وقدحت الحمية في قلبه من نار الغضب ، ونفخ الشيطان في أنفه
من ربح الكبر الذي أعقبه الله به الندامة ، وألزمه آثام القاتلين إلى يوم
القيامة .. (الخطبة ٢٣٤) .

ذلك ، وقد يعني « ملكاً » تعبيراً عن إبليس عبادته الملائكية وكونه
فيهم آفاً من السنون لحد شمله أمر الملائكة : « إذ قلنا للملائكة اسجدوا
لآدم فسجدوا إلا إبليس » فلا ينافي - إذاً - « كان من الجن ففسق عن أمر
ربه » (١٨ : ١٥) .

يَا بَنِي آدَمَ قُلْنَا نَزَّلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُرَى سَوَاتِكُمْ وَرَبِّشْنَا
وَلِبَاسُ الْقَوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ

١٧ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ
 مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ
 هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ
 لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ١٨ وَإِذَا قَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا
 عَلَيْهَا آيَاتِنَا وَآلِهَةَ آمُرَانَا بِهَا قُلْنَا اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ
 عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ١٩ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وَجُوهَكُمْ
 عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا
 بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ٢٠ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ
 الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ٢١ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ
 عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
 الْمُسْرِفِينَ ٢٢ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ
 الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً

يَوْمَ الْحِجْمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾
 قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ
 بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا
 عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾

خطابات لـ « بني آدم » ككل ، دون اختصاص بالأمّة الأخيرة ، حيث المسرح مسرح حياة الإنسان ككل منذ البداية حتى النهاية ، فالتعلق بمثل « إما يأتينكم رسل منكم . . » بمواصلة الرسالة بعد محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى يوم الدين ، تعلق قاحل وتعلل جاهل من غرقى الأهواء الطائشة ، فلا تعني « إما يأتينكم » هنا إلا ما عنته فيما خوطب به الأبوان الأولان : « قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هوى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢ : ٣٨) خطابات أربع كأركان أربعة لهندسة البنيان الإنساني بسليبات وإيجابيات تختصر وتختصر في كلمة التوحيد : « لا إله إلا الله » .

ففتنة الشيطان بمختلف مظاهرها تنفيها « لا إله » في كل حقول الفتن ، ثم « يأتينكم رسل » كأصل ، و« لباس التقوى » و« القسط » و« أقيموا وجوهكم عند كل مسجد » وما أشبه ، يثبتها « إلا الله » فقد رفع صرح الإنسانية أصولاً وفروعاً بـ « لا إله إلا الله » .

هذه الآيات هي معرض لوقف طائلة هائلة بين بني الإنسان والشيطان ، التي بانّت طلائعها بينه وبين أبوين الأولين ، وقفة تحذير من أساليب الشيطان ومداخله ومخارجه . وكشف خطط له وخطوات يخطوبها إلى دركات الإلحاد والإشراك .

وهنا عرض لواقع من الجاهلية الجهلاء أنهم كانوا ينسبون فاحشتهم

إلى الله ، كطوافهم بالبيت مكاءً وتصدية ، وينساء عاريات كأن عراهن من شعار الطواف الذي أمر به الله وما أشبه من شعارات جاهلية خالية عن شعورات وآداب إنسانية فضلاً عن إيمانية :

﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ﴾ (٢٦) .

هنا ذكر نعمة جسدانية هو ذكرى لأخرى روحانية هي التقوى ، حيث تستر كل عصيان وطفوى عن كيان الإنسان ككل ، تحذيراً حذيراً نذيراً عما تورط فيه أبوانا الأولان من التعري من لباسي الجسم والروح حيث الشيطان بإغواءه إياهما « ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما ... » .

وترى « إنا أنزلنا . . » تعني نازل السماء ؟ وليس « لباساً يواري سوآتكم وريشاً » من نازل السماء ! ولا أنه تعالى كائن السماء حتى تصبح عطيته نازلة السماء ! .

إنه إنزال من سماء الرحمة الربانية مكانة ، لا مكاناً ، وإن كان بالإمكان - أيضاً - قصد المكان حيث اللباس والريش هما من نابتات الأرض بما ينبتها ماء السماء ، كما « أنزل لكم ثمانية أزواج » (٣١ : ٦) « وأنزلنا الحديد » (٥٧ : ٢٥) وما أشبه ، ولكن عدم ذكر السماء فيها وفي أضرابها قد يخص معناه بسماء الرحمة، وإن ضمن هذه السماء، فكل الرحمت نازلة من خزائنه كما يريد من أرضيات أم سماويات : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » (١٥ : ٢١) فقد أنزل « لباساً يواري سوآتكم وريشاً » بسائر ما أنزل من غيبه العالي إلى الدنو الداني ، وهذا هو معنى الإنزال .

ثم « لباساً يواري سوآتكم » هو الملابس مواضع السوات، الملاصق لها ، وأما « ريشاً » فلباس فوق ذلك اللباس هوزينة لنا .

ولأن الروح هو أفضل جزئي الإنسان كوناً وكياناً ، فلباس الروح خير من لباس الجسم : « ولباس التقوى ذلك خير » كما وهو أشمل من لباس

٧٢ الجزء الثامن
الجسم حيث يشملهُ إلى الروح ، فمظاهر التقوى في ملابس وسواها ،
كبواطنها - كلها - يشملها « لباس التقوى » .

و « التقوى » الطليقة هي الإتقاء عن كلما يذنس الإنسان جسماً أو
روحاً ، فلباسها يشملهما دون إبقاء كما تشمل القوى كل كيان الإنسان .

لذلك فـ « ذلك خير » إشارة إلى بُعد المحتد وعلوه في « لباس
التقوى » فأين - إذاً - لباس من لباس ؟ .

« ذلك » اللباس والريش « من آيات الله » الدالات على واجب الستر
عن السوء « لعلهم يذكرون » واجب ستر عن السوءات الروحية ، ومن
الفارق بين سوات الجسم والروح أن لباس الجسم وريشه يستران واقع
سواته عن الأنظار دون إزالة ، ولباس التقوى يزيل كل سوات الروح وريشاته
العلمية والعقيدية والخلقية والعملية أماهيمه ، كما وأن اللباس الساتر لعورات
الجسم هو أيضاً من لباس التقوى ، وقد أبدى سوات أبوين الأولين ترك
التقوى ، فعن شعور التقوى لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عرى
الجسد والحياء منه ، ومن لا يستحي من الله ولا يتقيه ولا يهمه أن يتعري أو
أن يدعو إلى العرى ، والله يذكر بني آدم بنعمته عليهم في تشريع اللباس
الساتر صيانةً لإنسانيتهم من التدهور إلى عرف البهائم العارية العورات
« لعلهم يذكرون » أنهم خارجون عن حياة الحيوان إلى حياة سامقة عالية
إنسانية .

وعبارة أخرى عن لباس التقوى « العفاف » ، إن العفيف لا تبدوله
عورة وإن كان عارياً من الثياب ، والفاجر بادي العورة وإن كان كاسياً من
الثياب ^(١) .

وإنما سمي لباس الزينة ريشاً تشبيهاً بريش الطائر حيث يستر جملمته

(١) نور الثقلين ٢ : ١٥ في تفسير القمي عن أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في
الآية « فأما اللباس فالثياب التي تلبسون وأما الرياش فالمتاع والمال ، وأما لباس
التقوى ... » .

أقول : هنا بدل « الريش » وهو لباس الزينة « الرياش » وهو المتاع ولعله سهو من الراوي =

سورة الأعراف / آية ٢٧ - ٣٣ ٧٣

ويزينه ، ولأن الإنسان هو أيضاً طائر في حياة التكليف بلباس التقوى وريشها ، عارجاً معارج الكمال ، وقد « كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا لبس ثوباً جديداً قال الحمد لله الذي كساني من الرياش ما أوارني به عورتني وأنجمل به في الناس » (١) .

وقد تلمح « وريشاً » في مقام الإمتنان لإستحباب ملابس الزينة ، اللهم إلا ما استثنى من تزيين الرجال بالذهب والحريز أو تزيين النساء لغير المحارم ، وبأحرى ريش التقوى وهو التقوى عن المرجوحات ، فالتقوى المفروضة للروح كاللباس المفروض للبدن ، ثم التقوى المحبورة للروح هي كريش البدن .

ذلك ، ويعاكسه الجاهلية المتحضرة ! عفاف الستر إلى تبرج العرى ، وهي من الحضارات الحيوانية التي تعرض في معرض هذه الجاهلية باسم الزينة والحضارة والمودة ، حملة فاجرة داعرة إلى العرى البدني كما النفسي يصبح الإنسان مكشوف العورتين ، بادي السواتين ، تدعو إليه أقلام سامة وسائر أجهزة الإعلام العاملة أو العملية لشياطين

= أو مضروب عرض الحائط لمخالفة الآية لفظاً ومعنى ، وما روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قرء « رياشاً » موقفة بموقفه كما في الدر المنثور ٣ : ٧٦ عن عثمان سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقرء « ورياشاً » ولم يقل « وريشاً » أقول : ولا يناسب رياشاً اللباس .

(١) الدر المنثور ٣ : ٧٦ - أخرج أحمد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن علي قال كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ... وفيه أخرج أبو الشيخ عن الحسن قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ما من عبد عمل خيراً أو شراً إلا كسي رداء عمله حتى يعرفوه وتصديق ذلك في كتاب الله « ولباس التقوى ذلك خير » .

وفيه أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن قال رأيت عثمان على المنبر قال : يا أيها الناس اتقوا الله في هذه السرائر فإنني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : والذي نفسي محمد بيده ما عمل أحد عملاً قط سراً إلا ألهمه الله رداءه علانية إن خيراً فخير وإن شراً فشر ثم تلا هذه الآية « ورياشاً » ولم يقل « وريشاً » أقول : هذا كسابقه في موقفه من « رياشاً » ، وحين يعني الرياش جمع الريش فذلك تفسير بجمع المعنى وليس نقلاً للفظ الآية .

﴿ يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ (٢٧) .

ذلك ، فمن فتن الشيطان في بني الإنسان نزع اللباس الساتر لعورات الجسم والروح ، إسقاطاً لمحتدهم الإنساني إلى هوات ساحقة ماحقة لكيلا يبقى على أثر من حالتهم الإنسانية وهالتها المتميزة في أرواحهم وأجسامهم كما البهائم وأضل سبيلاً .

وهنا « لا يفتنكم » نهي بات مؤكد من تلك الفتنة الهاجمة على بني آدم ، الناجمة منه على آدم ، كتجربة مرة مرتّ لمرة سابقة ، يجب أن تكون درساً لأنسال آدم إلى يوم الدين .

ذلك وإن هذه الفتنة لبني آدم أبلى منها لآدم فـ « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » ولكنه كان يراه بشخصه حيث عرفه الله إياه : « قلنا يا آدم إن هذا عدوك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقي » (٢٠ : ١١٧) فوالله إن عدواً يراك من حيث لا تراه لشديد المؤنة إلا من عصم الله ، فلو أن الصيد يرى الصائد لما كان يُصاد كما يصاد ، فبنوا آدم هم كلهم مصائد الشيطان الخفي بمكائده من حيث لا يرونه رأي العين البصر ، وإن كانوا يرونه رأي البصيرة فطرة وعقلية ومواصفة على ضوء الوحي .

ذلك ، وفي « لا يفتنكم » تحريض على معرفة الشيطان بأحواله وأحباله ، بأفكاره وأفعاله . لكي نعرفه ببصائرنا جبراً لما نجهله بأبصارنا ، فالذين يؤمنون هم يعرفونه فلا يفتنون : « إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » .

وكما أن كلمة التوحيد تفرض في سبلها : « لا إله » معرفة كل إله باطل لنرفضه ، ثم معرفة الله لنرفضه ، كذلك في دار الاختبار الاختيار علينا أن نعرف الشيطان بشيطناته حتى لا نوقع في فخاخه ، ومن ثم الطاعة الخالصة غير الكالسة ولا الفالسة لله وحده .

أجل « إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » حيث « اجتالتهم الشياطين عن معرفته ، واقتطعتهم عن عبادته » (الخطبة ١) فقد « أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه ، ووردوا مناهله ، بهم سارت أعلامه ، وقام لواءه » و « اتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً ، واتخذهم له أشراكاً ، فباض وفرخ في صدورهم ، ودب ودرج في حجورهم ، فنظر بأعينهم ، ونطق بألسنتهم ، فركب بهم الزلل ، وزين لهم الخطل ، فعل من قد شركه الشيطان في سلطانه ، ونطق بالباطل على لسانه » .

فالبصيرة الحاصلة على ضوء الفطرة والعقلية السليمة والوحي هي التي تطرد الشيطان ، « ألا وإن الشيطان قد جمع حزبه ، واستجلب خيله ورجله ، وإن معي لبصيرتي ما لبست على نفسي ولا لبس علي » (١٠) .

فلقد « حذركم - الله - عدواً نفذ في الصدور خفياً ، ونفت في الأذان نجياً ، فأضل وأردى ، ووعد فمى ، وزين سيئات الجرائم ، وهون موبقات العظائم ، حتى إذا استدريج قريته - النفس الأمارة - واستغلق رهيته ، أنكر ما زين ، واستعظم ما هون ، وحذر ما أمن » (٨١) « إن الشيطان يسني لكم طرقه ، ويريد أن يحل دينكم عقدة عقدة ، ويعطيكم بالجماعة الفرقة ، وبالفرقة الفتنة ، فاصدقوا عن نزعاته ونفثاته » (١١٩) .
ذلك و « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » (١٦ : ٩٩) .

وليس الإنسان أياً كان - ومعه أي كائن كان - ليعيش دون أية ولاية ، فهو بين ولاية الشيطان ، وولاية الرحمن ، فالخالط بينهما مشرك ، وولي الشيطان - فقط - ملحد ، وولي الرحمن موحد .

ذلك ، وكيف بإمكان الشيطان أن « ينزع عنهما لباسهما » وقد ألبسهما الله إياه ؟ إنه بما ولأهما بغرور فباغترابه ، بذلك قد سبب تلك العقوبة من الله لهما أن نزع عنهما لباسهما وأخرجهما من الجنة ، فنزع اللباس والخروج من الجنة بين زوايا ثلاث ، من الشيطان حيث أزلهما ، ومنهما حيث زلا ، ومن الله إذ عاقبهما بما زلا وضلاً فلم يحل بينه وبينهما

فيما زلاً ، وترى إن رؤية الشياطين وسائر الجن مستحيلة لقبيل الإنسان ؟
وقد يرون منهم مَنْ نفذت بصيرته ، أم كان منهم في مسالكهم ! .

هنا « من حيث لا ترونهم » لا تنفي أصل الرؤية ، فإنما تنفي حيث الضلالة ككل ، حيث يأتيكم شياطين الجن والإنس من حيث النصح وكما قال : « ثم لا تينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » مهما عرفوا حيث شخصه مهما قلت .

فالأكثرية المطلقة ممن يستزله ويستضله الشياطين هم الأغفال الذين يُستغفلون ، فيؤثّون من حيث « لا يرونهم » قصوراً عن تقصير ، فـ « إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع وأحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله ويتولى عليها رجال رجالاً فلو أن الحق خلص لم يكن للباطل حجة ولو أن الباطل خلص لم يكن إختلاف ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فيجيثان معاً فهناك إستحوذ الشيطان على أوليائه ونجى الله سبقت لهم من الله الحسنى » ^(١) .

إذا فـ « الشياطين » هنا يعم شياطين الإنس إلى شياطين الجن ، مهما كان عدم الرؤية في الآخرين يعم حيث الضلالة إلى رؤية أشخاصهم وهذا أضل وأشجى ، وترى « إنا جعلنا الشياطين . . » يجعله تعالى سبباً للإضلال ؟ كلا ، فإنه جعل تكويني وترك للحاجز بينهم وبين الذين لا يؤمنون ، دون دفع أو تحريض ، وهكذا « إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا » (١٩ : ٨٣) « وقبضنا لهم قرناً فزينا ما بين أيديهم وما خلفهم » (٤١ : ٢٥) واختيار المكلفين في دار البلية والإختبار من قضاياء هدى النجدين ، وفسح المجال لهما أمام العالمين : « من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » بفارق أن الله هادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم : « والذين اهتدوا زادهم هدى » (٤٧ : ١٧) .

وأما الذين ضلوا فيلذروهم في طغيانهم يعمهون ، ويخلي بينهم وبين الشياطين يفعلون بهم ما يشاءون : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » .

(١) نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) .

ذلك ، ومن ولاية الشياطين للذين لا يؤمنون معاكسة الحقائق ، إراءة
للفاحشة الطائشة أنها بأمر الله ، وللطاعة الربانية أنها بأمر الشيطان :

﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا إنا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن
الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ (٢٨) .

هنا تبرير أول لإفتعال الفاحشة : « إنا وجدنا عليها آباءنا » وسنة الآباء
القُدَامَى حجة على الأولاد ، وتبرير ثانٍ زعم أنه يؤكد صالح ذلك التقليد
الأعمى : « والله أمرنا بها » وذلك كمثّل طوافهم - ولا سيما النساء ^(١)
عراةً ، وصلاتهم عند البيت مكاءً وتصدية وما أشبه ، حيث كانوا يعتبرونها
من العبادات المأمور بها ! .

وكيف ؟ « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباءنا » (٦ : ١٤٨) - « لو شاء
الله ما عبدنا من دونه من شيء » (١٦ : ٣٥) .

تأويل عليل لمشية الله خلطاً لتكوينيتها بتشريعيتها ، أن عقائدنا
وأعمالنا الشريكة ليست لتخلف عن مشية الله ، فإن الله غالب على أمره ؟
رغم أنه يشاء تكويناً ما لا يشاءه تشريعاً قضية الإبتلاء بالاختيار ، ولو أنه
يشاء كلما يحصل من عباده تشريعاً ، كما يشاء تكويناً، لتناقضت المشيتان
التشريعيتان ! بحق الصالحين والطالحين .

« قل » لهؤلاء الأوغاد المناكيد : « إن الله لا يأمر بالفحشاء » في
شرعته ، مهما لا يمنع عنها تكويناً في محنته ، « أتقولون على الله ما لا
تعلمون » سواء بصيغة علمية فلسفية في صيغة الجبر ، أم جاهلية فوضى
جزاف دون أي سناد مهما كان بصيغة علمية مرفوضة كهذه .

وقد يتعلق أمثال هؤلاء المجاهيل - كافرين أو مسلمين - بأمثال « وإذا
أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها
تدميراً » (١٧ : ١٦) بتخيّل أن « ففسقوا فيها » هو فسق تحت الأمر ،
غفلة أو تغافلاً عن أن الفسق هو التخلف عنه ، إذاً فـ « أمرنا
مترفيها » بما نأمر « ففسقوا فيها » عن أمرنا تخلفاً عنه ، كما و « إن الله لا

(١) وقد كن ينشدن قولهن في طوافهن : اليوم بيدو بعضه أو كله وما بدا منه فما أحله .

وتراهم كانوا ينسبون كل فاحشة يفعلونها إلى الله ؟ نعم ، في تأويلهم العليل للمشيئة الربانية ، ولا ، في غير ذلك التأويل ^(١) ، و « فاحشة » دون « فواحش » أم « كل فاحشة » علها لشمول الأمرين .

وتراهم يعتبرون ما يفعلونه من « فاحشة » فاحشة ، ثم يبررون موقفهم منها بذلك نعم ، في التأويل الأول ، أم لأنها بأمر الله فليست - إذا - فاحشة ، ولا ، في التأويل الثاني اللهم إلا من أذلهم .

ثم هؤلاء الناكرون للوحي كيف يقولون « والله أمرنا بها » ؟ إنه في التأويل الأول قولة فلسفية خيلت إلى أهلها ، وفي الثاني فرية جاهلة على الله يجمعها القول على الله بغير علم : « أتقولون على الله ما لا تعلمون » .

﴿ قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تهودون ﴾ ^(٢) .

« القسط » هنا هو العدل إلى الفضل ، فإن منه فضلاً ومنه ظلماً ، إعطاء لقسط فاضل أم أخذاً لقسط ، فالقسط العدل مأمور به فرضاً والقسط الفضل ندباً ، ومن المجموع « أقيموا وجوهكم عند كل مسجد » وهو السجدة بزمانها ومكانها واتجاهها ^(٣) ، وإقامة الوجوه هي الله عند كل

(١) نور الثقلين ٢ : ١٧ في أصول الكافي عن محمد بن منصور قال سألت عن قول الله عز وجل : « وإذا فعلوا فاحشة . . » قال فقال : هل رأيت أحداً زعم أن الله أمرنا بالزنا وشرب الخمر وشيء من هذه المحارم ؟ فقلت : لا ، قال : ما هذه الفاحشة التي يدعون أن الله أمرهم بها ؟ قلت : الله أعلم ووليه ، فقال : فإن هذا في أئمة الجور ادعوا أن الله أمرهم بالإتيان بقوم لم يأمرهم الله بالإتيان بهم فرد الله ذلك عليهم فأخبر أنهم قد قالوا عليهم الكذب وسمى ذلك منهم فاحشة ، أقول : هذا من باب بيان مصداق مختلف فيه حينذاك بين مصاديق الوجه الثاني من « والله أمرنا بها » .

(٢) المصدر في تهذيب الأحكام من أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال سألت عن قول الله عز وجل : « وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد » قال : هذه القبلة .

مسجد بكل الوجوه ، ظاهرة وباطنة ، ثم « وادعوه » : الله - عند كل مسجد « مخلصين له الدين » : الطاعة والعبادة ، دون إشراك به في وجه من الوجوه ومنها الرثاء ، فإنه تعالى « كما بدأكم » لا سواء « تعودون » إليه لا سواء ، ويا لها من لقطة واحدة عجيبة ، قفزة تجمع بين نقطة البدء في الرحلة الكبرى ، ونقطة الانطلاق والنهاية .

ثم لأن « كل مسجد » تشمل مربع السجدة، بزمانها، ومكانها واتجاهها ، فالأمر - إذاً - يحلق عليها كلها ، مما يلوح صارحة برجاجة أم فرض الصلاة في المساجد ، ومكية الآية - زعم أن الكعبة في العهد المكي لم يكن قبله بُعد ، ولم تكن في مكة مساجد آنذاك - لا تمنع عن الأمر لأداء الصلاة في المساجد ، حيث الكعبة المباركة كانت هي القبلة في العهد المكي كما المدني إلا شطراً قليلاً في ثاني العهدين^(١) ثم كل مكان متخذ للصلاة مسجد لمتخذه وإن لم يكن مسجداً عاماً ، وكما أمرنا أن نخصص أمكنة خاصة في بيوتنا للصلاة ، وذلك عند إعواز المساجد الرسمية أم عسر الوصول إليها ، ثم الآية المكية ليست لتحصر حكمها بالعهد المكي ، كما المدنية لا تخص المدنيين ، فالقرآن ككل شرعة عالمية تتخطى حواجز الزمان والمكان، مهما كان المخاطبون الأولون المكين والمدنيين : « كما بدأكم تعودون » .

وفي رجعة تفصيلية إلى ذلك المقطع اللامع من لوازم الآية نتساءل : هل المشابهة هنا بين البدء والعود واقع ؟ والبدء ولادة من الأرحام ابتداء « بين الصلب والترائب » والعود لا يعرف صلباً ولا رحماً ولا أية ولادة ! .

إنه في وجه المشابهة تشابه بين بدء الإنسان الأول حيث بدأنا به ، وبين العود ككل ، فكما خلقنا الله أول مرة من تراب ، كذلك يعيدنا من تراب « وهو أهون عليه » مرة أخرى .

وبوجه ثان « كما بدأكم » إنشاء من تراب كالإنسان الأول ، أم إنشاء الأنسال كسائر الإنسان ، ولم يعي بذلك الخلق الأول ، كذلك « تعودون »

(١) لمعرفة التفصيل راجع البقرة على ضوء آيات القبلة .

بنفس القدرة ، و « هو أهون عليه » . وقد يعني التشبيه كلا الأمرين ، تشبيهاً في القدرة بأولوية ، وتشبيهاً في المنشأ بين البدء والعود ، ف « هو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » (٣٠ : ٢٧) « كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين » (٢١ : ١٠٤) ، « قل هل من شركاءكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده قل الله يبدؤ الخلق ثم يعيده » (١٠ : ٣٤) « أولم يروا كيف يبدؤ الله الخلق ثم يعيده » (٢٩ : ١٩) ؟ .

فالقادر على البدء - وهو واقع لا مرد له - هو قادر - بأحرى - على الإعادة ، كما هي الموعودة المتوقعة ، وهما متماثلان في جذور الخلق الإنشاء ، مهما اختلفا فيما يختص بكل واحد قضية نشأته .

إذاً فلكل منا تراه المخصوص به دون الزائد الملحق المدسوس من أجزاء آخرين ، أم أجزاء غير أصيلة في تكوينه ، فكما أن كلاً منا خلق من خاصة نطقته أول مرة ، فهو العائد بها مرة أخرى مهما التحق بها ما يعيش كل معها طول عمره دون فصال ، ولكن الأجزاء الأخرى العائشة معنا رديحاً ومع الآخرين رديحاً آخر أم على طول الخط ، إنها ليست هي عائدة مع كل ، بل هي عائدة لأشخاصها ، أم بأشخاصها عن أصول الأبدان العائشة دوماً معها .
ويؤجبه ثالث كما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) :
« يُحْشَرُ النَّاسُ حِفَاةَ عَرَاةٍ غُرْلًا ^(١) » وقال علي (عليه السلام) :
« فجاءوها حفاة عراة قد ظعنوا عنها بأعمالهم إلى الحياة الدائمة ، والدار الباقية كما قال سبحانه : « كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين » (المخطبة ١١٠) .

ذلك ، وقد تعني - فيما عنت - أن الآخرة هي مثال الدنيا ، فكما بدأكم فريقين بما عملتم مهتدين وضالين ، كذلك تعودون مهتدين وضالين دونما خلط ولا فوضى جزاف ، ويؤيده :

(١) مفتاح كنوز السنة عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) نقلاً عن : بخ - ك ٨١ ب ٤٥ ، مس - ك ٥١ ح ٥٦ - ٥٨ ، قا ، تر - ك ٣٥ ب ٣ ، ل ٤٤ سورة ١٧ ح ٧ وسورة ٢١ ح ٤ وسورة ٨٠ ح ٢ ، نس - ك ٢١ ب ١١٧ و ١١٨ ، مسج - ك ٣٧ ب ٣٣ ، مس - ك ٢٠ ب ٨٢ ، حم - أول ص ٢٢٠ و ٢٢٣ و ٢٢٩ و ٢٣٥ و ٢٥٣ و ٣٩٨ ، قا ، ثالث ص ٤٩٥ ، سادس ص ٥٣ و ٨٩ ، ط - ح ٢٦٣٨ .

﴿ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ (٣٠) .

« فريقاً هدى » بما اهتدوا: « الذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » (٤٧ : ١٧) « وفريقاً حق عليهم الضلالة » بما حققوها: « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » (١٦ : ٥) فـ « إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله » متورطين في اللجج بعد بهور الحجج ، ثم « ويحسبون أنهم مهتدون » - « قل هل نتبكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (١٨ : ١٠٤) .

أجل ، فكما بدأوا الرحلة فريقين : آدم وزوجه ، والشيطان وقبيله ، كذلك يعودون كل مع إمامه الذي كان يأتهم به ، الصالحون مع أهل الله ، والطالحون مع الشياطين .

ذلك ، ونرى كيف نقيم وجوهنا عند كل مسجد ؟ عراة كما خلقنا الله أم لابسين كما اختلقناه من ملابسنا ؟ :

﴿ يا بني آدم خذوا زيتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ (٣١) .

.. لما أمر بالقسط فرضاً وراجحاً ، فاليكم منها مصاديق : أخذ الزينة عند كل مسجد، والقسط في الأكل والشرب دون إسراف ، فالتبذير فيها محرم بأحرى ، والإسراف فيها محرم دونه ، والشبع دون إسراف غير مجبور ولا محذور ، ودون الشبع مجبور .

ثم من « زيتكم » هي الرياش : ملابس التجميل فوق ملابس السر (١) ، فكما من سوء الأدب أن نصلي عراة ، كذلك أن نصلي - فقط - مستوري العورات ومهما صحت الصلاة بذلك السر القليل العليل في الفقه الأصغر ، فهي ليست لتصح في الفقه الأكبر ، وحين يجب أخذ

(١) في الدر المنثور ٣ : ٧٩ - أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : لا يصلين أحدكم في الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء » وفيه « نهى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يصلي الرجل في لحاف لا يتوشح به ونهى أن يصلي الرجل في سراويل وليس عليه رداء .

لباس الزينة عند كل مسجد فبأحرى لباس يوارى سواكم ، فالصلاة عارياً محرمة باطلّة ، وهي دون لباس الزينة - إن كانت صحيحة - عاطلة ، ولأن « خذوا » أمر يدل على فرض ، فأخذ الزينة عند كل مسجد فرض على فرض ، إلا أن يدل قاطع الدليل كتاباً أو سنة على عدم الفرض بعضاً ما فتقيد « خذوا » به .

ذلك ، ومن « زيتكم » أموالكم وأولادكم وأهلكم ، فـ « المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً » (١٨ : ٤٦) كما منها التمشط (١) والتطيب .

ولأن « زيتكم » لم تلحق بشيء من « معكم » حتى تختص بمعيتها كيفما كانت ، ولا « عنكم » حتى تختص بتركها كذلك ، فهي بين أمرأة باستصحاب زينة كالملايس الواجبة والمسموحة زينة ، وكذلك الأموال لإنفاقها على المحاريج ، والأولاد لمشاركتهم في الصلاة ، وبأحرى الأئمة العدول فانهم زينة المساجد (٢) ، وسائر الزينة الإيمانية حيث تناسب الصلاة والمصلين معك ، فلتكن معك الزينة الباطنة إلى الظاهرة ما يناسب كل مسجد وهو محبور ، دون ما لا يناسبه وهو محذور ، ونهاية عن استصحاب زينة كالتي يحرم استصحابها للرجال مثل الذهب والحريز ، في صلاة وسواها ، أو الملايس المغتصبة أماهيه من محظورة ، وملايس الزينة للنساء ، المحظورة أمام الجماهير .

(١) نور الثقلين ٢ : ١٩ في من لا يحضره الفقيه سئل أبو الحسن (عليه السلام) عن قول الله عز وجل « خذوا زيتكم عند كل مسجد » قال : من ذلك التمشط عند كل صلاة .

وفيه عن الخصال عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : تمشطوا فإن التمشط يجلب الرزق ويحسن الشعر وينجز الحاجة ويزيد في ماء الصلب ويقطع البلغم .

وفيه في تفسير العياشي عن الرضا (عليه السلام) قال : وهي الثياب ، وفيه كان الحسن بن علي (عليه السلام) إذا قام إلى الصلاة يلبس أجود ثيابه فقل له يا بن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تلبس أجود ثيابك ؟ فقال : إن الله جميل يحب الجمال فاتجمل لربي وهو يقول : خذوا زيتكم عند كل مسجد . فأحب أن ألبس أجود ثيابي .

(٢) نور الثقلين ٢ : ١٩ عن تفسير العياشي عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية يعني الأئمة .

فـ « زيتتكم » التي تزيتكم إنسانياً وإيمانياً ، خذوها معكم « عند كل مسجد » حيث المحضر ربانياً وبشرياً يتطلب أدب الزينة .

ثم « زيتتكم » الملهية المحظورة خذوها عنكم « عند كل مسجد » فـ « خذوا » تعم المحذور إلى المحبور ، خذوا معكم مجبوراً وخذوا عنكم محظوراً ، فلا يظن ظان أن مساجد الله التي هي محاضرة ، أنها محاضر عن أخذ « زيتتكم » ملابس وأموالاً وأولاداً ، ولا أنها معارض لرعونات الزين الملهية .

وترى النعلين - وهما زينة الرجلين - هل هما من زينة الصلاة المعنية ضمن ما عنته « زيتتكم » ؟ إنهما زينة في غير الصلاة ، ولكن أدب العبودية في الصلاة يقتضي تركهما حالها إما لكونهما خلاف زينة الصلاة ، أم زينة محظورة فيها فخذوا عنكم - إذا - نعليكم واخلعوهما وكما قال الله لموسى : « فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى » (٢٠ : ١١) فالمروي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) انه كان يلبسهما فيها ويأمر به ، مفترئ عليه فمضروب عرض الحائط .

وكما أن أخذ الزينة عند كل مسجد مجبور ، كذلك في سائر الحالات ولا سيما في زيارة المؤمنين^(١) أم ورقابة أعين الفاسقين .

(١) في الدر المنثور ٣ : ٧٩ ، أخرج أبو داود عن أبي الأحوص عن أبيه قال : « أتيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في ثوب درن فقال : ألك مال ؟ قال : نعم ، قال : من أي المال ؟ قال : قد آتاني الله من الإبل والغنم والخيول والرقيق ، قال : فإذا آتاك الله فلير أنثر نعمة الله عليك وكرامته » وفيه أخرج أحمد ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا يدخل النار من كان في قلبه ذرة مثقال من إيمان ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر ، قال رجل يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : إنه يعجبني أن يكون ثوبي غسيلاً ورأسى دهيناً وشراكي نعلي جديداً - وذكر أشياء حتى ذكر علاقة سوطه - فمن الكبر ذاك يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ قال : لا ، ذاك الجمال إن الله عز وجل جميل يحب الجمال ولكن الكبر من سفه الحق وازدري الناس ، وفيه أخرج ابن سعد عن جندب بن مكيث قال : كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا قدم الوفد لبس أحسن ثيابه وأمر عليه أصحابه بذلك .

« وكلوا واشربوا » مما يحل لكم، ولكن ليس فوضى جفاف أن تبذروا أو تسروا لأنها من أموالكم ، بل « ولا تسرفوا » أكلاً ولا شرباً زائداً عن الحاجة المتعودة ، إسرافاً في كمهما وكيفهما : وإسرافاً في أصلهما كأن يكونا محرّمين، فالأكل والشرب المحرمان هما من الإسراف مهما كانا قليلين، ومنه المأكول والمشروب اللذان يضران بصحة الإنسان، فإن فيهما إسرافاً، فلا يختص الإسراف المحظور بحقل خاص في الأكل والشرب، بل هو فيهما بكل الأبعاد مادةً وكماً وكيفاً وصحياً وأي حظر آخر ، وقد يفسره بهذه السعة : « فليُنظر الإنسان إلى طعامه » (٨٠ : ٢٤) .

« انه لا يحب المسرفين » بل ييغضهم ، فضلاً عن المبذرين ، فـ « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين » (١٧ : ٢٧) .

إن التبذير والإسراف إضافة إلى محظورهما الجماعي حيث فيهما جوع معدّمون ، فيه أيضاً محظور صحي روحياً وبدنياً ، لا فحسب الإسراف ، بل والشبع فإن « من شبع عوقب في الحال ثلاث عقوبات : يُلقى الغطاء على قلبه ، والنعاس في عينه ، والكسل على بدنه »^(١) ، و « كثرة الطعام تميت القلب كما تميت كثرة الماء الزرع »^(٢) ، فـ « لا تطلب الحياة لتأكل بل أطلب الأكل لتحيّا »^(٣) ، و « لا تجلس على الطعام إلا وأنت جائع ، ولا تقم عنه إلا وأنت تشتهي ، وجود المضغ ، وأعرض نفسك على الخلاء فإذا استعملت هذه استغنيت عن الطب »^(٤) .

ذلك ، و « إن من الإسراف أن تأكل كل ما اشتيت »^(٥) وهو

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ٦٧٤ .

(٢) و (٣) المصلح ٨٢٤ .

(٤) مستدرك النهج ١٦٢ .

(٥) الدر المنثور ٣ : ٨٠ - أخرج ابن ماجة وابن مردويه والبيهقي عن أنس قال قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : ... وفيه عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ان أكثر الناس شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة .

وفيه عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه .

وفيه عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : المعدة حوض البدن والعروق إليها واردة فإذا

إسراف في الكيف مهما لم يكن إسرافاً في الكم ، و « لا تسرفوا » يعم الكيف إلى الكم ، وفي الناس من لا يجد كمّاً ولا كيفاً من الطعام .

وكما أن الأكل والشرب المسرف محرم على الأكل والشارب ، كذلك الإيكال والإشراب المسرف « إنه لا يحب المسرفين » أكلاً وإيكالاً أم وتصرفات أخرى .

فلقد جمع الطب كله بحق الأكل والشرب في نصف آية ^(١) وعلمه يعم إسراف السلب والإيجاب ^(٢) ، ولكن الإيجاب أضمر أن تأكل

صحت المعدة صدرت العروق بالصحة وإذا فسدت المعدة صدرت العروق بالسقم . وفي تفسير البرهان ٢ : ١٠ عن الكافي عن إسحاق بن عبد العزيز من بعض أصحابه عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : نكون بطريق مكة ونريد الإحرام فنطلى ولا يكون معنا نخالة فتدلك بها من النورة فتدلك بالدقيق وقد دخلني من ذلك ما شاء الله أعلم به ؟ فقال : مخافة الإسراف ؟ قلت : نعم ، فقال : ليس فيما أصلح البدن إسراف إنني ربما أمرت بالنقي فيلت بالزيت فأتدلك به إنما الإسراف فيما أفسد المال وأضر البدن ، قلت : وما الإقتار ؟ قال : أكل الخبز والملح وأنت تقدر على غيره ، قلت : فما القصد ؟ قال : الخبز واللحم واللين والمخل والسمن مرة هذا ومرة هذا .

وفيه عن العياشي عن إبان بن تغلب قال قال أبو عبد الله (عليه السلام) : أترى الله أعطى من أعطى من كرامته عليه ومنع من منع من هوان به عليه ؟ لا - ولكن المال مال الله يضعه عند الرجل ودائع وجوز لهم أن يأكلوا قصداً ويشربوا قصداً ويلبسوا قصداً وينكحوا قصداً ويركبوا قصداً ويعودوا بما سوى ذلك على فقراء المؤمنين ويلموا به شعنتهم فمن فعل ذلك كان ما يأكل حلالاً ويشرب حلالاً ويركب حلالاً وينكح حلالاً ومن عدا ذلك كان عليه حراماً ثم قال : « ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » أترى أئمتنا رجلاً على ماله خول له أن يشتري فرساً بعشرة آلاف درهم ويجزيه فرس بعشرين درهماً ويشتري به جارية بألف دينار ويجزيه جارية بعشرين ديناراً وقال « ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » .

(١) روي أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق فقال ذات يوم لعلي بن الحسين بن واقد : ليس في كتابكم من علم الطب شيء والعلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان فقال له علي (عليه السلام) قد جمع الله الطب كله في نصف آية وهو قوله « كلوا واشربوا ولا تسرفوا » وجمع نبينا الطب في قوله : المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء وأعط كل بدن ما عودته ، فقال الطبيب : ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طياً .

(٢) تفسير البرهان ٢ : ١٠ عن العياشي عن هارون بن خازجة قال قال أبو عبد الله (عليه السلام) : ...

مُسرفاً ، وأما ألا تأكل مسرفاً فضره أقل إلا إذا كان مضرراً كما الأكل ، فكلا الأكل والشرب وتركهما إسرافاً أو تبذيراً محرماً فإنهما محرمان كضابطة عامة في كافة الحقول .

إذا فـ « ولا تسرفوا » تعم كل تجاوز كمي أو كيفي في الأكل والشرب وما أشبه من مصروفات هي إسرافات ، أم وأنحس منها تبذيرات .

فالمواد الدخانية كلها داخلة في حقل الإسراف ، أو التبذير ، فالجيجارة وما أشبه تنطبق عليها عناوين تالية :

١ الإسراف ٢ أو التبذير ٣ « اثمهما أكبر من نفعهما » تنطبق عليها لو كان لها نفع بضمن الضرر الأكثر ، وقد تعرف علم الطب إلى أضرار الدخان ، مما يوحش الإنسان من عواقب سوء للمتعود به (١) .

(١) منذ سنين عدة وقد تزايد السرطان في المجتمع البشري ، أخذ العلماء الأوروبيين والأمريكيين يحققون بحثاً عن عوامل تزايد السرطان .

ففي سنة ١٩٥٢ جماعة من أطباء الأمريكيين فحصوا بصور موسعة عن السرطان ، فابتدأوا بمعتادي الدخان ، وكانت من نتائج تحقيقاتهم ما فجر العالم من نبيأ ، إنهم حققوا في ولايات تسعة أمريكية ، وفحصوا عن أمزجة أناس بين خمسين وسبعين وحصلوا بعد سنة من فحصهم أن أكثرية المبتلين بالسرطان هم المعتادين بالدخان ، وقد يقدر بـ ١٠٠/٤٠ أكثر من غيرهم ، حيث يموتون إثر الحملة القلبية والسرطان الرئوي ، وعلى إعلان هذه المزمنة ترك ١/٥ مليوناً الدخان عن بكرته . ثم أخذت هذه الفوغائية من أخطار الجيجارة السرطانية أنجلترا ، وهنا مقالة لجريدة انجليزية طبية باسم « لانست » :

ليست اليوم من أيام المقالات الحدسية ، إنه يوم الجد الواقع ، فقد ابتلي بالسرطان واحد من (١١) شخصاً كانوا يشربون الجيجارة يومياً ٢٥ - ٥٠ .

هذه الجريدة وسائر الجرائد الانجليزية كان تستند إلى تحقيقات الدكتور هانري كوهن ، فقد أثبت هذا الطبيب أنه يموت في انجلترا سنوياً / ٢٠,٠٠٠ شخصاً على أثر السرطان الرئوي ، والشخص المتعود على الجيجارة بعدد (٢٥) يومياً يتلى بالسرطان الرئوي أكثر من غيره ١٠٠/٥ - ١٠٠/٦ إلى ١٠٠/٣٠ .

والجريدة الطبية الانجليزية طلبت من جميع الأطباء أن يحرموا التن والتبناك ، وأخيراً قدم اقتراح إلى المجلس النيابي البريطاني في أن يمنع بيع الجيجارة للشباب الأقل عمراً من (١٨) سنة .

فلأن الإسراف في كل حقوله محرم فـ « من سأل الناس شيئاً وعنده ما يقوته يومه فهو من المسرفين » ^(١) .

﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ ^(٣٢) .

« زينة الله » هي التي خلقها الله لعباده لكي ينتفعوا بها وفق شرعة الله ، والضابطة العامة - إذا - فيها هي الحل ، إلا ما أخرجه قاطع النص ، فـ « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً » (٢ : ٢٩) ، كضابطة الحل العامة ، وهنا « قل من حرم زينة الله » إستنكار شديد على من حرم زينة الله كأصل نقشاً ورهبانية جاهلة قاحلة كما حصل من جمع من المسلمين ، فنزلت الآية تنديداً بهم ^(٣) ، وعلى حد تعبير الرسول (صلى الله عليه وآله

ومثل هذه التحقيقات أخذت دورها الفعال في فرنسا وسائر البلاد الأوروبية وفي اليابان مثل ذلك ، فقد حقق طبيب ياباني باسم « الدكتور بنجويم ووج » أن في تنن الجيگارة مادة سامة باسم (داينزن) إن زرقت جرداً أبتلي بالسرطان ، ويضيف الدكتور (ووج) أن هذه المادة هي حصيلة إحتراق التنن . وقد جرب ذلك الزرق في / ٤٠٠٠ جرداً وبعد ٤٢ يوماً أبتليت كلها بالسرطان . وعلى أثر هذه التجربات الغوغائية ترك جمع كثير من الناس المعتادين بالدخان في كل أنحاء العالم ولا سيما في أمريكا وإنجلترا ، تركوا الجيگارة لحد سبب خسارة على سوق الجيگارة ، لحد بعث أصحاب معامل الجيگارة مبعوثاً باسم (الكساندر ماكسويل) إلى المقامات المعنية دفاعاً عن منافعهم .

(١) راجع إلى ص ٨٥ حاشية (٢)

(٢) في تفسير الفخر الرازي ١٤ : ٦٣ روى عن عثمان بن مظعون انه أتى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال : غلبني حديث النفس ، عزمت على أن أختصي فقال : مهلاً يا عثمان إن خصاء أمتي الصيام ، قال : فإن نفسي تحدثني بالترهب ، قال : إن ترهب أمتي القعود في المساجد لانتظار الصلاة ، فقال : تحدثني نفسي بالسياحة ، فقال : سياحة أمتي الغزو والحج والعمرة ، فقال : إن نفسي تحدثني أن أخرج مما أملك ، فقال : الأولى أن تكفي نفسك وعيالك وأن ترحم اليتيم والمسكين فتعطيه أفضل من ذلك ، فقال : إن نفسي تحدثني أن أطلق خولة ، فقال : إن الهجرة في أمتي هجرة ما

ومسلم (توبيخاً لهم : « لكنني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء »^(١) .

ذلك ، والأصل في « زينة الله والطيبات من الرزق » أنها « هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » مهما كانت خليطة غير خليصة في الحياة الدنيا ، فـ « هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا » في الحياة الدنيا كأصل مرضي حالكونها « خالصة يوم القيامة »^(٢) .

فالحياة الدنيا برمتها الزينة « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوكم أيكم أحسن عملاً » (١٨ : ٧) إنها كما يروى عن إمام المتقين علي (عليه السلام) : « من أبصر بها بصرتة ومن أبصر إليها أعمته » فالتذرع بزينة الحياة الدنيا لزينة الحياة الأخرى محبور ، والإقبال عليها والإخلاد إليها محظور .

حرم الله ، قال : فإن نفسي تحدثني أن لا أغشاها ، قال : إن المسلم إذ أغشى أهله أو ما ملكت يمينه فإن لم يصب من وقعته تلك ولدأ كان له وصيف في الجنة وإذا كان له ولد ومات قبله أو بعده كان له قرعة عين وفرح يوم القيامة وإن مات قبل أن يبلغ الخنث كان له شفيماً ورحمة يوم القيامة ، قال : فإن نفسي تحدثني أن لا أكل اللحم ، قال : مهلاً إني أكل اللحم إذا وجدته ولو سألت الله أن يطعمنيه كل يوم فعله ، قال : فإن نفسي تحدثني أن لا أمس الطيب ، قال : مهلاً فإن جبرئيل أمرني بالطيب غياً وقال : لا تتركه يوم الجمعة ، ثم قال : يا عثمان ! لا ترغب عن سنتي فإن من رغب عن سنتي ومات قبل أن يتوب صرفت الملائكة وجهه عن حوضي .

(١) مفتاح كنوز السنة نقلاً عن بخ - ك ٦٧ ب ١ و ٨٩ ، ك ٧٨ ب ٨٤ ، مس - ك ١٦ ح ٥ - ٨ - تر - ك ٩ ب ٢ ، نس - ك ٢٦ ب ٤ مج - ك ٩ ب ٢ ، مي - ك ١١ ب ٣ عد - ج ١ ق ٢ ص ٩٥ ج ٣ ق ١ ص ٢٨٧ ج ٤ ق ٢ ص ٨ حسم - أول ص ١٧٥ و ١٧٦ و ١٨٣ ثان ص ١٥٨ و ٣١٨٧ و ١٩٤ و ١٩٥ و ١٩٧ و ١٩٨ و ١٩٩ و ٢٢٠٠ و ٢١٦ و ٢٤٥ و ٢٨٩ ، ثالث ص ١٥٨ و ٢٤١ و ٢٨٥ خامس ص ١٧ و ٢٨ و ٤٠ و ٢٤٨ و ٥٢ و ٤٠٩ سادس ص ٩١ و ٩٧ و ١٠٦ و ١١٢ و ١٢٥ و ١٥٧ و ٢٢٦ و ٢٥٢ و ٢٦٨ وط - ح ٣٢ و ٢١٩ .

(٢) فهذا « في الحياة الدنيا كما هي ظرف له » الذين آمنوا « كذلك خبر له » وهي .

ذلك ولقد وبخ مجاهيل من المتقشفين البعض من أئمة الدين على جميل الثياب فانعكس عليهم الأمر بتوبيخ الله في هذه الآية (١) مما يدل على أن الإنتفاع من زينة الله في غير محظور محبور ، مأكلاً ومشرباً وملبساً ومسكناً ومنكحاً .

فد اعلموا يا عباد الله أن المتقين جازوا عاجل الخير وآجله ، شاركوا أهل الدنيا في دنياهم ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم ، أباحهم الله في الدنيا ما كفاهم به وأغناهم ... سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت ، وأكلوها بأفضل ما أكلت ، شاركوا أهل الدنيا في دنياهم فأكلوا معهم طيبات ما يأكلون وشربوا من طيبات ما يشربون ، ولبسوا أفضل ما يلبسون ، وسكنوا من أفضل ما يسكنون ، وتزوجوا من أفضل ما يتزوجون ، وركبوا من أفضل ما يركبون ، وأصابوا اللذة مع أهل الدنيا وهم غداً جيران الله ، يتمنون عليه فيعطيه ما يتمنون ، لا ترد لهم دعوة ، ولا ينقص لهم نصيب من اللذة ، فإلى هذا يا عباد الله يشقإ إليه من كان له عقل (٢) .

ذلك ، ولما يسئل الإمام علي (عليه السلام) : فعلى ما اقتصرت

(١) نور الثقلين ٢ : ٢١ عن الكافي علي بن محمد بن بندار عن أحمد بن أبي عبد الله عن محمد بن علي رفعه قال : مر سفيان الثوري في المسجد الحرام فرأى أباً عبد الله (عليه السلام) وعليه ثياب كثيرة القيمة حسان ، فقال : والله لأتينه ولا ويخنه فدنا منه فقال : يا بن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما لبس رسول الله مثل هذا اللباس ولا علي (عليه السلام) ولا أحد من آبائك ، فقال له أبو عبد الله (عليه السلام) كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في زمان قتر مقتر وكان يأخذ لفته وقتاره وإن الدنيا بعد ذلك أرخت عزاليها فأحق أهلها بها أبرارها ثم تلا « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » فنحن أحق من أخذ منها ما أعطاه الله ، غير أنني يا ثوري على ما ترى علي من ثياب إنما لبسته للناس ، ثم اجتذب يد سفيان فجراها ثم رفع الثوب الأعلى وأخرج ثوباً تحت ذلك على جلده غليظاً فقال : هذا لبسته لنفسه غليظاً وما أريته للناس ، ثم اجتذب ثوباً على سفيان أعلاه غليظ خشن ودخل الثوب لين فقال : لبست هذا الأعلى للناس ولبست هذا لنفسك تسترها .

(٢) نور الثقلين ٢ : ٢٣ في آمالي الشيخ الطوسي بإسناده إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه : ..

في مطعمك على الجشوبة ، وفي ملبسك على الخشونة ؟ يقول : ويحك إن الله عز وجل فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيخ بالفقير فقره ... (١) .

ويقول عن نفسه : « ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به ، ويستضيء بنور علمه ، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياكم بطهره - ثوبه الباليين - ومن طعمه بقرصيه ، ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك ولكن أعينوني بورع وإجتهاد ، وعفة وسداد ، فوالله ما كنت من دنياكم تيراً ، ولا أذحرت من غنائمها وفراً ، ولا أعددت لبالي ثوبي طهراً ، ولا حزت من أرضها شبراً ، ولا أخذت منه إلا كقوت أتانٍ دبيرة ، ولهي في عيني أوهى وأهون من عفصة مقرة ... ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ، ولباب هذا القمح ، ونسائج هذا القز ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ، ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة ، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ، ولا عهد له بالشبع ، أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثي ، وأكباد حرثي ، أو أكون كما قال القائل :

وحسبك داءً أن تبیت ببطنة وحولك أكباد تحن إلى القد

أقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر ، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش ، فما خلقت ليشغلني أكل

(١) المصدر ٢٤ عن الكافي في احتجاج أمير المؤمنين (عليه السلام) على عاصم بن زياد حين لبس العبا وترك الملا وشكاه أخوه الربيع بن زياد إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) انه قد غم أهله وأحزن ولده بذلك ، فقال أمير المؤمنين (عليه السلام) علي عاصم بن زياد فجيء به فلما رآه عيس في وجهه فقال له : أما استحييت من أهلك ، أما رحمت ولك ، أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أخذك منها ؟ أنت أهون على الله من ذلك ، أو ليس الله يقول : « والأرض وضعها للأنام . فيها فاكهة والنخل ذات الاكمام » أو ليس يقول : « مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان » إلى قوله : « يخرج منها اللؤلؤ والمرجان » فبالله لا ابتذال نعم الله بالفعال أحب إليه من ابتذالها بالمقال وقد قال عز وجل : « وأما بنعمة ربك فحدث » فقال عاصم : ... وفي نهج البلاغة مثله بزيادة : يا عدي نفسه لقد استهان بك الخبيث ...

الطيّبات ، كالبهيمة المربوطة همها علفها ، أو المرسلّة شغلها تقمّمها ،
تكثرش من أعلافها ، وتلهو عما يراد بها ، أو أترك سُدَى وأهمل عابثاً ، أو
أجرّ جبل الضلالة ، أو أعتسف طريق المتاهة . . « (٢٨٤) -

ذلك ، وفيما يروى عن رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) :
« الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » حيث شبه الدنيا بالسجن للمؤمن إذ
قصر فيها خطوة عن اللذات المرسلّة ، وكبح لجأه عن الشهوات المقيّلة ،
وحصر نفسه عن التسرع إلى ما تدعو إليه الدواعي ، والأهواء المردية ،
وكان زمام نفسه وخطامها وهاويها وإمامها خائفاً خوف الجاني المرعوب ،
والطريد المطلوب ، في عصيته عملوا للمعاد ، وقطفوا للزاد ، تحسبهم من
طول سجودهم أمواتاً ، ومن طول قيامهم نباتاً .

وشبهها (صلى الله عليه وآله وسلم) بالجنة للكافر من حيث
استوعب فيها شهواته ، واستفرغ لذاته ، وقضى فيها الأوطار ، وتعجّل
المسار ، واستهواه عاجل حطامها ، وريق جماعها ، فنسي العاقبة ،
واستهان بالمغبة ، فكان ميت الأحياء ، كما كان المؤمن حي
الأموات « (١) .

وإليكم من زهادة المرسلين (عليهم السلام) برواية علي أمير
المؤمنين (عليه السلام) :

« وإن شئت ثنيت بموسى كليم الله (صلى الله عليه وآله وسلم)
حيث يقول : رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير » والله ما سأل إلا خبزاً
يأكله لأنه كان يأكل بقلّة الأرض ، ولقد كانت خضرة البقل تُرى من شفيف
صفاق بطنه لهُزّاله وتشدّب لحمه « (الخطبة ١٥٨) -

(١) يقول السيد الشريف الرضي في المجازات النبوية (٣٦) بعد هذا التفسير للحديث : من
أحسن ما سمعته في هذا المعنى أن بعض الزهاد المنقطعين طلب القوت من بعض
الراغبين المفتونين ، فقل له في ذلك ، فقال : أنا مسجون وهو مطلق ، وهل يأكل
المسجون إلا من يد المطلق .

« ولقد دخل موسى بن عمران - ومعه أخوه هارون (عليهما السلام) على فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصي ، فشرطاً له إن أسلم بقاء ملكه ودوام عزه فقال : ألا تعجبون من هذين يشترطان لي دوام العز وبقاء الملك وهما بما ترون من حال الفقر والذل ؟ فهلاً ألقى عليهما أساور من ذهب ، إعظاماً للذهب وجمعه واحتقاراً للصوف ولبسه » (١٩٠) -

« وإن شئت ثلثت بداود - صلى الله عليه وسلم - صاحب المزامير وقاريء أهل الجنة ، فلقد كان يعمل سفاسف الخوص بيده ويقول لجلساءه : أيكم يكفيني بيعها ؟ ويأكل قرص الشعير من ثمنها » (١٥٨) -

« وإن شئت قلت في عيسى بن مريم (عليهما السلام) ، فلقد كان يتوسد الحجر ، ويلبس الخشن ويأكل الجشيب ، وكان إدامه الجوع ، وسراج به بالليل القمر ، وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها ، وفاكته وريحاته ما تنبت الأرض للبهائم ، ولم تكن له زوجة تفتنه ، ولا ولد يحزنه ، ولا مال يلفته ، ولا طمع يذله ، دابته رجلاه ، وخادمه يداه » (١٥٨) -

ومن ثم نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم) فـ « قد حقّر الدنيا وصغّرها ، وأهون بها وهونها ، وعلم أن الله زواها عنه اختياراً ، وبسطها لغيره إحتقاراً ، فأعرض عن الدنيا بقلبه ، وأمات ذكرها عن نفسه ، وأحب أن تغيب زينتها عن عينه ، لكيلا يتخذ منها ريشاً ، أدير جوفها مقاماً بلغ عن ربه مُعذراً ، ونصح لأمتة مندرأ ، ودعا إلى الجنة مبشراً ، وخوف من النار محذراً » (١٠٧) -

« .. خرج من الدنيا خميصاً ، وورد الآخرة سليماً ، لم يضع حجراً على حجر حتى مضى لسبيله وأجاب داعي ربه .. » (١٥٨) -

« ولقد كان في رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كاف لك في الأسوة ، ودليل لك على ذم الدنيا وعيها ، وكثرة مخازيها ومساوئها ، إذ قبضت عنه أطرافها ، ووطئت لغيره أكنافها ، وقُطِمَ عن رضاعها ، وزوي عن زخارفها » (١٥٨) -

« قضم الدنيا قضمًا ، ولم يُعيرها طُرْفًا ، أهضم أهل الدنيا كُشْحًا ، وأخمصهم من الدنيا بطنًا ، عُرِضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها ، وعلم أن الله سبحانه أبغض شيئاً فأبغضه ، وحقّر شيئاً فحقّره ، وصغّر شيئاً فصغّره . . . ولقد كان (صلى الله عليه وآله وسلم) يأكل على الأرض ، ويجلس جلسة العبد ، ويخصف بيده نعلَه ، ويرفع بيده ثوبه ، ويركب الحمار العاري ويُردف خلفه ، ويكون السّتر على باب بيته فتكون فيه التصاوير فيقول يا فلانة - لإحدى أزواجه - غيّبه عني فلاني إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها ، فأعرض عن الدنيا بقلبه ، وأمات ذكرها من نفسه ، وأحب أن تغيب زينتها عن عينه . . . » (٨٨ ح) -

ذلك ، وهذه سنة الأنبياء مصلحيةٌ صالح الدعوة المستقيمة « ولو أراد الله سبحانه لانبياؤه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان ، ومعادن العيقان ، ومغارس الجنان ، وأن يحشر معهم طيور السماء ووحوش الأرض لفعل ، ولو فعل لسقط البلاء ، وبطل الجزاء ، واضمحلت الأنبياء ، ولما وجب للقابليين أجور المبتلين ، ولا إستحق المؤمنون ثواب المحسنين ، ولا لزمت الأسماء معانيها -

ولكن الله سبحانه جعل رسله أولى قوة في عزائمهم ، وضعفاً فيما ترى الأعين من حالاتهم ، مع قناعة تملأ القلوب والعيون غنىً ، وخصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذىً - ولو كانت الأنبياء أهل قوة لا تُرام ، وعِزة لا تُضام ، ومُلْكٍ تمتد نحوه أعناق الرجال ، وتشد إليه عُقدُ الرجال ، لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار ، وأبعدَ لهم من الإستكبار ، ولأمنوا عن رَهبة قاهرة لهم ، أو رغبة مائلة بهم ، فكانت النيات مشتركةً ، والحسنات مقتسمةً ، ولكن الله سبحانه أراد أن يكون الإتياع لرسله ، والتصديق بكتبه ، والخشوع لوجهه ، والإستطاعة لأمره ، والإستسلام لطاعته ، أموراً له خاصة لا تشوبها من غيرها شائبة ، وكلما كانت البلوى والإختبار أعظم ، كانت المثوبة و الجزاء أجزل « (الخطبة

ذلك ! وجمعاً بين الأمرين، انتفاعاً من زينة الله، وإنفاقاً منها على عباد الله « كان علي بن الحسين عليهما السلام يلبس الثوب بخمسائة دينار والمطرف بخمسين ديناراً يشتوفيه فإذا ذهب الشتاء باعه وتصدق بثلثه »^(١).

إذاً فلا محذور في أصل الزينة ما لم يكن هناك محذور آخر، بل هي مجبورة مشكورة اللهم إلا لطواري وملابس محظورة وكما هي الضابطة في كافة النعم الربانية، بل هي لهم بأحرى ممن لا يؤمن بالله، فهم أولاء مغتصبون وهؤلاء الأكارم هم مغتصبون و« كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ».

ذلك، وإخراج زينة الله يعم الزينة المحاولة بما يسعى لها الإنسان إلى سواها، حيث الإنسان هو نفسه مخرج من الأرض بمشيئة الله ومُنبت منها، وكذلك كل طاقاته هي كمثله مخرجة الله.

فتلك حضارة إسلامية سامية أن يشجع القرآن على كل زينة مجبورة تزين حياة الإنسان وعيشته فردياً وجماعياً، وعلى « الطيبات من الرزق »

(١) نور الثقلين ٢: ٢٣ في تفسير العياشي عن أحمد بن محمد عن أبي الحسن

(عليه السلام) قال: «... قال: دخلت على أبي عبد الله (عليه السلام) وعليّ جبة خز وفيه عن يوسف بن إبراهيم قال: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وَعَلَيَّ جَبَّةٌ خَزٌّ وَطَلِيْسَانٌ خَزٌّ، مَا تَقُولُ فِيهِ؟ قَالَ: وَلَا بَأْسَ بِالْخَزِّ، قُلْتُ: وَسَدَاهُ ابْرِيْسَمُ فَقَالَ: لَا بَأْسَ بِهِ فَقَدْ أَصِيبَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ (عَلَيْهِمَا السَّلَامُ) وَعَلَيْهِ جَبَّةٌ خَزٌّ. وَفِيهِ عَنِ الْوَشَا عَنْ الرِّضَا (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قَالَ: كَانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ (عَلَيْهِمَا السَّلَامُ) يَلْبَسُ الْجَبَّةَ وَالْمَطْرَفَ مِنَ الْخَزِّ وَالْقَلَنْسُوَةِ وَيَبِيعُ الْمَطْرَفَ وَيَتَصَدَّقُ بِثَمَنِهِ وَيَقُولُ: قُلْتُ: قُلْ مِنْ حَرَمِ زِينَةِ اللَّهِ... وَفِيهِ عَنِ الْكَافِي عَنْ ابْنِ الْقَدَاحِ قَالَ: كَانَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) مُتَكَيِّئاً عَلَى - أَوْ قَالَ: عَلَى أَبِي - فَلَقِيَ عِبَادَ بْنَ كَثِيرٍ وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ مَرْوِيَّةٌ حَسَانٌ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ إِنَّكَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبْوَةٍ وَكَانَ أَبُوكَ وَكَانَ؟ فَمَا هَذِهِ الثِّيَابُ الْمَزِينَةُ عَلَيْكَ فَلَوْلَيْسَتْ دُونَ هَذِهِ الثِّيَابِ؟ فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): وَيْلَكَ يَا عِبَادُ مِنْ حَرَمِ زِينَةِ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدِهِ نِعْمَةً أَحَبَّ أَنْ يَرَاهَا عَلَيْهِ، لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ وَيْلَكَ يَا عِبَادُ إِنَّمَا أَنَا بَضْعَةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) فَلَا تُؤْذَنِي وَكَانَ عِبَادٌ يَلْبَسُ ثَوْبَيْنِ قَطْنَيْنِ. وَفِيهِ عَنِ الْعِيَّاشِيِّ عَنِ الْحَكَمِ بْنِ عَيْنَةَ قَالَ: رَأَيْتُ أَبَا جَعْفَرٍ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وَعَلَيْهِ إِزَارٌ أَحْمَرٌ، قَالَ: فَأَحْدَدْتُ النَّظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ إِنْ هَذَا لَيْسَتْ بِهِ بَأْسٌ ثُمَّ تَلَا « قُلْ مِنْ حَرَمِ زِينَةِ اللَّهِ... ».

إنسانياً وإيمانياً ، حياة زينة طيبة تطيب الإنسان وتزينه في كافة الحقول الحيوية ، دون رهينة وتقشف مبتدعين .

لا فحسب أن تلك الحضارة مسموحة ممنوحة للذين آمنوا ، بل و « قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » فهم أولاء أصول لهذه الحضارة الراقية المباركة ، وعلى هامشهم سائر الناس ، خلاف ما يُزعم أن هذه الحضارة خاصة بالذين كفروا وصالحوا العباد عنه بعد ! .

وهنا « خالصة » قد تعني مع الخلوص لهم عن شركاء ، خلوصاً عن الأوشاب والغصص التي تشوب كل زينة وطيبة من الرزق ، فلا خليط لهم هناك من سواهم ولا من ملابسات النعم التي هي من قضايا الحياة الدنيا .

ترى في أغوار التاريخ الإنساني جاهليات مسخت الفطر والفكر والعقول ، بل والحواس الإنسانية من الجاهلية العربية والإغريقية والرومانية والفارسية ، وعلى طول خطوط الجاهليات وحيوطها في كل زمان ومكان حتى الآن .

فهذه الجاهلية المتحضرة التي يعيشها الحضاريون ! قد أعارتهم جماعاً من الجاهليات عبر التاريخ ، فأعرتهم من ملابسهم كما أعرتهم من كل تقوى ، وأدخلتهم في جموع الطغوى ، وهي تغير الكاسيات من الحرائر العفيفات المسلمات بأنهن « رجعيات » - « تقليديات » - « ريفيات » .

فالمسخ هو المسخ ، والانتكاسة هي نفس الانتكاسة ، مهما عربدت وأرعدت وأبرقت ببريقات تبرز العورات أكثر ماهيه شناعة وفضاحة .

وترى ما هو الفارق بين البهائم العارية بطبيعة الحال ، وهؤلاء البهم في صورة الإنسان بسيرة الحيوان بل هم أضل سبيلاً .

إن بيوتات الأزياء الضياع ومصمميهها ، وأساتذة التجمل ودكاتها ، إنها هي التي تكمن وراء هذا الخبل العاهر الذي لا تفيق منه نساء الجاهلية المتحضرة ولا رجالها المتناثون .

من ذا الذي يقبع وراء هذه الأزياء القاحلة ، ووراء سعار التعري والتكشف ، ووراء الأفلام والصور وما أشبه ، التي تقود هذه الحملة المسعورة المسعرة .

لقد مسخت الجاهلية المتحضرة التصورات والأذواق والفطر والعقول والقيم والأخلاق الإنسانية ، إذ جعلت العرى الحيواني تقدماً ورقياً ، والستر الإنساني تأخراً ورجعية ! .

﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ (٣٣) .

تري « إنما حرم » هنا تحصر المحرمات كلها بهذه الخمس ؟ وهناك محرمات كثيرة خارجة عنها ! أم هي المحرمات الوقتية في ردح من العهد المحي ، ثم تلتوها محرمات أخرى بعدها مكية ومدنية ؟ .

« إنما » ولا سيما نظراً إلى « ربي » يؤكدان حصر المحرمات في هذه الخمس ، لا سيما وأن محرمات غيرها كانت مبينة الحرمة قبل هذه الآية ، ثم وكافة المحرمات في شرعة التوراة المفصلة فيها هي محرمة في شرعة القرآن ولم ينسخ منها حتى الآن ولا واحدة ، فتظل هي محرمة في شرعتنا ، إذاً فـ « إنما » لا تختص بعدد من محرمات بآيات مكية فحسب .

إنها تشمل بوجه عام كافة المحرمات حالاً وقالاً وأعمالاً ، متجاوزة وسواها ، فـ « الفواحش » هي المعاصي المتجاوزة حدها في الحرمة ، والمتجاوزة إلى غير الفاعل ، أو المتجاوزة فيهما ، ثالثاً من التجاوزات الشاملة لأمهات المحرمات « ما ظهر منها وما بطن » ظهوراً كأصل أم لغير الفاعل^(١) ، فمما ظهر ، أن تخير غيرك بمعصية ارتكبتها خفية ، فإنه

(١) البدر المشرور ٣ : ٨٠ - أخرج عبد الرحمن عن يحيى بن كثير أن رجلاً قال يا رسول الله

(صلى الله عليه وآله وسلم) إني أصبت حداً فأقمه علي فجلده ثم صعد المنبر والغضب

يعرق في وجهه فقال : أيها الناس إن الله حرم عليكم الفواحش ما ظهر منها وما بطن فمن

أصاب منها شيئاً فليستر بستر الله فإنه من يرفع إلينا من ذلك شيئاً نعمة عليه .

معصية على معصية تجعلهما فاحشة ، ويطوناً كأصل أم عن غير الفاعل ،
فهي تشمل الفواحش العقيدية والعملية أماهيه .

وهل الفاحشة تعم النية إلى العقيدة والعلمية الخاطئة إلى العملية ؟
النية ما لم تصل إلى تحقيق المنوي ليست معصية فضلاً عن فاحشة ، وإذا
وصلت إليه فهي من الإثم حيث الفاحشة هي المعصية المجاوزة الحد في
نفسها أم إلى غير العاصي ، وليست نية الشر معصية حتى تصبح فاحشة ،
وإذا وصلت نية الشر إلى الشر فهي - إذاً - من الإثم .

فالفاحشة تعم الفاحشة حدّها في نفسها ، أم المتعدية إلى غير
فاعلها ، أو الواصل خبرها إلى غيره وهي خفية .

ثم « الإثم » هو « المبطل » عن الثواب ، إبطاءً عن وقته أم كنهه أو
كيفه ، أم إبطاءً عن أصله ، و « الثواب » هنا هو الواجب تحصيله لمكان
« حرم » ويعم الثواب المفروض فعلاً لمحبور وتركاً لمحظور ، فكل
مقدمات ترك الواجب أو فعل الحرام أم نقص في الواجب وقتاً أو كماً أو
كيفاً ، هي من الإثم ، وكما أن ترك الواجبات أو فعل المحرمات التي
تستعقب شؤم الحياة أم محظورات أخرى هي كلها من الإثم ، ومن كبير
الإثم « الخمر والميسر » ^(١) .

(١) نور الثقلين ٢ : ٢٥ في الكافي عن علي بن يقطين قال سأل المهدي أباً الحسن
(عليه السلام) عن الخمر هل هي محرمة في كتاب الله عز وجل فإن الناس إنما يعرفون
النهي عنها ولا يعرفون التحريم لها ؟ فقال له أبو الحسن (عليه السلام) بل هي محرمة
في كتاب الله جلّ اسمه يا أمير المؤمنين فقال له في أي موضع محرمة في كتاب الله جلّ
اسمه يا أبا الحسن ؟ فقال : قول الله عز وجل : « إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما
بطن والإثم والبغي بغير الحق » فأما قوله « ما ظهر منها وما بطن » يعني الزنا المعلن
ونصب الرايات التي كانت ترفعها الفواجر للفواحش في الجاهلية ، وأما قوله عز وجل :
« وما بطن » يعني ما نكح من الأبناء لأن الناس كانوا قبل أن يبعث النبي (صلى الله عليه
 وآله وسلم) إذا كان للرجل زوجة ومات تزوجها ابنه من بعده إذا لم تكن أمة فحرم الله
عز وجل ذلك ، وأما الإثم فإنها الخمر بعينها وقد قال الله عز وجل في موضع آخر
« يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع الناس ، فأما الإثم في كتاب الله
فهي الخمر والميسر وإثمهما كبير كما قال الله ، فقال المهدي يا علي بن يقطين هذه والله

فمن الإثم - إذا - نية المحرم الواصلة إلى تحقيقه كسائر مقدماته قريبة أو بعيدة ، آفاقية وأنفسية التي هي مختارة للفاعل، وكذلك نية ترك الواجب الواصلة إلى تركه أو المبطنة عنه ، فمقدمات الواجبات كلها واجبة ومقدمات المحرمات الموصلة إليها محرمة، وغير الموصلة غير داخلية في شيء من هذه العناوين الخمس ثم ولا دليل غيرها على حرمتها .

ولأن الإثم يعم القول والحال والفعال بالمآل ، فمثلث الإثم - إذا - معني منه على أية حال ، اللهم إلا بقريضة معينة ، فمن الحال : « ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » (٢ : ٢٨٣) .

إذا فالإثم يعم عمل الخطيئة - كشرب الخمر^(١) وما أشبه - ومقدماتها وكما قوبلت به : « ومن يكسب خطيئة أو إثماً .. » (٤ : ١١٢) .

والإثم المذكور في القرآن كله^(٢) مرة، تعني معناها الخاص : ما يبطل عن الواجب ، إيجابياً ككل الواجبات ، وسلبياً ككل المحرمات لمكان وجوب تركها .

ثم « البغي بغير الحق » هو طلب المحظور فطرياً أو عقلياً أو شرعياً ، أم جمعاً منها فأبغى ، وهنا « بغير الحق » قد تعني التأكيد المعني من أمثال « يقتلون النبيين بغير الحق » توصيفاً بما هو لزام البغي ، أم هو تقييد للبغي الشامل طلب الحق والباطل .

(١) يسأل المهدي الخليفة العباسي موسى بن جعفر (عليهما السلام) هل الخمر محرمة في كتاب الله ؟ والناس إنما يعرفون النهي عنها ! قال : محرمة ، قال : « أين هو ؟ قال : .. والإثم والبغي .. » حيث حرم الإثم والخمر فيها إثم كبير .

ذلك ، لأن « البغي » غير متمحضة لغوياً في المحذور ، فالواوي منها متعدية بـ « على » تعني التعدي ، وهي متعدية بنفسها تعني النظر إلى المتعدي كيف هو ؟ واليائي منها متعدية هي مطلق الطلب محظوراً أو محبوراً ، وهي لازمة تعني العدول عن الحق .

فـ « البغي » طليقة عن كل هذه تحتملها كلها ، فلذلك قيدت هنا بـ « بغير الحق » إخراجاً للبغي غير المحذور ، فهي - إذاً - هنا يائية لازمة ، أو متعدية بعلى ، حيث تعنيان الطلب الباطل .

ثم الباء في « بغير الحق » قد تعني كلا السببية والمعية ، فالأولى تعني أي طلب بسبب غير الحق مهما كان طلباً للحق ، والثاني تعني طلباً مصاحباً غير الحق ، مهما كان طلباً الباطل ، أم وطلب الحق مصاحباً حالة الباطل ، كالأمر بالمعروف للشارك له ، والنهي عن المنكر للفاعل إياه ، والدعوة إلى الخير دون معرفة صالحة للخير أو الدعوة إليه ، وإلا لكان بغياً بغير الحق مهما كان دركات حسيب دركات غير الحق .

« وأن تشركوا بالله ، ما لم ينزل به سلطاناً » وهي تعم كافة دركات الإشراف بالله ، في ألوهيته وربوبيته وقضائه وحاكميته الطليقة الربانية وكلما

يختص بساحة قدسه تعالى دون سواه ، وهنا « ما لم ينزل به سلطاناً » مما يزيد الإشراف بالله نحوسة ونكوسة عن الحق المرام .

فلئن كان في الكون سلطان للإشراف ، مهما كان قاصراً نحيفاً ، ولن يكن ، لم يكن بذلك البعيد عن العقلية ، ولكن الإشراف الذي لم ينزل به أي سلطان فطري أو عقلي وما أشبه ، بل وكل سلطان أيّاً كان يستنكره ، فهو - إذاً - أنكر المنكرات على الإطلاق ! .

فهنا « سلطان » المنكر في سياق النفي، المستغرق بـ « من » الجنسية ، كل سلطان ، تسلب أي سلطان فطري أو عقلي - أنفسياً - وأي سلطان من وحي وسواه آفاقياً ، مهما أفاد احتمالاً أو شكاً أو ظناً أم علماً .

فحتى احتمال حق الإشراك بالله غير وارد بين أي سلطان، فضلاً عن العلم ، وذلك مما يعظم عظم الجريمة العقيدية النكراء ، وليس للإشراك بالله أي مثيل في النحوسة والنكوسة عن الحق المرام ! .

وقد تعني « من سلطان » هنا ما تنزله الآلهة من براهين الوهيتها ومنها أن تأتيهم رسلهم ، فلو كان هناك آلهة من دون الله لآتتكم رسلها ، إذا فتخيلة الإشراك المخلوق فاقصده لأي سلطان من هذه الأربع الأفاقية والأنفسية من الله أن نزلها ، أو من شركاءه المزعومة أن تنزلها ، ثم وكل سلطان قاطع دليل لا مرد له على بطلان الإشراك ! .

إذا فالإشراك بالله هو قمة المحرمات على الإطلاق إذ لا يملك أي سلطان يحتمله أو يشكك فيه أو يرجحه فضلاً عما يثبتته علماً أو يقيناً ، ثم وكل سلطان آفاقي وأنفسي وفي أنفس الشركاء مكرسة معسكرة لسلبية الإشراك على الإطلاق « أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون » (٣٥ : ٣٠) .

لذلك نسمع الله يكرر القول « وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً » كما هنا وفي غيرها من آيات تعني معناها ! .

« وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » حيث تحصر القول - كما بالفعل والحال - بما يعلم أنه من الله حصراً لكل الأقوال والأحوال والأعمال فيما قال الله ، وحصراً عما لا يعلم أنه من الله .

فقد شملت هذه الخمس المحرمات بأسرها دون إبقاء ، مهما لم
تسم كل واحدة باسمها ، إذ سميت برسمها ، ما يحلّق على كل المحرمات
في شرعة الله .

لا فحسب أنها تعم كل المحرمات الرسمية ، بل وترك الواجبات
فإنه أيضاً من المحرمات ، فلم يبق حكم إلزامي فعلاً أو تركاً إلا وهو
مشمول لهذه الخمس .

فالآيات المبيّنة لتفاصيل المحرمات - كما الروايات - هي شارحة
لما أجمل في هذه الخمس ، وما أجمله إجمالاً ينبع منه كل تفصيل .

فمن المحرمات ما هي مقدمات لمحرمات وهي كافة المقدمات
الموصلة إلى محرمات فهي « الفواحش » ومنها ما هي محرمات غير
فاحشة ، وثالثة هي فاحشة في نفسها ، ورابعة ما هي فاحشة إلى غيرها ،
سواء أكانت محرمة أخرى كالخمر التي تفتح أبواب محرمات أخرى ، أم
أشخاصاً آخرين كالقتل والسرقة ، وهذه كلها مشمولة للفاحشة ، اللهم إلا
الأولى المشمولة للآثم والثانية المشمولة للبغي ، كما المستتعبة لغيرها
للآثم مهما كانت - أيضاً - من الفواحش ، ثم المحرمات العقيدية والقولية
مشمولة للأخيرين .

وهنا « أن تقولوا على الله ما لا تعلمون » تعم الفتاوى غير المسنودة
إلى علم أو إثارة من علم ^(١) .

(١) المصدر ٢٦ في الفقيه قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصية لابنه محمد بن الحنفية
يا بني لا تقل ما لا تعلم بل لا تقل كلما تعلم ، وفي نهج البلاغة قال (عليه السلام) :
علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث يتفكك ، وألا يكون في
حديثك فضل عن عملك ، وإن تنقي الله في حديث غيرك ، وفي عيون أخبار الرضا
(عليه السلام) عن علي (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله =

فلا يحق القول على الله ، أنه قول الله ، إلا سناداً إلى كتاب الله أو سنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بحجة بينة ، وطريقة قيمة صالحة حاصلة على حق القول والقول الحق بحق الله ، ثم لا يسند ما وراء ذلك إلى الله ، وإنما يقال : هكذا أفهم والله أعلم ، دون تأكيد لحجية قوله فضلاً عن سنده إلى الله .

وهنا « ما لا تعلمون » تشمل العلم أو القطع الحاصل من غير الطرق الصالحة إلى الوحي ، والوحي لا يُعلم إلا بنفسه ، بعلم هو نفسه ، أو إشارة من علم هي نقل رجالات الوحي، وهو السنة القطعية الصادرة عن مصادر الوحي .

ثم ما وراء ذلك يعبر عنه في القرآن بالظن ، فـ « إئتوني بكتاب من قبل هذا أو إشارة من علم إن كنتم صادقين » (٤ : ٤٦) تحصر الحجة بها ، ثم ما وراءهما ظن و « إن الظن لا يغني من الحق شيئاً » (٢٨ : ٥٣) .

والقول : إن القطع حجة ذاتية فلا يزول إلا بحجة تماثله أم هي أقوى ؟ إنه غول من القول : حيث المقطوع كتاباً وسنة ألا حجة إلا فيما يقطع به أو يعلم من الكتاب أو السنة .

ثم القاطع بغيرهما - على فرضه - هل يقطع بانحصار الحق فيه ، إنحصاراً له عما سواه ؟ طبعاً لا ، وإلا كان مكابراً يفضل غير الوحي على الوحي للحصول على أصل الوحي ! .

= (وسلم) : من أفتى الناس بغير علم لعته ملائكة السماوات والأرض ، وفي الخصال قال عبد الله (عليه السلام) أنهاك عن خصلتين فيهما هلك الرجال ، ان تدين الله بالباطل وتفتي الناس بما لا تعلم ، وفي كتاب التوحيد عن زرارة قال سألت أباً جعفر (عليهما السلام) ما حجة الله على العباد ؟ قال : أن يقولوا ما يعلمون ويقفوا عند ما لا يعلمون .

ثم ولا يحصل القطع الخالي عن أية ريبة بالطرق غير القطعية كالرؤيا ودليل العقل في الأحكام الفرعية ، والإجماع والشهرة وحتى الإطباق ، اللهم إلا لمن هو قَطَاع يقطع بأقل لمحة ، فهو - إذا - من قِطَاع طريق الحق ، والقرآن يعبر عن كل علم أو قطع وما دونهما من غير طريق الوحي القاطع ، يعبر عن كل ذلك بالظن ، إذا فإين الحجية الذاتية للقطع شرعياً ، مهما كانت حجة عرفية أماميه ؟ .

ثم الذاتي لا يتخلف ولا يختلف عن الواقع أبداً ، ونحن نرى تخلفات في قطعيات - حتى الحاصلة من الكتاب والسنة - فضلاً عما سواها ، والفارق بين القطعين حجية الحاصل من دليل الوحي بدليل الوحي ، وعدم حجية ما سواه .

ذلك ، وقد لا نجد آية تعم كافة المحرمات كهذه ، حيث شملت الصغائر إلى الكبائر ، والمتعدييات إلى سواها ، في مثلث القول والحال والفعال ، وثالث ^١ المقدمات ^٢ والأصول ، متعديية إلى محرمات أخرى ^٣ وسواها ، فواجب التقوى يشملها كلها مهما اختلفت درجاتها حسب اختلاف دركات المحرمات .

وبتقسيم آخر للمحرمات نقول الجنايات خمس حسب النواميس الخمسة ، فمنها الجناية على العقول كشرب الخمر وما أشبه من مطعوم أم دعايات تزيل العقل أو تخففه ، وهي مشمولة لـ « الفواحش والإثم والبغي بغير الحق » .

ومنها الجناية على النفوس كقتل النفس وهي مشمولة لهذه الثلاثة ، أو على الأعراض كالزنا وكذلك الأمر ، أو على الأموال وهكذا الأمر ، أو على الأديان وهي الإشراك بالله والقول بغير علم على الله .

ولأن النواميس الخمس محرمة الضياع ومفروضة الحفاظ في كافة شرائع الله ، فهذه الخمس المسرودة هنا وهي عبارة أخرى عن هذه النواميس ، هي المحرمات الأصلية التي حرمت في كافة شرائع دون أي نسخ أو تحوير .

فقد شملت هذه الآية كافة صنوف المحرمات صغيرة وكبيرة ، ما ظهر منها وما بطن ، بنوعياتها وآثارها ، بأصولها ومقدماتها وغاياتها ، فلم تبقى أية محرمة مفصلة في شرعة الله وغير مفصلة إلا وهي داخلة في هذه الآية الضابطة لها كلها ! .

ذلك ، وجملة القول أن طاعة الله الصالحة هي أن يطاع كما يريد ، لا كما تريد وهو يريد أن تحصل على علم الطاعة من وحيه فقط ، وأما غيره فهو من دخول الدار من غير بابها ، فحتى أن حصلت على علم واقع من غير طريق الوحي المقرر له طريقاً خاصة ، فذلك مرفوض .

وترى إن أمرك المولى أن تدخل داره من مدخل خاص وحذرك أن تدخله من سائر المداخل ، فهل لك أن تدخلها من سائرها .

وهكذا الله أمرنا بما أمرنا ، ثم أمرنا أن نحصل على معرفة أوامره من طريق وحيه لا سواه ، إذاً فلا حجة في هذه السبيل إلا وحيه لا سواه .

فكما أن من فسر القرآن براهه خطأ أو أصاب ، ومن أفتى بغير علم أخطأ أو أصاب ، ومن حكم بحكم له هو ليس بأهله أخطأ أو أصاب ، كان طريقه إلى النار .

كذلك من حكم بحكم أنه من الله وهو ليس من أهله ، أم هو من أهله ولكنه يحكم بغير الوحي ، فهو أخطأ أو أصاب كان طريقه إلى النار .

فليس فقط على المكلفين أن يطبقوا ما يعلمون من أحكام الله ، بل وعليهم أن يعلموها مما قرره الله ، وهو علم أو إثارة من علم ، فالعلم هو كتاب الوحي، وإثارة من علم هو السنة القطعية الرسالية على هامشه ، ثم لا علم صالحاً من غير هذين الطريقين الصالحين .

ذلك ، وحين يختص علم النبي بطريق الوحي دون عقلية البارة أم سواها، فكيف يعم علم من سواه في حقل الشرعة طريق الوحي إلى سواه .

فقد والله قال الله ما يحتاجه المكلفون إلى يوم الدين في إذاعتي الكتاب والسنة .

فالمضوابط العامة وقسم من الفروع الهامة مذكور - ولا بد - في الإذاعة القرآنية المستمرة مع الأبد ، وسائر الأحكام الهامشية تتكفلها السنة القطعية ، ولو أن حكماً من الأحكام أصلية أو فرعية كان في علم الله أنه لا يصل صالح الوصول إلى الأمة من طريق السنة لكان يذكره في كتابه لكيلا يفلت بأسره ، حفاظاً على تمام الدين وكمال النعمة ، ولأنها الشريعة الأخيرة التي لا بديل عنها إلى يوم القيامة ، فلتكن مبينة بين الكتاب والسنة .

وأما أن يحول الله بعض الأحكام إلى اجتهادات المجتهدين فلا يبينها أم يعلم أنها تخفى عن السنة ، فذلك نقص في الشريعة ونقص للغاية المشريعة لها الشريعة .

فما العلم والعلم فقط من طريق الوحي هو الحجة الشرعية في الأحكام وما أشبه من أمور الدين ، ولا يحصل القطع من غير طريق الوحي حيث السطرق كلها دون الوحي جائزة الخطأ ، فكيف يحصل القطع من طريقة جائزة المخطأ ؟ .

فـ « ذمتي بما أقول رهينة وأنا به زعيم » ، إن من صرحت له العبر عما بين يديه من المثالات حجزته التقوى عن تقحم الشبهات . . ألا وإن الخطايا خيل شمس ، حُمل عليها أهلها وخُلعت لُجُمها فتقحمت بهم في النار ، ألا وإن التقوى مطايا ذُلل حُمل عليها أهلها وأعطوا أزمُتها فأوردتهم الجنة ، ^(١) و « لا يهلك على التقوى سنخ أصل » ، ولا يظلم عليها زرع قوم ، فاستسروا في بيوتكم واصلحوا ذات بينكم والتوبة من ورائكم ، ولا يحمد حامد إلا ربه ، ولا يلم لائم إلا نفسه » (خ ١٦) .

و « إن في أيدي الناس حقاً وباطلاً ، وصدقاً وكذباً ، وناسخاً ومنسوخاً ، وعاماً وخاصاً ، ومحكماً ومتشابهاً ، وحفظاً ووهماً ، ولقد كُذِبَ على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على عهده حتى قام خطيباً فقال : « من كذب على متعمداً فليتبوء مقعده من النار » .

وإنما أتاك بالحديث أربعة رجال ليس لهم خامس :

رجل منافق مظهر للإيمان ، متصنع بالإسلام ، ولا يتأثم ولا يتحرج ، يكذب على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) متعمداً ، فلو علم الناس أنه منافق كاذب لم يقبلوا منه ولم يصدقوا قوله ، ولكنهم قالوا : صاحب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) رآه وسمع منه ويقص عنه فيأخذون بقوله ، وقد أخبرك الله عن المنافقين بما أخبرك ، ووصفهم بما وصفهم به لك ، ثم بقوا بعده فتقربوا إلى أئمة الضلالة والدعاة إلى النار بالزور والبهتان ، فولّوهم الأعمال ، وجعلوهم حكاماً على رقاب الناس ، فأكلوا بهم الدنيا ، وإنما الناس مع الملوك والدنيا إلا من عصم الله ، فهذا أحد الأربعة -

ورجل سمع من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) شيئاً لم يحفظه على وجهه ، فوهم فيه ولم يتعمد كذباً ، فهو في يديه ويرويه ويعمل به ويقول : أنا سمعته من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فلو علم المسلمون أنه وهم فيه لم يقبلوا منه ، ولو علم هو أنه كذلك لرفضه -

ورجل ثالث سمع من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) شيئاً يأمر به ثم إنه نهى وهو لا يعلم ، أو سمعه ينهى عن شيء ثم أمر به وهو لا يعلم ، فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ ، فلو علم أنه منسوخ لرفضه ، ولو علم المسلمون إذ سمعوه منه أنه منسوخ لرفضوه -

وآخر رابع لم يكذب على الله وعلى رسوله ، مبغض للكذب خوفاً من الله ، وتعظيماً لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يهمل ، بل حفظ ما سمع على وجهه ، فجاء به على ما سمعه ، لم يزد فيه ولم ينقص منه ، فحفظ الناسخ فعمل به ، وحفظ المنسوخ فجنب عنه ، وعرف الخاص والعام ، فوضع كل شيء موضعه ، وعرف المتشابه ومحكمه -

وقد كان يكون من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الكلام له

وجهان : فكلام خاص وكلام عام ، فيسمعه من لا يعرف ما عنى الله سبحانه به ، ولا ما عنى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فيحمله السامع ويوجهه على غير معرفة بمعناه ، وما قصد به وما خرج من أجله ، وليس كل أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من كان يسأله ويستفهمه حتى أن كانوا ليحبون أن يجيء الأعرابي والطارئ فيسأله (عليه السلام) حتى يسمعوا ، وكان لا يمر بي من ذلك شيء إلا سألته عنه وحفظته ، فهذه وجوه ما عليه الناس في اختلافهم وعللهم في رواياتهم » (الخطبة ٢٠١) .

ذلك ، فكيف نثق بحديث المعروف بالثقة وعلله^١ مناقق أو فاسق ،
^٢ أم إن كان في الحق ثقة علله تقبله ممن عرفه بالوثوق وليس ثقة ،^٣ أم إنه
 وارد مورد التقية وهو لا يعرف ،^٤ أم هو منقول بالمعنى الذي لم يُعَنَّ منه ،
^٥ أو تقطع أن سقط عنه ما يدل على صالح معناه ،^٦ أو منسوخ بحديث آخر
 أم آية ، وما أشبه من كوارث الحوادث في الحديث .

فماذا تفيد صحة السند حين يحتمل الحديث مختلف الاحتمالات ،
 وإنما تسد صحة السند ثغراً تعتمد على الكذب بواقع الثقة .

وإنما الوثوق مرتكن على سلامة المتن من التهاافت والتبعثر ، وموافقة
 الكتاب والسنة ، أو عدم مخالفتهم ، وعدم المعارض الذي يجعله غير
 معلوم الصدور ، وكون أحد السندين أوثق من الآخر لا يجعله معلوم
 الصدور ، فهو داخل في النهي : « لا تقف ما ليس لك به علم » ! .

إذاً فلا دور لصحة السند إلا ضماناً لعدم تعمد الكذب ، دون ضمان
 لصدوره دون تقية ولا نسخ ولا سلامة عن النقل بالمعنى ولا تقطع وما
 أشبه .

ذلك ، ولأن العلم ثلاثة ، علم يخلق على الواقع كله وهو مختص
 بالله سبحانه أو ومن علمه بوحيه ما علمه ، وهذا لا يقبل الخطأ ، وعلم هو
 أضيق من الواقع وهو الحاصل من غير الوحي ، وهذان قسمان اثنان : علم
 يحصل من طريق الكتاب والسنة بشروطه ، وآخر يحصل من غيرهما أو

منهما دون شروطه ، فالعلم الأول غير مفروض علينا ولا ميسور ، والثالث مرفوض محظور ، والثاني مجبور ، فإذا صادف الواقع - وقليلاً ما يخطأ - لمكان عدم العصمة - ففيه أجرين، وإذا لم يصادف الواقع ففيه أجر واحد لمكان القصور الذاتي لغير المعصومين (عليهم السلام) ، ولا حجة في العلم الحاصل بالأحكام الشرعية من غير الطرق المقررة الشرعية ، لقصور سائر الطرق ذاتياً إضافة إلى قصورين يعلم بها ، وأما الحاصل من الطرق المقررة الشرعية فهو حجة شرعية لمكان عدم التقصير في الحصول عليه وأنه لا تكلف نفس إلا وسعها .

وما دغدغة ذاتية الحجة للقطع إلا خرافة ، فإن كان القصد حجته العقلية بمعنى الإنطباق على الواقع مائة بالمائة فهذا لـل من القول وزور ، وإن كان بمعنى الإنطباق الأحيائي الذي جعل الشارع حجة فذلك الأمر ، حيث الحجة المنحصرة في الكتاب والسنة بدليل الكتاب والسنة تسلب أية حجة لأي دليل أو علم ! .

وفيما يلي - على ضوء الآيات البينات التي تحصر الإتيان بالعلم في الكتاب والسنة - روايات نموذجية عن الرسول والأئمة من عترته (عليهم السلام) :

١ : في حديث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) . حين أتاه عمر فقال : « إنا نسمع أحاديث من اليهود تُعجبنا ، فترى أن نكتب بعضها ؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : افتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى ؟ لقد جئكم بها نقية ، ولو كان موسى حياً ما وسعه إلا إتباعي » !^(١)

٢ : في حديث علي (عليه السلام) : « .. أيها الناس عليكم بالطاعة والمعرفة بمن لا تعذرون بجهالته ، فإن العلم الذي هبط به آدم (عليه السلام) وجميع ما فضلت به النبيون إلى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) خاتم النبيين، في عترة نبيكم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)

(١) عوالم العلوم (٢ - ٣) : ٣٨٦ .

وسلم) ، فأين يتناه بكم ؟ بل أين تذهبون ؟ يا من نجى من أصلاب أصحاب السفينة فهذه مثلها فيكم فاركبوها ، فكما نجا في هاتيك من نجا فكذلك ينجو في هذي من دخلها ، أنا رهين بذلك قسماً حقاً وما أنا من المتكلفين ، الويل لمن تخلف ثم الويل لمن تخلف .. (١) .

٣ : في حديث الباقر (عليه السلام) لسلمة بن كهيل والحكم بن عتيبة : شرقاً أو غرباً لن تجدوا علماً صحيحاً إلا شيئاً خرج من عندنا أهل البيت (٢) .

٤ : في حديث الصادق (عليه السلام) : من دخل في هذا الدين بالرجال أخرجه منه الرجال كما أدخلوه فيه ، ومن دخل فيه بالكتاب والسنة زالت الجبال قبل أن يزول (٣) .

٥ : في حديثه الآخر « لا تحل الفتيا لمن لا يستفتي من الله عز وجل بصفاء سره ، وإخلاص عمله وعلانيته وبرهانه من ربه في كل حال ، لأن من أفتى فقد حكم ، والحكم لا يصح إلا بأذن من الله عز وجل وبرهانه ، ومن حكم بالخبر بلا معاينة فهو جاهل مأخوذ بجهله ، ماثوم بحكمه ، قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : أجره لكم بالفتيا أجره لكم على الله عز وجل ، أو لا يعلم المفتي أنه هو الذي يدخل بين الله تعالى وبين عباده وهو الحاجز بين الجنة والنار » (٤) .

وقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : إتقوا تكذيب الله ، قيل : يا رسول الله وكيف ذاك ؟ قال : يقول أحدكم : قال الله ، فيقول الله عز وجل : كذبت لم أقله ، ويقول : لم يقل الله ، فيقول الله عز وجل : كذبت قد قلته (٥) .

وفي وصية أمير المؤمنين (عليه السلام) : « .. وأن ابتدأك بتعليم كتاب الله عز وجل وتأويله وشرائع الإسلام وأحكامه وحلاله وحرامه ، لا

(١) المصدر

(٢) المصدر ٣٩٣ .

(٣) المصدر ٤٠٠ عن غيبة النعماني .

(٤) المصدر ٤٢٣ عن مصباح الشريعة .

(٥) المصدر ٤٢٧ عن معاني الأخبار .

أجاوز ذلك بك إلى غيره (٧) .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ

لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦٦﴾ يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا
يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلُ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ آتَى
وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿٦٨﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ آمَنَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ
بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ يَنْهَكُمُ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ
رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٦٩﴾
قَالَ أَذْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ
فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا دَارَكَُوا فِيهَا

جَمِيعًا قَالَتُ أَخْرَجُهُمْ إِيَّاهُ وَلَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَاتِهِمْ
 عَذَابًا يُضَعِّفُونَ النَّارَ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ
 ٣٤ وَقَالَتُ أُولَهُمُ الْأَخْرَجُهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ
 فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ٣٥ إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا
 بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ
 وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ
 نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ٣٦ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ
 غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ٣٧ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَ
 عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ
 الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٣٨ وَزَعْنَا مَا فِي صُذُورِهِمْ مِنْ غَلٍ
 تَجْزِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا
 وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَفُتَّجَاءَتْ رُسُلُ
 رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ ⑪ وَكَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ
وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا
قَالُوا نَعْلَمُ فَاذْنِ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ
⑫ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونِ عَوْجًا وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ⑬

﴿ ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ (٣٤).

هناك آجال شخصية بين محتومة ومعلقة ، وهنا آجال جماعية ، فهل
هي كما هي آجال الأعمار بقسميها ؟ ولا نجد أمة بكاملها تنقضي بموت
لأجل محتوم أو معلق على أية حال !

أم هي آجال في كيانها دون كونها كالأمم الرسالية الخمس حيث
يُقضى على شرعة كل بمجيء الأخرى ، ثم الأمة الإسلامية أجلها القيامة
الكبرى إذ لا أمة رسالية بعدها ، وقد يتأيد أجل الكيان بآيات يونس :
﴿ ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون .
ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . قل لا أملك لنفسي ضرراً ولا
نفعاً إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا
يستقدمون ﴾ (١).

(١) نور الثقلين ٢ : ٢٧ فيه عدة روايات تشابه ما نقلناه عن الدر المنثور في تفسير الآية أنها
تشمل آجال الأعمار ، وفيه عن كتاب التوحيد بسند متصل عن ابن حبان التميمي عن
أبيه : وكان علي (عليه السلام) يفتي الكتاب يوم صغين ومعاوية مستقبله على فرس له
يتأكل تحته تأكلًا وعلي (عليه السلام) على فرس رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) =

ذلك ، بعدما يتأيد بما احتفت به من آيات تخاطب بني آدم ككل :
 « يا بني آدم خذوا زينتكم . . . ولكل أمة أجل . يا بني آدم » إذا فكل
 الأمم الرسالية الخمس مؤجلة بأجل محتوم دون تعلق ، حيث ينقضي دورها
 الرسالي بأمة رسالية أخرى تليها ، ومجيء الأجل هنا هو مجيء قضاء ، لا
 نفسه ، حتى ينافي لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

وهناك أجل ثالث هو أجل كل الأمم عن بكرتهم كما في يونس
 « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى
 أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون »^{١١} و « كل
 أمة » هنا تعني كل الأمم ، ولكنه إحتمال بعيد عن ساحة الدلالة القرآنية .

ثم ومجيء الأجل في هذه الأجال لا يعني هنا واقعها إذ لا معنى -
 إذا - لإستقدامها وقد قضيت ، بل هو مجيء تقدير الأجال فلا مؤخر لها إذا
 ولا مقدّم عما عجلت أم أجّلت لها من آجال ، أم إنه واقع الأجل بفارق أنه
 في « يستقدمون » مستحيل ذاتياً ، وفي يستأخرون وقوعياً ، فقد عني - إذا -
 تلحق « يستأخرون » بـ « يستقدمون » في الإحالة مهما اختلفت فيها ذاتياً
 وسواها ، حيث القصد هنا أصل الإستحالة لا وكيفيتها .

ذلك ، وترى كيف « لا يستأخرون » مهما هم « لا يستقدمون » ؟ لا

= المرتجز ويده حربة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو متقلد سيفه ذا الفقار ،
 فقال رجل من أصحابه : إحترس يا أمير المؤمنين فانا نخشى أن يقتالك هذا فقال علي
 (عليه السلام) : لئن قلت ذلك أنه غير مأمون على دينه وأنه لأشقى القاسطين وألعن
 الخارجين على الأئمة المهتدين ، ولكن كفى بالأجل حارساً ، ليس أحد من الناس إلا
 ومعه ملائكة حفظة يحفظونه من أن ينسردى في بئر أو يقع عليه حائط أو يصيبه سوء فإذا
 حان أجله خلوا بينه وبين ما يصيبه وكذلك إذا حان أجلي انبعت اشقاها فحضب هذه من
 هذا - وأشار بيده إلى لحينه ورأسه - عهداً معهوداً ووعداً غير مكذوب .
 أقول : فالمفروض على المكلفين التحرز عن بواعث الموت إلا فيما أمر الله بالجهد ، ثم
 ليس عليهم الحفاظ على أنفسهم أكثر من ذلك التحرز حيث الأجل ضمان رباني .

يستأخرون ، حيث يرون عندئذٍ ألا مجال لتأخير لأنه أجل محتوم ، ثم « لا يستقدمون » قد تعني - مع ما عنت - أن ليس لهم تقدم الأجل المحتوم مهما حاولوا ، اللهم إلا المعلق ولكنه أيضاً غير بعيد عن مشيئة الله .

وقد تعني « كل أمة » كل الأمم رسالية وسواها بكياناتها الجماعية قيادية روحية أو زمنية أممية من كيانات جماعية .

أو تعني « لكل أمة أجل » - مع ما عنت - أجل الموت المحتوم قبل القيامة ، والأمة - إذاً - هي أمة الموت ، فإن لكل أن أمواتاً بين كل الأحياء ، ف « لا يستأخرون ولا يستقدمون » الأجل المحتوم لا فردياً ولا جماعياً ^(١) وما علينا أن نتحرز عن الأجل المحتوم فإنه غير مستطاع لنا إذ

(١) الدر المنثور ٣ : ٨١ عن أبي الدرداء قال تذاكرنا زيادة العمر عند رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقلنا : من وصل رحمه أنسى في أجله؟ فقال : انه ليس بزائد في عمره قال الله : « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ولكن الرجل يكون له الذرية الصالحة فيدعون الله له من بعده فيبلغه ذلك فذلك الذي يلحقه دعاءهم في قبره فذلك زيادة العمر . مركز تحقيق كامبوتر علوم إسلامي
أقول : يعني (صلى الله عليه وآله وسلم) من زيادة العمر المنفية بصلة الرحم وما أشبه ، الزيادة على الأجل المحتوم ، وما أطفه زيادة حكمية وهو في قبره حتى يصله دعاء الصالحين من ذريته ، فلا يتأفي « ليس بزائد في عمره » دفع الأجل المعلقة بمبررات ، فطالما الزيادة الواقعية في العمر مسلوية فالزيادة الحكمية وكذلك دفع الأجل المعلقة ، هما قائمان ، فالمبررات مانعة عن النقص في الأعمار دون زيادة عليها وكما قال الله : « وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب » .

فالمعني من النسا في العمر هو النسا عن الأجل المعلق لا المحتوم وكما في المصدر أخرج أحمد عن ثوبان عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : من سره النسا في الأجل والزيادة في الرزق فليصل رحمه .

وفيه أخرج الحكيم الترمذي عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : من ولي من أمر أمتي شيئاً فحسنت سيرته رزق الهيبة من قلوبهم وإذا بسط يده لهم بالمعروف رزق المحبة منهم وإذا وفر عليهم أموالهم وفر الله عليه ماله وإذا أنصف الضعيف من القوي قوى الله سلطانه وإذا عدل مد في عمره .

نجهلها ، فإنما لنا وعلينا التحرز عن أسباب الموت - غير المجبورة - حيث الأجل المحتوم مجهول بين الأجل المعلقة .

ففي مسارح القتال المفروضة علينا أو الراجحة لنا ليس التعرض للموت محظوراً ، بل هو مجبور قضية الأمر ، وفي سائر المسارح هو محظور حيث نجهل محتوم الأجل عن معلقة ^(١) .

فالمفروض علينا الفرار من الموت ، فراراً « من قضاء الله إلى قدر الله عز وجل » ^(٢) ، فإنه قاض بالموت إذا تعرضنا لأسبابه المحتممة ، ولكنه مقدر للموت المحتوم أضيق من قضاءه فنستسلم لقدره كما أمر ، ونفر من قضاءه كما أمر ، اللهم إلا في معترضات الموت المأمور بها كجبهات الحرب ، بل وفيها أيضاً ليس لنا الإقدام على الموت ، بل

(١) راجع إلى حاشية (١) ص ١١٢

(٢) المصدر عن التوحيد بإسناده إلى الأصمغيني بن نباتة قال : ان أمير المؤمنين (عليه السلام) عدل من عند حائط مايل إلى حائط آخر فقبل يا أمير المؤمنين تفر من قضاء الله ؟ قال : أفر من قضاء الله إلى قدر الله عز وجل ، وفيه بإسناده إلى عمرو بن جميع عن جعفر بن محمد قال حدثني أبي عن أبيه عن جده (عليهم السلام) قال : دخل الحسين بن علي (عليه السلام) على معاوية فقال له : ما حمل أباك على أن قتل أهل البصرة ثم دار عشيأ في طرفهم في ثوبين ؟ فقال (عليه السلام) : حمله على ذلك علمه أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، قال : صدقت .

وفيه وقيل لأمير المؤمنين (عليه السلام) لما أراد قتال الخوارج : لو احتزرت يا أمير المؤمنين فقال :

أي يومين من السموت آخر يوم ما قدر أو يوم قدر
يوم لم يقدر لا أخشى الردى وإذا قدر لم يغن الحذر
وفي كتاب المناقب لابن شهر آشوب : وكان مكتوباً على درع علي (عليه السلام) :
وكان مكتوباً على علم أمير المؤمنين (عليه السلام) :

الحرب إن باشرتها فلا يكن منك الفشل
واصبر على أهوالها لا موت إلا بالأجل
وفيه عن الحسن بن علي (عليه السلام) كلام طويل وفيه : إن علياً (عليه السلام) في المحيى والممات والمبعث عاش بقدر ومات بأجل .

« خذوا حذرکم » ثم إذا حضر الموت على حذرکم فلکم الحسنی إذ کان بأمر الله .

ذلك ، فإذا توافق القضاء والقدر للموت فلا فرار كما قدر للإمام علي (عليه السلام) قبله حيث قدم إلى مضجعه إلى المحراب ، وقدر للإمام الحسن المجتبي ولالإمام الرضا وغيرهما من أئمة الدين قدر الموت بقضاء السم .

فإنما جهلنا بتوافق القضاء والقدر أو علمنا باختلافهما يفرض علينا الفرار من القضاء إلى القدر ، فأما إذا علمنا التوافق بينهما ، أم أمرنا بالتعرض لقضاءه كمرسح القتال وما أشبه فلا .

فقد « قدر لکم أعماراً سترها عنکم »^(١) « فما ینجو من الموت من خافه ، ولا یعطى البقاء من أحبه » (٣٨) حيث « خلق الأجل فأطالها وقصرها ، وقدمها وأخرها » (٨٩) « وإن الفار لغير مزید فی عمره ، ولا محجوز بینہ وبين یومه » (١٢٢) .

فـ « إنما أنتم فی هذه الدنيا غرض تتصل فیہ المنایا ، مع کل جريمة شَرَق ، وفي کل أكلة غَصَص ، لا تنالون منها نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا یُعمر معمر منکم يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله ، ولا تجدد له زیادة فی أكله إلا بنفاد ما قبلها من رزقه » (١٤٣) و « إن مع کل إنسان ملکین یحفظانه ، فإذا جاء القدر خلّیا بینہ وبينہ ، وإن الأجل جُنّة حصينة » (٢٠١ ح) .

وحصيلة البحث عن آية الأجل ، أن الأجل هنا بین محتوم ومعلق ، وهما بین أجل الموت عن أصل الحياة ، أو إنتقال إلى شرعة أخرى ، أم إنتقال کيان حيوي آخر روحياً أم مادياً من أمة إلى آخرين .

ثم « لا یسأخرون ولا یستقدمون » هما بین مجيء وقت الأجل إعلاماً ، أم واقعاً فی وقته ، أم على أشرافه .

فـ « لا يستأخرون ولا يستقدمون » في آجال الأمم الرسالية ، هما قضية أنهم مخبرون بأن أجلهم سوف ينقضي بما قضاء الله ، فليس لهم فيه تطلب لتأخر إلى أمد ، أم تقدم على أمد ، لأنه مشاققة الله في قضاء المحتوم حسب الحكمة العالية .

فلا يعني مجيء الأجل هنا واقعه إلا في « لا يستأخرون » حيث لا مجال - إذا - لـ « لا يستقدمون » فإن إستقدام الزمن الماضي مستحيل .

وهكذا نمشي ونمضي بنور الله على ضوء القضية الدلالية للآية فاصحة واضحة ، بين محتملات الأجل والأمة ولا يستأخرون ولا يستقدمون ، ما ناسبه الواقع غير المستحيل ، والدلالة الصالحة .

ذلك ، والأجل المقدر عند الله مجهول عن كل الخليقة حتى المعصومين وكما قال علي أمير المؤمنين (عليه السلام) :

« أيها الناس كل امرئ لاق ما يفر منه في فراره ، والأجل مساق النفس ، والهرب منه موافاته ، كم أطردت الأيام أبحاثها عن مكنون هذا الأمر فأبى الله إلا إخفاءه هيهات ! علم مخزون . . » (الخطبة ١٤٩)
و « إن مع كل إنسان ملكين يحفظانه فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه وإن الأجل جنة حصينة » (الحكمة ١٩٠) .

أجل ، وكما أن أجل القيامة من العلم المخزون المكتوم قضية الإبتلاء الشامل ، فكذلك أجل الموت فإنه لا يعلمه لوقته ومكانه الخاص إلا الله ، ولم يكن ليعلم الإمام أمير المؤمنين إلا كيف يقتل ، وأما متى وأين فقد كان مجهولاً لديه بنفس القضية الحكيمة الشاملة ، أم كان يعلم بتوافق أجلي المقدر والمحتوم فأقدم على ما أقدم .

ذلك ، وعلى أن الأجل محددة بإذن الله وعلمه ، ولكنه من ناحية أخرى لا يُمنع من التحسر على بلوغ آجال الأجلاء الذين هم هداة الناس دون بديل عنهم .

وهنا من كلام لعلي أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو يلي غسل

رسول الله وتجهيزه :

«بأبي أنت وأمي يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأبناء وأخبار السماء ، خصصت حتى صرت مسلماً عمن سواك ، وعممت حتى صار الناس فيك سواء ، ولولا أنك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لأنفذت عليك ماء الشؤن ، ولكان الداء مماتلاً ، والكمّد محالفاً وقلاً لك ، ولكنه ما لا يملك رده ، ولا يُستطاع دفعه ، بأبي أنت وأمي ، أذكرنا عند ربك واجعلنا من بالك ، (الكلام ٢٢٦) .

ذلك ، وأجال الرسل هي مقدرة مقررة لا تُستقدم ولا تُستأخر ، قضية الحكمة العالية الربانية في الحفاظ على وحيه الرسالي لإتمامه في أيامه ، ولا سيما خاتم المرسلين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد كتب آجالكم ، وأنزل عليكم الكتاب تبياناً لكل شيء ، وعمر فيكم نبيه أزماناً حتى أكمل له ولكم فيما أنزل من كتابه دينه الذي رضي لنفسه ، وأنهى إليكم على لسانه محابيه من الأعمال ومكارهه ، ونواحيه وأوامره ، فألقى إليكم المعصرة ، واتخذ عليكم الحجة ، وقدم إليكم بالوعيد ، وأنذركم بين يدي عذاب شديد ... » (الخطبة ٨٥) .

﴿ يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (٣٥) .

ذلك ، حيث « قلنا اهبطوا منها جميعاً فلما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٢ : ٣٩) -

« قال اهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فلما يأتينكم مني هدى فمن إتبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى » (٢٠ : ١٢٤) ففي هاتين « هدى » حيث تشملان آدم وهو أول الرسل ، وهنا « رسل » إذ ما أتى آدم نفسه رسول ، نصوص ثلاثة تتحدث عن مسرح الرسائل الربانية على مدار

الزمن الرسالي للمكلفين ، فالتمسك بآية « بني آدم » زعماً أنهم - فقط - الأمة الإسلامية ، فـ « إما يأتينكم رسل منكم » بشارة لرسالات بعد الرسالة الإسلامية ؟ إنه تمسك هباءً وخواء - بعيد عن بني آدم - اللهم إلا أن تخرج بنية الأمم الرسالية عن بني آدم ومنهم هؤلاء المدعون استمرارية الرسالة لما بعد الرسالة الإسلامية .

كلّا ! فإنه خطاب يعم كل بني آدم على مدار الزمن الرسالي دونما استثناء ، منذ آدم حتى خاتم النبيين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين .

فـ « إما يأتينكم . . » تأكيد لإتيان الرسل بصورة الشرطية ، تدليلاً على أن « فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . » والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » بشارة ونذارة عامة تحلق على كل بني آدم المكلفين دونما استثناء .

وهنا « رسل منكم » كما « يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي . . » (٦ : ١٣٠) حيث تعني « منكم » المجانسة بين الرسل والمرسل إليهم ، لا أنهم المنتخبون من قبلهم ، فهكذا أيضاً « أولوا الأمر منكم » دون فارق .

ولأن « ما » تُخفف عن تردد « إن » الشرطية ، ثم الشرطية غير متمحضة في واقع التردد ، بل هي تُعَلِّقُ أمراً على آخر حاصلاً أم سوف يحصل ، أم حصل قبل أولن يحصل ، لذلك كله فلا تناحر بين « إن » الشرطية والتأكيد المستفاد من التأكيدية الثقيلة في « يأتين » ، ولأن القصص هو تتبع الأثر ، وهو القص التاريخي بمعنى عرض النخبة اللامعة ، إذا فـ « يقصون عليكم آياتي » يعني تتبع الآثار الربانية فطرية وعقلية وشرعية أماهيم من آفاقية وأنفسية ، وقص التاريخ الرسالي لأنه سلسلة موصولة مع الزمن الرسالي .

ذلك وقد « اصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على السوحي مشاقهم ، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم ، لما بدّل أكثر خلقه عهد الله إليهم ، فجهلوا حقه ، واتخذوا الأنداد معه ، واحتالتهم الشيطان عن

معرفة ، واقتطعتهم عن عبادته ، فبعث فيهم رسله ، وواتر إليهم أنبياءه ، ليستأدوهم ميثاق فطرته ، ويذكروهم منسي نعمته ، ويحتجوا عليهم بالتبليغ ، ويشيروا لهم دفائن العقول ، ويروهم الآيات المقدرة ، من سقف مرفوع ، ومهاد تحتهم موضوع ، ومعاش تحييههم ، وأجال تفنيهم ، وأوصاب تهرمهم ، وأحداث تتابع عليهم ، ولم يخل سبحانه خلقه من نبي مرسل ، أو كتاب منزل ، أو حجة لازمة ، أو محجة قائمة ، رسل لا تقصر بهم قلة عددهم ، ولا كثرة المكذبين لهم ، من سابق سمي له من بعده ، أو غابر عرفه من قبله -

على ذلك نسلت القرون ، ومضت الدهور ، وسلفت الأبناء ، وخلفت الأبناء ، إلى أن بعث الله سبحانه محمداً رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لإنجاز عذته ، وتمام نبوته ، مأخوذاً على النبيين ميثاقه ، مشهورة سمائه ، كريماً ميلأه ... (الخطبة ١) .

﴿ والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (٣٦)

والخلود - كما مر مراراً وبمر - هو البقاء مدة طائلة ، دون غائلة الأبدية اللانهائية التي افتريت على الله بتعليلات عليلة ، وهل العقوبة اللانهائية هي جزاء وفاق للعصيان المحدود لزمان محدود بأثر محدود ؟ -

﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ (٣٧)

فممن افترى على الله كذباً وكذب بآياته هؤلاء الذين يؤبدون المكذبين بآيات الله المستكبرين عنها ، أبد اللانهائية ، فهم - إذاً - معهم فيما يزعمون ، اللهم إلا القاصرين منهم التابعين للقائلين به الغائلين .

« أولئك لهم نصيبهم من الكتاب » قبل الموت ، لمكان « حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم » . . . فما هو ذلك الكتاب ؟ إنه بطبيعة الحال كتاب

الأعمال لسبق ذكر الأجل ، مما يؤيد أن « لكل أمة أجل » تشمل أمم الموت مؤمنين وكافرين ، فكما « لكل أمة أجل » كذلك « لكل أجل كتاب » وكذلك كتاب الأعمال وما كتب الله عليهم بها من العقاب في كتابه حسب كتاب الأعمال ، وقد عبر - مراراً - عن مُثَبِّتة الأعمال في سجلاتها بالكتاب : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » (٤٥ : ٢٩) ، « إقرء كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » (١٧ : ١٤) فالكتابان - إذاً - هما معنيان بفارق أن نيل نصيب كتاب الأجل يختص بالدنيا بنفسه ، ثم نصيب كتاب العمل يشمل النشآت الثلاث والمعني منها هنا نصيب الدنيا بآثار الأعمال السيئة .

صحيح أن هنا عملاً دون حساب وهناك حساب دون عمل ، ولكن « نصيب من الكتاب » هو خليفة حاضرة لا مرد عنها مما لا بد منها ، فان للأعمال آثاراً في الحياة الدنيا كمآلها في الأخرى مهما كان كمآلها في الأخرى .

ثم ومن « الكتاب » ما كتبه الله من أعمار وأرزاق للعباد ، فكما للصالحين نصيب كذلك للطالحين ، إذ « كلأ نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً » (١٧ : ٢٠) .

فكما « لهم نصيبهم من الكتاب » رزقاً في الحياة الدنيا وأجلاً فيها فان « لكل أجل كتاب » (١٣ : ٣٨) كذلك « لهم نصيبهم من الكتاب » الذي كتبوه بأعمالهم ، فهم عاثشون بين الكتابين ولا يظلمون قليلاً .

ذلك ، وان لهم انصبة من الكتاب أولاهما في الأولى ، وأخراها في الأخرى ، وأوسطها بينهما حيث « من ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » ، ومن الوسطى :

« حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم » وهم الرسل الملائكية الغلاظ الشداد : « ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وفوقوا عذاب الحريق » (٨ : ٥٠) .

والتوفي هو الأخذ وإفياً دون تغلّت لشيء من كيان الإنسان ، المفروض حشره للحساب نفساً وبدناً : « وقالوا : إذا ضللنا في الأرض ، إنا لنفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون . قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون » (٣٢ : ١١) .

ومن مقالهم معهم « قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله » أنهم آلهة مع الله ، دلونا عليهم لنراهم ما هم ومن هم ؟ « قالوا ضلوا عنا » ضلالاً عن كيان الألوهية ، لا عن كونها كسائر الكائنات حيث تحشر حاضرة عما تلبست من كبرياء الألوهية : « وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاءنا الذين كنا ندعوا من دونك فآلقوا إليهم السلم إنكم لكاذبون . وآلقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون » (١٦ : ٨٨) - « ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي أم هم ضلوا السبيل . قالوا سبحانه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً » (٢٥ : ١٨) .

ذلك ، وقد تعني « ضلوا عنا » إلى ما عنت ، ضلالاً عند الموت ، ثم « إذا رأى » رؤية عند الحشر ، وعلى أية حال « وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » .

« قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا أداركوا فيها جميعاً قالت أخراها لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون » (٣٨) .

هنا « قال ادخلوا في أمم . . . » دون فصل عن « يتوفونهم » - بقالتهم المؤنية إياهم - دليل أن « النار » هنا هي البرزخية ، ثم « إذا أداركوا فيها جميعاً » قد تلمح أنها نار الآخرة ، حيث الجمع لأهل النار في النار ليس إلا فيها ، وأما النار البرزخية فهم يدخلونها تباعاً حتى قيامة الإمامة الصعقة ، فقد لا يكون للأحياء عندها برزخ ؟!

ولكن الجمع في البرزخ كائن في آخر الأمر ، فالأموات قبل القيامة الأولى أخذوا مواقعهم فيه ، ثم الذين يلونهم في القيامة الأولى يدخلون فيما هم داخلون وهنا « اداركوا فيها جميعاً » .

وأما الصعقة الشاملة « إلا من شاء الله » في القيامة الأولى ، فلا تنافي حياة برزخية بعدها فيها يثابون أو يعذبون .

وقد تعم « أدخلوا » إلى مدخل البرزخ مدخل القيامة الكبرى « حتى إذا أداركوا فيها جميعاً . . » ف « أدخلوا » للبرزخ أمر حاضر دون فصل ، وللأخرى أمر حاذر للمستقبل ببرزخ الفصل .

ثم « الجن » الداخلون مع « الإنس » في النار هم شياطين من الجن وفسقة يستحقون النار البرزخية ، مما يدل على أن الإنظار إلى يوم الوقت المعلوم لا يشمل كل شياطين الجن ، فقد يشمل مع الشيطان الأول الشياطين الأول من صناديدهم كما هو قضية « إنك من المنظرين » فهنا شياطين منظرين مع الشيطان الأول ، وهم - بطبيعة الحال - أضرابه من رؤساء الشيطنة ، أم يشمل كل شياطين الجن لمكان « وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قلدأ » فدون الصالحين منهم هم قدد الشيطنة ، المنظرين مع هذا الشيطان .

وعلى أية حال فهناك منظرين من الشياطين هم كلهم أم بعضهم دون فسقه الجن ، فانهم كما الإنس غير منظرين .

وترى كيف « كلما دخلت أمة لعنت أختها » وأمم النار أصدقاء مرافقون موافقون في أسباب النار واستحقاقاتها ؟ .

إن الملاعنة هناك هي قضية ظهور الملكوت ، ف « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » (٤٣ : ٦٧) ثم الموادة بينهم كانت قشرية على الأهواء الطائشة ، وقد مضت وأدبرت ، ثم ظهرت فاسدة كاسدة ففضت بما فضت ، فكل تعاون بين هؤلاء الأخلاء في الفسوق تكون هناك مادة العداء الظاهرة ، وقد كانت مستورة أم متغافلاً عنها : « لقد كنت

في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» (٥٠ : ٢٢) -
« يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين » (٢١ : ٩٧) .

أجل و « إن ذلك لحق تخاصم أهل النار » (٣٨ : ٦٤) ثالث من التخاصم بسالوس الإضلال والضلال والإدغال ، فقد يخاصم المضللون مضللهم وعكساً ، كما يخاصم كل منهم قرينه في الضلال والتضليل ، واللجنة الأممية هي ضابطة اللعنة الثابتة « أمة » بمن فيها من المضللين والمضللين والقرناء في كل منهما ، فكل لاحقة تلعن أختها السابقة عليها ، ولأنها لحقتها في ضلالها ، إذ كانت تقلدها وتتبع آثارها، ولعنت أختها اللاحقة بها ، سواء أكانت أختها مضللة لها أم مضللة بها ، حيث الأخوة في الكفر لا تعرف دركة دون أخرى ولا زمناً دون آخر .

ثم « أمة » هنا هي أمة الموت، وقد تعنيها « لكل أمة أجل » ولكنها أمة الضلالة ، وتقابل أمة الهدى .

ولماذا « اداركوا فيها » دون « دخلوا - أو حضروا » ؟ حيث القصد إلى تداركهم فيها بحساب واستحقاق ، وإدراكهم بعضهم بعضاً ظاهراً وباطناً ، وعندئذ :

« قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا » حيث اللاحقة هي تابعة السابقة ، أم - كأوضح - أخراهم في الضلالة التابعة لأولاهم فيها وهم أئمة الجور (١) ، فالفرقان - إذاً - هما المتعاشيان إن في زمن واحد أم عديد ، فهما على أية حال المضللون باتباعهم للمضللين ، سواء أكان في تعايش زمني ، أم في تقليد أخراهم لأولاهم دون تعايش حيث يضللون بآثارهم .

وبصيغة أخرى قد تعني « أخراهم » وجاء « أولاهم » كل أخرى لكل أولى ، في سلسلة متواصلة يحقول الإضلال والضلال ، أم « أخراهم » هم المضللون و « أولاهم » المضللون فإنهم الأولى في حقل الضلال وأولئك هم الأخرى ، مع كون كل من الأخرى هي أيضاً أولى لمن يضلله .

إذاً فالقصد من « قالت أخراهم لأولاهم » هو قيلة كل أمة مضللة لكل

(١) تفسير البرهان ٢ : ١٤ - الطبرسي قال الصادق (عليه السلام) في الآية يعني أئمة الجور .

أمة مضللة ، والأمة هنا كما بينا هي أمة الموت في الكفار الذين هم أهل النار .

ذلك ، ولأن الضلال منه حاضر في تعايش الضلال والمضللين ، ومنه غير حاضر بمضليليه لمكان ضلالهم الغابر ، العابر مر الزمن ، فقد يشمل الإضلال كليهما ، فان « من سن سنة سيئة كان عليه وزر من عمل بها إلى يوم القيامة ولا يُنقص أولئك من أوزارهم » مهما كان الإضلال الحي أقوى وأغوى من الإضلال الميت .

إذا فـ « قالت أخراهم » تشمل كل مضلل و « لأولاهم » تشمل كل مضلل حياً وميتاً ما دام في ضلاله تأثير الإضلال بأي أثر باق باغ في حقل الضلال ، إذا فليست « أخراهم » هي المتأخرة موتاً إذ قد يكون هي المتقدمة إضلالاً .

« ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار » لضلالهم أنفسهم وإضلالهم إيانا « قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون » فانكم كما هم ضللتهم وأضللتهم ، فان في الدخول إلى ربيع الضلالة إضلالاً للبطاء ، ثم « لا تعلمون » ضعفكم عن ضعفهم ، فان لكل عذاباً قدر سعيه في الضلال والإضلال .

ذلك ، فلا تعني « لكل ضعف » تماثل الضعفين عدة وعدة ، بل هو التماثل لبعدي الضلالة مهما اختلفت العدة والعدة ، فقد يقوى ضعف الأولين ويضعف ضعف الآخرين ، حسب القوة والضعف في الضلالة والإضلال ، وكما أن كلاً من الفريقين دركات في كلا الضلال والإضلال ، ثم والضعف في العدد كما العدد لا ينحصر في اثنين حيث قد يتجاوزهما إلى أضعاف حسب أضعاف الإستحقاقات ^(١) .

(١) قال الأزهرى « الضعف » في كلام العرب المثل إلى ما زاد وليس بمقصود على المثليين وجائز في كلام العرب أن تقول : هذا ضعفه أي مثله وثلاثة أمثاله ، لأن الضعف في الأصل زيادة غير محصورة كما « فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا » إذ ليست تعني »

﴿ وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾ (٣٩).

وترى الفضل المنفي في بُعد العذاب هو الفضل في عِدَّة العذاب وعُدَّته ، أن الفريقين يتساويان فيهما ؟ وهذا غير وارد في كل فريق بين أفرادهم فضلاً عن الفريقين مع بعضهما البعض ! فقد يعني فضل الضعف في العدد ، لا والعُدَّة .

وعلى أية حال « فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون » فعلى قدر مكاسب السوء نجازى وتجازون .

وقد يعني « ولكن لا تعلمون » مدى الضعف مضللين ومضللين ، فلذلك ليس « فما كان لكم علينا من فضل » إلا جهلاً بمدى « لكل ضعف » وهذا الجهل عذاب فوق العذاب .

ثم وقد تكون « فذوقوا ... » من كلام الله دون كلام أولاهم ، كضابطة عامة نعم أولاهم وأخراهم أن ذوق العذاب على أية حال ليس إلا بمكاسب السوء قدرها ، من مضلل كان أم مضلل ، على قدر ضلاله وإضلاله أم تقبله للضلال « ولكن لا تعلمون » .

إذا فهي نقد على « ما كان لكم علينا من فضل » أم هو كلامهم وكذلك الأمر حيث أجابوا أنفسهم بأنفسهم . وحصيلة الضعف هنا وهناك أن لكل كثرة العذاب عدداً وعدداً حسب عديد العصيان وعُدده ، وليس يعني « فما كان لكم علينا من فضل » إلا فضلاً من الله يختص بالمضللين لأنهم أتباع ، فهو العدل المحكم بين الفريقين ، وقد يربو المضلل على المضلل في ضعف العذاب قدر ضعف العصيان ، وإنما الفضل يختص بكتلة الإيمان ، أن يزدادوا ثواباً عما يستحقون ، وأما الكفار فلا زيادة في عذابهم ولا نقصان عن المستحق بقسطاس مستقيم .

ولأن « الضعف » لا يختص بالمثلين كما « فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون » (٣٤ : ٣٧) وأقل الضعف هو عشرة

= ضعف المستحق ، بل هو كثرة الثواب حسب كثرة الطاعات وأقل الضعف لهم عشرة أضعاف فـ « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » .

لمكان « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » وهذا لأدنى المؤمنين ، وهنا « جزاء الضعف » لأفاضلهم .

إذا فمطالبة ضعف العذاب للمضللين - فقط - لأنهم أضلوا ، خاوية عن العدل المرام يوم الحساب ، والجواب كلمة واحدة « لكل ضعف » من العذاب وهو كثرته قدر المستحق ، فقد يكون ضعف المضلل أضعف من ضعف المضلل ، وآخر يعاكسه ، وضعف كل ليس إلا بميزان العدل ، ثم لا ضعف كما يشتهون « ولكن لا تعلمون » أن لكل ضعفاً كما « لا تعلمون » قدر الضعف لكل حيث الأعمال معروفة عند الله ، مجهولة عند من سواه .

فهنا « لكل ضعف » تعني عذاباً لضلاله وعذاباً لإضلاله ، وكل ضعف إنما هو قدر المستحق عدداً وعدداً ولا يظلمون قليلاً .

﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين ﴾ (٤٠) .

هنا « لا تفتح لهم أبواب السماء » قد تعني أبواب سماء الرحمة الرحيمية دنيوية وأخروية وبينهما ومن الأولى ألا تفتح لهم أبواباً لتصعد أعمالهم وأدعيتهم إليها ، حيث « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » (٣٥ : ١٠) كما لا تفتح عليهم بركاتها : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » (٧ : ٩٦) ، ومن الأخرى عدم صعودهم إلى الجنة المأوى عند مدرة المنتهى ، كما أن مما بينهما عدم صعود أرواحهم لدى الموت إلى سماء الرحمة (١) .

(١) الدر المشور ٣ : ٨٣ - أخرج أحمد والنسائي وابن ماجه وابن جرير وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل صالحاً قال : أخرجني أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب أخرجني حميدة وأبشري بروح وريحان ورب راض غير غضبان فلا يزال يقال لها ذلك حتى تنتهي إلى السماء السابعة فإذا كان الرجل السوء قال :

ذلك ، و « أما أقفال السماوات فالشرك بالله ، ومفاتيحها قول « لا إله إلا الله » ، إذا فُتحت أبواب السماء الرحمة مادية ومعنوية لا تفتح لهم في أية نشأة من النشآت الثلاث .

إذا فللسماء أبواب : « فان استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيتهم بآية » (٦ : ٣٥) ، « ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون » (١٥ : ١٤) « فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع » (٢٢ : ١٥) .

و « حتى يلج الجمل » تمثيل بما يستحيل حيث يحيل دخولهم الجنة ، فهل هو الجمل الإبل ؟ فضلاً عن جمل أصحاب الجمل^(١) ولا صلة لذلك الجمل بسم الخياط ، ولا أن أصحاب الجمل من « الذين كذبوا بآياتنا » لا سيما وهم يمثل طلحة والزبير كانوا من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الصالحين عند نزول الآية ، فكيف تنزل آية كفرهم الذي يحيل دخولهم الجنة ؟ !

وهنا « بآياتنا » جمعاً محلي باللام تحلق على كافة الآيات الانفسية والافاقية : رسولية ورسالية ، وهو الكفر المطلق المطبق ، البعيد عنه الذين يكذبون ببعض ويصدقون ببعض ، فلهم بعض الإيمان ، فقد يأتي يوم هم

أخرجني أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث أخرجني ذميمة وأبشري بحميم وفساق وآخر من شكله أزواج فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا فيقال فلان فيقال لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ارجعي ذميمة فانها لا تفتح لك أبواب السماء فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر .

وفي تفسير المياشي عن أبي جعفر (عليه السلام) في حديث قبض روح الكافر : فإذا أوتي بروحه إلى السماء الدنيا أغلقت منه أبواب السماء وذلك قوله : « لا تفتح لهم أبواب السماء » يقول الله : ردها عليه فمنها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى .

(١) نور الثقلين ٢ : ٣٠ تفسير المياشي عن منصور بن يونس عن رجل عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية نزلت في طلحة والزبير والجمل جملهم .

يخرجون فيه من النار إلى الجنة قضية إيمان ، بعد ما ذاقوا وبال أمرهم في تكذيب .

فهذه الآية تبين مصير المؤيدين في النار الذين ينخمدون - بعدما ذاقوا وبال أمرهم - مع انخماد النار ، فلا نار - إذاً - ولا أهل نار .

ثم « الجمل » أمام « سم الخياط » تناسب القلس الغليظ الذي يجربه الجمل ، ولأنه حبال جمعت وجملت فأصبحت حبلاً واحداً يصلح لجبر الجمل ، وأين جمل من جمل ؟ .

فهنا « لا تفتح » نعم كل تفتح لبركات السماء معنوية ومادية في النشآت الثلاث ، كما نعم التفتح لصعود أعمالهم إليها يوم الدنيا ، وصعود أرواحهم فيها بعد الموت ، وصعود أنفسهم يوم القيامة الكبرى، حيث تفتح أبواب جنة الخلد عند سدرة المنتهى لأهلها ، وكذلك نزول بركات من السماء مادية ومعنوية عليهم في هذه النشآت ، فهذه الأبواب كلها مغلقة على هؤلاء « الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها » كما أغلقوا على أنفسهم أبواب الهدى ، جزاءً وفاقاً .

أجل تفتح لهؤلاء الأنكاد أبواب الرحمة بديلة عن أبواب الرحمة ، حيث السماء تشملهم مادية ومعنوية ، ولا تعني « بركات من السماء » لأهل الرحمة في المادية منها ما تصل إلى غير الصالحين من رحمتها ، فانها تبدل عندهم برحمات حيث يسدلون نعمة الله نعمة ونقمة ، إضافة إلى رحمات خاصة أخرى مادية لهؤلاء دون أولاء .

ذلك ، وأبواب السماء في صعود الأعمال والأدعية ونزول الفرقان والرحمة على أهلها ، هذه هي أبواب سماء الرحمة الروحية ، المتحللة عن العلو المادي ، فد « إليه يصعد الكلم الطيب » لا تعني إلى مكان عال إلا جنة المأوى ، أم إلى رضوان من الله الذي لا مكان له ، كما ونزول الرحمة المعنوية يعني فيما يعنيه نزولاً روحياً دون مكان عل .

والأجمل هنا في « الجمل » الجمع بين جمل الجمل والجمل الذي

يُجر به الجمل ، فلو أمكن ولوج الجمل ابتداءً بحبله الجمل في سم الخياط لأمكن دخول هؤلاء الجنة ، ومما يناسب ذلك الجمع أن الخيط الغليظ الذي يصعب ولوجه في سم الخياط يربط برقيق سهل الولوج فيلج به صعبه ، وفي ولوج الجمل الإبل بجمله الفتل الغليظ استحالتان إثنتان ، مما يجعل الممثل به تضاعف الإستحالة ، وعلم من الوجه في صيغة « الجمل » هنا دون الإبل ، جمعها لجمل: الجمل وحبل الجمل، دون الإبل جمعاً بين الإستحالتين ، فدونك قف أمام ذلك المشهد الرائع الشهيد ، مشهد الجمل بحبله تجاه سم الخياط ، فلو انفتح ذلك الثقب الصغير لمرور الجمل الكبير بجمله القطير ، فقد تنفتح الجنة لأولئك المكذبين بآيات الله المستكبرين ، ولكن :

﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين ﴾ (٤١) .

هناك لهم « مهاد » مهدوها في الحياة الدنيا ، حيث الآخرة بحذاقها هي مثال الدنيا المخلقة - بما وعد الله - هي عنها ، فد « لهم من جهنم » من تحتهم فراشاً « مهاد » أمهدة مفترشة مهادة لهم بكل ألوان العذاب التحتية ، ثم « ومن فوقهم غواش » جمع الغاشية فهي أغشية مشتملة ، وهي العذابات السائرة لهم ، المحيطة بهم من جوانبهم كلها، فيكون استغلالهم بحرهما كاستقرارهم على جمرهما ، فد « هل أتاك حديث الغاشية . وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة . تصلى ناراً حامية . تسقى من عين أنية . ليس لهم طعام إلا من ضريع . لا يسمن ولا يغني من جوع » (٨٨ : ١ - ٨) .

فالغاشية هي التي تغشاهم مهاداً من تحتهم وسائر الغاشية من فوقهم : « يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون » (٢٩ : ٥٥) ، وعلى حد المروي عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : عند تلاوته هذه الآية : « هي طبقات من فوقه وطبقات من تحته لا يدري ما فوقه أكثر أو ما تحته غير أنه ترفعه الطبقات

السفلى وتضعه الطبقات العليا ويضيق فيما بينهما حتى يكون بمنزلة الزجاج في القدح ، فقد جعل لهم من النار أمهدة مفترشة تحتهم وأغشية مشتملة عليهم ، فيكون استظلّالهم بحرّها كاستقرارهم على جمرها أعادنا الله منها ، فتلك هي صفة التكذيب والإستكبار ، ثم إلى صفة التصديق والإقرار :

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾^(٤٢) ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴿^(٤٣) .

هنا « لا نكلف نفساً إلا وسعها » تحدد واجب الإيمان وعمل الصالحات دون إحراج ولا اعسار فيها ، فـ « أولئك » على درجاتهم بمساعيهم « أصحاب الجنة هم فيها خالدون » عطاء غير مجذوذ ، دون واجب الإستغراق الظاهر من « عملوا الصالحات » إزالة لليأس عن هؤلاء الذين لم يطبقوا كل الصالحات ، فما لم يكن في الوسع من فعل المفروض أو ترك المرفوض فلا يطالب به المكلف ، ثم وما قصر فيه وهو يسعه أن يطبقه فبوسع أن يجبره فهو مطالب بجبره ، اللهم إلا السيئات المكفرة بترك الكبائر ، فـ « لا يكلف نفس إلا وسعها » تبشير بوسع رحمة الله كضابطة ثم هناك مزيد فيما قصر من تكفير وتوبة وشفاعة أمأهيه .

ذلك ، ومتصورات التكليف المستحيل والممكن والواجب كالتالية :

١ التكليف بالمستحيل ذاتياً^٢ أو حالياً^٣ ، والتكليف المحرج نوعياً أم^٤ شخصياً^٥ ، والتكليف الشاق المعسر نوعياً^٦ أو شخصياً^٧ ، والتكليف الموسع شخصياً^٨ أو نوعياً .

فالأولان مستحيلان في محكمة العقل والعدل فضلاً عن التكليف الفضل ، ثم المحرج بشقيه غير وارد في الشرع لمكان نفي الحرج بآياته كـ « ما جعل عليكم في الدين من حرج » وكذلك الشاق الذي يكلف كافة قوات المكلف بنوعيه ، إلا قليلاً لمكان نفي العسر بآياته كـ « يريد الله بكم

اليسر ولا يريد بكم العسر، فيبقى الثامن وهو واسع التكليف الذي لا يكلف المكلف إلا واسعاً في طاقته .

وكما أن واسع التكليف شرط في أصله لكافة المكلفين ، كذلك هو في كل مناهم ، فإذا كانت الموانع لفعل المفروض أو الجواذب لفعل المفروض ، كانت أقوى من طاقة المكلف أم يساويها ، أم هي أقل منها بقليل لا يعبا به ، إذا فهذا التكليف خارج عن وسع المكلف فلا يكلف به ، اللهم إلا إذا عدم الوسع بسوء اختيار ، وإذا فليس التكليف الخارج عن وسعه إلا بوسعه قضية سوء اختياره في ترك الوسع .

هذا ، فقد يقدر التكليف بالطاقة الموسعة أمام المكلف به وإلا فلا تكليف إلا فيما استثنى .

فالمفروض تركه أو فعله الذي هو بحاجة إلى عصمة ربانية خارج عن الفرض لمن دون المعصومين ، كما حصل ليوسف (عليه السلام) في قصة امرأة العزيز ، فـ « لقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان به » (١٢ : ٢٤) - فلولم يدركه (عليه السلام) برهان ربه وهو العصمة الربانية لهم بها على عصمته البشرية التي هي فوق العدالة العادية ودون العصمة الربانية ، فإن وقع غير المعصوم في نفس المأزق الذي وقع فيه يوسف (عليه السلام) لكان في همه بها أم وفعله فيها معذوراً إذ لم يكن تركها في ذلك الظرف الحاسم العارم في وسع الطاقة غير المعصومة .

وهكذا الأمر في كل طاقة قاصرة عن مكافئة أو مكافحة العصيان ، إلا إذا كانت قاصرة عن تقصير ، كالذي يسافر إلى بلدة يعلم اضطرابه فيها إلى اقتراف محرم أو ترك واجب ، حيث اضطرابه المقصر - إذاً - غير عاذر ، فليس الإضطراب أو الإكراه أو سلب الطاقة عاذراً للمضطربين والمكترهين ومسئولي الطاقة إلا إذا كانت هذه الحالات دون فعلهم المقاصد وإرادتهم .

لذلك نجد آيات الإضطراب تعبر عنه بصيغة المجهول كـ « فمن اضطر غير باغ ولا عاد ، لا « فمن اضطر » فالإضطراب المباغت هو الموضوع للعذر ، دون أي اضطراب وإن كان باختيار .

ذلك ، و « نفساً » هنا هي عبارة أخرى عن « روحاً » فلأن الله هو الذي خلق الأرواح بوسعها، فهو الذي يعرف وسعها ، خلاف ما ظن قوم من الملحدين الغفلة الجهال أن الله لا يعرف النفوس ، فقد يكلفها فوق وسعها ، وكما تقولوه في « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي » (١٧ : ٨٥) أن الجواب لم يحصل عما سُئِلَ ، إمتناعاً منه لفقد العلم به ، فـ « ما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » تبكيت وتقريع لم يقعا موقعهما ، بل هو على سبيل المحاجزة والمدافعة عن الجواب ، ولقد فصلنا البحث حول آية الروح ، وأن فيها الإجابة عن كافة الأسئلة حول الأرواح كلها ، فراجع .

« ونزعنا ما في صدورهم من غل » إذ ما كانوا يستطيعون نزعها عنها وهو المستمر فيها نكال في الجنة ، فقد « نزعناه » نزعاً لما كان يحدد الإيمان وعمل الصالحات ، وهو في الجنة يكدر طيبة العيشة والعشرة مع الإخوان .

أجل « ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين » (١٥ : ٤٧) وكما كانوا يتطلبونه هنا « ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم » (٥٩ : ١٠) .

فقد يكون غُلُّ الصدور بما يخيّل إلى ذوات الصدور من تقصير لإخوان وهو قصور أم تقصير منا قاصر بحقهم فنطلب أن يزيل ذلك الغل أولاً يجعله في صدورنا ، أو يكون غلاً بحق اعتداءً بمثل حيث ظلمك أخ لك في الدين ، فقد يرجح زوال ذلك الغل عن الصدور سماحاً عما حصل ، ثم إذا لم يزل الغل في صدورنا فالله هو الذي يزيله عنها في الجنة تحقيقاً رقيقاً للتعايش السلمي في دار الكرامة والرحمة حتى لا تحول - كما في الأولى - زحمة .

أم إنه غلٌ بحق لا يحق زواله لأنه بغض في الله ، فالله قد يزيله في الآخرة حيث يزيل سببه بعقاب أم غفران بحق ، فلأن غل المؤمن في صدر المؤمن عذاب ، لذلك فليُترع تخفيفاً خفيفاً عن صدور المؤمنين ، ولكن

بحق لا يزداده غلاً بعد غله .

وقد تعني « نزعنا » إلى نزع في الأخرى نزعاً في الأولى كما في بعض الصالحين ، وإذا لم ينزعه هنا فقد ينزعه هناك رحمة من الرحيم الرحمان « فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

وفالغل هو العداء والضغن ، لا يخلو عن لمم منه إلا المخلصون ، ونزع الغل هو بطبيعة الحال قبل دخولهم الجنة وكما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله : « يحبس أهل الجنة بعدما يجوزون الصراط حتى يؤخذ لبعضهم من بعض ظلاماتهم في الدنيا ويدخلون الجنة وليس في قلوب بعضهم على بعض غل » (١) .

تري وإذا كان غل بحق فكيف يكون نزع أيضاً حقاً وهو ضغط على صاحب الحق ؟ .

ذلك ، لأن الله لا ينزع الغل المستحق إلا بجزاء وفاق على المستحق عليه قبل الجنة أم بمعاملة تهادنية بين الأخوة المتغلغل بينهم الغل ، ثم ينزع ذلك الغل نزعاً بعدل ورحمة ، فحين يجازى المستحق عليه في غل أم تجبر مادة الغل بسبب آخر بقاءه - إذا - غل آخر دون مبرر ، فنزعه - إذا - رحمة بعد زحمة ، ثم الغل الخاطيء الذي لم يكن له أصل ، إنه ينزع هناك رحمة للجانبين ، إكراماً لهما قضية إيمانهما ، ف « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » (٤٣ : ٦٧) .

فقد نزع الله ما في صدورهم من الغل - أي كان من حق أو باطل -

(١) الدر المنثور ٤ : ١٠١ - أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن بلغني أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ...

وأخرجه مثله ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن قتادة قال حدثنا أبو المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا اذن لهم في دخول الجنة فوالذي نفسي بيده لأحدهم أهدي لمنزله في الجنة من منزله كان في الدنيا .

بإنساءهم إياه ، وإحداث أبدال له تشغل أماكنه من قلوبهم ، وتشفع مواقعهم من صدورهم ، فلا يحقد بعضهم بعضاً ولا يحسد على علو المتزلة فيها والبلوغ إلى مشارف ربها ، والغل هو كل ضيق من حسد أو غبطة أو عداوة أماهيه مما يغل ويغلق مفاتيح القلوب إلى أهل الجنة .

أجل ، ولأنهم - على أية حال - بشر ، يعيشون بشراً ، وقد يثور بينهم في العشرة الحيوية غيظ يكظمونه ، أو يغور غل يغالبونه فيغلبونه ولكن تبقى في صدورهم منه آثار وأصار ، أم يبقى دون كظم كضيم أم غلب هضم ، ثم الله أكراماً لهم وراحة إياهم في ساحة الجنة ينزعه عنهم وكما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) « الغل على أبواب الجنة كمبارك الإبل قد نزع الله من قلوب المؤمنين »^(١) ، « وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا الحق المبين والشرع المتين ، وهذا لنزع هذا الغل من صدورنا ، ثم لهذه الجنة » وما كنا لنهتدي « إلى ما اهتدينا » لولا أن هدانا الله « وقد هدانا حيث » لقد جاءت رسلنا ربنا بالحق « جاء مجيئاً^(٢)

(١) القرطبي في تفسيره أحكام القرآن ، وفي الدر المنثور ٣ : ٨٥ - أخرج ابن جرير عن أبي نضرة قال : يحبس أهل الجنة دون الجنة حتى يقتصر لبعضهم من بعض حتى يدخلوا الجنة يدخلونها ولا يطلب أحد أحداً بقلامة ظفر ظلمها إياه ، ويحبس أهل النار دون النار حتى يقتصر لبعضهم من بعض فيدخلون النار حين يدخلونها ولا يطلب أحد أحداً بقلامة ظفر إياه .

(٢) مجمع البيان عن عاصم بن حمزة عن علي (عليه السلام) انه ذكر أهل الجنة فقال : يحبون ويدخلون فإذا أساس بيوتهم من جندل اللؤلؤ وسرر مرفوعة وأكواب موضوعة ... ولولا أن الله تعالى قدرها لهم لالتمعت أبصارهم لما يرون ويعانقون الأزواج ويقعدون على السرر ويقولون : الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

و نور الثقلين ٢ : ٣١ في أصول الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : إذا كان يوم القيامة دعي بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ويأمير المؤمنين وبالأئمة من ولده ((عليهم السلام) فينصبون للناس فإذا رأتهم شيعتهم قالوا : الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . يعني هدانا الله في ولاية أمير المؤمنين والأئمة من ولده (عليهم السلام) ، وفيه عن الإحتجاج للطبرسي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في خطبة الغدير : معاشر الناس سلموا على عليّ بإمرة المؤمنين وقولوا : الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

بالحق ، وجاءت بسبب الحق ومصاحبة الحق وغاية الحق « ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون » إرثاً عن أهل النار حيث تركوا أمكتهم لنا ، وإرثاً تركه لنا بما قدمناه من صالحات .

فهناك توارث بين أهل الجنة والنار فـ « كل أهل النار يرى منزله في الجنة يقول لو هدانا الله فيكون حسرة عليهم ، وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول : لولا أن هدانا الله » ^(١) .

أجل و « نودوا أن صحوا فلا تسقموا ، وأنعموا فلا تبأسوا ، وشبوا فلا تهرموا ، واخلدوا فلا تموتوا » ^(٢) .

ذلك ، وفي رجعة أخرى إلى « من غل » نقول : إن الغل في صدور المؤمنين بعضهم على بعض ليس ليكون عداً لذوات المؤمنين ، إنما هو غل - فيما هو حق - لأعمالهم الكلية العلية بالنسبة لبعضهم البعض ، فحين تغل صدور لذوات الآخرين فحق أن ينزع ذلك الغل عن الصدور المغللة .

ثم الغل الصالح الذي يعني بغض مؤمن يستحق الغل لعمله ، ذلك لا يفيد إلا كمرتبة من مراتب النهي عن المنكر وهو ليس لينزع يوم الدنيا ، ولكنه مع سائر الغل ينزع يوم الأخرى ، تخليصاً لصاحب الغل عن غله ، وتقليصاً لمورد الغل عن ذلك الغل بعذاب أم تكفير أم هو ؟ من نزع لسبب الغل ، ولكي يكونوا في الجنة إخواناً على سرر متقابلين .

هذا « وقالوا » هؤلاء الأكارم بعدما دخلوا الجنة « الحمد لله الذي

(١) المصدر ٣ : ٨٥ - أخرج النسائي وابن أبي الدنيا وابن جرير في ذكر الموت وابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : .. وفي المجمع عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال : ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار ، فأما الكافر فيرث المؤمن منزله في النار ، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة فذلك قوله : « أورثتموها بما كنتم تعملون » .

(٢) المصدر ٣ : ٨٥ - أخرج جماعة عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الآية قال : نودوا ...

هدانا لهذا : الدخول والخلود في الجنة ، ولهذا التزغ للغل من صدورنا ، ولهذا الجري من تحتنا الأنهار ، والجمع بينها لهذا المصير بذلك المسير حيث « هدانا » نعم هدى الأولى إلى الأخرى ، فإن هدى الأولى هي التي تهدي إلى هدى الأخرى الميراث العظيم « لقد جاءت رسل ربنا بالحق » بسبب الحق ومصاحبين الحق وحاملين الحق « ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون » .

وذلك الميراث يعني انهم سكنوا مساكنهم فيها وزيادة هي مساكن الآخرين الذين حرموا الجنة ، فان الله خلق لكل واحد من المكلفين مكاناً في الجنة ومكاناً في النار ، فكل من فقد مكانه من الجنة إلى النار يرثه أهل الجنة مكانه إلى مكانه نفسه .

ذلك « وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله » تنظر إلى قلة الطاقة البشرية في سبيل الهدى امام التزعزعات الشيطانية التي تتغلب عليها لولا أن هدانا الله .

مسرح عظيم من حوار الجنة والنار في منادات ، وبينهما رجال الأعراف ، فلنعرف من هم أولاء الأكارم وما هو ذلك الحوار المستقبلي وكأنه حاضر في المشهد بكل مصارحه وملامحه ؟

« ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين^(١) الذين يصدون عن سبيل الله ويغفونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون^(٢) » .

هنا منادات بين فريقى الجنة والنار ويعدما وجد كل ما وعدهم الله بما يعدون ، فقد يُنعم فريق الجنة بما وعده من الوعد ، وجدنا حقاً ما وعدنا ربنا حقاً ، حيث إن « حقاً » ذو تعلقين اثنين ، ثم يستجوبون فريق النار فلا مفلت لهم عن « نعم »^(١) ، ثم « أذن مؤذن بينهم » من مذياع الحق بالحق

(١) المصدر عن ابن عمر أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقف على قلب بدر من المشركين فقال : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فقال له الناس : أليسوا أمواتاً ؟ فقال : إنهم يسمعون كما تسمعون .

وقد أصفق الفريقان انه علي أمير المؤمنين (عليه السلام) ^(١) « أن لعنة الله على الظالمين » المستحقين النار ، لا المعفو عنهم المستحقون الجنة ، والظالمون هنا هم « الذين يصدون عن سبيل الله » .
فعبارة « الظالمين » هنا قاصدة للعموم الموصوف بالثلاث الآتية مهما كانوا من المسلمين .

وترى كيف المؤذن هناك علي (عليه السلام) والنبى (صلى الله عليه وآله وسلم) فوقه محتداً وصلوحاً ؟ علّه لأن له (صلى الله عليه وآله وسلم) المقام الأول وهو فوق الأذان ، فلثانية بأذنه عن إذن الله أن يكون هو المؤذن ، وكما كان مؤذن هذه الرسالة القدسية على هامشه (صلى الله عليه وآله وسلم) وكما في خطبة له (عليه السلام) : « أنا المؤذن في

(١) في ملحقات أحقاق الحق ٣ : ٣٩٢ - ٣٩٤ - أورده من حفاظ القوم ونقله آثارهم عدة ونحن نشير إلى من وقفنا عليه ، فمنهم ابن مردويه في المناقب كما في كشف الغمة (٩٥) روى عن أبي جعفر (عليه السلام) في « فاذن مؤذن » قال : هو علي (عليه السلام) ومثله الترمذي في مناقب مرتضوي (٦٠) عنه ، والألوسي في روح المعاني ٨ : ١٠٧ عن ابن عباس مثله والشيخ سليمان القندوزي في ينابيع المودة (١٠١) روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بسنده عن محمد بن الحنفية عن أبيه علي (عليه السلام) قال : أنا ذلك المؤذن ، وروى الحاكم بسنده عن أبي صالح عن ابن عباس انه قال علي (عليه السلام) : في كتاب الله أسماء لا يعرفها الناس ، منها « فاذن مؤذن بينهم » يقول : « ألا لعنة الله على الظالمين » الذين كذبوا بولايتي واستخفوا بحقي .

وروى في المناقب عن جابر الجعفي عن الباقر (عليه السلام) قال : خطب أمير المؤمنين (عليه السلام) بالكوفة عند انصرافه من النهروان وبلغه أن معاوية بن أبي سفيان يسهه ويقتل أصحابه فقام عطياً - إلى أن قال - : وأنا المؤذن في الدنيا والآخرة قال الله عز وجل : فاذن مؤذن بينهم - يقول - إلا لعنة الله على القوم الظالمين - أنا ذلك المؤذن ، وقال عز وجل : « وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر » وأنا ذلك الأذان .

وروى عن محمد بن الفضيل عن أحمد بن عمر الحلال عن أبي الحسن موسى (عليه السلام) قال : المؤذن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) يؤذن أذاناً يسمع الخلائق والدليل على ذلك « وأذان من الله ورسوله » قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : أنا ذلك الأذان .

وفيه (١٤ : ٣٣٥ - ٣٣٦) مشتركاً عما ذكر ، ومنهم الحسكاني في شواهد التنزيل (١) : (٢٠٢) وابن حسويه في درر بحر المناقب (٨٥) .

الدنيا والآخرة» فكما أنه المؤذن يوم الدنيا أذاناً رسالياً بعد الأذان الرسولي ، كذلك هو المؤذن في الأخرى باذن منه (صلى الله عليه وآله وسلم) .

ولو كان المؤذن هناك هو الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بنفسه لجيء باسمه المبارك ، دون مجرد الوصف « مؤذن » غير المعلوم صاحبه إلا بسناد لمحات من القرآن كآيات الولاية ولا سيما آية شاهد منه : « أفمن كان علي بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة .. » (٤٦ : ١٢) فانها شاهدة لكون الإمام (عليه السلام) هو الشخصية الثانية بعد الأولى الرسولية ، فليكن مؤذناً هناك كما هو المؤذن عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) هنا .

و « الذين يصدون » استمرارية في ذلك الصد طول حياتهم الجهنمية بما يملكون أو يملكون من قدرات وإمكانات ، « ويبغونها عوجاً » بغياً عليها ، ابتغاء أنها عوج فلا تسلك ، وابتغاء أنفسهم إياها مسلكتاً عوجاً ، فسيبل الله هو شرعته ونهجه وهم يتبعون عنها المتحاول ويطلبون منها الفسح والمخارج ويوهمون بالشبهات أنها معوجة غير قويمه ، ومضطربة غير مستقيمة !

ولأن القرآن هو أفضل سبل الله فبغية عوجاً هو أعضل صد عن سبيل الله ، فكما أن من بغية عوجاً الخوض في آياته لنفضها ، كذلك القول : إنه لا يفهم وليس بمتناول الأفهام ، فانه عوج في كتاب الدعوة أن يكون قاصرة الدلالة على مرادات الله تعالى .

كما منه تفسيره بالأراء أن تحمّل عليه الأراء السادرة عن الصادرة عن مصادر الوحي والتنزيل .

فكل مواجهة للقرآن خلاف ما يُرام منه في حقل الدعوة المستقيمة المخالدة هو بغية عوجاً .

وهنا « الظالمين » في حقل تلك اللعنة التي يدخلون بها النار ، هم الذين يحملون هذه الأوصاف الثلاثة أم بعضها ، ابتداءً من « يصدون » وانتهاءً إلى « هم بالآخرة كافرون » وكل من هذه دركات يستحق أصحاب دركات من العذاب حسبها ولا يظلمون نقيراً .

« وهم بالآخرة كافرون » فهم - إذا - في ثلوث منحوس من عمل
مركوس مدسوس : صداً عن سبيل الله - وبغياً وابتغاء لها عوجاً - وكفراً
بالآخرة .

وما أظلمه في ثلوثه حيث يجمع كل دركات الظلم والتضليل ، فهم -
إذا - حملة مشاعل الضلالة ، ورؤوس زوايا المتاهة والغواية .

وَبَيْنَهُمْ حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ
رِجَالٌ يَرَوْنَكُمْ كُلَّابِسِيْمَهُمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ
أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿١٧﴾
وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْفَاءً أَصْحَابُ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا
لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ
رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيْمِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَعَلُكُمْ
وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٩﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ
لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ
وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٢٠﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ
أَنَا فَيضُوا عَلَيْكُمْ إِمَّا مَاءٌ أَوْ مِيمَارٌ زَفَكْنَاهُ اللَّهُ قَالُوا إِنْ أَرَادَ

حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ تَخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا
وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَاَلْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا
نَسَوُا الْعَاءَ يَوْمَ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَمْحَدُونَ ﴿٥٢﴾
وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَضَّلْنَاهُ عَلَى كُلِّ هُدًى وَرَحْمَةٍ لِقَوْمِهِمْ
وَلَوْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٣﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنَا يَوْمَ يَأْتِي تَارِيقُهُ يَقُولُ
الَّذِينَ نَسُوا مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِن
شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نَزِدُّهُمْ فَعَمَلٌ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ
فَدَخِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ

﴿ وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾ (٥١).

آيات أربع تبين موقف الأعراف ورجالهم ، فلتتعرف إلى رجال الإعراف وموقفهم المتميز على ضوء آيات الأعراف ، تقريراً لمسيرهم ، ولمصير مختلف الروايات في مثلثة التخالقات .

هنا نتلمح صراحاً من مقاطع في هذه الآيات أن رجال الأعراف هم أعرف العرفاء بالله وأعبد العابدين لله ، حيث يمثلون أمر الله في فاصل

الأعراف بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، تقريراً لمصير كلٍّ بمسيره ،
إذاعة من قبل الله في ذلك الموقف المجيد .

فـ ^١ « على الأعراف » تعريف أول بأصحاب الأعراف ، فإنها أعراف
متعالية بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، لا يحق أن يكون عليها إلا
الحاكمون عليهما المتكلمون بفصل القضاء فيهما من قبل الله ، فكيف
يكونون هم الأدنون المرجون لأمر الله .

^٢ ثم « رجال » لا تعني رجولة الجنس - فقط - بل هي مجمع كافة
الرجولات في كافة حقول الفضائل والفواضل ، ولو كانوا هم الأدنون
المرجون لأمر الله ، فالأكثريّة المطلقة منهم نساء بطبيعة الحال الأنوثة ،
فكيف يعبر عن هذه المجموعة التي أكثرها نساء بـ « رجال » دون « ناس »
أما أشبه ١٩ .

^٣ ثم « يعرفون كلاً بسيماهم » تحلق معرفتهم بكل أهل الحشر ،
جماعياً كأصحاب الجنة وأصحاب النار ، وشخصياً هو معرفة كل فرد فرد
من الفريقين بدرجاتهم أم دركاتهم ، وليست هذه المعرفة القمة الفائقة إلا
لأعرف العارفين بالله وأقرب المقربين إلى الله .

ففي حين أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه ما كان
ليعرف المنافقين بسيماهم : « ولو نشاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم
ولتعرفنهم في لحن القول » (٤٧ : ٣٠) كما و « عفى الله عنك لم أذنت
لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » (٩ : ٤٣) ! وهذه
قضية الابتلاء في حياة التكليف ! إذاً فكيف يمتاز رجال الأعراف - إن كانوا
هم الأدنين - بهذه المعرفة التي تزيد على معرفة الرسول يوم الدنيا ؟ إلا أن
يكون هو منهم كأفضلهم والباقون هم على هامشه .

أجل ، وهذه المعرفة المتميزة عن نشأة التكليف أولاً ، وعمن هم
في المحشر من أصحاب الجنة وأصحاب النار ، تبين بوضوح أن رجال
الأعراف هم أعرف العارفين بالله ، حتى اختصهم الله في ذلك الموقف
الحاسم القاصم أن يكونوا مثله وآيته وإذاعته بين أهل الحشر كلهم .

والقول إن « بصرك اليوم حديد » (٥٠ : ٢٢) تحدد كل الأبصار في ذلك اليوم ، مردود بأنه حديد في إبصار أعمال كل حيث « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (٥٠ : ٢٢) ، كما القول إن « يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام » (٥٥ : ٤١) تعمم تلك المعرفة لأهل الحشر ؟ فإن « فيؤخذ بالنواصي والأقدام » تقرر فاعل المعرفة هذه « بسيماهم » أنه الأخذ الرباني بالنواصي والأقدام . فليس هناك مجال لهذه المعرفة الشاملة كل أهل الجمع إلا لأقرب المقربين إلى الله .

٤ ثم « ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم » برهان قاطع لا مرد له على أنهم هم الأعلون في المحشر المعشر ، حيث يحملون - هم - سلام الله إلى أهل الله ، لمكان « سلام قولاً من رب رحيم » ولا يحمل سلام الرب الرحيم إلى عباده الصالحين إلا أصلح الصالحين الذين يمثلون أمره ويحملون القمة العليا من رسالته الربانية ، ولو أنهم من المرجوين لأمر الله إذ خلطوا عملاً صالحاً وآخر شياً ، كانت حالهم تشغلهم عن سواهم .

وأما « لم يدخلوها وهم يطمعون » فليست لتعني رجال الأعراف ، حيث كونهم على الأعراف يعرفنا أنهم لما يدخلوها ، فلا مبرر - إذاً - لذلك التكرار ، مع أن أقرب المرجعين المحتملين لضمير الجمع هم « أصحاب الجنة » كما « ادخلوا الجنة » الآية صارخة صارخة أنهم « لم يدخلوها وهم يطمعون » .

كما وأن « ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين » لا تدل على أنهم من الأذنين ، فإنها دعاء لأصلح الصالحين إلى من دونهم من سائر الصالحين .

وقد تعني « مع » هنا معية المكان ، ألا توقفنا ربنا في هذا الموقف صرفاً لأبصارنا تلقاء أصحاب النار إلا قدر واجب الحوار وتقرير المصير ، ومعية الشفاعة منا لمن لا يستحقونها ، ونحن غير مأذونين فيها ، وأخيراً معيتهم في دخول النار تخذلاً وتذلاً لأنفسهم أمام الله كأنهم لا يستحقون الجنة فإنها قضية فضل الله ورحمته وليست قضية عدله .

٥ ثم « نادى أصحاب الأعراف رجالاً .. » في ذلك التأنيب العجيب ، ليست في ذلك الموقف الرهيب إلا من ممثلين لأمر الله ، المرسلين من قبل الله ، في ذلك الحوار الحاسم وفي تقرير المصير .

٦ وأخيراً « ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون » ولا نجد أمراً لأصحاب الجنة بدخول الجنة في القرآن كله إلا من قبل الله إذ « يا عباد .. ادخلوا الجنة » (٤٣ : ٧٠) حيث يعني طليق الدخول في الجنة برزخاً وفي الآخرة ..

ثم ليس إلا من ملائكة الرحمة خطاباً للصالحين إذ يتوفونهم : « سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » (١٦ : ٣٢) وهو خاص بجنة البرزخ ، ومن ثم ليس إلا « وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » (٣٩ : ٧٣) وقد تعني « خزنتها » ملائكة خصوصاً ، أم هم رجال الأعراف ، أم وهماً معاً ، فمن ثم خطاب وسيط بين المرحلتين هو ثاني الخطابين في المحتد، حيث يعني جنة الآخرة كما هنا :

« ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون » فمهما كان « ادخلوا الجنة » الآخروية مشتركة بعد الله بين فريق الخزنة ، فـ « ادخلوا الجنة » ميزة لرجال الأعراف بين كل أهل الجنة .

إذاً فرجال الأعراف هم أعلى موقفاً ومحتداً من ملائكة الله ، ومن كل أهل الحشر دونما استثناء .

هذه تعريفات بهم في مواقفهم على الأعراف ، ثم لا نجد ولا لمحة أنهم بحاجة إلى شفاعة أمانيه من مكفرات ، إنما هم : « على الأعراف رجال ... » بهذه المواصفات الست ، المنقطعة النظير عن كل بشير ونذير ، اللهم إلا لأعرف العارفين بالله ، وعبد العابدين لله ، وأقرب المقربين إلى الله ، فهم الممثلون أمر الله في حوارهم هناك وفي تقرير المصير ، والسلام على أصحاب الجنة وأمرهم بدخولها ، فهل هم - بعد - الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم ؟ كلاً ثم كلاً .

ذلك ، ولكن جواباً عن سؤال : فأين - إذاً - موقف « مرجون لأمر الله

إما يعذبهم أو يتوب عليهم « (٥: ١) و « آخرون اعترفوا بذنبيهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم .. » (٩: ١٢) ؟ .

نقول : لأنهم - إذاً - ليسوا - بعد - لا من أصحاب النار ولا من أصحاب الجنة، فليكونوا في موقع من الأعراف دان ، إذاً فأصحاب الأعراف اثنان هما رجال الأعراف وأصحابهم ، فالأولون يذكرون في هذه الآيات أصلاً لأنهم يحملون أمر الله بحوار وسائر الأمر بين فريقتي الجنة والنار ، والآخرون هم على هامش أصحاب الجنة ينتظرون حيث هم مرجون لأمر الله فهم - إذاً - راجون ، والشافعون لهم بعد كل المكفرات هم رجال الأعراف .

فالأحاديث المفسرة لأصحاب الأعراف بانهم الرفيق الأعلى (١) تعني

(١) نور الثقلين ٢ : ٣٢ في تفسير القمي قال الصادق (عليه السلام) كل أمة يحاسبها إمام زمانها ويعرف الأئمة أوليائهم وأعداءهم بسيماهم وهو قوله « وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم » فيعطوا أوليائهم كتابهم يمينهم فيمروا إلى الجنة بلا حساب ويعطوا أعدائهم كتابهم بشمالهم فيمروا إلى النار بلا حساب ، وفيه عن معاني الأخبار خطبة لعلي (عليه السلام) وفيها يقول (عليه السلام) : ونحن أصحاب الأعراف أنا وعمي وأخي وابن عمي والله فائق الحب والنوى لا يلج النار لنا محب ولا يدخل النار لنا مبغض لقول الله عز وجل « وعلى الأعراف رجال .. » وفيه عن الكافي عن صفوان قال سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول : جاء ابن الكوا إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال : يا أمير المؤمنين « وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم » فقال : نحن على الأعراف ، نعرف أنصارنا بسيماهم ونحن الأعراف الذين لا يعرف الله عز وجل إلا بسبيل معرفتنا ونحن الأعراف يعرفنا الله عز وجل يوم القيامة على الصراط فلا يدخل الجنة إلا من عرفنا وعرفناه ولا يدخل النار إلا من أنكرنا وأنكرناه ، وفيه عن كشف الغمة عن أمير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل فيه : فالأوصياء قوام عليكم بين الجنة والنار ، لا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه ولا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه لأنهم عرفاء العباد عرفهم الله أيهم عند أخذ الموائيق عليهم بالطاعة لهم فوصفهم في كتابه فقال عز وجل : « وعلى الأعراف رجال .. » وهم الشهداء على الناس والنبيون شهدائهم بأخذهم لهم موائيق العباد بالطاعة ، وفي تفسير العياشي عن علي (عليه السلام) قال : أنا يعسوب =

الأولين ، والمفسرة لهم بانهم الفريق الأدنى ^(١) تعني الآخرين ، والمفسرة

= المؤمنين وأنا أول السابقين وخليفة رسول رب العالمين وأنا قسيم الجنة والنار وأنا صاحب الأعراف ، وفيه عن هشام عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : سألت عن قول الله عز وجل « وعلى الأعراف .. » ما يعني بقوله ؟ قال : أستم تعرفون عليكم عرفاً على قبائلكم لتعرفوا من فيها من صالح أو صالح ؟ قلت : بلى ، قال : فنحن أولئك الرجال الذين يعرفون كلاً بسيماهم وفيه عن زاذان عن سلمان قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول لعلي (عليه السلام) أكثر من عشر مرات : يا علي إنك والأوصياء من بعدك أعراف بين الجنة والنار ، ولا يدخل الجنة إلا من عرفكم وعرفتكم ولا يدخل النار إلا من أنكركم وأنكرتموه ، وفيه مثله عن سعد بن طريف عن أبي جعفر (عليه السلام) وعن الثمالي عنه (عليه السلام) وفي مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام) : ولأهل التواضع سيما يعرفه أهل السماء من الملائكة وأهل الأرض من العارفين قال الله تعالى : « وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم » .

وفي أحقاق الحق (٣ : ٥٤٣) حول الآية ممن نقل نزولها في علي (عليه السلام) الهشيمي في الصواعق المحرقة (١٦٧) والفندوزي في ينابيع المودة (١٠٢) وفي (١٤ : ٣٩٦ - ٣٩٨) ومنهم الثعلبي في الكشف والبيان (٣٥٣) وابن طلحة في مطالب السؤل في مناقب آل الرسول (١٧) والذهبي في ميزان الاعتدال (٢ : ٣) والحسكاني في شواهد التنزيل (١ : ١٩٨) والبخشي في مفتاح النجا (٣٨) والشافعي في المناقب (١٥٦) والحضرمي في وسيلة المسأل (١٢٢) والأمر تسري في أرجح المطالب (٨٤) والبخشي في مفتاح النجا (مخطوط) عن علي كرم الله وجهه في الآية قال : نحن أصحاب الأعراف من عرفناه بسيماهم أدخلناه الجنة .

(١) في الدر المنثور ٣ : ٨٧ - أخرج أبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) توضع الميزان يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال صؤابة دخل الجنة ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال صؤابة دخل النار قيل يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فمن استوت حسناته وسيئاته ؟ قال : أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطعمون ، أقول : أقل ما فيه أن حصر أصحاب الأعراف فيهم لا يناسب مواضع من هذه الآيات ، ثم وزن السيئات يناهز « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً » اللهم إلا أن يختص بمن ليست له حسنات ، وكذلك الحديث « السيئات خفة الميزان والحسنات ثقل الميزان » وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي زرعة عمرو بن جرير قال سئل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) =

= وآله وسلم) عن أصحاب الأعراف فقال : « هم آخر من يفصل بينهم من العباد فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار ولم تدخلوا الجنة فأنتم عتقائي فارعوا من الجنة حيث شئتم » وفيه أخرج البيهقي في البعث عن حذيفة أراه قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : يجمع الناس يوم القيامة فيؤمر بأهل الجنة إلى الجنة ويؤمر بأهل النار إلى النار ثم يقال لأصحاب الأعراف ما تنتظرون ؟ قالوا : نتظر أمرك ، فيقال لهم : « إن حسناتكم تجاوزت بكم النار أن تدخلوها وحالت بينكم وبين الجنة خطاياكم فادخلوا الجنة بمغفرتي ورحمتي » وفيه عن عبد الرحمن المزني قال سئل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن أصحاب الأعراف فقال : « هم قوم قتلوا في سبيل الله في معصية آبائهم فمَنَعَهُم من النار قتلهم في سبيل الله ومنعهم من الجنة معصية آبائهم » أقول : معصية الآباء في القتل في سبيل الله هي من المكفرات وكما قال الله : « .. وقتلوا وقتلوا لأكفرون عنهم سيئاتهم ولادخلتهم جنات .. » (٣ : ١٩٥) ، وهذا إذا لم يكن القتال واجباً معيناً فلأن فيه لا عصيان ، وفي غير المعين يجبر العصيان بالشهادة . وفيه أخرج الطبراني وابن مردويه بسند ضعيف عن أبي سعيد الخدري قال : سئل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن أصحاب الأعراف فقال : هم رجال قتلوا في سبيل الله وهم عصاة لأبائهم فمَنَعَتَهُم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعهم المعصية أن يدخلوا الجنة وهم على سبيل بين الجنة والنار حتى تلبلل لحومهم وشحومهم حتى يفرغ الله من حساب الخلائق فإذا فرغ من حساب خلقه فلم يبق غيرهم تغمدهم منه برحمة فأدخلهم الجنة برحمته ، ورواه مثله معنواً أبو هريرة وعبد الله بن مالك الهلالي عن أبيه وابن عباس وحمد بن المنكدر عن رجل من مزينة عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وفيه أخرج البيهقي في البعث عن أنس بن مالك عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن مؤمني الجن لهم ثواب وعليهم عقاب فسالناه عن ثوابهم فقال : « على الأعراف وليسوا في الجنة وليسوا مع أمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فسالناه وما الأعراف ؟ قال : حائط الجنة تجري فيه الأنهار وتنبت فيه الأشجار والثمار » أقول : هذا خلاف الضرورة القرآنية في عدم التفرقة بين الجنة والناس وسائر المكلفين في الجزاء الوفاق ، وعلى أية حال فهذه الأحاديث لا توافق القرآن في مواضيع عدة .

ومن طريق أصحابنا في نور الثقلين ٢ : ٣٤ عن أصول الكافي بسند متصل عن حمزة بن الطيار قال لي أبو عبد الله (عليه السلام) : الناس على ستة أقسام ، قال قلت : تأذن لي أن أكتبها ؟ قال : نعم قلت : ما أكتب ، قال : اكتب : أصحاب الأعراف ، قال قلت : وما أصحاب الأعراف ؟ قال : « قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فلأن أدخلهم النار فيلذونهم =

لهم بانهم الفريقان^(١) تعنيهما تفسيراً للأولين وتأويلاً للآخرين ، فقد تصدق هذه الثلاث إلا ما فيها من شطرات لا تلائم القرآن .

ذلك ، وإلى تفصيل لكل مقاطع الآيات الأربع بشأن رجال الأعراف

= وان أدخلهم الجنة فبرحمته . أقول : قضية ذلك الإستواء تكفير الذنوب وان بدخول النار ردحاً من الزمن ثم دخول الجنة بحسناتهم ، اللهم إلا أن تعني مكوث الأعراف غفر سيئاتهم دون عذاب . وفيه عن القمي عن زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : أقبل علي فقال لي : ما تقول في أصحاب الأعراف ؟ فقلت : ما هم إلا مؤمنين أو كافرين ، إن دخلوا الجنة فهم مؤمنون وإن دخلوا النار فهم كافرون ، فقال : والله ما هم بمؤمنين ولا كافرين ، ولو كانوا مؤمنين لدخلوا الجنة كما دخلها المؤمنون ولو كانوا كافرين لدخلوا النار كما دخلها الكافرون ولكنهم قد استوت حسناتهم وسيئاتهم فقصرت بهم الأعمال وانهم لكما قال الله عز وجل ، فقلت : أمن أهل الجنة هم أم من أهل النار ؟ فقال : أتركهم حيث تركهم الله ، قلت : أفنرجئهم ؟ قال : نعم أرجئهم كما أرجأهم الله ، إن شاء أدخلهم الجنة برحمته وإن شاء ساقهم إلى النار بذنوبهم ولم يظلمهم ، فقلت : هل يدخل الجنة كافر ؟ قال : لا ، قلت : فهل يدخل النار إلا كافر ؟ قال : فقال : لا إلا أن يشاء الله ، يا زرارة إنني أقول ما شاء الله ، وأنت لا تقول ما شاء الله ، أما إنك إن كبرت رجعت وتحللت عنك عقدك .

(١) في المجمع قال أبو عبد الله (عليه السلام) : الأعراف كتابان بين الجنة والنار يوقف عليها كل نبي وكل خليفة مع المذنبين من أهل زمانه كما يقف صاحب الجيش مع الضعفاء من جنده وقد سبق المحسنون إلى الجنة فيقول ذلك الخليفة للمذنبين الواقفين معه : انظروا إلى إخوانكم المحسنين قد سبقوا فيسلم عليهم المذنبون وذلك قوله : ونادى أصحاب الأعراف . . ثم أخبر سبحانه أنهم لم يدخلوها وهم يطمعون ، يعني هؤلاء المذنبين لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون أن يدخلهم الله بشفاعة النبي والإمام وينظر هؤلاء المذنبون إلى أهل النار فيقولون ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين - ثم ينادي أصحاب الأعراف وهم الأنبياء والخلفاء رجالاً من أهل النار مقررعين لهم « ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون هؤلاء الذين أقسمتم - يعني هؤلاء المستضعفين كنتم تستضعفونهم وتحقرونهم بفرهم وتستطيعون بدنياكم عليهم ثم يقولون لهؤلاء المستضعفين عن أمر من الله بذلك لهم : ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون » وروى القمي في تفسيره عنه (عليه السلام) ما يقرب منه عنه (عليه السلام) .

وأصحاب الجنة والنار :

« وبينهما » بين الجنة والنار ، أو بين أصحاب الجنة والنار وهو الأظهر قضية ذكرهم من ذي قبل أم هما معنيان معاً .

« وبينهما حجاب » عله « سور له باب : « يوم يقول المنافقون والمنافقات انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكن ... » (٥٧ : ١٤) .

فـ « الأعراف » هي أعراف الحجاب بينهما ، والحجاب هو السور المضروب بينهما ، وهو بطبيعة الحال باطنه - وهو جانب أصحاب الجنة - فيه الرحمة ، وظاهره - وهو جانب أصحاب النار - من قبله العذاب .

وهنا بجانب السور الحجاب حوار بين أهل الجنة والنار ، وحوار لرجال الأعراف مع الفريقين بتقرير المصير بعد بيان المسير .

« ونادوا » رجال الأعراف « أصحاب الجنة أن سلام عليكم » سلاماً قبل دخول الجنة إذ « لم يدخلوها وهم يطمعون » : أن يدخلوها .

وترى كيف « هم يطمعون » دون « يوقنون » وهم « أصحاب الجنة » حسب النص ؟

إنهم « أصحاب الجنة » حيث هم مسيرهم الجنة بعد عفو الله وغفره ويمنه وحنانه ، فـ « أصحاب الجنة » بشارة لهم من رب العزة ولما يدخلوها ، أم ولما يعلموا أنهم من أصحابها ، فلأنهم درجات حسب درجات إيمانهم وعمل الصالحات ، فالحالة الهالة العامة لهم هي « وهم يطمعون » رجاء تكفير سيئاتهم دون عذاب ، وحتى إذا بشروا بالجنة وهم يعلمون ، فهم - بعد - بين الخوف والرجاء ، خوف من قصورات لهم

وتقصيرات ، وأنهم مهما كانوا صالحين دون تقصير فلا يستحقون الجنة بأعمالهم ، اللهم إلا برجاء الرحمة الربانية ، إذا « وهم يطمعون » .

ذلك وقد تأتي « يطمعون » في مورد العلم تذلاً وتطامناً أمام رب العزة وكما قال إبراهيم :

« والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين » (٢٦ : ٨٢) وكذلك الذين اتبعوه من النصارى المؤمنين بهذه الرسالة السامية : « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين . وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين » (٥ : ٨٤) .

وكذلك السحرة المؤمنون أفضل إيمان من أعضل كفر وأرذله : « إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين » (٢٦ : ٥١) وفي هذه الآية المرحومة : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً » (٣٢ : ١٦) .

فالطمع الصالح لدخول الجنة هو للصالحين مهما كانوا من المعصومين كإبراهيم ، فضلاً عن كل أصحاب الجنة حيث هم « لم يدخلوها وهم يطمعون » قبل صدور الأمر الذي يحمله رجال الأعراف بـ « ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون » .

﴿ وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ (٤٧) .

هنا « صرفت » دون « صرفوا » تلمح بانصرافهم تلقاء أصحاب النار دون صرف منهم باختيار ، فانما هو صرف رباني وأمر من ساحة العزة أن

يصرفوا أبصارهم تلقاء أصحاب النار لواجب تقرير المصير بواجب الحوار .

وهنا حيث يفاجئون برؤية هؤلاء الظالمين إبتدروا بدعاء : « قالوا ربنا » الذي ربانا بهذه التربية القمة العالية المرموقة : « لا تجعلنا مع القوم الظالمين » لا في الجنة ولا في النار ، فالظالمون الذين لا يستحقون الجنة ، لا تجعلهم فيها معنا ، ولا تجعلنا معهم أولاء في النار ، ولا تجعلنا مع المحكومين بالنار في شفاعة لهم ، ولا تجعلنا معهم قبل دخول الجنة والنار ، أكثر من قدر الحوار وتقرير المصير .

فالمعية بين رجال الأعراف وأصحاب النار في أبة مرحلة - إلا الحاسمة القاسمة بينهم - هي معية بعيدة عن الرحمة ، مهما لم تكن فيها زحمة العذاب ، فلو دخلنا النار بعذاب لهم ولنا دون عذاب ، فحق لك يارب إذ لا نستحق نحن الثواب مهما لا نستحق العقاب ، فإلى المفاصلة التامة الطامة بيننا وبين الظالمين الذين لا يستحقون الجنة ، وحتى إذا دخلوا الجنة باستحقاق بعد ذوق عذاب مستحق ، متخلصين عن أعباء الظلامات ، ففضية مختلف الدرجات ألا تجعلهم معنا في مقامنا في الجنة ، مهما « نزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار » ! .

ولكن فلنكن في مقامنا كما نستحق، وهم كما يستحقون في أماكن ومكانات ، في الأصل وبمعرفة أصحاب الجنة .

فقد تطلبوا في « ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين » سد هذه الأبواب السبع من المعينات المعنويات من « مع القوم الظالمين » .

ذلك ، وقد يلمح ضمير الجمع - الجائز الرجوع هنا إلى أصحاب

الجنة لأنهم الأقربون مرجعاً ، والرجوع إلى أصحاب الأعراف لأنهم الأقربون موقعاً، فإنهم محور الكلام هنا - يلمح بعناية أصحاب الجنة مع أصحاب النار، فلئن كان القصد إلى خصوص أصحاب الأعراف لذكروا كما يذكرون في التالي : ونادى أصحاب الأعراف ، وذلك في تفسير الظاهر ، ثم في التأويل يعنى معهم الأذنون في الأعراف ، فهذا الدعاء هو طبيعة الحال في الفرق الثلاث ، مهما كان للآخرين رجاء باحتمال النجاة ، وللأوسطين أرجى، ولأصحاب الأعراف فوق الرجاء ، ولكل في هذا الدعاء موقع يناسبه ، في نفسه وباختلاف دركات المعينات المعنية من « مع القوم الظالمين » ألا تجعلنا معهم ، سواء فيما يجوز عدلاً أما لا يجوز .

فجعلهم كلهم مع القوم الظالمين في عذاب النار أم في مقامات الجنة بعدما ذاقوا عذاب النار فاستحقوا دخول الجنة كبعضهم ، ذلك خلاف العدل، فالدعاء بالنسبة لمعيتهم يصبح كـ « رب أحكم بالحق » فانه صرفُ الإلتجاء في الدعاء، وكما يلحق هنا « وربنا الرحمن المستعان على ما يصفون » (٢١ : ١١٢) .

وأما جعلهم معهم في المحشر أكثر من تكملة الحساب والحوار ، أم بقاء الترائي بعد الدخول في الجنة والنار ، أم دخولهم مع أصحاب النار في النار دون أن يشاركوهم في عذابهم ، أم دخول هؤلاء معهم في الجنة دون أن يشاركوهم في ثوابهم أماذا من خلاف الفضل ، فليس من خلاف العدل .

والدعاء على أية حال لا يعني جواز عدم تحقق المدعوبه لولا الدعاء كالحق في « رب أحكم بالحق » بل هو تعلق بالله وتذلل أمام الله ، وإن حكمه حق على أية حال وإن كان في ظاهر الأمر غير حق حيث لا يلائمنا .

وذلك أدب الدعاء في كافة الأحوال ، وحتى إذا كان الداعي في حال وقوع المدعوبه فضلاً عما قبله .

﴿ ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى

عنكم جميعاً وما كنتم تستبكرون^(٤٨) أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴿٤٩﴾ .

هذه الرسالة الغالية أن يكونوا مذيعين لفصل الحكم من رب العالمين ، إنها منقبة لا تسمى بسواها ولا تساوى ، ثم « ادخلوا الجنة » هي رسالتهم الأخيرة حيث أمروا بأمر الله أن يخاطبوا أصحاب الجنة بدخولها .

إذاً فمنادات أصحاب الجنة والنار هي قبل الدخول فيهما ، وهي مواقف العالين من رجال الأعراف حسب الموقف ، ثم هم يدخلون الجنة ومعهم قسم من الأدنتين الذين هم معهم « على الأعراف » .

ذلك ومما يؤيد أصالة القصد إلى أعالي رجال الأعراف دون الأدنى ، أن الآخرين غير محصورين في الرجال ، بل ونساءهم أكثر من رجالهم ، وأما الأولون فهم بطبيعة الحال رجال كالمعصومين المحمديين (عليهم السلام) ، وأما فاطمة الصديقة فقد تكون منهم كما في « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . . » أم هي غير مشاركة معهم لمكان أنوثتها ، وعلى أية حال فمخصوص القصد من رجال الأعراف الأدنى مرفوض .

كما ولا تعني « رجال » الملائكة إذ لا نساء فيهم ، وهم يقابلون نساء من جنسهم ، مهما عنت رجالاً من الجن على هامش رجال من الإنس كرسل منهم عالين ، حاكمين على قبيلهم ، أم لهم بين فريقى أصحاب الجنة وأصحاب النار من الجن .

ثم مكانهم المتميز « الأعراف » ومعرفتهم المتميزة أصحاب الجنة وأصحاب النار لحد يعرفون المستكبرين من أهل النار بينهم ، لا فقط معرفة إجمالية بسيماهم المعروف لدى الكل حيث هنا « وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة . ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها فترة » (٤١: ٨٠) ، وهناك « يعرفون كلاً بسيماهم » أي كل واحد من أحاد الفريقين ، لا - فقط - كلاً من الفريقين ، تثبت لهم معرفة قمة متميزة بسيما

كل واحد منهم ، حيطة معرفية بما عرفهم الله ليحكموا هناك بما يحكم الله .

هذا التميز وذلك هما مما يميزهم عن كل أصحاب الجنة ، فهم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) والمحمديون من عترته (عليهم السلام) ، المتميزون على كافة السابقين والمقربين وأصحاب اليمين .

فرجال الأعراف حيث يكلمون كلا الفريقين بما يكلمون هم الشهداء المخصوصون بالكرامة في مسرح « لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » (٧٨ : ٣٨) فهم مأذونون بإذن خاص بكل إخلاص حتى يكلموا أهل الحشر أجمع بما يشاء الله ويرضى ، أفهم بعد من الأدين وليس للعوان بينهم وبين العالمين ذلك النصب المتميز يوم الدين .

كل ذلك ، إضافة إلى أنا لا نتلمح أية فزعة وهول لهم في أعرافهم ، في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ، والهول شامل ذلك اليوم كل أهل الحشر « فلأنهم لمحضرون . إلا عباد الله المخلصين » (٣٧ : ١٢٨) - « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون . لا يسمعون حسيها وهم فيما إشتت أنفسهم خالدون . لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون » (٢١ : ١٠٣) ١ .

إذاً فقد لا تشمل رجال الأعراف في ظاهر التفسير إلا أقرب المقربين وأسبق السابقين ، دون الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم فلا هم - بالفعل - من أهل الجنة ولا أهل النار ، - اللهم إلا تأويلاً أنهم على هوامشهم - ثم ولا صراحة هنا ولا لمحة أن رجال الأعراف يتطلّبون إلى الله السماح ، فإنما هو الحكيمة بين الفريقين والحكم بدخول أهل الجنة الجنة ودخول أهل النار النار .

إذاً فعساكر البراهين القرآنية في آيات الأعراف وسواها تقرر موقفاً حاسماً لرجالها لا يناسب كل المعصومين فضلاً عن الأدين من المؤمنين ، فلا يصغى إلى أحاديث الأدين تفسيراً ، إلا تأويلاً .

« ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم » معرفة متميزة عن كل أصحاب الجنة فضلاً عن أصحاب النار ، و « رجالاً » هنا هم رجال متميزون بسيماهم من أصحاب النار ف « قالوا » لهم « ما أغنى عنكم جمعكم » أموالاً وأولاداً وسائر الجموع المحتشدة حصولاً على العزة والقوة ، « و » لا « ما كنتم تستكبرون » بجمعكم على الله وعلى عباد الله ورسله .

« أهؤلاء » الأكارم من أصحاب الجنة « الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة » كأنكم أنتم أصحاب الرحمة دونهم ، أم هم وإياكم سواء في العذاب ؟ كلاً ، بل : « ادخلوا » أنتم الصالحاء « الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون » .

أجل هؤلاء رجال الأعراف ، فمكانهم في المحشر « الأعراف » أعراف الحجاب والصور المضروب بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، ومكانتهم أنهم رسل من الله في ذلك الموقف الحاسم . رسل شهود في معرفة كل بسيماهم ، يشاهدون كل نفس خيرة وشريرة في مقامها الخاص من أعلى عليين إلى أسفل سافلين ، ورسل قضات في تعيين المقامات هناك ، ثم هم خارجون عن القبيلين إذ لا محاسبة لهم لدخول الجنة ، وهم المؤثرون أن يأمرُوا أصحاب الجنة لدخول الجنة كما أن مؤذنيهم يؤمر بذلك الأذان ، رسالة ربانية عالية ، مما تدل على أنهم هم الأعلون في تلك العرصات .

ذلك « وإنما الأئمة قوام الله على خلقه وعرفاء على عباده ولا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه ولا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه » (١) .

(١) نهج البلاغة المخطبة ١٤٢ / ٢٥٦ عن أمير المؤمنين (عليه السلام) .

﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين ﴾^(٥٠) الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجهلون ﴿^(٥١)

حوار بين أهل الجنة والنار في دار القرار ، يوم التشاد ، يخيل فيها إلى أهل النار أن لأهل الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء أو مما رزقهم الله كما كانت هناك إفاضة في دار القرار ، فإذا هم مفاجئون بـ « إن الله حرمهما على الكافرين » تحريماً بحريم الإضطرار دون اختيار ، إذ مضى يوم التكليف الاختيار ، ولات حين فرار ، وهم « الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً » : اتخذوا طاعتهم الحققة وهي الدين الحق « لهواً » يلتهمون به حيث يلهمهم عما يعنى لهم « ولعباً » به يلعبون حيث كانوا به يستهزئون ، فاتخذوا دينهم : الطاعة ، مخلداً إلى أرض الشهوات ، فلا يطيعون - إذاً - إلا لهواً ولعباً « وغرتهم الحياة الدنيا » بما انغروا بها حيث أبصروا إليها فأعمتهم ولم يبصروا بها لتبصرهم « فاليوم ننسأهم » نعاملهم معاملة الناسي إياهم على علمنا بهم ، تحريماً عليهم ما يقدم للضيفان من النعم « كما نسوا لقاء يومهم هذا » عامدين لاهين لاعبين ، وكـ « ما كانوا بآياتنا يجهلون » فنحن نجحدهم كما جحدوا ، وننسأهم كما نسوا جزاءً وفاً .

ذلك كيف لا يشغلهم ما هم فيه من النار عن الماء وسائر رزق الله ؟ حيث الماء يخفف عن حر النار وسائر رزق الله يسد عن الجوع ، والعطش والجوع هما مما لا ينسيان في أية ملابسات^(١) .

(١) نور الثقلين ٢ : ٣٦ في كتاب الإحتجاج عن عبد الرحمن بن عبد الله الزهري قال : حج هشام بن عبد الملك فدخل المسجد الحرام متكبياً على يد سالم مولى وحمد بن علي بن الحسين صلوات الله عليهم جالس في المسجد فقال له سالم : يا أمير المؤمنين هذا محمد بن علي بن الحسين ، فقال هشام : المفتون به أهل العراق ؟ قال : نعم ، قال : اذهب إليه فقل له : يقول لك أمير المؤمنين ما الذي يأكل الناس ويشربون إلى أن يفصل بينهم يوم القيامة ؟ فقال أبو جعفر (عليه السلام) : يحشر الناس على مثل قرصة النقي فيها أنهار متفجرة يأكلون ويشربون حتى يفرغ الناس من الحساب ، قال : فرأى هشام أنه =

وفي تقدم « الماء » على « ما رزقكم الله » ذكراً تقدم له على سائر رزق الله واقعاً حيواً فللماء دور دائر في الحياة ليس لسائر رزق الله ، وقد قال الله تعالى : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » (٢١ : ٣٠) وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « أفضل الصدقة سقي الماء » (١) .

ذلك ، ولأن الغرور هو إظهار النصيح واستبطان الغش وهما من فعل المختار ، فتراه كيف ينسب إلى الحياة الدنيا وليست هي مختارة ؟ والجواب أن الحياة الدنيا هي حياة الإنسان فيها دون نفسها ، فالغرور - إذاً - هو من فعل الإنسان حيث ينظر إلى الدنيا فينغر بها ، ولا ينظر بها فيبصر ، فالحياة الدنيا هي بطبيعتها حياة الغرور : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » (٥٧ : ٢٠) .

ثم النسيان من الله هو تناسي العارف وكما هم تناسوا عارفين ، فلقد تناسوا لقاء يومهم هذا عارفين ، فإله يتناساهم عن رحمته عارفاً فلا يفيض عليهم منها إلا عذاباً مهيناً .

قد ظفر به فقال : الله أكبر إذهب إليه فقل له : ما أشغلهم عن الأكل والشرب يومئذ ؟ فقال أبو جعفر (عليه السلام) : هم في النار أشغل ولم يشتغلوا عن أن قالوا : أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، فسكت هشام لا يرجع كلاماً .

وفيه في تفسير المياشي عن أحدهما (عليهما السلام) قال : « إن أهل النار يموتون عطاشاً ويدخلون قبورهم عطاشاً ويدخلون جهنم عطاشاً فترفع لهم قراباتهم من الجنة فيقولون : أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » .

(١) الدر المنثور ٣ : ٨٩٠ عن ابن عباس انه سئل أي الصدقة أفضل ؟ فقال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » .

و« دينهم » كما لَمَحْنَا تعم الدين الحق فطرياً وعقلياً وشرعياً حيث اتخذوه لهواً يعرضون عنه ، ولعباً يلعبون به ويستهزئون ، والدين الباطل وهو الشهوة المطاعة ، توغلاً في اللهو واللعب : « وذر الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وعزتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون » (٦ : ٧٠) .

وهكذا « حيل بينهم وبين ما يشتهون » (٣٤ : ٥٤) فمهما كانت المشتبهات مشتركة بين قبيلي الإيمان والكفر يوم الدنيا فهي خاصة بالمؤمنين يوم الدين : « قل من حرم زينة الله ، التي أخرج لعباده والطيات من الرزق قل هي الذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » (٧ : ٣٢) .

وحقاً أقول : « ما الدنيا غرَّتكَ ، ولكن بها اغتررت ، ولقد كاشفتك العِصَات ، وأذنتك على سواء ، ولهي بما تعدك من نزول البلاء بجسمك ، والنقص في قوتك ، أصدق وأوفى من أن تكذبك أو تغرَّك ، ولرب ناصح لها عندك متهم ، وصادق من خبرها مكذب ، ولئن تعرَّفتها في الديار الخاوية ، والرُبوع الخالية ، لتجدنها من حسن تذكيرك ، وبلاغ موعظتك بمحلة الشفيق عليك ، والشحيح بك ، ولنعم دارٌ من لم يرض بها داراً ، ومحلٌ من لم يوطنها محلاً ، وإن السعداء بالدنيا غداً هم الهاربون منها اليوم » (الخطبة ٢١٤) .

ف« يا أيها الإنسان ما جرَّأك على ذنبك ، وما غرَّك ببربك ، وما أنسك بهلكة نفسك ، أما من دأبك بلول ، أم ليس من نومك يقظة ، أما ترحم من نفسك ما ترحم به غيرك ، فلربما ترى الضاحي من حر الشمس فتظله ، أو ترى المبتلى بألم يُمِض جسده فتبكي رحمة له ، فما صبرك على دأبك ، وجلدك بمصائبك ، وعزَّأك عن البكاء على نفسك وهي أعز الأنفس عليك ، وكيف لا يوقظك خوف بيات نقمة وقد تورطت بمعاصيه

مدارج سطواته ، فتداو من داء الفترة في قلبك بعزيمة ، ومن كبرى الغفلة في ناظرك بيقظة ، وكن لله مطيعاً ، وبذكره آنساً ، وتمثل في حال توليك عنه إقباله عليك بدعوك إلى عفوه ، ويتغمدك بفضله ، وأنت متول عنه إلى غيره -

فتعالى من قوي ما أكرمه ، وتواضعت من ضعيف ما أجراك على معصيته ، وأنت في كنف ستره مقيم ، وفي سعة فضله متقلب ، فلم يمنعك فضله ، ولم يهتك عنك ستره ، بل لم تخل من لطفه مطرف عين في نعمة يحدثها لك ، أو سيئة يسترها عليك ، أو بلية يصرفها عنك ، فما ظنك به لو أطعته ، وأيم الله لو أن هذه الصفة كانت في متفقي في القوة ، متوازنين في القدرة ، لكنت أول حاكم على نفسك بذييم الأخلاق ومساوى الأعمال -

إذا فكونوا عن الدنيا نزارها ، وإلى الآخرة ولأها ، ولا تضعوا من رفعته التقوى ، ولا ترفعوا من رفعته الدنيا ، ولا تشيموا بآرقها ، ولا تسمعوا ناطقها ، ولا تجيئوا ناعقها ، ولا تستضيئوا بإشراقها ، ولا تفتنوا بأعلاقها ، فان برقها خالب ، ونطقها كاذب ، وأموالها محروية ، وأعلاقها مسلوبة ، ألا وهي المتصدية العنون ، والجامحة الحرون ، والمائنة الخون ، والجحود الكنود ، والعنود الصدود ، والحيود المنود ، حالها انتقال ، ووطأتها زلزال ، وعزها ذل ، وجدها هزل ، وغلوها سفل ، دار حرب وسلب ، ونهب وعطب ، أهلها على ساق وسباق ، ولحاق وفراق ، قد تحرت مذاهبها ، وأعجزت مهاربها ، وخابت مطالبها ، فأسلمتهم المعازل ، ولفظتهم المنازل ، وأعيتهم المحاول ، فمن ناج معذور ، ولحم مجزور ، وشيلو مذبح ، ودم مسفوح ، وغاص على يديه ، وصافق بكفيه ، ومرتقى بخديه ، وزار على رأيه ، وراجع عن عزمه ، وقد أدبرت الحيلة ، واقلت الغيلة ، ولات حين مناص ، هيهات هيهات قد فات ما فات ، وذهب ما ذهب ، ومضيت الدنيا لحال بالها « فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » (الخطبة ٢٣٣) .

﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم ﴾

يؤمنون ﴿٥٢﴾ .

لقد تمت الحجة عليهم يوم الدنيا إذ « جئناهم » بجمعية صفات الهدى « بكتاب » : قرآن « فصلناه » تفصيلاً لكل شيء « على علم » منا رباني يخلق على كل شيء ، حالكون الكتاب « هدى ورحمة لقوم يؤمنون » وهم أولئك الذين حالتهم حالة الإيمان بالحق المرام وإن كانوا لما يؤمنوا حيث لم تصلهم دلائل الإيمان ، فهم مؤمنون فطرياً وعقلياً ، وهم ناظرون دلائل كامل الإيمان شرعياً ، « فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين » .

ذلك ، وهنا « لقد جئناهم » إضافة إلى ما فيها من مثلث التأكيد بحرفي التأكيد وجمعية الصفات ، نجد في مفعولية « هم » لـ « جئنا » تقديراً للجار ، كأنه سبحانه جاء إليهم « بكتاب » والباء قد تعني كلا المعية والسببية : جئنا إليهم بسبب الكتاب ، ومصاحبين الكتاب ، ومثلها : « ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً » (٢٥ : ٣٣) - و « لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون » (٤٣ : ٧٨) .

فلقد كان في نزول القرآن مجيئاً لرب العالمين إلى كافة المكلفين حيث يدل بنفسه على الله بتوحيده وصفاته وأفعاله ، وكأنه جاءهم بنفسه .

فلو أنه أراهم نفسه لم يزدتهم معرفة على ما عرفهم إياه بكتابه ، ولذلك أصبح شاهداً لنفسه رباً ، ولرسوله رسالة ، ولكل ما أراهم منهم دلالة باهرة جاهرة : « أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون . قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً يعلم ما في السماوات والأرض . . » (٢٩ : ٥٢) « لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً » (٤ : ١٦٦) . ويقول الذين كفروا لست مرسلًا قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب » (١٣ : ٤٣) « قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً » (١٧ : ٩٦) .

ذلك ، فقد يزيل القرآن كل حجاب بيننا وبين ربنا معرفياً إلا

المستحيل زواله وهو حجاب الذات وحقيقة الأفعال والصفات ، فلم يبق في الدور إلا ذلك المثلث الذي ليس ليزول على أية حال ! .

ذلك ، ثم « فصلناه على علم » تفصيلاً يزيل كافة الغشاوات عن وجه الحق المُرَام ، فلا خفاء لما فصله ، حيث فصله « على علم » بتفصيله ، وعلم بالمكلفين ، وعلم بتصاريف الكلام ، وعلم بالحق المُرَام وما يحتاجه الانام « فبأي آلاء ربكما تكذبان » ! .

فهل يفترى بعدُ على الله أنه أغمض في كتابه ، وأعضل فيه لحد لا يفهم إلا بالحديث ، « فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

فـ « قوم يؤمنون » هم الذين يعرفون تفصيله ، استنباطاً لمرادات الله ، من منشور ولاية الله كما أمر الله ، فانه السبب الوحيد الوطيد ، الوتيد على أعماق الفطر والعقول والقلوب ، وذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد .

فكما أن معادن كتاب التكوين مختلفة الوصول إليها والحصول عليها حسب اختلاف المساعي ، كذلك كتاب التدوين ، فإن لكل من حقائقه المخزونة قدرٌ سعيه ووعيه ، دونما بُخلٍ وعُضلٍ في دلالة الكتاب نفسه على ما يُرام .

فالبخيل - إذاً - هو الذي جعله مهجوراً فمحجوزاً ، يتكلم ضده أنه ليس ليفهم إلا بوسائل هي مغيية في زمن التكليف إلا قليلاً ! .

﴿ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ (٥٣) .

« هل ينظرون » هؤلاء الكفار وينتظرون بعد كتاب مفصل على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون ، ينتظرون حجة أخرى بعده وهو الحجة البالغة الربانية بنوره وهدهاء ورحمته ، وفيه الكفاءة لمن يتحرى عن الهدى ، فاتحاً منافذ ادراكه لتلقى الحق المُرَام .

« هل ينظرون إلا تأويله » إذ لم يبق انتظار بعد كامل حجته وشاملها

إلا تأويله ، وليس العلم بتأويل القرآن شرطاً لبإلغ حجته ، فإن فيه الكفاءة التامة الطامة : « أو لم يكفهم إنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون . قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون » (٣٠ : ٥٢) .

ذلك ، والتأويل في الأصل هو الإرجاع إلى مبدء أو منتهى خارجين عن نص المأول وظاهره ، وللقرآن تأويلان اثنان ، تأويل المبدء وتأويل المعاد ، وهو بين المبدء والمعاد حجة بظاهره وباطنه في إشارات ولطائف وحقائق يمكن الحصول عليها بحجته الظاهرة الباهرة ، فتأويل المبدء هو المأخذ في أصل القرآن وفصله أحكاماً وإنبآت أخرى ، وتأويل المعاد هو واقع الأنباء المسرودة فيه ، والتأويل المنتظر هنا هو الآتي في البرزخ برزخاً وفي المعاد واقعاً مفصلاً دون إبقاء ، أم وتأويل علمي مبدء حيث يظهر بعد الموت ما يمكن أن يظهر ، وكذلك تأويل الأعمال ظهوراً بحقائقها ، ثم تأولاً إلى جزاءها الوفاق .

وفي رجعة أخرى إلى الآيتين « هل ينظرون » تجتث كافة الإنتظارات من كافة المنتظرات في حقل الحجج الربانية بعد نزول الحجة البالغة القرآنية ، اللهم إلا إنتظار المستحيل بحقهم وهو « تأويله » حيث ينقسم إلى مستحيل بحق الكل كالتأويل الخاص بالله ، والمستحيل بحق غير الراسخين في العلم كمبادئ الأحكام ، فإن العلم بها يخصهم ، وهم المستنبطون منها السنة على هامش الكتاب .

ذلك ، فكما من المنتظرات المستحيلة الذاتية « أن يأتيهم الله في ظل من الغمام » (٢ : ٢١٠) - والمستحيلة بحقهم « أن تأتيهم الملائكة » (٦ : ١٥٨) قبل أجلهم .

كذلك « هل ينظرون إلا تأويله » حيث المنتظر لهم بين مستحيل ذاتي كالتأويل الخاص بالله حيث يحرم عن علمه الأقربون فضلاً عنهم ، ومستحيل نسبي وقتي كالتأويل الخاص بأقرب المقربين في دور التكليف .

فانتظار معرفة التأويل مبدء ومعاداً كواقع الحجة الطليقة ، بعد حجة القرآن البالغة ، هو انتظار قاحل جاهل ، فواقع التأويل للقرآن وعلمه قبل الموت ، ليس واقعاً لهم أولاء إذ تمت الحجة البالغة الدامغة بالقرآن « فهل ينظرون إلا تأويله .. ؟ » .

ولم يأت التأويل في القرآن إلا بمعنى الأول الرجوع لمتوسط الحق قرآناً وسواء ، إلى مبدئه ومنتهاه ، وكيف ينظرون تأويله وهم - بعد - لم يبلغوا إلى متوسط من تفهم ذلك الوسيط بين تأويليه ؟ ! .

ثم للتأويل إجمال وتفصيل ، فإجماله معروف من ظاهره الحاضر لمن ألقى السمع وهو شهيد ، فقد يعرف من القرآن نفسه مبدئه وهو الله ، ومعاده وهو يوم الله ، وكما يعرف منه كافة الحقائق المقصودة في نشأة التكليف .

وتفصيله غير معروف إلا لمن يحيط به علماً ومعرفة يقينية بعين اليقين وحقه ، اللهم إلا ما اختص به الله من معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وسائر العلم المخصوص بساحته القدسية المتعالية ، وحجته البالغة الكافية هي وراء تأويله علمياً وعينياً ، فإن دورهما آت بعد الموت ، اللهم إلا للمعصومين قدر ما قدره الله .

وقد يكفي للتصديق بأمر علم به ، دون حيلة شاملة كما نعرف الله ولا نحيط به علماً « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » (١٠ : ٣٩) .

ف « هل ينظرون إلا تأويله » تنديد بهم شديد أنهم ناظرون واقع نباء القرآن حتى يؤمنوا به وهو نبأ عظيم يدل على صدقه نفسه بكل بيناته الصادقة للذين يؤمنون .

و « هل ينظرون » هنا لمن ينتظر التأويل هو نظرة الإنتظار ، ثم لمن لا ينتظر بشأنه أي شيء لا حاضراً ولا تأويلاً هو واقع الإنتظار ، حيث ينتظرهم تأويله مهما كانوا هم غير ناظر به ، وذلك كالذي كان لآل فرعون « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً » (٢٨ : ٨) فنظر الإنتظار لهم

« قرة عين لي ولك عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » وواقعه الذي ينتظرهم وهو غير ناظرين له « ليكون لهم عدواً وحزناً » .

ذلك ، وتنديد آخر بتهديد « يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل » نسيان التناسي لأصله المفصل وتأويله المجمل حيث تعني « نسوه » كليهما ، أم هو يوم التأويل لكافة المكلفين ، ويوم القرآن بتأويله لأهله الخصوص ، ومن الشاهد على طليق التأويل « قد جاءت رسل ربنا بالحق » فقد نسوا من ذي قبل لقاء يومهم هذا ، سواء أكانوا في زمن الشريعة القرآنية أم سواء من زمن الرسالات .

إذاً فـ « نسوه من قبل » تعني نسيان يومهم هذا المدلول عليه بكافة البراهين الأفاقية والأنفسية ، تكوينية وتشريعية ، ولا سيما المدلول عليه بالقرآن العظيم الذي هو مهيمن على كتابات الوحي ورسالاته كلها .

يقولون هذه القولة الخاسرة الحاسرة ثم يتساءلون عما قد ينجيهم من عذاب يومئذ : « فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا » كما كنا نظن من ذي قبل أن « هؤلاء شفعاءنا عند الله - ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » .

« أو نرد » إلى حياة التكليف « فنعمل غير الذي كنا نعمل » عمل العقيدة الصالحة والعمل الصالح ، فإن طليق العمل يشمل كل عمل بجانبه أم جارحة ، والأولى أولى بكونها عملاً لأنها منشأ سائر العمل ، ثم ولا يفيدهم عمل دون إيمان فكيف يترجونه في رجوعهم المستدعى ١٩ .

أجل فـ « نعمل غير الذي كنا نعمل » تعني غياراً كاملاً فيها ، كافلاً للفلاح يوم التأويل : « وهم يصطرون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير » (٣٥ : ٣٧) « حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعوني لعلني أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » (٢٣ : ٩٩) ، « ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون » (٣٢ : ١٢) .

ولكنهم « قد خسروا أنفسهم » بما نسوا لقاء يومهم هذا « وضل عنهم

ما كانوا يفترون « على الله من شركاء وشفعاء وما أشبه من فرية على الله أو على رسل الله ورسالاته .

ذلك ، وقد تدل هذه الآية بعشرات من أمثالها على واقع الاختيار للمكلفين ، وإلا فلماذا يتطلبون الرجوع إلى الحياة الدنيا ، وإلى عدم التكليف يوم الدين ، وإلا لكانوا يجبرون ما فاتهم فيعملون غير الذي كانوا يعملون في الأخرى، دون تكلف للإرتجاع إلى الحياة الأولى.

ذلك ، ومن تأويل المبدء : « ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً » (١٨ : ٧٨) ومن المرجع : « قال لا يأتيكما طعام إلا نباتكما بتأويله قبل أن يأتيكما » (١٢ : ٣٧) ثم لم يأت التأويل لذلك المعنى الشهير العليل ، أنه تفسير لنص أو ظاهر مستقر بخلافه نقيضاً أو ضدّاً ، لا في القرآن ولا في اللغة حيث هو من الأول الرجوع ، ولا يرجع أي كائن في مثلث الزمان إلا إلى مبدئه أو منتهاه حتى يتبين أصله وفصله دون خفاء .

ذلك هو التأويل ، وأما التفصيل في « فصلناه » وهو « على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون » فإنما هو التفصيل البيان التبيان دون أي خفاء ذاتي دلالي للقرآن في أبعاد العبارة والإشارة واللطائف ، ولكل نصيب مما كسبوا في ميادين المعرفة القرآنية « وما ربك بظلام للعبيد » .

أجل إنه تفصيل فيه تحصيل لكل المحاصيل المعنية بالقرآن دون أي خفاء مهما كان فيه من العناء ، دون عزل ولا عضل لطائر الفكر الإنساني ، الجائل في مجالات الذكر الحكيم .

ذلك ، فليس فيه شك ولا ريب ولا عضال وصدود « ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » (١٠ : ٣٧) - « ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » (١٢ : ١١١) « وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً .. » (٦ : ١١٤) .

فكما أن سائر الآيات المعجزات هي مفصلات غير مبهمات ك « الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات » (٧ : ١٣٣) .

كذلك وبأحرى القرآن هو آيات مفصلات ، مهما بانّت مفصلات عن مفصلات بين الأرض والسماء ، حيث المفصلات القرآنية خالجات تعيش مع الزمن دونما فتور أو قصور ، وسائر الآيات فاترات عمن يعيشون بعدها ، قاصرات الوصول إليهم ، مستحيلات الوصول إليها بعد تقضيها .

ذلك ! و « يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل » وهو نسيان القرآن ، دراسة ومراسة وحراسة ، ثم نسيان تأويل القرآن إيماناً أن له تأويلاً ككل ، ثم نسيان تأويله الخاص بيوم القيامة ، والكل معني بعناية الإطلاق .

وترى « نسوه » لا تشمل هؤلاء الذين « اتخذوا هذا القرآن مهجوراً » فهل نسيّت « نسوه » قسماً ممن نسوه لأنهم مسلمون ؟ وممحور التنديد ليس إلا « نسوه » ! .

فكما يندّد بالذين نسوا الله قدر ما نسوه ، كذلك التنديد بالذين نسوا القرآن قدر ما نسوه ، بل التنديد بهم أشد ، والإستنكار عليهم أكد ! حيث لا يرجى ممن آمن بالقرآن ذلك النسيان ! .

فالناسون القرآن ككل ، هم « استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » (٥٨ : ١٩) - « ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً » (٢٥ : ١٨) .

﴿ ٥٤ ﴾ إِنَّ

رَبُّكَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

تَرَأْسُوْىَ عَلَى الْعَرْشِ نُفُوسُ الْمَلَائِكَةِ النَّهَارَ يُطَلَّبُهُ حَبِثًا
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْجُودُ مُسْتَخَرَاتٍ بِأَمْرِهِ الْإِلَهِ الْخَلْقِ
وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٥﴾ أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا
وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ
بِعَدَا صَلَاحِهَا وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ
مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ
رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَفْلَحَ سَحَابٌ مَّتَّابًا لَّا سَمَاءَ لِّبَلَدٍ مِّثْلٍ فَأَنْزَلْنَا
بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتًا بِإِذْنِ
رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَآخِزُ الْإِنسَانِ كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ
لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ

﴿ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ (٥١) .

هنا تعريف بتأويل المبدء للقرآن وإلى معاده وكما القرآن كله تعريف عريف بالمبدء والمعاد وما بين المبدء والمعاد والله على كل شيء شهيد (١) .

و « إن ربكم » تعريف به تعالى بكامل ربوبيته ، رغم الزعم أنها مختصة بأصل الخلق دون التدبير، ولقد فصلنا القول حول خلق السماوات والأرض في ستة أيام بطيات آياتها ولا سيما في « فصلت والنازعات والبقرة » وهنا الإستواء على العرش هو الإحاطة على عرش القدرة والتدبير بعد خلقهما، وإن كان الله على كل شيء قديرًا ولكن فعلته القدرة والتدبير ليست إلا بعد فعلية المقدور والمدير، وحاقة البحث عن العرش تجدها في عرش الحاقة وما أشبه كآية الكرسي وسواها .

وهنا « يغشي الليل والنهار » يعني إغشاء الليل النهار قصداً إلى الظلمة الطارئة على الجو ، يطلبه حثيثاً في هذه الدورة الدائبة الدائرة ، فدور الليل تطلب النهار في هذا الفلك الدوار .

فالنهار هنا هو الجو - المظلم بطبيعة الحال - الذي طرعه الضوء ،

(١) الدر المنثور ٣ : ٩٠ - أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الدعاء والخطيب في تاريخه عن الحسن بن علي (عليه السلام) قال : أنا ضامن لمن قرأ هذه العشرين آية أن يعصمه الله من كل سلطان ظالم ومن كل شيطان مريد ومن كل سبع ضار ومن كل لص عاد ، آية الكرسي وثلاث آيات من الأعراف « إن ربكم الله ... » وعشراً من أول الصافات وثلاث آيات من الرحمن : « يا معشر الجن والإنس .. » وخاتمة سورة الحشر .

فإغشاء الليل النهار هو طريان الظلمة على جو النور ، ومما تشبهها « آية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون » فإن سلخ النهار من الليل هو سلخ الضوء من أفقه الخاص الذي هو مظلم لولا الضوء ، فالليل والنهار هما عارضان على الجو ، ولولا الجو فلا ليل ولا نهار ، كما لولا الوجود فلا أزلية ولا حدوث، ثم الليل الظلمة مخلوق مع الجو ذاتياً والنهار النور مخلوق بعد الجو عرضياً ، فسلخ النهار من الليل لمحة إلى عرضية النهار على الجو المظلم بطبيعة الحال ، وإغشاء الليل النهار إشارة إلى زوال النهار بزوال الشمس ، فـ « يُغشي الليل النهار » هو رجوع الجو إلى حالته الأصلية الطبيعية .

ثم و « يطلبه حثيثاً » لمحة صارخة لاختلاف الآفاق الأرضية ، فهي - إذاً - مدوّرة غير مسطحة ، وإلا لم يكن معنى ولا واقع لـ « يطلبه حثيثاً » أن يطلب الليل النهار حثيثاً تدريجياً سريعاً مجدداً - حيث الحث هو الطلب بجد وسرعة - بل ليكن الأرض كلها ليلاً أم كلها نهاراً لو كانت مسطحة أو شبه مسطحة ، وهذا الطلب ليس إلّا من حصائل حركة الأرض وكرويتها ، أم وحركة الشمس .

ذلك ، فلولا أن الظلمة أصل للجو المظلم ، مخلوق معه دون غيار لم يكن لسليخ النهار منه معنى صالح ، حيث السليخ ليس إلا نقشر عارض ، وأما « يغشي الليل النهار » فإنه اغشاء ، لذلك الجلد العارض بغشاء الظلمة الذاتية .

ثم « يطلبه حثيثاً » لا يصدق إلّا باختلاف الآفاق ، وإلا لم يكن يطلبه لا حثيثاً ولا غير حثيث لمكان المفارقة البائنة بينهما ، إذاً فلتكن الأرض منحنية السطح كروية أو بيضوية أماهيه حتى يصدق « يطلبه حثيثاً » : سريعاً .

ذلك ، فهذه الآية المُغشية الليل النهار ، ومعها آية التكوير : « يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » (٣٩ : ٥) وهكذا آيات الإيلاج بينهما كـ « ذلك بان الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في

الليل» (٢٢ : ٦١) وآية السلخ « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون » (٣٦ : ٣٧) .

هذه كلها إشارات متقنة لكروية الأرض ودورانها ، ولم تكن الظروف النازلة فيها القرآن تسمح للتصريح بذلك إذ كان يواجه بالتكذيب سناداً إلى الحس ، والعلم حينذاك .

فهذه وأضرابها من الإشارات اللطيفة القرآنية المعبر عنها بالبطون ، كانت لا بد منها في ذلك الكتاب المحلق على كافة المكلفين منذ نزوله إلى يوم الدين .

فقد يعبر عن حركات الأرض بـ « الراجفة » و « الكفات » و « الذلول » تدليلاً واضحاً على أن الأرض محكومة بحركات متداخلة فهي « راجفة » وانها مسرعة في الطيران متقبضة على سطحها وفضاءها الكائنين فيها : أحياء وأمواتاً « كفاتاً » وأنها على حركاتها معدلة لحد لا تحس « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً » وما أشبه .

وهنا يقول الإمام علي (عليه السلام) : « وعدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها وذوات الشناخيب الصم . فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو أن تسيخ بحملها » .

ذلك ، وأمامنا اليوم صورة رائعة للأرض بواسطة الأقمار الصناعية تبين لنا كيف يدخل الليل في النهار تدريجياً ويتكور عليه ، وكلها أدلة علمية فلكية قرآنية على كروية الأرض ودورانها حول نفسها وحول الشمس .

ثم وخلق « الشمس والقمر والنجوم » حالكونها مسخرات ككل « بأمره » حيث سخرها للخلق انتفاعاً لهم منها ، دون تدبير رباني لها بأصولها : « وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار » (١٤ : ٣٣) وذلك يختلف اختلافاً ما عما سبقها في الآية نفسها : « وسخر لكم الفلك في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار » فان لنا تأثيرات في الفلك والأنهار دون الشمس والقمر والليل والنهار .

هذا ، وكما أن « الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره » في ظاهر التكوين ، كذلك - وبأحرى - شمس الرسالة القدسية وقمرها ونجومها في

باطن التشريع، إذ يحمله حملته من الله وكما يروى عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « النجوم أمان لأهل السماء ، وأهل بيتي أمان لأمتي » (١) .

(١) كما في ينابيع المودة (٢٠) من طريق الحاكم ، وابن بطريق في العمدة من طريق مسند أحمد عن علي (عليه السلام) وأحمد بن حنبل في فضائله : ١٨٩ ح ٢٦٧ عنه (عليه السلام) والحاكم في المستدرک ٣ : ١٤٩ عن ابن عباس وج ٢ : ٤٤٨ بإسناده عن جابر وج ٣ : ٤٥٧ بإسناده عن محمد بن المنكدر عن أبيه ، وكذا الذهبي في تلخيص المستدرک ، ورواه الطبراني في المعجم الكبير ٥ : ٢٥ بإسناده عن إياس بن سلمة عن أبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) والسيوطي في إحياء الميت من طريق الحاكم عن ابن عباس ومن طريق ابن أبي شيبة ومسند في مسنديهما ، والترمذي في نوادر الأصول ، وأبو يعلى والطبراني جميعاً عن سلمة ، ورواه في الجامع الصغير ٥٨٧ عن سلمة بن الأكوع وفي ص ٧ من طريق الحفاظ : أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة النخعي والمسند في مسنديهما ، والترمذي في نوادر الأصول ، وأبو يعلى في مسنده والطبراني في الكبير ، وابن عساكر بإسنادهم جميعاً عن إياس بن سلمة وعن جابر ، وأخرجه من طريق الحاكم عن ابن عباس الحزاي في مشارق الأنوار ٩٠ والنقشبلي في راموز الأحاديث ٢٣٨ والصنعاني في مشارق الأنوار ١٠٩ والحضرمي في رشفة الصادي ١٧ و ٣٧ و ٧٨ من طريق الحاكم عن ابن عباس وأحمد في المناقب عن علي (عليه السلام) ، وفي وسيلة المآل ٥٩ عنه (عليه السلام) والسهمودي في الإشراف على فضل الأشراف ٤٠ والأمر تسري في أرجح المطالب ٣٢٩ ، والنبهاني في الشرف المؤيد ٢٩ عنه (عليه السلام) وفي جواهر البحار في فضائل النبي المختار ١ / ٣٦١ ، والنبهاني في الفتح الكبير ٣ : ٢٦٧ سلمة ، والحموني في فرائد السمطين ٢ : ٢٤١ و ٢ و ٥٢١ والطبري في ذخائر القبي ١٧ والزرندي في نظم درر السمطين ٢٣٤ والقدس الحنفي في سنن الهدى والهيثم في مجمع الزوائد ٩ : ١٧٤ والكافي في السيف اليماني المسلول ٦٤ والكاظمي في شرف النبي ٢٨٣ والخوارزمي في مقتل الحسين (عليه السلام) ١ : ١٠٨ عن علي (عليه السلام) وابن عباس والأنسي اللبناني في الدرر واللال ٢٠٣ وضيف الله في فيض الغدير ٢ : ٦٢ وسفيان القسوي في ترجمة ابن عباس من كتابه : المعرفة والتاريخ ١ : ٥٣٨ والصَّبَّان في إسماعيل الراغبين ١٤٤ والهيثم في الصواعق ١٨٥ والقندوزي في الينابيع ٢٠ ، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٣ : ٨٨ . (عنهم ملحقات احقاق الحق ٩ : ٢٩٤ - ٣٨٠ و ١٨ : ٣٢٣ - ٣٣٠ وغاية المرام ٢٧٤ الباب ١٦ و ٦٧) .

وهكذا يخاطب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حقل الأمر
« ليس لك من الأمر شيء » (٣ : ١٢٨) وكما هنا « ألا له الخلق
والأمر » .

فلست - أنت أيها الرسول النبي الأ لمعي - لست تملك شيئاً من أمر
التكوين والتشريع والثواب والعقاب والعفو ، أو الإستئصال والإستصلاح ،
أو تدبير المصالح في أوقاتها ، أو تقديم الأجل عن مقراتها أو تأخيرها وما
أشبه من الأمور الربانية في حقل التكوين والتشريع ، و « إنما أنت منذر »
و « إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر » (٨٨ : ٢٢) .

« ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » له الخلق وله أمر
الخلق استمراراً وتديراً وما أشبه من شؤون الخلق لصالحه غاية وبداية
وعلى أية حال في كل تكوين وتشريع وما أشبه .

ذلك ، فلا مجال هنا لبعض التفلسفات الفالسة الكالسة أن « الأمر »
يعنى إيجاد المجردات ، والخلق هو إيجاد الماديات ، فقد ذكر هنا خلق
السموات والأرض والإستواء على عرش تسخيرهما بسائر النجوم وتدبيرها
كلها وهو الأمر بعد الخلق « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين »
حيث جمع لنفسه الخلق والأمر دون أن يتخذ لنفسه شريكاً أو يكون له يد
في الأمر كما لا شريك له في الخلق ، والمشركون معترفون بأن الله تعالى هو
الخالق لا سواه ، ولكنهم يعطون أمر الخلق لغيره كلاً أو بعضاً .

ثم الأمر هنا ليس ليختص بأمره تعالى بعد خلق الكون ، بل وله الأمر
قبله وقبل أمره ، كما وله الخلق قبل الخلق والأمر وبعدهما، فهو « خالق إذ
لا مخلوق وعالم إذ لا معلوم . . » (١) ف « من زعم أن الله جعل للعباد من

(١) نور الثقلين ٢ : ٤٠ في الخرائج والجراح قال أبو همام سئل محمد بن صالح أبا محمد
(عليه السلام) عن قوله تعالى : « الله الأمر من قبل ومن بعد » فقال : له الأمر من قبل أن
يأمر به وله الأمر من بعد أن يأمر به مما يشاء فقلت في نفسي هذا قول الله : « ألا له الخلق
والأمر تبارك الله رب العالمين » فأقبل علي وقال : هو كما أسررت في نفسك : « ألا له
الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » .

سورة الأعراف / آية ٥٤ - ٥٨ ١٧٣

الامر شيئاً فقد كفر بما أنزل الله على أنبياءه لقوله : ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين» (١) .

وقد يعني الامر هنا الهدى الشاملة لكل خلق تكوينياً وتشريعياً :
« ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » (٢٠ : ٥٠) هداية تناسب غايته المخلوق لها .

فهنا « ألا له الخلق والأمر » حصر لهما بساحة الربوبية، وعبارته الأخرى هو الرب لا سواء ، لا يشاركه أحد في خلق أو هدى ، في تكوين أو تشريع ، ولا تعني الرسالة الإلهية التي هي القمة العالية في مناصب لمن سوى الله إلا رسالة الأحكام التي يشرعها الله سبحانه .

ذلك ، وصيغة الخلق في القرآن تعني - دونما استثناء - كل الخليقة ، مادية بطاقتها ومنها الأرواح ، فقد « خلق كل شيء وهو بكل شيء عليم » (٦ : ١٠١) - « أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء » (٧ : ١٨٥) « وخلق كل شيء فقدره تقديراً » (٢٥ : ٢) « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » (٥١ : ٤٩) « خلقناكم من تراب » (٢٢ : ٥) « إنا خلقناهم من طين لازب » (٣٧ : ١١) .

فهذه الآيات ونظائرها تدل على تحليق الخلق على كل شيء ، سواء أكان خلقاً متدرجاً في تكونه كما السماوات والأرض برمتيهما ، أم دون تدرج كما الخلق الأول لمكان خلقه لا من شيء ، فالمخلوق من شيء يجوز فيه التدرج ، ولكن الذي يخلق لا من شيء فلا مجال فيه لتدرج ، فغير الخلق

(١) الدر المنثور ٣ : ٩٢ - أخرج ابن جرير عن عبد العزيز الشامي عن أبيه وكانت له صحبة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح وحمد نفسه فقد كفر وحبط ما عمل ومن زعم ...

الأول بين متدرج التكون وسواه ، والخلق الأول محصور في سواه .

وكما أن « الأمر كله لله » (٣ : ١٥٤) كذلك التدرج وسواه كله لله ، والأمر المذكور في القرآن (٧٢) مرة ، لم يأت وإن مرة يتيمة بمعنى إنشاء المجردات غير المتدرجة في الإنشاء ، إنما هو بين أمر التكوين والتشريع أمراً فيهما ومطلق الشيء والفعل ، دونما اختصاص بمجرد وما أشبهه ، فالأمر الدستور يجمع بالأوامر ، والأمر الفعل أو الشيء بالأمور .

ثم الأمر بعد استواءه على العرش هو كل أمر في حقل الخلق : « ثم استوى على العرش يدبر الأمر » (١٠ : ٣) .

وطليق الأمر تدريجياً وسواه لا ينافي في ذكره في سواه كـ « وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب » (١٦ : ٧٧) رغم أن أمر الساعة - وهو مجموع أمري قيامة الإمامة والإحياء - ليس - فقط - في إيجاد مجردات ، إنما هو تدبير الكون بلمحة ، ثم تعميره بلمحة أخرى : « ونفخ في الصور فصعق من في السماوات والأرض ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » (٣٩ : ٦٨) فلا يدل « قل الروح من أمر ربي » (١٧ : ٨٥) أنه من عالم المجردات لمكان الأمر ، وإنما القصد إلى أنه أياً كان ليس إلا من الله ، سواء أكان روح العصمة الرسالية أم روح القرآن أم سائر الأرواح ، إذ ليس للخلق مدخل فيها أبداً ، وإنما كله من الله وإن كل خلق هو من الله .

ولو أن الأمر غير متدرج ، فكيف - إذاً - « ينزل الأمر بينهم .. » (٦٥ : ١٢) .

وأما « إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » (٢ : ١١٧) ألا تدرج في أمره ، فهذا لا يقتضي سلب أي تدرج وإن كان بأمر الله ، فمن

نفاذ أمره تعالى دون حاجة إلى تدرج وتمهل انه لا يريد شيئاً إلا وهو كائن ، فقد أراد تكوين المادة الأولية فكانت دون تدرج ، ثم خلق منها السماوات والأرض بتدرج ، دون أن يكون ذلك التدرج المقصود فيما فيه التدرج نقصاً في قدرته ، بل هو لحكمة عالية ربانية تقتضيه ، فقد يقول لأي من مراحل التكوين التدريجي « كن » فيكون كما يريد دون تمهل ضعفاً في القدرة ، وهنا يتجلى معنى : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » (٥٤ : ٥٠) و « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » (٣٦ : ٨٢) .

ذلك ، وباختصار نجد القول بمجرد سوى الله يخالفه العقل والكتاب والسنة ، فالعقل إنما يحكم بحدوث المادة والطاقات المادية ، وليس المجرد عن المادة بحاجة إلى خالق لتجرده عن الحاجة المُحَوَّجة إلى الخالق .

والكتاب مصرح بأن الروح مُنشأ من البدن : « ثم انشأناه خلقاً آخر » (٢٣ : ١٤) وانه منفوخ في البدن « ونفخ فيه من روحه » (٣٢ : ٩) .

والسنة كلمة واحدة مصرحة بمعنى : أن الروح جسم خفيف قد ألبس قالباً كثيفاً ، أو أنه كالريح لخفته .

وبعد كل ذلك نتساءل القائلين بتجرد الروح ، أليس هو داخلياً في البدن ، فمحدوداً بحدود البدن ، ولا حد ولا أبعاد ولا مكان للمجرد عن المادة ، اللهم إلا الطاقة المادية ، وليس النزاع في كيان الروح إلا في أصل تجرده أو ما ديته ، وأما كونه طاقة مادية - إن صدقه القائلون بتجرده - فموضع وفاق بين الطرفين ، وليس النزاع لفظياً حيث الفلسفة والبحوث الفلسفية ناحية منحى الواقع دون الألفاظ إلا نظراً إلى مدلولاتها الواقعية .

حول العرش :

لقد تحدثنا حول العرش على ضوء آيات تحمله ولا سيما آية حملة : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » و « كان عرشه على الماء » (١١ : ٧) وآية الكرسي في قياس بينه وبين العرش ، وما أشبه ، أن

العرش المنسوب إلى الله ، المستوى عليه الله ، هو بطبيعة حال هذه النسبة ليس من العروش المادية التي يتكىء عليها أصحابها السلاطين ، إنما هو إشارة إلى فعلية السلطة الربانية خلقاً وتقديراً وتدبيراً ، فقد كان عرشه هذا على الماء قبل خلق الأرض والسماء : « هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء » (٧ : ١١) فلأن « الماء » هنا هو أول ما خلق الله - كما يأتي فيه قول فصل على ضوء آيته - ثم بعد خلق السماوات والأرض إستوى على عرشهما ، ومن ثم بعد خرابهما إستوى على عرش القيامة الكبرى ، فهو - إذاً - ذو العرش في هذه المراحل الثلاث واقعياً ، وقد كان ذا العرش قبل أن يخلق خلقاً ، بمعنى محيطته العلمية والقيومية غير الفعلية ، على ما سوف يخلقه ، فإنه عالم إذ لا معلوم وخالق إذ لا مخلوق ، وقادر إذ لا مقدور ، بمعنى أنه تعالى لا تحدث له سلطة بعد ما لم تكن ، وإنما تظهر سلطته على ما يحدث بعد كامنها في علمه وحياته وقدرته ، حيث الصفات الفعلية كلها منشآت من الصفات الذاتية .

ولأن الخلق والتقدير هما مخلوقان ، فالحيطه العلمية والقيومية عليهما أيضاً مخلوقتان ، إذاً فالعرش كسائر الخلق خلق من خلق الله في كيانه الفعلي ، كما أنه من صفاته الذاتية في كيانه الشأني^(١) ، فقد يصح القول

(١) في التوحيد بإسناده عن سلمان الفارسي فيما أجاب به علي (عليه السلام) الجاثليق فقال علي (عليه السلام) : إن الملائكة تحمل العرش وليس العرش كما تظن كهيئة السرير ولكنه شيء محدود مخلوق مدبر وربك حامله لا أنه عليه ككون الشيء على الشيء . . . أقول : لأن الخلق والتدبير محدودان فالعرش الذي فيه أزمته أمور الخلق محدود بنفس الحدود ، ولكن صفات الله الذاتية كذاته غير محدودة .

وفي الكافي عن البرقي رفعه قال : سأل الجاثليق علياً (عليه السلام) فقال : أخبرني عن الله عز وجل يحمل العرش أو العرش يحمله ؟ فقال (عليه السلام) : الله عز وجل حامل العرش والسماوات والأرض وما فيهما وما بينهما وذلك قول الله عز وجل : إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً -

قال : فأخبرني عن قوله : ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، فكيف ذاك وقلت : انه =

انه لم يكن لله عرش ولا كرسي قبل أن يخلق خلقاً ، إذ « كان الله ولم يكن معه شيء » سواء أكان عرش السلطة التدبيرية والتقديرية الفعلية منه تعالى أو السلطة الملائكية المأذونة لهؤلاء المؤمنين ، حيث يحملون بما يحملون كأداة أمور التكوين والتشريع .

فأصل العرش وهو السلطة الربانية ليس إلا الله ، ثم فصله لعباد له خصوصاً يحملون أوامره إلى الكائنات ، فهم عمال رب العالمين فيما هم به يؤمرون .

فلأن عرش الله هو أمره السلطوي الربوبي ، فحملة عرشه هم

= يحمل العرش والسموات والأرض ؟ فقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : إن العرش خلقه الله تبارك وتعالى من أنوار أربعة : نور أحمر منه إحمرة الحمرة ونور أخضر أخضرته منه الخضرة ونور أصفر أصفرته منه الصفرة ونور أبيض أبيض منه البياض ، وهو العلم الذي حملته الله الحملة وذلك نور من نور عظمتته قبضته ونوره أبصر قلوب المؤمنين وبه عظمته ونوره عاداه الجاهلون ، وبه عظمته ونوره ابتغى من في السموات والأرض من جميع خلقاته إليه الوسيلة بالأعمال المختلفة والأديان المتشعبة ، فكل شيء محمول بحمله الله بنوره وعظمته وقدرته لا يستطيع لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، فكل شيء محمول ، والله تبارك وتعالى الممسك لهما أن تزولا والمحيط بهما من شيء وهو حياة كل شيء ونور كل شيء سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً .

قال : فأخبرني عن الله أين هو ؟ فقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : هو ههنا وههنا وفوق وتحت ومحيط بنا ومعنا وهو قوله : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا » ، فالكرسي محيط بالسموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى وذلك قوله : « وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم » فالذين يحملون العرش هم العلماء الذين حملهم الله علمه وليس يخرج من هذه الأربعة شيء خلقه الله في ملكوته وهو الملكوت الذي أراه الله أصفياه وأراه خليله فقال : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » وكيف يحمل حملة العرش الله وبحياته حيت قلوبهم وينوره امتدوا إلى معرفته . . . أقول : للإطلاع على مضامين الحديث الغامضة راجع تفسير آية الكرسي . وهنا أحاديث أخرى سردناها عندها وأهمها حديث حنان بن سدير فراجع .

المحملون أوامره ، وعمّاله الذين يعملون بأمره ، من ملائكة الوحي وسواهم ، وسائر رسل الوحي وسواهم من حملة أوامر الله إلى خلقه .

ومهما كان لعرش الرب حملة يوم القيامة والأولى ، لم تكن له حملة يوم خلق الماء ، قبل أن يخلق الأرض والسماء ، فانما خلق كل الحملة من الماء ، وهو مادة الكائنات بأسرها ، فلم يحمل عرشه بعدئذ حملة لحاجته إليهم ، بل لحاجتهم إلى ذلك الحمل كما المحمل إليهم محتاجون ، تطبيقاً لأمر الله لمزيد العناية الربانية إليهم ، كما تزيد لمن حمل إليهم تشاريع الله .

هذا ، فذلك إيقاع بالغ لهم صارم بعبودية الكون كله لله الواحد القهار « ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين » فهنا ، وقد ارتعش الضمير الإنساني منساقاً للإستجابة في موكب الكون المستجيب لأمر ربه ، من هنا يخاطب بقية العبودية الفطرية أن يدعو المعبود :

﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين ﴾ (٥٥) .

« أدعوا » قد تعم دعوة العبودية بمعرفة توحيدية ، ودعوة الدعاء فيما تكل الطاقات المخولة إلينا ، في قال وحال وفعال ، وكما أن يصبح العبد بكل كيانه دعاء الرب .

وكما الدعاء العبودية والعبادة واجبه الركين أن يكون بتضرع وتذلل ، كذلك وبأحرى دعاء الإستدعاء ، ولئن تبثلى سائر العبادات بإفلاس في غير إخلاص كما في أكثريتها المطلقة ، فعبادة الدعاء هي بطبيعة الحال مخلصية غير مفلسة ، لأنها قضية الحاجة التي لا تزول إلا برحمة من الله ، ولكن العبادة - ما كانت صالحة في شروط لها في الفقه الأصغر - تسقط التكليف وإن لم تقع موقع القبول ولم ترفع بصاحبها إلى حضرة الربوبية .

إذاً « ادعوا ربكم » بمثلث الدعوة التوحيدية والعبودية والإستدعاء ، في مثلث القول والحال والفعال ، فالدعوة والدعاء قليلاً هي الأصل ، ثم القول والفعال إذا عتبان لها مهما كان في الفعال عضال دون القول .

ذلك ، ففضية العبودية الدليلة المفتاقة الهزيلة ، أمام الربوبية الشاملة الكاملة العزيزة، أن تختص الدعوة بضراعة وخفية بساحته القدسية دون إعتداء عنها بترك الدعاء أو الدعاء بكبرياء أو صياح وتصدية ، فالتضرع الخفي أنسب بجلال الله وجبروته ويقرب الصلة بينه وبين مواله وعبيده .

« ادعوا ربكم » الذي رباكم ويربيكم ما دتم فدامت حاجاتكم :
« قل ما يعبا بكم ربي لولا دعاءكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً » (٢٥ :
٧٧) فترك الدعاء - إذاً - إعتداء على ساحة الربوبية عن صالح العبودية .

إذاً فادعوه « تضرعاً » لكل قصور أو تقصير ، إعترافاً ضريعاً بالذل ، فاغترافاً من رحمته العزيزة الباصرة ، والضراعة هي الضعف والذلة ، فالتضرع هو إبرازهما ببكاء وغير بكاء .

ثم « وخفية » لأنك فيها أبعد من الرثاء ولأنه سميع الدعاء : « أما إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً قريباً ، إنه معكم » (١) فالإعتداء من « خفية » إلى جهار زعم أنه لا يسمع الخفية ، كما الإعتداء من الضراعة إلى سواها من حالات الاستكبار ، أم دون تدلل وتضرع ، إلى الإعتداء في أصل الدعاء ألا تدعوا ربكم ، فضلاً عن أن تدعوا غيره أم تشركوا في دعاءه سواء ، أم تدعوه بما لا يليق بساحته، أو ما هو الخارج عن محور الدعاء اللائق بربوبيته الحكيمة ، هذا المسدس وما أشبه محسوب بحساب « إنه لا يحب المعتدين » أي يفضهم .

ثم التضرع هو حالة الضراعة وإن لم تُدمع ، وخفية هي من أدب الدعاء « إنه سميع الدعاء » فإن جاهرت بالدعاء تعليماً لمن سواك أم خطوة زائدة لسمعتك إلى لسانك برنين البكاء والدعاء وحنينه ، إتجاهاً إلى حنانه

(١) نور الثقلين ٢ : ٤٠ في المجمع روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه كان في غزاة فأشرف على واد فجعل الناس يهللون ويكبرون ويرفمون أصواتهم فقال : أيها الناس أربعوا على أنفسكم أما إنكم . . . » وفي تفسير الفخر الرازي ١٤ : ١٣١ عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : دعوة في السر تعدل سبعين دعوة في العلانية ، وعنه (صلى الله عليه وآله وسلم) : خير الذكر الخفي وخير الرزق ما يكفي .

تعالى ، فذلك غير محظور .

فما دام الداعون « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً » (٣٢ : ١٦) - و « يدعوننا رغباً ورهباً » (٢١ : ٩٠) حاصلين على سائر شروطات الدعاء المسرودة في القرآن والسنة ، فما عليهم إن لم يُخفوه عنايةً إلى مزيد الذل والحظوة في موقف الدعاء ، مهما كان الأصل فيه هو الخفاء .

ذلك ، وقد تعني « وخفية » ما يقابل « تضرعاً » حيث التضرع ظاهر لا يخفى ، فإنه بطبيعة الحال جاهر ، فليس إذاً من عطف الجمع ، بل هو عطف التخيير ، ولكنه دون الجهر : « واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول » (٧ : ٢٠٥) ف « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » (١٣ : ١٠) « وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى » (٢٠ : ٧) .

إذاً فقضية الدعاء كاصل أن يكون تضرعاً وخفية بخفاء دون الجهر من القول ، ورغباً ورهباً ، فباطن الدعاء هو الرغب والرهب على ضراعة ، وظاهره أن يكون خفية ودون الجهر من القول ، اللهم إلا إذا لزم أو رجح الجهر تعليمياً ، كما كان يفعله المعصومون (عليهم السلام) أحياناً كانوا يعلمون أصحابهم ، أم مزيداً للحظوة الروحية برنة الدعاء وضراعتة الظاهرة الجاهرة ما بُعد عن الرثاء .

وأما ألا يدعى الرب ، أو يدعى بكبرياء أم دون تضرع ، أم يدعى تضرعاً دون رغبة ورهبة ، أم يدعى تضرعاً برغبة ورهبة بصراخ زعم أنه غير سميع الدعاء ، أم بغير صراخ وهو يؤكد استجابته بتأماً من سوء الأدب في حقل الدعاء ، فكل ذلك تشمله « إنه لا يحب المعتدين » مهما كانت دركات .

ولأن صالح الدعاء مما يصلح الأرض إضافة إلى سائر الإصلاح منا ،

ف :

﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن ﴾

رحمت الله قريب من المحسنين ﴿٥٦﴾ .

إن في ترك دعاء الرب كما يصلح إفساداً في الأرض بعد إصلاحها ، حيث الإيمان الصالح بعمله يصلح الأرض ، وخلافه يفسدها ، وهنا « بعد إصلاحها » نعم إصلاحها من الله ، إلى مصلحين بأمر الله ، وإليك أنت المفسد في الأرض بعدما أصلحت فيها ، فمثلث الإصلاح هو هندسته الصالحة، بما أن رأس الزاوية القاعدة هو الله ، وقد أصلح الله فطرنا وعقولنا والأرض التي نعيش عليها ، بما أصلحها الحياة سليمة صالحة في نبيها وبما بعث إلينا رسوله وسائر الدعاة إليه ، وأصلح الرسل بما يحملون من رسالات الله ، وأصلح سائر الدعاة إلى الله ، وقد تجمع كافة الإصلاحات في المصلح الأخير رسولياً ورسالياً وهما مجموعان في القرآن ، ففي تقرير القرآن في كافة الأوساط بكل تقريراته الربانية إصلاح للأرض كافل ، كما في تركه إفساد فيها قاحل ماحل .

« ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها » نعم زواياها كلها ، ولكي نتزود باستمرارية هذه السلبية المصلحة « وادعوه خوفاً وطمعاً » خوفاً من قصورائنا وتقصيرائنا، وأن يكون دعاءنا غير صالح أو لغير صالح ، وطمعاً في رحمة الله ، وهذا من الإحسان في الدعاء أن يكون بين الخوف والرجاء : رغباً ورهباً ، خوفاً وطمعاً ، « إن رحمة الله قريب من المحسنين » فدونهم أولاء الأكارم من المسيئين .

ذلك وأصلح المصلحين في الأرض برسالة الله هو الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فـ « إن الأرض كانت فاسدة فأصلحها الله عز وجل بنبيه »^(١) فهو أفضل مصلح رسولي فيها ، ثم سائر المصلحين

(١) نور الثقلين ٢ : ٤١ في روضة الكافي بإسناده إلى ميسر عن أبي جعفر (عليه السلام) قال قلت : قول الله عز وجل « ولا تفسدوا في الأرض بقدر إصلاحها » قال فقال يا ميسر : إن الأرض ..

الرسولين ، ومن ثم وعلى ضوء رسل الله يأتي دور المصلحين الرساليين .
ولأن الإصلاح الرسالي الإسلامي بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كان لاكثر تقدير محوريا كقاعدة - هو الإصلاح بالقرآن ، إذ ما كان الرسول ليصلح أرض التكليف إلا بالقرآن - بهامشه السنة - إذا فعزل القرآن وعضله عن الوسط الإسلامي إفساد هام للأرض بعد إصلاحها ، فكل الآيات الناهية عن الإفساد في الأرض ، والأمره بإصلاحها ، تنحو - كأصل وأثافي وقاعدة - منحى القرآن .

أجل ، لقد أصلح الرسول كافة المكلفين بالقرآن ، ويتلوه كل الدعاة إلى القرآن بكل ما يحويه ، فالمفسدون بعده هم الذين « ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون » (٦ : ٢٦) .

فلو أنهم شعروا أنهم يهلكون أنفسهم بالنهي والنأي عن القرآن لكان يرجى أن يتنبهوا عن غفوتهم ، ولكنهم لا يشعرون بما قصروا ، إذ سلب الله عنهم شعورهم بالمسؤولية أمام القرآن بما تهاونوا فيه . فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون .

مركز تحقيق كاميون علوم إسلامي

مافتكرا يا أخ إن كنا زمن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في حلقات دراسية بمسجده ، فهل كان يحن إلى حلقات القرآن ، أم إلى سائر الدراسات التي شغلت حوزاتنا ، التي لا تبقي مجالاً لدراسة قرآنية إلا هامشية مرضوضة مرفوضة ؟! فقد يصح التعبير عن حوزاتنا انها مفسدة لأرض التكليف إذ فقدت أصلها القرآني الفاضل، إلى غيره الفاضي عن حجة القرآن .

ولقد سبق منه (صلى الله عليه وآله وسلم) مراراً أن رأى جموعاً في مسجده يتحدثون مختلفين أحاديث مروية ، ونظرات حولها مدوية ، فهاج هياجه عليهم ، ورفع صراخه فيهم بما يعني : هل تتنازعون في قيلات وقالات وكتاب الله بين ظهرانيكم ؟!

وهنا عرض لفرق الإفساد الكثرة، وفرقة الإصلاح القلة للإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) :

« أيها الناس إنا قد أصبحنا في دهر عنود ، وزمن كنود ، يعد فيه المحسن مسيئاً ، ويزداد الظالم فيه عتواً ، لا ننتفع بما علمنا ، ولا نسأل عما جهلنا ، ولا نتخوف قارعة حتى تحل بنا -

فالناس على أربعة أصناف ، منهم من لا يمنع الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه وكلاله حذره ، ونضيض فقره ، ومنهم المصلت لسيفه والمعلن بشره ، والمجلب بخيله ورجله ، قد أشرط نفسه ، وأوبق دينه ، لحطام ينتهزه ، أو مقنب يقوده ، أو منبر يفرعه ، ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً ، وممالك عند الله عوضاً -

ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا ، قد طامن من شخصه ، وقارب من خطوه ، وشمر من ثوبه ، وزخرف من نفسه للأمانة ، واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية -

ومنهم من أقعده عن طلب الملك ضؤوله نفسه ، وانقطاع سببه ، فقصرته الحال على حاله ، فتحلى بإسم القناعة ، وتزين بلباس أهل الزهادة ، وليس في ذلك من مراح ولا مفدى -

وبقي رجال غض أبصارهم ذكر المرجع ، وأراق دموعهم خوف المحشر ، فهم بين شريد نادٍ ، وخائف مقموع ، وساكنت مكعوم ، وداع مخليص ، وثكلان موجع ، قد أحملتهم التقية ، وشملتهم الذلة ، فهم في بحر اجاج ، أحواهم ضامرة ، وقلوبهم قرحة ، قد وعظوا حتى ملوا ، وقهروا حتى ذلوا ، وقتلوا حتى قلوا ، فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حثالة القرظ ، وقراضة الجلم ، واتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم من بعدكم ، وإرفضوها ذميمة فإنها قد رفضت من كان أشغف بها منكم » (الخطبة ٣٢) .

ذلك ، وترى كيف « قريب » تأتي خيراً عن « رحمة الله » دون تحمل لأنوثتها ؟ علّه لأنها مؤنث مجازي فلا يجب تحمل أنوثته لما يتحملها ، أم

ولأن « قريب » مشتركة بين الذكورة والأنوثة ، ومن الاستفادة من هذه الآية واجب الإصلاح في الأرض ومحرم الإفساد فيها ولا سيما بعد إصلاحها ، وترى إذا كانت رحمة الله قريباً من المحسنين ، فهي إذاً بعيدة عن المسيئين وهم يعيشون رحمة الله طول حياتهم ، بل وقد تربو لهم على المحسنين ؟ .

هنا « رحمة الله » هي الرحيمية الخاصة بالمؤمنين ، وليست الرحمات الدنيوية الزائدة البائدة للمسيئين، هي من الرحيمية ، بل هي من الرحمانية التي تبدل عندهم زحمة ونقمة قضية الابتلاء بها فالسقوط في هُوات الحبوط والهبوط .

فالمصلحون في الأرض ، الداعون ربهم خوفاً وطمعاً ، هم من المحسنين الذين تكون رحمة الله لهم قريباً ، فهي من غيرهم بعيد قد تصلهم لتصلحهم ، وإلا فهي لهم مفسدة أكثر مما فسدوا .

﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ (٥٧).

صيغة « إن ربكم ... » حملت بياناً لربوبية المبدء ، وهذه تحمل من ربوبية المعاد ، فيبينهما ربوبية التشريع بين المبدء والمعاد ، و « هو الذي يرسل الرياح » الحاملة لرحمة من الله « بشراً بين يدي رحمته » الغزيرة الهاطلة الوثق « حتى إذا أقلت » : حملت « سحاباً » : تسحب من أبخرة المياه الأرضية « سقناه لبلد ميت » واللام هنا تعني الإختصاص الإمتصاص ، حيث « إلى » لا تفيد ذلك الإختصاص « فأنزلنا به الماء » المطر بقدر « فأخرجنا به من كل الثمرات » التي يحتاجها الإنسان من معدن ونبات وحيوان ، بل والإنسان هو أيضاً من هذه الثمرات : « والله أنبتكم من الأرض نباتاً » (١ : ٧١) ، كافلة لحاجاته ، حاملة لحاجياته « كذلك » الإخراج لموتى البلاد بميتات المياه وميتات البذور : « نخرج الموتى » في البلاد وهو أهون عليه ، إذ يدخل الأرواح الحية الأبدان الميتة بعدما تنشئ أمثالها .

« لعلكم تذكرون » أنكم سوف تخرجون ، حيث يتواتر إخراج الموتى على منظرهم ومراكم طول خط الحياة الدنيا « لعلكم تذكرون » الحياة الأخرى ، بهذه المذكرات المتواترة من إخراج الحياة من الميئات ، وهو سند دائب للأولوية القطعية لإخراج الموتى من أجداثهم ، إدخالاً لأرواحهم في أجسادهم .

ذلك ، وكما أن هذه الرياح هي بشرى بين يدي رحمته في هذه الدنيا ، كذلك وبأحرى رياح الأخرى هي بشرى بين يدي رحمته العليا حيث يرسلها لتقلّ سحاباً يسوقه لكل الأموات ، إحياء لهم وإخراجاً لكل الثمرات التي هي حصائل الأعمال صالحات وطالحات .
أجل و « كذلك » المتواتر المتكاثر الذي ترونه هنا « نخرج الموتى » وبأحرى ، إخراجاً للثمرات المستحقة بالأعمال ، كما تخرج الثمرات هنا للعمال وأين ثمرات من ثمرات ؟ .

ذلك ، والماء هو الماء ولكن البلاد تختلف طيباً وخبثاً ، والثمرات المخرجة هي المتناسبة مع طيب البلاد وخبثها هنا وفي الأخرى :

﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون ﴾ (٥٨).

وهكذا نجد مثال القلب الطاهر والخبث بالبلد الطيب والخبث حيث يسقيان بماء واحد والثمر مختلف حسب اختلاف القلب كما البلد .

وقد يروى عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله : « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت منها بقية قبلت الماء فأنبتت الكلاء والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلاءً فذلك مثل من فقه في دين الله وتفقه ما بعثني الله به فعلم وعمل ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » (١) .

(١) الدر المنثور ٣ : ٩٤ - أخرج أحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن أبي موسى قال قال

رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) :

أجل ، فكما الصحراء والجذباء تختلفان على أثر إنزال الماء ، كذلك القلوب الطيبة والخبيثة .

هنا ، وبأحرى في الأخرى حيث تخرج ثمراتها وفقاً لحالاتها وفعاليتها ولا يُظلمون نقيراً ، فالهدى وبينات الآيات والعظات تنزل على القلوب كما ينزل الماء على التربة ، فالقلب الطيب كالبلد الطيب « يخرج نباته بأذن ربه » حيث يفتح ويستقبل ويزكو ويفيض بالخير ، والقلب الخبيث كالبلد الخبيث يستفلق ويقسو ويجسو ويفيض بالشر والنكر ويخرج نكد الشوك والأذى ، « كذلك نصرف الآيات » بغيارها المتواتر « لقوم يشكرون » الآيات بتصرفها ، فأما الذين يكفرون ولا يشكرون فلا يزيد لهم تصرفها إلا تُفور وكُفوراً : « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » (٨٢:١٧) .

صحيح أن الهدف من تصرف الآيات هو التذكير بها لكافة المُكلفين ، ولكن الذي ينتفع بها بالفعل هو الشاكر لله في آياته وبيناته ، دون الكافر الناصر ، اللاهي عنها ، والمستهزء بها .

فكما القرآن كأصل دلالي « هدى للناس » ولكنه كواقع « هدى للمتقين » كذلك الآيات المعروفة هي كأصل تذكرة للناس ، وهي كواقع في آثارها الصالحة « لقوم يشكرون » .

وهنا بالتالي سرد لرسالات ربانية بمعاكسات لآثارها في قلوب قاسية جاسية بـ :

﴿ ٨٨ ﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ

اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ

يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿ ٨٩ ﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ

٥٨ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ
 الْعَالَمِينَ ٥٩ أَبْلِغْكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحْكُمْ وَأَعْلَمُ
 مِمَّا اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٦٠ أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ
 مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ
 تُرْحَمُونَ ٦١ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ بَعَثْنَا فِي الْأُمَمِ
 وَاعْرِفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ٦٢

سرد خاصر غير حاصر لأولى الرسائل الهامة العامة لأول ولي من
 أولي العزم الرسولي « نوح » (عليه السلام) وقد جاء ذكره في الذكر
 الحكيم بمختلف المناسبات في مختلف الذكريات (٤٣) مرة ، في (٣١)
 سورة منها سورته نفسه : « سورة نوح » مما يلمح بهامة هذه الرسالة
 البائدة ، وقد ابتليت بهامة الإبتلاءات الفادحة القادحة لها وهي الكادحة
 طوال ألف سنة إلا خمسين عاماً ! .

وترى ألم تكن قبل نوح شرعة من الدين ؟ وقد نبىء قبله آدم
 وإدريس وقد كان نبياً : « واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً »
 (١٩ : ٥٦) كما وآدم قبله : « إن الله اصطفى آدم » (٣ : ٣٣) ثم اجتباه
 ربه فتاب عليه وهدى « (١٢٢ : ٢٠) وهكذا من بينهما من النبيين
 بمختلف درجاتهم .

فمن المقطوع المحتوم أن الرسالة الربانية لم تكن مبتدأة من نوح (عليه السلام) ولم تكن الفترة - ما كانت - إلا رسولية ، لا رسالية ، وأهمها ما كانت بين المسيح ومحمد (عليهما السلام) ، وعُلِّ من قبلهما ما كانت بين آدم وإدريس ، وبينه وبين نوح (عليهم السلام) ، وكلها فترات رسالية فحسب « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (١٦٥ : ٤) .

وحين تفسر ولاية العزم لرسل - فيما تفسر - بأنهم جاءوا بشرائع مستقلة غير تابعة لما قبلها ، فلتكن شرعة آدم (عليه السلام) - لأقل تقدير - شرعة مستقلة، إذ ما كان قبلها من شرعة لهذا النوع الأخير ، ولأن إدريس النبي كان أفضل من آدم (عليه السلام) فقد يكون حاملاً لشرعة مستقلة بعد آدم ، وإن في توسع الأحكام ، مهما لم ينسخ حكماً من شرعة آدم (عليه السلام) .

فمن الجواب لذلك السؤال العضال ما أوردناه في سورة نوح (عليه السلام) أن الرسل قبله جاءوا بشرعة لا تزيد على تصليح الأحكام العقلية والفطرية ، فهي - إذاً - تحمل سلبية إزالة الحجب عن الفطر والعقول وإيجابية تنويرات لهما عن أخطاء فيهما ، إلا أن الأحكام الفرعية لا مدخل فيها للفطريات والعقليات ، اللهم إلا الفرعيات الثابتة في النواميس الخمسة التي لا جَوْل عنها ، دون كفيات خاصة لطقوس عبادية لا بد منها ، موقوفة على بيان الله .

ومنه أن هذه الشرائع قبل نوح ما كانت واسعة شاسعة الأطراف ، فإنما كانت تقضي حاجات بسيطة في البسيطة لساكنيها القلة القليلة، فما كانت - إذاً - تُحسب أمام الشرائع الخمس في حساب شرعة ، كما وأن الرسل قبل نوح (عليه السلام) ما كانوا أولي عزم كما كان أولوا العزم من

الرسل ، فإن من ميزاتهم هي : سبقهم إلى الإقرار بالله ، وعموم شرعتهم إلى عباد الله ، وعزمهم في التصبر في الله ، مهما كان منها - أيضاً - استقلالهم في شرعتهم عما قبلها من شرائع الله ، أماهيه من ميزاتهم المسرودة على ضوء آية الأحقاف .

فالحامل لمجموعة الميزات الرسولية والرسالية هو من أولي العزم وهم الخمسة المعاريف كتاباً وسنة ، ولم تكن للرسل قبل نوح (عليه السلام) لهم ، ولا لإدريس النبي الذي هو أفضلهم ، ولاية عزم رسولي ولا رسالي كما هي لأولي العزم .

فمهما كانت شرعة آدم عالمية ، لم يكن يعدو عالمه بنيه ، ثم « ولم نجد له عزماً » ! ، ومهما كانت شرعة إدريس عالمية - ولا برهان له - فلم يكن من السابقين في الإقرار بالله ، فانما تتبني ولاية العزم عزومات دون أزومات فيهم أنفسهم وفي شرائعهم ، التي تشكل الإمامة في الرسالة الربانية ، فهم - إذاً - مجامع عزومات رسولية ورسالية قمة لحد أصبحوا لسائر الرسل - كما للمرسل إليهم - أئمة .

ذلك ، ولأن الرسالة الربانية تحمل مثلثاً من الوحي : إزالة لغشاوات على الفطر والعقول ، ثم تنويرات لهما قدر المعني لهما ، ومن ثم أحكاماً فرعية لا سبيل لغير الوحي إليها ، لأنها قضية العلم الطليق على كافة الصالح والمفاسد ، كما ومنها قضية صالح الإبتلاء كقصة ذبح إسماعيل ، ولا سبيل إليهما للعلم فطرياً وعقلياً ومزیداً عليها حيث هما - على آية حال - محدودان .

فقد حملت شرعة آدم (عليه السلام) خاصراً غير حاصر من هذه الثلاثة ، ومن ثم تفصيل في شرعة إدريس ، ثم تفصيل كأولى مرحلة جامعة لشرعه من الدين ، وإلى تفصيل القرآن العظيم .

إذاً فحمل شرعة قبل نوح (عليه السلام) لا يحمل ولاية العزم

لحاملها مهما كان له عزم في بعض الواجهات رسولية ورسالية ، ثم لا شرعة مستقلة بين نوح ومحمد (عليهما السلام) إلا لهؤلاء الخمسة ، قضية امامتهم على كل الرسل في هذا البين ، وعموم شرائعهم للعالمين ومنهم سائر أصحاب الرسالات والنبوات .

وترى كيف كان نوح يعيش على كل المكلفين ، ولم يجعل بنفسه التجوال الرسولي بينهم ؟ إنه تجوال رسالي بمن يحملونها عن أولي العزم من الرسل مهما أجمل عن ذكرهم في الذكر الحكيم .

وهنا سرد لدعوته بإجمالها وما عارضه قومه إلى غرقهم أجمعين إلا من آمن به كإجمال قاصد إلى ملازمة عابرة ليست فيها التفصيلات التي ترد في مواضع أخرى ، بل هو تصوير معالم رئيسية لهذه الرسالة وكما في هود وصالح ، ولوط (عليهم السلام) .

وقد يعني « قومه » كافة المكلفين حيث الأقوام تختلف مصاديقها المعنية بمغازيها ، فالأقوام الرسالية تعني الرساليين كما أرسل الله ، ولأن رسالة نوح كانت عالمية فد « قومه » إذاً كل العالمين المكلفين ، وكما دعى على كفار الأرض أجمعين : « وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً » (٧١ : ٢٦) .

« فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » دعوة مبدئية توحيدية في حقل العبودية الموحدة تحلق على كافة الرسالات وهنا « ما من إله » نفى لجنس الإله كما في « لا إله إلا الله » إستصلاً لأية ألوهة لغير الله ، لا أصيلة كما قد يزعم ، ولا فصيلة خلاف ما يدعون .

ثم « إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » تلحيقاً للمبدء بالمعاد ، وقد يعني « يوم عظيم » إلى المعاد عذاب البرزخ وبينهما عذاب الطوفان ، فد « يوم » هنا هو جنس ليوم العذاب العظيم ، مهما اختلف عظيم عن عظيم ، وفي مثلث العذاب الموعود ، لكونه غيباً كله ، تطوى دعوى الرسالة ، وهي الأصل الثالث من أصول الدين فإنها بين المبدء والمعاد ، ثم والدعوة التوحيدية في جو الإشراف المطلق المطبق هي دعوى رسولية .

« قال الملأ من قومه » وهم أشراف القوم وخواصهم الذين يملأون بكشرتهم وقوتهم العيون والقلوب ، وتمتلئ منهم صدور المجالس فهم المستكبرون من قومه ، والملأ في الأصل بين ملأ الشر وملأ الخير ومن الخير : « لا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ » (٣٧ : ٨) ويقابلهم الملأ الأدنى وهم الشريرون المعارضون للرسالات على طول الخط ، وهنا قالوا : « إنا لنراك في ضلال مبين » حيث تخالف ما نعيشه من حياة الإشراك والحرية الشهوانية ، ونحن أركان المجتمع وأصوله ، فما يعارضنا - ونحن على هدى الحياة الراقية - إلا من هو في ضلال مبين .

وكيف يواجههم نوح (عليه السلام) أمام رمية الضلالة وهي شر رمية ؟ إنه فقط سلب لها إيجاباً لرسالته من رب العالمين : « قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين » ، فلو كانت الرسالة الربانية - الثابتة لي بمشباتها - ضلالة ، فأنا إذاً في ضلال مبين ، لأن ربي مضل وأنتم على هدى ! فهل أنتم مائلون إلى هذه الطنطنة الغوغاء ، قائلون غائلون هذه الغائلة النكراء ؟ وأنتم ترونه رب الأرباب ! .

وترى كيف يجيب عن « ضلال مبين » بـ « ليس بي ضلالة » دون « ضلال مبين » نفسه سلباً لما أثبتوه ؟ علّه يعني بـ « ضلالة » كل أنواعها لا فقط « ضلال مبين » فـ « ليس بي ضلالة » من مبين وغير مبين .

« أبلغكم رسالات ربي » دونما زيادة أو نقصان، وقد يعني جمع « رسالات » دون « رسالة » الجمعية الرسالية ، في جمعية الأصول والفروع الأحكامية ، فان كل زاوية من زوايا الرسالة هي رسالة ، مهما كانت مجموعها أيضاً رسالة ، « وأنصح لكم » لصالحكم « وأعلم من الله » رسالة « ما لا تعلمون » منفصلين عن رسالة الله .

فقد اختصرت واحتصرت رسالة نوح (عليه السلام) في مثلث هو هندسة لصرح الرسالات كلها : ^١ « أبلغكم رسالات ربي » تبليغاً بليغاً بالحجج الربانية الكافية الوافية .

^٢ « وأنصح لكم » نصيحاً لبراهين الرسالة وفرامينها في قلوب بذلك

النصح الرسولي الغالي ، فللنصح دور دائر لكل حائر تبقى حيرته لحدّ ما بعد ساطع البراهين الأفاقية والأنفسية ، وحقيقة النصح هي الإرسال إلى المصلحة مع خلوص النية .

٣ « وأعلم من الله ما لا تعلمون » وذلك لزامه الوحي فإن « ما لا تعلمون » تحلق على كل أسباب العلم ومسبباتها ، فالعلوم المنقطعة عن منقطع الوحي حاصلة لي من الله بالوحي ، إنقطاعاً إلى الوحي .

فهذه الثلاث و « أوعجبتكم . . » هي قواعد أربع لصرح الرسالة الربانية ، إجابة عن شطحات ك « إنا لنراك في ضلال مبين » رؤية عوراء حمقاء ترى من يدعو إلى الهدى في ضلال مبين ، والواو العاطفة هنا تعطف إلى محذوف معروف في درج الكلام وهو سائر أسباب العُجاب . وهكذا يبلغ المتعرف في الضلال في تبجحه الوقح المرح في انقلاب الموازين والضوابط .

وهذا ما يتقوله ضلال التاريخ منذ بدئه إلى جاهلية القرن العشرين أنهم أنفسهم متقدمون متحضرون على رعاتهم وحيواناتهم اللامحدودة ، ثم المؤمنون متأخرون رجعيون ضالون عن سبيل الحياة الراقية ! .

هذه الجاهلية المتحضرة ! تقول للفتاة التي لا تكشف عن لحمها وعورتها : إنها رجعية ، كما تقول للشباب المؤمن الذي لا يسافد البنات كالحمير : إنه رجعي ، وتقول لمن يترفع إهتماماته عن جنون السكر والأفلام الخلاعية ، وجنون الرقص والحفلات الفارغة، تقول : إنه جامد ميت . فالجاهلية هي الجاهلية مهما اختلفت شكلاتها وظروفها وملابساتها .

وهنا إجابة عن عجابهم الشباب « أوعجبتكم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم » عطفاً على سائر العجاب في مجيء ذكر من ربهم « على رجل منهم » في رجولة البشرية ، أعجبتكم أن الله يهديكم سبيل الرشاد « أوعجبتكم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم » دون اختلاف عنكم في طبيعتها وقضيتها وجواذبها ونوازعها لكي تتم حجة الله عليكم في رسالة من هو « منكم » قطعاً لكافة الأعذار ، وأنساً بالمماثل « لينذركم ولتتقوا

ولعلكم ترحمون : « لينذركم » عن بأس الله هنا وفي الأخرى « ولتتقوا »
عن محارم الله في الأولى « ولعلكم ترحمون » هنا وفي الأخرى ، ولكن لا
حياة لمن تنادي .

« فكذبوه » شر تكذيب ، وبمختلف ألوانه : قالاً وحالاً وأعمالاً
« فأنجيناه والذين معه » في الإيمان مهما كان بعيداً عنه في القرابة « وأغرقنا
الذين كذبوا بآياتنا » عامدين عاندين إذ « إنهم كانوا قوماً عمين » في عمى
وعمه وهم كانوا مستبصرين إذ : « زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن
السبيل وكانوا مستبصرين » (٢٩ : ٣٨) .

وتمضي عجلة التاريخ الرسالي ويمضي معها السياق فلذا نحن أمام

عاد قوم هود :
وَالِى عادِ آخَاهُ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ
غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ
إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٨﴾ قَالَ
يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٩﴾
أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٧٠﴾ أَوْعَجِبْتُمْ
أَنْ جَاءَكُمْ نَذِيرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ
وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ
بَضِيعَةً فَادْكُرُوا الْآيَةَ اللَّهُ لَمَّا لَكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا

اجْتَنَبْنَا الْعِبَادَةَ لَهِ وَحْدَهُ وَنَذَرْنَا مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتَيْنَا
بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَمَا دَوَّعَ عَلَيْكُمْ
مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَيِّمُوا هَـ
أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَى
مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ
مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا

مُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

وترى لماذا هنا « أخاهم هوداً » وفي تالية الآيات « أخاهم صالحاً »
و « أخاهم شعيباً » وفي (٢٦ : ١٦١) « أخوهم لوط » وفي نوح هنا
« قومه » ؟ .

إن الرسل هم كلهم إخوان المرسل إليهم وهم كذلك إخوانهم
وأقوامهم ، فـ « ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » (١٤ : ٤) تحلق
القومية على كل المرسل إليهم ، ثم « إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون »
(٢٦ : ١٠٦) تحلق الأخوة عليهم ، مهما كان التعبير عنهم بـ « قوم » أكثر
بكثير من « أخ » فقد لا نجد التعبير بالأخ عن أولي العزم إلا في نوح ،
وعله لأن قومه كانوا قلة قليلة مجتمعة في قطر واحد معه ، فكان عشيراً لهم
في عشرة وسواها .

وفي صيغة الأخوة عنايات عدة بين نسب وحسب ، فأقرب النسب هو الأخوة النسبية ، وتليها الأخوة الرضاعية ، كما وأقرب الحسب هو الأخوة الإيمانية ، وبينهما مراحل أوسعها الأخوة في الإنسانية ، ثم في التكليف ، ومن ثم في الوطن والعشيرة والعشرة والشغل .

فكل رباط بين أشخاص يعبر عنه بالأخوة ، أغربها الأخوة في أصل الإنسانية وأقربها الأخوة في صالح الإيمان ، ومنها متوسطات .

ثم القوم هم جماعة مرتبطة هي أوسع من خاصة الأخوة ، فلا يعبر عن الأخوة في النسب بالقوم ، وإنما على العشيرة والمواطنين أنساب وغيرهم في متعود التعبير ، وعلى الذين تعنيهم رسالة الله في شرعة التعبير ، فالأخوة - إذاً - هي أعم من القوم ، ولا يعبر بها عن القوم الرسالي إلا إذا كانوا محصورين في قطر خاص كقوم نوح : « إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون » (٢٦ : ١٠٦) .

وعلى أية حال فلا تعني الأخوة هنا أخوة في إيمان ، مهما كان في شركة التكليف أم سواها من مشتركات^(١) والقصد هنا إلى أقربها قرابة ومواطنة أماهيه ، دون أغربها .

وقد يروى عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه « لما حضر نوحاً الوفاة دعى الشيعة فقال لهم : أعلموا أنه سيكون بعدي غيبة يظهر فيها الطواغيت ، وأن الله عز وجل سيفرج عنكم بالقائم من ولدي اسمه « هود » له سمت وسكنة ووقار ، يشبهني في خلقي وخلقي »^(٢) .

(١) نور الثقلين ٢ : ٤٥ عن تفسير العياشي عن يحيى الهمداني عن أبيه جاء رجل من أهل الشام إلى علي بن الحسين (عليه السلام) فقال : أنت علي بن الحسين ؟ قال : نعم ، قال : أبوك الذي قتل المؤمنين ؟ فبكى علي بن الحسين ثم مسح عينيه فقال : ويلك كيف قطعت على أبي أنه قتل المؤمنين ؟ قال : قوله إخواننا قد بغوا علينا فقاتلناهم على بغيرهم فقال : ويلك أما تقرء القرآن ؟ قال : بلى قال فقد قال الله : وإلى مدین أخاهم شعبياً وإلى نمرود أخاهم صالحاً فكانوا إخوانهم في دينهم أو في عسرتهم ، قال له الرجل : لا بل عسرتهم ، قال : فهؤلاء إخوانهم في عسرتهم وليسوا إخوانهم في الدين . قال فرجت عني فرج الله عنك .

(٢) نور الثقلين ٢ : ٤٢ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى علي بن سالم عن أبيه قال قال الصادق جعفر بن محمد (عليهما السلام) : ..

ثم « هود » يذكر في أربع مواضع بثلاث سور، وقومه « عاد » في أربع وعشرين موضعاً و (١٨) سورة ، وصيغة الدعوة هنا وصيغتها هي نفس الصيغة والصيغة لنوح والذين أرسلوا من بعده إلى خاتم المرسلين (صلى الله عليه وآله وسلم) والجواب والإجابة هو نفس الإجابة والجواب ، فالرسل برسالاتهم هم سلسلة موصولة على مدار الزمن كما المرسل إليهم ، وكأنهم في الأكثرية الساحقة تواصلوا في تكذيبهم (عليهم السلام) : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به بل هم قوم طاغون » (٥١ : ٥٣) ثم وقليل هؤلاء « الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة » (٩٠ : ١٧) .

هنالك في نوح « قال الملا من قومه » وهم كل الملا ، وهنا في هود « قال الملا الذين كفروا من قومه » فهم قسم من الملا دون الكل ، ثم هناك في نوح : « إنا لنراك في ضلال مبين » وهنا في هود « إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين » والجواب صيغة واحدة تسلب الضلالة والسفاهة عن ساحة الرسالة القدسية دون إرجاعها إلى هؤلاء الضلال والسفهاء ، حيث الدعوة الصالحة تتطلب تليئاً وجاذبية حتى تجد مسارح لتصديقها ومنافذ إلى تسريتها .

ذلك وعمل فارق التعبير بين مواجهة قوم نوح (عليه السلام) إياه : « إنا لنراك في ضلال مبين » وقوم هود (عليه السلام) بـ « إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين » علّه لأن كل الملا من قوم نوح عارضوه اجتثاثاً لدعوته من أصلها ، وانها « في ضلال مبين » جمعاً بين السفاهة والجنة والكذب ، ولكن قوم هود لم يعارضه منهم إلا « الملا الذين كفروا من قومه » دون كل الملا ، ولذلك خف التعبير هنا عما هناك حيث اكتفى فيه بـ « إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين » .

وعاد هم قوم سكنوا أرض اليمن بالأحقاف وهي الكثبان المرتفعة على حدود اليمن ما بين اليمامة وحضرموت : « وأذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف » (٤٦ : ٢١) وقد يأتي نبأهم الفصل في « الأحقاف » .

وهنا زيادة لهم بذكرى قوم نوح ليذكروا : « وأذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، بما غرقوا فجعلكم خلائف من بعدهم تخلفونهم في هذه

الحياة ليلوكم أيكم أحسن عملاً « وزادكم » عليهم « في الخلق بصطة »
في بساط الأرض حيث أبسطتم ببسطة في « الخلق » في أنفسكم وفي
بساط الأرض إذ رزقكم أكثر منهم وبسطكم أزيد منهم « فاذكروا آلاء الله
لعلكم تفلحون » .

« قالوا أجبنا . . » إستنكاراً لهذه الجيئة الرسالية « فاتنا بما تعدنا »
من بأس الله « إن كنت من الصادقين . قال قد وقع عليكم رجز من ربكم »
هو الكفر والكفران ، كما « فزادتهم رجساً إلى رجسهم » (١٢٥ : ٩) أي
كفرأ إلى كفرهم ، ثم وهو أمر العذاب مهما يستقبل واقعه ، حيث الحكم
بالعذاب وإن قبل العذاب نفسه ، هو رجس على رجس الكفر .

ثم « وغضب » من الله « أنجادلونني في أسماء » ليست لها مسميات
فهذه تسمية فارغة ألا تكون لها مسمى إلا بادعاء خواء بواء ، فالواقع الثابت
ببرهان مفروض وإن لم يسم بإسم ، والمسمى بأي اسم دون واقع
مفروض ، مهما توفرت له أسماء ، حيث التسمية لا تحتاج بمجردا إلى
معونة ، إنما هو المسمى حيث يحتاج لإثباته إلى برهان ، وذلك من
البراهين القاطعة لنكران أمر مدعى لا يملك من البراهين إلا أسماء
تسمى : « أنجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباءكم ما نزل الله بها من
سلطان » حيث الألوهية الفرعية بالنيابة لا سلطان لها إلا ما ينزله الإله
الأصل ، « فانظروا » الرجس والغضب من ربكم « إني معكم من
المتظرين » .

« فانجيناهم والذين معه » في هذه الرسالة « برحمة منا » خاصة
بالرساليين .

« وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا » برجس وغضب « وما كانوا
مؤمنين » آهلين للإيمان بما عاندوا وأصروا وإستكبروا إستكباراً ، وقطع
الدابر هو الإستصال للأصل والنسل حيث ينسل من الصلب الدابر .

ولقد قطع الله دابر عاد بصاعقة تحملها ريح عقيم صرصر عاتية :
« فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . . » (٤٠ :)

(٣١) « وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ما تذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالرميم » (٥١ : ٤٢) - « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية » (٦٩ : ٨) « ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد » (٨٩ : ٨)

وَالْيُثُودَ أَخَاهُ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا

اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءِ فِتْنٍ أَخَذَكُمْ عَذَابُ الْيَمِّ ❶ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخَذُونَ مِنْ سُوءِهَا قُصُورًا وَتَتَخِفُّونَ لِجِبَالِ يُونَا فَادْكُرُوا الْآلَاءَ اللَّهُ وَلَا تُشْرِكُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ❷ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ أَمَّنَ مِنْهُمْ أَنْ تَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ❸ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَاذِبُونَ ❹ فَفَقَرُوا النَّافَةَ

وَعَمَّوْا عَنْ مِرْيَتِهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ أَنتَ بِنَا نَعِدُ نَا أَنْ كُنْتَ
 مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ فَاخَذْنَاهُمُ الرِّجْفَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ
 جَاثِمِينَ ۝ فَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا
 رَبِّي وَنَضَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ۝

تذكر « ثمود » (٢١) مرة في (١٦) سورة ويذكر « صالح » (٩) مرة في أربع سور ، وعاد و ثمود قوما صالح وهود هما من أنحس الكفرة المكذبة بالرسالات بعد قوم نوح ، لم يسبق لهم مثل في التاريخ الرسالي عن بكرته ، ولذلك نرى كرور ذكرهم بذكرياتهم اللعينة في الذكر الحكيم ذكرى لأولي الألباب ، وأخرى لآخرين ليذكروا .

و « ثمود » من الثمد : الماء القليل ، سموا به لقلة ماءهم حيث كانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام وإلى وادي القرى ، وإن أباهم هو : ثمود بن عاد بن أرم بن سام بن نوح (عليه السلام) .

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً . . » وهنا أيضاً صيغة الدعوة وصيغتها والمواجهة من طرفي الرسول والمرسل إليهم ، ذلك المثلث فيها يشبه سائر الدعوات الرسولية ، فهذه هندسة الدعوة الربانية على مدار الزمن الرسالي ، حلقات متشابهة متشابكة ترسم سلسلة واحدة .

وهنا « هذه ناقة الله لكم آية » تذكر كنموذج من نماذج الآيات الربانية تدليلاً على أن الرسل يحملون آيات رسالية بيّنة إضافة إلى أشخاصهم الخصوص فإِنَّهم بأنفسهم بينات ، وكما في مقال رسل المسيح (عليه السلام) للناكرين : « قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » (٣٦ : ١٦) حيث التربية الخاصة الراصة الربانية الباهرة في أقوالهم وأفعالهم ، هي برهان لا مرد له على رسالاتهم الربانية لمن نظر إليهم بعين عقله دون هواه .

ثم « ناقة الله » هي من إضافة آية من الله إليه حيث أخرجها من الجبل ، آية لهم مبصرة لعلهم يؤمنون ، ومن جهة ثانية هي آية في عظم جسمها لأن « لها شرب ولكم شرب يوم معلوم » وليس شرب يوم لماء القرية كله إلا لناقة عظيمة ما أعظمها ؟ .

ومن جهة ثالثة هي آية دائبة معهم ما لم يمسوها بسوء ، يرونها ما دامت وداموا معها ، فهي آية رحمة من هذه الثلاث ، ثم هي آية عذاب إن مسوها بسوء .

هذه ناقة الله وتلك أرض الله وذلك رزق الله « فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء » ضرباً أو جرحاً أم منعاً من شرب أو أكل أم راحة ، وأسوء من كل سوء قتلاً بعقر .

« واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد » حيث أهلكناهم وأخلفناكم بعدهم لننظر كيف تعملون ، « وبوأكم في الأرض » التي تعيشونها خير بواء وإيواء حال أنكم « تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعشوا في الأرض مفسدين » والعنى والعيث هما البالغة في الإفساد ، بفارق أن العنى أكثر ما تستعمل في الفساد المحسوس ، والعيث في غير المحسوس ، و « لا تعشوا » هنا تعني جمع الفسادين، وإنما عبر عنهما بصيغة الفساد المحسوس في الأكثر لأن أكثر المفسدين يفسدون في المحسوس والأقل منهم في غير المحسوس ، قضية أن الثاني بحاجة إلى علم وعقلية بطرق الإفساد فطرياً وعقلياً وشرعياً أما هو ، والأقلون من المفسدين هم الذين يحملون ذلك الإفساد ، فقد جاء التعبير وفقاً للأقل والأكثر ، و « مفسدين » إفساد بعد بالغ الفساد في نوعيه ، فقد تعني « لا تعشوا في الأرض مفسدين » المبالغة في كلا الفسادين البالغة إلى الإفسادين ، وقد جمعوا بينهما ، فعقر الناقة هو من عثاهم ، وتكذيب الرسالة هو من عيئهم ، كما ويذكران بعد النهي عن العنى : « فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ... » .

ولقد كان من حق هذا الاستخلاف وهذه القوة والبصطة الزائدة أن

تستوجب شكر النعمة والحذر من البطر واتقاء مصير الغابرين ، ولكن لا حياة لمن تنادي ! .

وهنا من مكائد المكذبين استجوابهم المؤمنين بصالح، باستكبار واستنكار تهديداً وتخويفاً : « أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه » وهم على إستضعافهم يجيبونهم بكل هدوء وجراءة إذ سكب الإيمان بالله قوة في قلوبهم وثقة في نفوسهم واطمئناناً في منطقتهم فلا يخافون إلا الله : « قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون » ثم هم أولاء : « إنا بالذي آمتم به كافرون » وكان كفرهم سنداً لكذب الرسالة ، متبع بين المستضعفين ، ومن خلفيات إستكبارهم أمام صالح والمؤمنين تضييفاً لمساعد الإيمان ومساعدته « فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم » فعقر الناقة وهو الإستئصال في العمق حيث لا يبقى على أثر إمحاء للناقة عن بكرتها - إنه عقروا - بزعمهم - لآية ربانية ، فإذا زالت فقد زال كيان الرسالة بواجب إتباعها فـ « عثوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح أئتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين » إستئصالاً لرسالته باستئصال وعده بزعمهم فاستأصلوا هم بذلك الإستكبار الإستدبار « فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين » : ساقطين على وجوههم ورؤسهم بكل الوجوه ، خامدين خاملين لا حراك لهم ، فإن أصل الجثم هو السكون والخمود ، فقد خمدت نيرانهم وسكنت حركاتهم .

وقد يتبين من « للذين استضعفوا لمن آمن منهم » أن لم يؤمن من مستكبريهم أحد ، وإنما آمن البعض من مستضعفيهم ، وكما هو طبيعة الحال في كافة الرسالات الإلهية أن المؤمنين هم من المستضعفين حيث يرونها تكفل حقوقهم وتظل عليهم ظلالها .

ذلك ولم يعقر الناقة إلا واحداً حيث « كذبت ثمود بطغواها . إذ انبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها . فكذبوه وعقروها . فلمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها . ولا يخاف عقباها » (٩١ : ٥) وقد نسب عقروها إلى جمع الكافرين حيث شاركوه في البعث والتصميم هي الصميم . وقد يجمع في هذه النسبة بين الذين بعثوا أشقاها ، والذين

رضوا أم لم ينهوه وبين الذي عقرها ، وكما في قصة السبت حيث « أنجيننا الذين ينهون عن السوء » (٧ : ١٦٥) فبقي الباقيون تحت وطأة العذاب ، سواء الذين نهوا الناهين عن السوء أو الذين تركوا النهي عن السوء ، مهما كانت عذاباتهم مختلفة .

ولقد قرر لهم ولها شرب عادل حيث كان ماءهم : « ثمود » : قليلاً : « قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم . ولا تمسوها بسوء فإخذكم عذاب يوم عظيم . فعقروها فأصبحوا نادمين . فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين » (٢٦ : ١٥٨) .

ذلك « .. فأصبحوا في دارهم جاثمين . فتولى عنهم » بعد جثومهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين » .

وتراه كيف خاطبهم وهم جثوم ؟ خاطبهم حيث يسمعون بعد موتهم وذلك لهم تحسر بالغ ، وكما خاطب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قتلى بدر فقليل تتكلم مع هؤلاء الجيف ؟ فقال : ما أنتم بأسمع منهم ولكنهم لا يقدرون على الجواب .

أم وخاطبهم وهم على أشراف جثومهم ، وقد تشهد له « ولكن لا تحبون الناصحين » ولكن الكافر يموت على خصائله ، فكما كان قبل موته لا يحب الناصحين كذلك بعد موته مهما تطلب الرجوع لكي يعمل صالحاً غير الذي كان يعمل ، فإنه كاذب على أية حال . في كل حل وترحال . ذلك ، وحب الناصحين دليل على استقامة الفطرة وسلامة السبحية مهما كان صاحبها ضالاً ولماً يجد هادياً يهديه .

لقد « أخذهم الرجفة » و « الطاغية » و « الصيحة » حسب مثلث التعبير في آيات ثلاث ، والجمع هو أن هذه « الصيحة » كانت « طاغية » لحد خلفت « الرجفة » المدمرة المزمجرة وكما يروى « فلما كان نصف الليل أتاهم جبرئيل (عليه السلام) فصرخ عليهم صرخة خرقت تلك الصرخة أسماعهم وفلقت قلوبهم وصدعت أكبادهم وقد كانوا في تلك

الثلاثة الأيام قد تحنطوا وتكفنوا وعلموا أن العذاب نازل بهم فماتوا أجمعين في طرفة عين صغيرهم وكبيرهم فلم يبق لهم ثاغية ولا راغية ولا شيء إلا أهلكه الله فأصبحوا في دارهم جاثمين ، ثم أرسل الله عليهم مع الصيحة النار من السماء فأحرقتهم أجمعين « (١) .

وَلَوْ طَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا
مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً
مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ
جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ
أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَانْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ
مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

﴿ ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ (٨٠) إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون (٨١) وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون (٨٢) فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين (٨٣) وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين (٨٤) ﴿

(١) نور الثقلين ٢ : ٤٩ في روضة الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) حديث طويل يذكر فيه قوم صالح كما سيأتي تفصيله في تفسير سورة هود ، يقول في آخره : فلما كان ..

يأتي « لوط » في (٣٧) موضعاً في (١٤) سورة ، وهنا إجمال عن دعوته بمحورها السلبي : « أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين » مما يدل على أن هذه النكوى لم يسبق لها نظير في زمن أي بشير ونذير أن تصبح عادة متجاهرة متعمدة كما الزواج ، في غابر الجاهليات والهمجيات ، اللهم إلا في جاهلية القرن العشرين حيث تمضي كمادة قانون في البرلمان البريطاني ! .

ذلك المراس لفاحشة اللواط بكل حراس واكتراس ، المنقطع النظير في تاريخ الإنسان ، مما جعل محور التنديد في هذه الرسالة الفرعية استنكاراً لها وحواراً متواصلاً بشأنها كما نجدهما بطيات آياتها .

وهنا « بل أنتم قوم مسرفون » يعني الإسراف الذي ينددهم به لوط في اللواط ، تجاوزاً حد الفاحشة إلى ما لا حد لها ، حيث يريقون الشهوة ويبعثونها في غير موضع الإخصاب ^(١) ، فهي مجرد شهوة شاذة متخلفة ،

(١) لقد فصلنا القول حول حرمة إتيان النساء من أدبارهن على ضوء قوله تعالى : « نساءكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » (٢٢٣: ٢) وهذا هو الذي أمركم الله سبحانه لأنه بعد حظر حيث وعد قبلها : « فأتوهن من حيث أمركم الله » (٢٢٢) وأوردنا متواتر الأثر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن المأثية من دبرها هي اللوطية الصغرى ، ومما ورد في ذلك ما في الدر المنثور ٣ : ١٠٠ - أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن علي (عليه السلام) أنه قال على المنبر : سلوني ، فقال ابن الكوا : تؤتى النساء في أعجازهن ؟ فقال علي (عليه السلام) : سفلت سفل الله بك ألم تسمع إله قوله « أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين » . ورواه عنه (عليه السلام) في تفسير العياشي عن يزيد بن ثابت ، أقول : فاحشة إتيان الرجال من أدبارهم لا تعني إلا الإفراغ في غير موضع الإخصاب ، فهي محرمة في النساء كما في الرجال مهما اختلفت دركات الفحشاء فيها ، وهكذا المساحقة لأنها عملية غير مخصصة وكما أخرجه في الدر المنثور عن أبي حمزة قالت قلت لمحمد بن علي (عليهما السلام) : عذب الله نساء قوم لوط بعمل رجالهم ؟ قال : الله أعدل من ذلك استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء ، أقول : وهكذا العادة السرية فإنها في غير إخصاب ، ولا ينافي في ذلك حل ملاعبة النساء حين تمنى لأنها في طريق إتيانهن ، كما وأن الإفراغ منهن ما لم يكن لغرض انقطاع النسل مسموح حيث الباب باب الإخصاب وليس يجب الإخصاب من يابه على الدوام ، =

غريبة عن الفطرة الإنسانية بل والحيوانية .

تلك جاهلية في القرون الغابرة ، وإذا نحن بجاهلية القرن العشرين في أوروبا وأمريكا حيث ينتشر فيهما وما أشبه ذلك الانحراف الإنجراف الجنسي الشاذ انتشاراً فريعاً دون أي مبرر إلا الإباحية الطليقة المطبقة .

= إنما المنعرق انقطاع النسل كما في عيون الأخبار في باب ما كتب به الرضا (عليه السلام) إلى محمد بن سنان وعلة تحريم الذكران للذكرا والإناث للإناث لما ركب في الإناث وما طبع عليه الذكران ، ولما في إتيان الذكران الذكران والإناث الإناث من انقطاع النسل وفساد التدبير وخراب الدنيا .

وفي الدر المنثور حول حرمة اللواط عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : إن من أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط ، وعن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : أربعة يصبحتون في غضب الله ويمسون في سخط الله قيل من هم يا رسول الله ؟ قال : المتشبهون من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال والذي يأتي البهيمة والذي يأتي الرجل .

وفيه عن ابن عباس أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به وعن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : لعن الله سبعة من خلقه فوق سبع سماوات فردد لعنته على واحدة منها ثلاثاً ولعن بعد كل واحدة لعنة لعنة ، قال : ملعون ملعون ملعون من عمل عمل قوم لوط ملعون من أتى شيئاً من البهائم ملعون من جمع بين امرأة وابنتها ملعون من عقى والدته ملعون من ذبح لغير الله ملعون من غير حدود الله ملعون من تولى غير مواله ، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : من عمل عمل قوم لوط فارجموا الفاعل والمفعول به ، وعن عائشة أنها رأت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حزينا فقالت يا رسول الله وما الذي يحزنك ؟ قال : شيء تخوفته على أمتي أن يعملوا بهدي عمل قوم لوط .

ومن الجاهليات المتحضرة التي تبيح ذلك الشذوذ الجنسي هي دعوى عريضة توجهها الصهيونية العالمية : أن إحتجاب المرأة هو الذي ينشره ؟ ولكن شهادة الواقع تعكس الأمر أن خلاعة النساء وتعريضهن مما يشجع على ذلك الشذوذ ، ففي أوروبا وأمريكا لم يبق ضابط واحد للإختلاط الجنسي الطليق بين الجنسين ، يتسافدون كما تسافد البهائم وليس هناك أحد يقول لأحد مه مه .

ثم نرى أن فاحشة اللواط يرتفع معدلها بارتفاع معدل فاحشة الزنا بحرية الجنسين الطليقة ، لحد تجاوزت إلى حرية الإكتفاء لكل جنس بجنسه ، ذكر مع ذكر وأنثى مع أنثى ، بل ومع الحيوان أيضاً ، ومن أراد واسع الإطلاع على تلك الحرية البشعة فليقرأ « السلوك الجنسي عند الرجال » و « السلوك الجنسي عند النساء » في تقرير « كتنزى » الأمريكي .

ذلك ، ولكن الأجهزة الدعائية المضللة لا تزال تردّد هذه الأكذوبة : أن العادة السرية واللواط وما أشبه مسنودة إلى حجاب المرأة ، لتؤدي ما تريده بروتوكولات صهيون ووصايا مؤتمرات للمبشرين من دور دائر مائر للبربرية الجنسية دون حدود .

« وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون » وهنا يصبح التطهر سبباً لإخراج المتطهرين من قريبتهم حتى يخلو جوها للملوئين الدنسين ، وذلك منطلق الجاهلية في كل حين ، من الجاهلية الغابرة إلى جاهلية القرن العشرين، حيث تطارد المتطهرين كيلا تراههم يخالفونهم في انغماسهم وانطماشهم في خضم الشهوات والمنكرات ، ليتم الجوى يطم ما هو يطلبونه من المستنقعات العفنة .

« فأنجيناه وأهله » من هذه القرية القذرة « إلا إمرأته كانت من الغابرين » القذرين ثم « وأمطرنا عليهم مطراً » من العذاب التباب « فأنظر كيف كان عاقبة المجرمين » الذين أجرموا ثمرات الحياة وقطعوها قبل

إيناعها فأفسدوها عن بكرتها ، وهنا تطوى صفحة أخرى من صحائف
المكذبين المجرمين ، جزاء لهم وفاقاً وتبصرة للمتبصرين ، ثم :

وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ

اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّنْ

رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ

وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن

كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ

وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَبِعُوهَا عَوجًا وَادْكُرُوا

إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثُرُوا كَذَلِكَ يُرَىٰ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٧﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِى رُسِلْتُ

بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا

وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٨﴾ قَالُوا الْمَلَأَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ

لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ

لَعُودُنَا فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٤٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا
عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ ذِجْنَانَا اللَّهُ مِنْهَا
وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا
وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْضَحْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٤٩﴾
وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِبَنَاتِنَا أَتَعْتَمُنَّ شُعْبًا إِيَّاكُمْ
إِنَّا لَخَائِرُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَخَذَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ
جَاثِمِينَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعْبًا كَانُوا لَا يَفْقَهُوا فِيهَا
الَّذِينَ كَذَبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَائِرِينَ ﴿٥٢﴾ فَوَلَّى عَنْهُمْ
وَقَالَ يَا قَوْمِ لَعْنَةُ اللَّهِ لَالَّذِينَ بَلَّغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَنَهَيْتُ لَكُمْ
فَكَفَيْتُمْ سُلَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَوْمِ مِثْلِهِ
إِلَّا أَخَذْنَا مَثَلَهُم بِالْبَنَاتِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَعُونَ ﴿٥٤﴾
ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ

آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
 ٨٦ وَلَوْ أَنَّا هَلَّلْنَا لِقُرَيْشٍ أَمْوَالَهُمْ وَالْفَحْشَاءَ عَلَيْهِمْ بِرَكَاتٍ
 مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا
 يَكْسِبُونَ ٨٧ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَيْمِ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا
 وَهُمْ نَائِمُونَ ٨٨ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَيْمِ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا نَهْمًا
 وَهُمْ يُلْعَبُونَ ٨٩ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ
 إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ٩٠ وَلَقَدْ يَهْدِي لِلَّذِينَ يَرْتُّونَ الْأَرْضَ
 مِنْ بَعْدِهَا لَهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَأْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى
 قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٩١ يَلَاكُ الْقُرَيْمُ نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ
 أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا
 لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ
 الْكَافِرِينَ ٩٢ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ
 عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ٩٣

هنا آيات تسع تتحدث عن رسالة شعيب وما واجهه به قومه وما نقم الله به منهم « فكيف آسى على قوم كافرين » .

يذكر شعيب في إحدى عشر آية بست سور ، وهنا تفصيل أكثر وبيان أوفر لرسالته ببيعته وملابساته ، وشعيب هذا من الرسل الإبراهيميين وقد زوج إحدى إبنته موسى (عليه السلام) حيث فر إلى مدين وبقي معه عشر سنين ثم « جثت على قدر يا موسى » .

والرسالة الشعبية كانت محصورة في مدين وهي قرية صغيرة يروي أنها « لا تكمل أربعين بيتاً » ^(١) . ولكنها قد تنافي « واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم » (٨٧) حيث الأربعين ليست كثيرة لأهل قرية ، اللهم إلا أن تعني « البيت » القبيلة التي قد تكون من مآت الأفراد .

ثم في أصحاب الأيكة : « كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله واطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين . وزنوا بالقسطاس المستقيم . ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين . واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين . قالوا إنما أنت من المسحورين . وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين . قال ربي أعلم بما تعملون . فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم . إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين » (٢٦ : ١٧٦ - ١٩٠) .

(١) نور الثقلين ٢ : ٥١ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى محمد بن الفضيل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر (عليهما السلام) حديث طويل يقول في آخره : وإن الأنبياء بعثوا خاصة وعامة ، أما شعيب فإنه أرسل إلى مدين وهي لا تكمل أربعين بيتاً .

رسالة محصورة في هذين ، محصورة عن سائر القوى ، إذ لم تكن تحمل ولاية عزم تحلق على كل القرى .

ذلك ولقد بلغ من بالغ دعوته في رسالته أن يقول فيه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : « ذاك خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه فيما يرادهم به .. » (١) .

وهنا بين القريتين مشاركات في دعوته الرسولية هي : الدعوة إلى عبادة الله وحده، وإيفاء الكيل والميزان، وترك الإخسار والبخس والفساد في الأرض ، ثم ومفارقات هي هنا : القعود بكل صراط إيعاداً ، والصد عن سبيل الله ، وهناك الأمر بتقوى الله وطاعته ، وعدم سؤال أجر على رسالته .

فقد كانت مهمة رسالته هنا وهناك الدعوة إلى توحيد الله ، وترك الإفساد إقتصادياً ، وترك الإفساد في الأرض في كل أبعاده، وهنا إضافة النهي عن القعود بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله ، مما يدل على أن القريتين كانتا مشتركتين في الفساد العقيدي والإقتصادي ، مهما اختلفنا في بنود أخرى من التخلقات عن شرعة الله .

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم فآوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس

(١) الدر المنثور ٣ : ١٠٣ - أخرج ابن أبي حاتم والحاكم عن ابن إسحاق قال : ذكر لي يعقوب بن أبي سلمة أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان إذا ذكر شعيباً قال : ذاك .. فلما كذبه وتوعده بالرجم والنفي من بلاده وعثوا على الله أخذهم عذاب يوم الظلة فبلغني أن رجلاً من أهل مدين يقال له عمرو بن حلهاء لما رآها قال :

يا قوم ان شعيباً مرسل فذروا
عنكم سميراً وعمران بن شداد
إنني أرى عينه يا قوم قد طلعت
تدعوبصوت على صمانة البواد
وانه لا يروى فيه ضحى غد
إلا الرقيم يمشي بين أنجاد
وسمير وعمران كاهنهم والرقيم كلهم .

أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴿٨٥﴾ .

« أخاهم شعبياً » مواطنة أم وقراطية ، وهذه الدعوة الرسولية هي كسائر الدعوات بازغة بالتوحيد بنفس الصبغة والصبغة السائغة ، القاعدة التي يعلم أن منها تنبثق كل مناهج الحياة وكل أوضاعها ، كما أن منها تنبثق كل قواعد السلوك والخلق والتعامل ، فلا تستقيم الحياة بحذافيرها إلا بقاعدة وحيدة غير وهيدة هي قاعدة التوحيد الحق بحق التوحيد .

وترى « قد جاءكم بينة من ربكم » هي بينة الفطرة والعقلية السليمة على توحيد الله ؟ وهي ليست بينات كافية لولا أن تزود بينات رسالية .

ثم « فأوفوا الكيل . . » تفريعاً عليها تؤكد أنها بينة لهذه الرسالة الشعبية ، حيث إن أصل التوحيد وما أشبه من أصول الدين ليست قضيتها المستقيمة اللازمة تقبل الفروع ! .

فقد يتبين من ملاسبات « بينة من ربكم » هذه، أنها بينة خاصة لهذه الرسالة، مهما أجمل عن نوعيتها ، كما ولم يتبين من آيات أخرى بشأن شعيب ما هي نوعية بينته الرسولية، وهنا البينة الحاضرة هي الرسالة اللامحة من شعيب نفسه وكما قال رسل المسيح (عليه السلام) : « ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » (٣٦ : ١٦) حيث الرسالة الربانية ظاهرة فيهم ، باهرة في أقوالهم وأحوالهم وأفعالهم .

ولأنهم كانوا متورطين في إفساد إقتصادي وآخر عقيدي بحذافيره ، لذلك فرع الأمر بإيفاء الكيل والمناهي اللاحقة له بـ « قد جاءكم بينة من ربكم » .

فقد كانوا يطففون في المكيال والميزان ويبخسون الناس أشياءهم ويفسدون في الأرض بعد إصلاحها ، فركز التنديد - بعد الدعوة إلى التوحيد - على ذلك الثالث السالوس .

وهنا « أشياءهم » المحلقة على كل أشياءهم ، دون « أموالهم » -

فقط - تلمح أنهم كانوا يبخسون الناس وينقصون كل أشياءهم وهي النواميس الخمس نفساً وعقلاً وديناً ومالاً وعرضاً، وكما يفسره النصان التاليان : « ولا تقعدوا .. وتصدون .. » .

وأما « ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين » فهل يعني حاضِر الإيمان كما تلمح له « إن كنتم مؤمنين » ؟ وهم لَمَّا يؤمنوا كلهم كما هو صُراح تالية الآيات ! أم يعني من آمن منهم ؟ ولا يختص التكليف بخيريته بهم ! .

قد يعني الإيمان هنا جعل أنفسهم في أمن من زعزعات تطفيف المكيال وبخس الأشياء والإفساد في الأرض ، فإن حياة الأمن مما يهواه كل الأحياء مؤمنين رسميين أم كافرين، أم وتعني « إن كنتم مؤمنين » بأصل الألوهية مهما كان بإشراك ، حيث الإيمان بالله مهما كان بإشراك، من قضاياه إتباعه فيما يرجع إلى أمن الحياة ورغد العيش .

أجل « فأوفوا الكيل والميزان .. » إنما يوفى حقه بحاضِر الإيمان الموحد بالله وبرسالاته ، فلأن الخطاب هنا يعم أهل مدين كلهم ، وفيهم من آمن رسمياً وفيهم من كفر ، فقد تعني « إن كنتم مؤمنين » لكل حسب إيمانه ، وهو لأقل تقدير لغوية الإيمان الطليق أن يؤمنوا أنفسهم من زعزعات الحياة فيأمنوا .

﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن وتبغونها عوجاً واذكروا إذ كنتم قليلاً فكشركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ (٨٦) .

« كل صراط » هنا تشمل كل جادة جادة ، ظاهرة وباطنية ، فصراط الفطرة والعقلية السليمة وصراط الشرعة الربانية ، أم صراط العبور للناس إلى حوائجهم، وكل صراط إلى الحيوية الإنسانية والإيمانية ، كلها معنية من « كل صراط » حيث « توعدون » سالكيها إيعاداً ، ومنه الصراط إلى شعيب بدعوته ، ومن جراء ذلك الإيعاد الإيعاد « وتصدون عن سبيل الله من آمن وتبغونها عوجاً » بغي القصد وبغي الظلم ، أن تسلكوها وتسلكوا إياها عوجاً ، أم تتخذوها عوجاً لكم ولمن يسلكونها « واذكروا » أنتم البغاة

الطغاة « إذ كنتم قليلاً » في عدة وعدة تُتخطفون « فكثركم » ربكم فأصبحتم تُتخطفون ، فبدلتم نعمة الله نعمة وكفراً وأحللتم أنفسكم وقومكم دار البوار . جهنم تصلونها وبش القرار « وانظروا » أنتم ولينظر غيركم « كيف كان عاقبة المفسدين » في الأرض ، فاعتبروا بالمفسدين قبلكم كقوم نوح وعاد وثمود : « وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين . وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستبكروا في الأرض وما كانوا سابقين . فكلأ أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٢٩ : ٣٨ - ٤٠) - « أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم » (٣٢ : ٢٦) . . . فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم » (٤٦ : ٢٥) « فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً » (٢٨ : ٥٨) .

﴿ وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾ (٨٧) .

وهنا « طائفة لم يؤمنوا » وهم الملأ المستكبرون ، قد حسبوا أنفسهم سادة وقادة ، فخيّل إلى المؤمنين ما يخرجهم عن الإصطبار أمامهم ، فأمرُوا وإياهم بالصبر ، صبراً للذين آمنوا لكي يروا وعد الله ، وصبراً للذين لم يؤمنوا حتى يروا وعيده « حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » حكماً هنا وآخر في الأخرى ، ولكن الطغاة ما صبروا حتى قالوا قولتهم وغالوا غولتهم الهاتكة الفاتكة :

﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أو لو كنا كارهين ﴾ (٨٨) .

لقد دعاهم شعيب إلى أفضل خطة وأعد لها وهي آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة ، وهي نقطة الإنتظار لعاقبة الكفر والإيمان هنا قبل الأخرى ، تريثاً وتعايشاً بغير ما أذى وترك كل لحاله وقاله حتى يأتي مآله ،

ولكن الطواغيت لا يُرضيهم إلا إستئصال الإيمان والمؤمنين حيث يهددون سلطانهم ، ويحددون شهواتهم ، إذاً فليخرجوا سراعاً .

وترى « لتعودن في ملتنا » تعني أنهم كلهم كانوا في ملة الإشراك بحذافيره ومخلفاته البئيسة ؟ والأنبياء بريثون من الإشراك أيا كانوا وأيان ! .

« ملتنا » إن عنت ملة الإشراك فذلك تخيل منهم أنهم كانوا في ملتهم إذ كان شعيب في تقية لا يُظهر إيمانه ، ثم جاراهم في ذلك التخيل بـ « إن عدنا في ملتكم » ، ولكن القرآن البيان يحيد عن تلك المجارات دون تأشير إلى باطل ظنهم ، حيث تخيل أن شعيباً كان في ملتهم كالسذين آمنوا معه ! .

أم هو حقيقة وتعني « لتعودن » عود المجموع لا الجميع حيث كان شعيب داخل جمعهم ، فـ « تعودن » تعني ذلك المجموع وإن ظل شعيب على إيمانه الذي كان حيث اليد الواحدة لا تصفق ، وهذا إستعمال متعود أن ينسب فعل البعض أو تركهم إلى المجموعة ، فضلاً عن يكون الفاعل أو التارك كلهم إلا واحداً منهم ، إذا فـ « أو لتعودن » صادق تماماً في عود الجميع إلا واحد هو شعيب ، إذ ليست هنا صيغة تستغرق الكل دونما إستثناء ، وإنما صيغة الجمع « أو لتعودن » ويكفيه عود جماعة ودون النصف منهم فضلاً عن الكل إلا واحد منهم .

ولكن يبقى سؤال أن « لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك » نص على دخول شعيب في ملتهم حيث « لتعودن » تعنيه معهم لذلك النص ؟ بل وشعيب نفسه هو رأس الزاوية في « لتعودن » لاختصاصه بالذكر قبلهم .

أم تعني الملة السلطة الزمنية إذ هم خرجوا عنها بسلطان التوحيد الجاهر بعد تقاة ، وهؤلاء يتطلبون منهم العود في تلك السلطة مهما ظلوا مؤمنين أم رجعوا - إلا شعيب - كافرين .

وعلى أية حال فلا نص هنا ولا ظاهر أو لمحة أن شعيباً كان في ملة الإشراك قبل رسالته ، ومجرد الإحتمال الصالح حيث تحتمله الآية ، كافٍ

في تنجزه، حيث الاصطفاء والإجتباء بحق الرسل ، المذكوران لهم في القرآن ، إنه برهان صارم لا مردُّ له ، أنهم يصطفون من جموع الموحدين ، فسابقة الإشراف لهم تناحر واصطفاءهم .

إذا فـ « لتعودن » لا تعود بمزرعة على شعيب ما دام احتمال عناية السلطة الزمنية من « ملتنا » قائمة ، أم والملة الروحية يعود الذين آمنوا معه فيها دونه (عليه السلام) أم وعوده فيها مجارةً لتخيل أنه كان فيها ، ثم وليس القرآن ساكتاً عن تزيف ذلك التخيل الزائف الهارف الخارف ، لمكان عساكر الآيات الدالات على سابقة الرسل السابقة بخالص الإيمان .

فالمرفوض - إذا - بين المحتملات في « لتعودن » أنه (عليه السلام) كان في ملة الإشراف فيطلب منه العود فيها حتى لا يُخرجن ، وتبقى سائر المحتملات قائمة على سوقها ، وكلها صالحة للعناية .

فـ « لتعودن في ملتنا » الزمنية تقيّة ، لا تمس من كرامة إيمانه من ذي قبل .

وكذلك « في ملتنا » زعماً منهم أنه كان مشركاً كما هم إذ كان في تقيّة من دينه ، والجو الرسولي في القرآن بيان لمحتد الرسل قبل ابتعائهم أنهم مصطفون ، فهو نقض لهذه التخييلة القاحلة .

وهكذا « في ملتنا » واقعاً حيث يستثنى شعيب نفسه عن المخاطبين بـ « لتعودن » فانه جمع يتحمل الاستثناء ، مهما لم يتحمّله « يا شعيب والذين آمنوا معك » فإن شعيباً مستثنى بمحتد الرسالة المعنية بالقرآن عن أن يكون قبلها في ملة الإشراف .

ذلك ، وذلك التطلب البعيد القاحل لم يكن ليختص بقوم شعيب ، بل : « وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد » (١٤ : ١٤) (١) .

« قال أولو كنا كارهين » فأنتم تكرهوننا على العود في تلك الملة
المشركة زمنياً أم روحياً أم فيهما معاً .

و « لو » هنا مُجارات تعني حتى على فرض استحالة كراهيتنا للعود
في ملتكم رغم زعمكم ، فلتفرضوا أننا لا نكرهه فتفرضوا علينا تلك
العودة ، ولكن ماذا إذا كنا كارهين كراهية بساطع البرهان ، فقاطع
الإيمان ، فـ « لو » هنا تنديد بحتمية ذلك العود .

فالحمل على العود في ملة غير مرضية إسقاطاً لحرية الانتخاب ،
الحرية لكل إنسان ، إنه حمل يخالف الفطرة والعقلية والخيرة الإنسانية .

فلو أنكم حملتمونا على ذلك العود ببرهان يقنع لكنا عاقلين ، ففي
عودنا دون أي برهان ، وهناك ساطع البراهين تمنعنا عنه ، إن فيه إفتراءً
على الله ، حيث القضية الرسالية وعلى هامشها القضية الإيمانية إن ذلك
العود إنما هو بأمر الله :

﴿ قد أفترينا على الله كذباً أن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها
وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علماً
على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير
الفتاحين ﴾ (٨٩) .

فهذه فرية وقحة على الله « إن عدنا في ملتكم » على إيماننا ، فإن
صفة الإيمان - الصالح غير الكالح - وصفته ، تمنعان عن العود إلى
اللاإيمان ، فكما أن حالات الإيمان وحالاته وفعالاته هي من قضايا
الإيمان ، فعودنا إلى ملتكم - إذاً - هو أيضاً من قضايا الإيمان وذلك إفتراءً
على الله أنه يأمرنا بذلك العود « بعد إذ نجانا الله منها » فقد نجانا من ملة
الإشراك زمنياً وروحياً فكيف نعود - إذاً - فيها « وما يكون لنا » بصفة الإيمان

« أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا » لكي يكون العود أيضاً بصفة الإيمان ، على ضوء مشيئة الله ، فهذا نحن مستسلمون لله خروجاً أم عوداً .

صحيح أن الله لا يشاء ولن . أن نعود فيها ، ولكن مشيئته الطليقة بعد حاكمية حكيمة ، فلو شاء لنا الإشراك لأشركنا بأمره وهو - إذاً - من التوحيد ، كما شاء لنا التوحيد فوحدناه بأمره ، فنحن على أية حال تحت أمره وإمرته ورهن إشارته ومشيئته قضية كامل الإيمان وشامله .

وذلك أدب ولي الله مع الله أنه لا يمشي على هواه وإن كانت في عدم العودة إلى ملة الإشراك ، فلذلك يستثني عدم عودته إليها بمشيئة الله ! فلأن قضية الإيمان الصادق بالله ومشيئة الله هي التوحيد لله وعدم الانخراط في سلك المشركين بالله « فما يكون لنا أن نعود فيها » اللهم « إلا أن يشاء الله ربنا » أن نعود فيها ، فالعودة - إذاً - هي قضية الإيمان بالله ، وهي من توحيد الله في طاعته وعبادته ، كما الخروج عنها قضية الإيمان ، وقضية التسليم السليم لله أن نأتمر بأمر الله خروجاً وعوداً دونما وقفة لنفكر ما هو المغزى هنا وهناك ، فإنه - إذاً - عبادة العقلية والمصلحية ، دون خالص العبودية لله .

أجل وذلك هو رسم العبودية الوحيدة غير الوهيدة ألا يمنع العبد أي مانع منها مهما كان قاطعاً لا جَوْل عنه ، ومن أمثاله الأمثال قصة إبراهيم في ذبح إسماعيل ، حيث البراهين كلها معسكرة على حرمة ، ولكن أمر الله تعالى يغضي كلها ، بارزاً وحيداً في الميدان .

ففيما تعلم مصلحة في أمر من الله أو نهى فالطاعة سهلة ، وفيما لا تعلم مصلحة ولا مفسدة ، فهي صعبة ، وأما فيما تكرر الآيات آفاقية وأنفسية أن فيه مفسدة ولكن الله يأمرك به دون ريبه ، فالطاعة صعبة ملتوية ، وهنالك البلية العظيمة التي ، الساقطون فيها كثير ، والناجحون قليل قليل . وهنا الجمع بين اسمي الله : « الله ربنا » للتدليل على أن قضية ربوبيته الشاملة التسليم له كما يشاء ، ولو شاء الإشراك أم أياً كان من ملة من الملل ، أو نحلة من النحل .

فألوهيته تقتضي توحيده ، كما هو قضية ربوبيته ، فهو الواحد إلهاً وهو الواحد رباً ، فلو شاء أن نشرك به وهو الواحد في ربوبيته ، أو أن ندخل في ملة الإشراك زمنياً تقيّة أماهيمه من مبرر ، لكننا داخلين قضية التسليم الطليق لله ربنا .

فنحن المجاهيل و «وسع ربنا كل شيء علماً» فلو يعلم أن في العود في ملتكم خيراً فأمرنا به لعدنا ، ولكنه لا يعلم فيه خيراً إذ ليس فيه إلّا شر: «قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات والأرض» (٤٩ : ١٦) «وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبثونه بما لا يعلم في الأرض» (١٣ : ٣٣) - «قل أتنبثون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون» (١٠ : ١٨) . وعدم علمه بشيء يوازي عدم ذلك الشيء .

ولأن الله لا يشاء أن نعود في ملتكم ولن ، فنحن إذا صامدون في توحيده وفي الابتعاد عن ملتكم روحياً وزمنياً، فلن ندخل - إذاً - في ملتكم أبداً .

وحين تهددوننا بإخراجنا من قريبتكم - كأنها هي قريبتكم دوننا - فليست العقيدة الصالحة تتلم وتتلثم أو تنزعزع أمام أي تهديد ووعيد فد «على الله توكلنا» لا سواه ، وإليه انقطعنا لا سواه «ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين» .

ذلك ، ونفس العود في ملة الإشراك هو إفتراء على الله ، كان لا خير في ملة التوحيد قضية طبيعة الحال في التحيز بين الملتين ، فإختيار ملة الإشراك على ملة التوحيد .

فهاتان - إذاً - فريتان على الله ، إحداهما قضية الإيمان ، وكأنه يأمرنا بتلك العودة، وأخرهما قضية التحيز المجرد عن الإيمان والإشراك مهما كان حالة الإيمان .

أجل ، وإن تكاليف الخروج عن ملة الطاغوت - مهما عظمت

وشقت - هي أقل وأهون من تكاليف الدخول في ملته .

فالدخول في حكم الطاغوت خروج عن نوااميس الإنسانية كلها حيث يذبح أتباعه على مذبح هواه ، ويقيم من جماجمهم وأشلاءهم أعلام المجد لذاته ومُناه ، ثم يكلفهم عقولهم وعقائدهم وأموالهم وأعراضهم - بإعراضهم عن الله - لحد لا يملك والد ما ولده ، ولا فتاته عن الدعارات ومائر العارات ، وكل ما يملك بخطواته عن حركاته الصالحة كلها .

ذلك ، وإلى إجابة نكدة من هؤلاء الأنكاد ، لا تحمل إلا تهديداً خاوياً :

﴿ وقال الملا الذين كفروا من قومهم لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون ﴾ (٩٠) .

وهذه دعاية مستكبرة لعينة ضد الرسالة الشعبية تهدد أتباعه بالخسران دون بيان أنه ما هي ماهية هذا الخسران ، ليذهب بال المؤمن أي مذهب من ألوان الخسران : ديناً ونفساً ومالاً وعقلاً وعرضاً وأرضاً أما هو من خسران يتعد عنه أي إنسان ، ولكن الإيمان الصامد كان قد أخذ موضعه من شغاف قلوبهم فلا يقبلهم عنه أي كان ، ثم كان عاقبة هؤلاء الأنكاد :

﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ (٩١) .

دون جراك حيث خمدت نيرانهم وجمدت ثيرانهم وغيرانهم ، ف :

﴿ الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ﴾ (٩٢) .

لقد أرادوا إخراج شعيب والذين آمنوا معه بكل إحراج ، فأخرجهم الله من حياتهم وقريتهم « كأن لم يغنوا فيها » : فلم يعمرُوا هذه الدار ولم يطل مقامهم فيها (١) ، وكان لم يكن لهم فيها آثار ، حيث أخذتهم الرجفة بعمارهم وآثارهم مع أنفسهم البئسة التعيسة ، فلقد انطوت

(١) غنى في مكان : إذا طال مكوثه فيه مستغنياً به عن غيره مكتفياً به .

صحيفتهم عن صفحة الكون مشبعة بالتبكيك والإخمال ، والمفارقة والإنفصال .

ولعل في كتاب حقوق النبي (عليه السلام) الباب الثالث الآية السابعة إشارة إلى رجفة مدين السالفة إضافة إلى المدائن الكسروية بميلاد محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ونصها بالأصل الكلداني كالتالي :

« چاندري دكوشن بركند پزدد آرھا ديمدين » :

لقد تزعزعت الجواهر والخيم في مدين .

﴿ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين ﴾ (٩٣) .

« تولى عنهم » وهم في قبضة الرجفة ، ولما يموتوا ، كما و « تولى عنهم » بعد أن ماتوا « وقال لقد أبلغتكم رسالات ربي » أصلية وفرعية بكل بلاغ بالغ وبيان فائق ، ثم « ونصحت لكم » بعد البلاغ ، جمعاً للنصح إلى بلاغ الحجة البالغة، تلييناً لما تصلب منكم ، من أدمغة وخراطيم مستكبرة فيكم وهي بعد عليكم. ولم آل جهداً في إنجاءكم « فكيف آسى على قوم كافرين » ولا يعني الأسى عليهم - إذا - إلا ما عساه نكران لعدل الله وحكمته ، أم نقصان في بلاغ رسالته ! .

ذلك ، وهذا الخطاب العتاب باستفهام الإنكار ، عذاب لهم فوق العذاب ، سواء أكان عند نزول العذاب ولما يموتوا ، أم وبعد موتهم ، إعلاناً ببلاغ الحجة دون قصور فيها أم تقصير ، وإعلاماً بأن لا مجال للأسى عليهم فانهم عامدون عاندون في النكران ، فمستحقون لعذاب الإستئصال .

أبعد إبلاغ الرسالة والنصيحة يؤسى على قوم كافرين ، ولا يؤسى على المستحق بالعدل والحكمة الربانية ، حيث الأسى - إذا - عساها إسترحام على من جرى بحقه حكم الله ! .

هنا وقفة للتعقيب على ذلك القصص وأضرابه ، كشفاً عن خطوات

ربانية من قدر الله بالمكذابين بالدين كيف يأخذهم في تقلبهم وتغلبهم بزعمهم وهم غافلون يلعبون أو نائمون .

﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ﴾^(٤) .

«البأساء والضراء» هما الأفعال من البائسة والضارة ، وصفان لمحذوف أفضله الحالة ، أو الحياة ، ثم البأساء بأس في النفوس قلقاً واضطراباً، والضراء ضر في الأبدان والأموال والأولاد، فقد شملتاً مضرّة الروح والجسم فيما تحلقان على كل كيان الإنسان . وهذه الأخذة الربانية هي من مخلفات التكذيب بالنبيين ، أخذاً بالبأساء البائسة والضراء الضارة الضارعة في أحوال وأموال وبنين « لعلهم يضرعون » إلى الله تائبين ، فلما عتوا وبغوا وبقوا على تكذيبهم حيث لم تذكرهم بالبأساء والضراء : السيئة ، جازيناهم بما تزيدهم سيئة العتو والغفلة الغفوة :

﴿ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾^(٥) .

فهنا « مكان السيئة » بأساء وضراء المذكورة « الحسنة » الظاهرة المزمجرة أكثر من السيئة « حتى عفوا » ونموا في متطلبات حياة الحيونة المريحة ، فظنوا أنهم في رحمة من الله مهما عتوا ، ويكأن العتو مرضي لله حتى « قالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء » : ضر وسرور ، فهما يمينا إذ هما فوضى جزاف لا يعنيان كرامة أو مهانة ، فلا علينا أن نستمر في الكفر والكفران، ولأننا قد نكون مكرهين بالحسنة مكان السيئة « فأخذناهم بغتة » أخذة مزمجرة مدمرة « وهم لا يشعرون » موقفهم ، و « لا يشعرون » خطاهم و « لا يشعرون » استحقاقهم و « لا يشعرون » نزول العذاب عليهم إلا حين نزل إذ كان مباغتاً ، وعلى الجملة « لا يشعرون » إلا فوضى، فلا يعني بلاء السيئة ولا جزاء في حسنته وسيئته ، بأساء وضراء ، والحسنة سراء عبثاً أن يأخذ الله عبداً له بشدة في أنفسهم وأرزاقهم وأموالهم، ولا لإرواء غلة ولا شفاء إجنة أم يأخذهم بسراء مرحية مرخية تعطفاً عليهم بل هما بلاء آن

مختلفي الصورة ، وإنما لإيقاظ فطرة نائمة وترقيق قلوب طال عليها الأمد ما كانت فيها بقية : « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن . كلا . . . » (٨٩ : ١٦) .

كما ولا تعني الحسنة مكان السيئة واليسر مكان العسر والنعمة مكان الشظف ، وعلي الجملة العفو الزيادة مكان النقيصة ، إنها لا تعني إلا جزاءً وفاقاً إن لم يضرعوا بالبأساء والضرراء ، فبلية الحسنة أصعب من بلية السيئة ، ولذلك ترى أكثر الساقطين في البليات هم من المنعمين حيث يكثرون وينتشرون ، مسهلين العيش ، متيسرين الحياة ، معذرين تخلفاتهم أمام الله ، فقد تعني « حتى عفوا » إلى جانب غورهم في زخرفات الحياة ، إعتبارهم أنفسهم معفوين عن المسؤوليات ، إباحين في اللذات والشهوات ، عائشين - إذاً - اللامبالاة الطليقة ، فكل ما يصدر منهم عفو بلا أي تخرج أو مبالاة ، فقد عفوا في أنفسهم وأموالهم وأولادهم نماءً ، وعفوا عفواً ولأن العفو تأتي بمعاني : الزيادة والانتقاص لازمة ، وبمعنى التجاوز متعددة بـ « عن » ^(١) فطليقة « عفوا » كما هنا قد تعنيها كلها وفقاً لأدب اللفظ وعناية المعنى ، فقد « عفوا » بتلك الحسنات بعد السيئات زيادة ونمواً في أنفسهم وأموالهم وأولادهم ومحاصيلهم ، فعفوا انتقاصاً على نقصهم في نقضهم عهد الله ، ثم ازدادوا عفواً حيث عفوا عن سيئاتهم أنفسهم بإباحية طليقة وكأنها مشروعة مرضية لله « وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء » قصداً إلى أنهما ليستا جزاءً وفاقاً لسيئات أو حسنات ، إذ لم تكن لأبائنا حالتان مختلفتان تستجران الجزائين هذين المتقابلين ، وكذلك الأمر فينا نحن ، فذلك جريان طبيعي في إقبال الدنيا وإدبارها دونما رباط لهما بحسنات أو سيئات ، أم إن ذلك فوضى جزاف من الله دون أن تكون

(١) فقد جاء العفو لكلا النمو والانتقاص فهم انتقصوا في نموهم ونموا في انتقاصهم ، يقال :

عفى النبات والشجر قصد تناول الزيادة وعفت آثارها زالت وعفى عنه أزال ذنبه .

إذاً فـ « عفوا » دون أي متعلق نعم عفو الزيادة والنقيضة ومعهما العفو عن ذنوبهم كان ذنوبهم معفوة بما عفوا في نعمهم .

الضراء والسراء خلفية ربانية للسيئات والحسنات .

أم قد بلغ أمرهم في بلية الحسنة بعد السيئة أنهم تحسّنوا كآبائهم مستحقين للحسنة بتركهم شرعة الله التي يدعيها الأنبياء ! إذ « لو شاء الله ما أشركنا نحن ولا آباءنا » فنحن - إذاً - ماشون وفق مشيئة الله ، ماشون بأمر الله ، اعتباراً للإشراك بالله وترك شرعة الله ، إيماناً بالله ، فتوحيد وتصديق شرعته - إذاً - كفر به ! .

وإحتمال آخر أن « قدمس آباءنا الضراء والسراء » تخصصهما بهم دون هؤلاء الأولاد، حيث بدلت السيئة لهم بالحسنة ، فقد عفوا - إذاً - عن أنفسهم إصابة السيئة إن كانت هذه الإصابات قاصدة ، رعونة لهم كأنهم يستحقون - فقط - الحسنة ، « فأخذناهم بغتة » هي شر أخذة ، إذ قد يؤخذ الظالمون بإخبار مسبق كما في قوم لوط « إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب » .

فلأن هؤلاء الأنكاد عمدوا إلى سد كل المنافذ حتى لا يسمعوا الحق ولا يروه ولا يفهموه ، مهما مستهم البأساء والضراء إيقاظاً لفطرهم ، وهو الخطوة الأخيرة لاهتدائهم دون اختيار لهم ، فلم يزددهم إلا عتواً ونفورا ، فلذلك يستحقون مباغته العذاب « وهم لا يشعرون » جيئته الفجعة إلا عندما أخذهم ، كما « لا يشعرون » رغم ما أشعرتهم الضراء والسراء .

وهكذا تكون الدعوة الربانية أنه ما دامت الإمكانية لبلاغ الحجة لا يُضنُّ بها ، فمن خطوة الحجة البالغة إلى العطة ، وإلى الإنذار بالعاقبة ، وإلى إيقاظ الفطرة بمختلف الأساليب، وحده الأخير هو إيقاظها رغم تعنت أصحابها ، ومن ثم استئصالهم حين استأصلت لهم كل الطرق لانتباههم ، إذ لا خير فيهم إلا ضر وشر للإنسانية .

فعندئذ ، في ساعة الغفلة السادرة ، والغفوة الغادرة ، والغفوة البادرة تباغتهم العاقبة المضمونة « فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون » .

وهذه سنة جارية ربانية في إصلاح المتخلفين خطوة خطوة ، حتى إذا خطوا الخطوة الأخيرة في الأخطاء العائدة ، ولم يبق إلى قلوبهم نافذة هدى

سورة الأعراف / آية ٨٦-١٠٣ ٢٢٥
وتبصرة ، إستأصلهم الله وأحمد نيرانهم تطهيراً للجو عن هؤلاء الأرجاس
الأنحاس .

﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء
والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ (٩٦) .

« ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم
جنت النعيم » (٩٥) ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم
لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما
كانوا يعملون ، (٥ : ٦٦) .

صحيح أن بركات السماء والأرض وتوفر النعم لا تستلزم أهلية
المتنعمين بها ، فقد ترجع النعمة عليهم نقمة ونعمة ، ولكن الإيمان والتقى
لزامهما انفتاح بركات من السماء والأرض ، واللاإيمان والطغي لزامهما
انغلاق بركات ، وما يرى من بركات لأهل الدركات فهي في الحق لهم
دركات، حيث تعني لهم إملاء وإملأ : « ولا يحسن الذين كفروا أنمانملي
لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين » (٣ :
١٧٨) .

ذلك ، وإن الخلفية الطبيعية الربانية للتخلفات عن شرعة الله هي
انغلاق بركات من السماء والأرض ظاهرية وباطنية هما متعاملان في فلاح
الإنسان وصلاحه ، ولكن هنا خطوة ثانية إبتلائية هي « بدلنا مكان السيئة
الحسنة حتى عفوا » وهذه الحسنة هي أسوء من السيئة بكثير ١ .

وترى « لو » هنا تحيل إيمان أهل القرى وتقواهم ، وقضيتها هي
إحالة فتح هذه البركات ؟ وهذه الإحالة تنافي والمشبثة التشريعية أن يؤمن
أهل القرى ويتقوا ١ .

إنها إحالة نسبية بسوء الاختيار ، دون ذاتية أم واقعية مستغرقة ، فهي
إخبار عن الواقع المتخلف لأهل القرى بسوء إختيارهم ، باستثناء واقعين
اثنين هما قلة قليلة أمام مسيرة التاريخ الرسالي :

١ أهل القرى كلها زمن صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه
الشريف .

٢ أهل كل قرية قدر المستطاع ، تعبيداً لطريق المهدي

(عليه السلام) وتصلحاً لهم أنفسهم ، فحين لا يتمكن المؤمنون أن يحصلوا على جو الإيمان الخالص أو الأكثري في كل القرى لأنه أمر صاحب الأمر بما وعد الله ، فعليهم - إذاً - أن يصلحوا مجتمعاتهم المنزلية وفوقها كما يستطيعون ، ولكي تنزل عليهم - كجمع - بركات من السماء والأرض .

ذلك ، ولا تنافي المشيئة التشريعية امتناع واقع مشروع باختيار ، وإن كان امتناعاً مطبقاً ، فضلاً عن المطلق الذي قد يتحقق باختيار .

وهذا الحكم جمعي وليس شخصياً أن كل من آمن واتفق تنزل عليه بركات من السماء والأرض - اللهم إلا بركات معنوية - مهما حكم أحياناً للأشخاص أيضاً كما يستحقون .

فالإيمان والتقى أول ما يصلحان هو الحياة الدنيا أن تصبح حياةً علياً حيث المؤمن دنياه آخرة .

ذلك ، ولأن زمن صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه يحلّق الإيمان والتقى على أهل القرى إلا من شذ ، فقد تنزل عليهم بركات من السماء والأرض ، كما تخرج له الأرض أقاليد كبدها ، ويروى فيما يروى بهذا الشأن - عن الإمام الحسين (عليه السلام) في حديثه عن الرجعة : « ولتنزل البركة من السماء والأرض حتى أن الشجرة لتضيف بما يريد الله فيها من الثمرة وليؤكل ثمرة الشتاء في الصيف وثمره الصيف في الشتاء » وذلك قوله : « ولو أن أهل القرى ... » (١) .

أجل وهذه ضابطة ثابتة « إن الله لا يغير بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (١٢ : ١١) وقد تشمل إلى « ما بقوم » ما بشخص ، اللهم إلا أن تمنع طوارئ وملابسات حقوق الأشخاص هنا ، ولكن حقوق الجماهير محتومة مختومة بما يغيرون إلى خير فخير ، أم إلى شر فشر .

وهنا « آمنوا » ناحية منحي إيجابيات الإيمان علمية وعقيدية وعملية ثم « واتقوا » منحاها السلبات علمية وعقيدية وعملية ، فهما يحلّقان على كافة الواجبات والمحرمات الأصلية والفرعية ، الفردية والجماعية ، وكلها

(١) نور الثقلين ٢ : ٥٢ في الخرائج والجرائع عن الحسين (عليه السلام)

إختصاراً واحتصاراً في كلمة الإخلاص « لا إله إلا الله » .

وهنا « لفتحنا » دون « خلقنا » وما أشبهه، دليل أن هناك بركات في السماء والأرض هي مغلقة على أهل القرى بما « كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » .
فهنا تعامل بين صالح الأعمال الجماهيرية وطالحها، وبين بركات من السماء والأرض وبركات في الأولى كما في الأخرى دون أية فوضى جزاف « ولا يظلمون شيئاً » .

وبما أن صالح الإيمان دليل على حيوية الفطرة الصالحة غير المنحرفة المنخرقة ، وصدق في الإدراك ، وتصادق مع حق الواقع والواقع الحق ، فهو قوة دافعة تجمع جوانب الحيوية الإنسانية كلها متجهة إلى جهة واحدة ، مستمدة من قوة الله الذي لا إله إلا هو ، فإنها تحررة صالحة بالغة ، عن عبودية آلهة الأرض إلى عبودية إله السماوات والأرض .

ثم وتقوى الله يقظة واعية داعية إلى ترك المحظورات وفعل المحجورات ، صائنة عن الإندفاع والتهور والتشتت والتشطط والغرور ، و « أوثق العرى كلمة التقوى »^(١) عروة يتعلق بها فتنهض من المعاصر ، وتنجي من المزال والمزالق ، فهي الجبل المتين ، والمستند النضد الأمين .

لذلك فهما جناحان يطير بهما الإنسان إلى أعلى قمم الكمال الممكن لأي كان ، حيث يسير بهما الإنسان إلى مصيرات البركات التي وعداها الله لأهل الله .

وترى لماذا هنا « بركات » وهناك « حسنة » ؟ حيث الحسنة هي ما تلائم المشتبهات خيرة أم شريرة ، فهي بين بركات ودركات ، بين نعمة هي رحمة وأخرى هي زحمة ونعمة ، ولكن « بركات » هي خليصة الخيرات دون تبدل إلى دركات ، نتيجة الإيمان والتقوى، فكل حسنة وسيئة إبتلاء ، و « بركات من السماء والأرض » هي قضية النجاح في الإبتلاء بهما .

(١) المجازات النبوية ص ٨٤

ذلك ، فمن الخيرات ما هي بليات لمؤمن أو كافر مهما اختلفا فيه سقوطاً ونجاحاً ، ومنها ما هي من خلفيات الإيمان والتقوى ، فما هي إذاً ابتلاءات ، ثم ومن الشرور ما هي ابتلاءات بين الخيرين والشريرين ، ومنها ما هي عقوبات لأيّ منهما مهما اختلفا في حدودها .

فالبركات النازلة على أهل الإيمان والتقوى هي بركات في النفوس والنفائس ، بركات في المشاعر وكل طبقات الحياة بأسرها ، إخراجاً لها عن كل أسر لها يطارد الحصر في الله ، بركات تنمي الحياة وترفعها إلى قممها المعنية منها ، فليست مجرد وفرة ظاهرة مع شقوة وتردٍ وإنحلال .

﴿ أَفَأَمَّنَ أَهْلُ الْقَرْيِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾^(٩٧) أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحىً وهم يلعبون ﴿^(٩٨) .

هنا « أهل القرى » هي الظالمة غير المؤمنة ولا السّقية ، فهي الكافرة الطغية ، فلا أمن لهم إذ لا إيمان « أن يأتيهم بأسنا بياتاً » بالليل « وهم نائمون » أو « أن يأتيهم بأسنا ضحى » وضحّ النهار « وهم يلعبون » كالطفولة التي لا تعني صالح الحياة الإنسانية الواقعية ، فإنما تنظر إلى ظاهر لها حاضر : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » (٣٠ : ٧) .

وذلك هو العذاب المباغت لمن يستحقونه ، بعدما كلّت كل المحاولات لإيقاظهم فلم يزدتهم إلا فراراً .

﴿ أَفَأَمَّنُوا مَكَرَ اللَّهِ وَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾^(٩٩) .

لقد مكروا الله ومكروا المؤمنين بالله بما مكروا فطرهم وعقولهم فما جزاءهم إلا مكر الله كما مكروا جزاءً وفاقاً . « ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » الذين خسروا أنفسهم بما صدوا عليها منافذ الفطر والعقول وسائر الفكر ، وكان الله لا يسطع على مكرمهم كما مكروا ، أم هم لا يستحقون مكرًا رغم ما مكروا ، أم وليس هناك من إله هو يرصدهم .

﴿ أَوْ لِمَ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ بَعْدَ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَحْنَاهُمْ

بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴿١٠٠﴾ .

ألم يهد لهم آيات الله آفاقية وأنفسية « أولم يهد للذين يرثون الأرض بعد أهلها » الهالكين ، أولم يهد لهم ذلك القصص الحق من مضاجع الغابرين المعروضة لهم في صحائف التاريخ الجغرافي .

« أن لو نشاء لأصبنانهم بذنوبهم » إصابة شاملة ، ولكن الدار هي دار العمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل ، وإنما نصيبهم بالبعض من ذنوبهم الفاحشة التي لا يتحملها المكلفون ، فقد « ظهر الفساد في البر والبحر ليزيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » (٣٠ : ٤١) .

أولم يهد لهم أولاء الوارثين الأرض ، بأية وراثة جزئية أم شاملة ، سياسية أم اقتصادية أم روحية أمادية « أن لو نشاء أصبنانهم بذنوبهم » إصابة كاملة كما أصبنا الغابرين .

وترى « من بعد أهلها » تعني بعد انقراضهم عن بكرتهم ؟ ولا سابقة لذلك ولا لاحقة ! فالأرض لا تعني كل المعمورة ، بل هي أرض الحكم سياسياً وما أشبه ، و « من بعد أهلها » قد يقصد إلى أهلها الميتين ، أهلها الأهلين المختصين ، وهذا هو الأكثرية المطلقة من وراثة الأرض .

مثلاً على ذلك اغتصاب حق الإمام علي (عليه السلام) المنصوص على خلافته في مات من الأحاديث ، ولئن يشك في غضب خلافته هذه ، فغضب فذلك دليل باهر لا مرد له على غضب الخلافة فأين فذلك المال من خلافة الأمة ! .

وهل كانت المطالبة بفدك ، غير المطالبة بالخلافة للإمام علي ، وهل إن اقتطاع فدك من يد فاطمة هو غير قطع المدد عن المطالبين بالخلافة ، وإثبات الأولوية في غضب الخلافة من غضب فدك ؟ ! .

ولقد كانت تعلم فاطمة تمام العلم أن المطالبة بفدك لن تعيد إليها الأرض ، ولم تكن لتطلب أرضاً فيها نخيل ، إنها كانت تطلب يارث آخر فيه عزة النفس - فيه أصالة الحق - فيه عنفوان الرسالة - فيه إمتداد أبيها

الرسول .. هذا هو الإرث الذي جاءت تنادي به في ساحة المسجد من خلال مطالبة فذك .

وسيان أكانت المطالبة بخطاب مدروس مرتجل ، أم - حتى - بخطاب لمحة التنقيح أو الإقحام ، كما يطيب القول للإدعاء .

فقد يكفي أن تقود فاطمة قدميها إلى باحة المسجد - أن تقف أمام الخليفة بجبة وخمار ، أن ترمي إليه نظرة شزراء - أن تحرك يداً بمعصم نخيل - أن تؤمّي - أن تقف لحظة ثم تنسحب كما ينسحب الظل ...

لقد شرحت في الخطاب رسالة أبيها - لا فقط لتشرح الرسالة المعروفة في أصلها لدى الحاضرين - بل لتعيّن مركزها ومركز علي من الرسالة ، منددة بالخليفة أنه مغتصب ميراثها ، فهل يصعب إذاً أن يغتصب ميراث الخلافة المنصوصة ؟ .

أجل « أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها ... » وهم غافلون بزهوة ميراث الأرض وزهرة الأرض عما يعنى منهم ! .

ولكن الحاضر الذي لا حول عنه من العذاب : « ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » سمع القلب ، فما لم يسمع القلب لا يتقلب الإنسان من الردى إلى الهدى ، مهما سمع بأذنه الكثير ، فإنه إذاً ليس سمع القبول ، فسمع الإنسان سمعان ، سمع الأذن وسمع القلب ، فما لم تسمع القلوب لم تتجاوز العظام الأذان ، فهم من الذين « لهم آذان لا يسمعون بها » سمع الإنسان ، فإنما هو سمع الحيوان .

فهنا « نطبع » رفعاً دون جزم يفصلها عن جزاء الشرط ، فهو خلاف جزاءه في قضية « لو » ومن الغريب عطفه على جزاء الشرط تلحيقاً لحكمه به مع اختلاف الصيغة والصيغة ! .

إذاً فـ « نطبع على قلوبهم » محتوم و « أصبناهم بذنوبهم » مختوم إلا ما شاء الله ، ثم الطبع والختم والرین والكنان والغشاوة والصد والمنع هي بمعنى في هذه الدركات السبع .

ثم « الذين يرثون الأرض من بعد أهلها » تختص بالسوارثين المذنبين ، و « الأرض » هنا هي مطلق الأرض لا الأرض المطلقة، فقد تعني أي أرضٍ انقرض أهلها وورثها آخرون مذنبون .

﴿ تلك القرى نقص عليك من أنباءها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ﴾ (١٠١) .

« تلك القرى » الرسالية المكلفة برسالات الله ، على مدار الزمن الرسالي « نقص عليك » قصاً تاريخياً بعضاً « من أنباءها » أمام الدعوات الرسالية « ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات » رسولية ورسالية ، ولكن « فما كانوا ليؤمنوا ... » .

فهنا سلسلة موصولة من الرسل والرسالات بكل البسالات والحُصالات ، وتقابلها سلسلة من التكذيبات .

وهناك ثالث من غائلاتهم إذ « ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين » وذلك : « تكذيب من قبل »^٢ ، فطبع على قلوبهم ثم^٣ « فما كانوا ليؤمنوا » من بعد ، لمكان ذلك الطبع بالطبع امتناعاً بالإختيار .

فترى أن « من قبل » هنا تعني قبل ولادهم في الذر ؟ ولا يعني الذر في آيته عالم قبل الولاد ، فيه واقع التساؤل بين الله وبينهم ، إذ لا يذكره أحد حتى من كمل المؤمنين ، فكيف يحتاج عليهم بـ « بلى » فيه ، على « أن تقولوا إنا كنا عن هذا لغافلين . أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل .. » ! ولا دور للاحتجاج بما هو منسي طليق لن يُذكر .

ثم لم يكن في الذر منهم ومن كل الناس - أياً كان وكانوا - إلا « بلى » وهنا « بما كذبوا من قبل » ! .

فحتى ولو كان منهم « لا » فلا يستحقون بمجرده أن يُطبع على قلوبهم إلا إذا اصرروا في التكذيب يوم التكليف ! فقد يكفر مكلف بشريعة

الله إذ لمّا تصله حاجتها ، أم وصلتته ولمّا يفكر فيها ، أم فكر وكذب بها عَجالة دون إصرار ، ولمّا يحن حين الطبع في هذه الثلاث ، اللهم إلّا إذا عاش تكذيباً بعلم وعناد ثم طال الأمد وزالت إمكانية الإيمان ، فهنا دور الطبع وكما هو باهر في آياته .

وهنا « فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل » تنفي كينونة الإيمان منهم بما كذبوا من قبل في هذه المرحلة الأخيرة من علم وعناد ، فطبع الله على قلوبهم بما كذبوا .

فـ « ليؤمنوا » حذفاً للناصبة: « أن » تعني « للإيمان » إذأ فما كانوا للإيمان بما كذبوا ، إذ خرجوا عن إمكانيةه بما كذبوا لحد طبع الله على قلوبهم .

أم هو « من قبل » ابتعث الرسل ؟ وقد ابتدأت البشرية بابتعث الرسل ، إذ بزغت الرسالات بآدم (عليه السلام) ! ثم لا تكذيب قبل الرسل - لو صح التكليف قبلهم - إذ كانوا ضلّالاً لا على هدى ولا على ضلال التكذيب بالرسالات ولمّا تأت، لو كانت البعثات الرسالة بعد ربح من خلق المكلفين .

ثم وليس كل تكذيب بعد بزوغ الرسالات مما يستحق الطبع على قلوب المكذبين ! ، إنما هو التكذيب العائد العائد المستمر الذي لا مجال فيه للاعتداء .

أم تعني « من قبل » أنهم عاشوا زمناً للرسل أو الرسالات فكانوا مكذبين بها علماً وعناداً فطبع الله على قلوبهم ، ثم استمروا في تكذيبهم بعد هذه العيشة المكذبة النكدة ، « فما كانوا ليؤمنوا » لوقتٍ ما بعد « بما كذبوا من قبل » وكل ذلك كان في حضن الرسل ، أو الرسالات ، سواء أكانوا في فترة من الرسل والرسالات قائمة ، كالذين عاشوا بين آدم وإدريس ، وبين إدريس ونوح ، أم وبين المسيح ومحمد (عليهما السلام) - كأطول فترة - : « لينذر قوماً ما أنذر آباءهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون » (٣٦ : ٦) « لتنذر

قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك « (٢٨ : ٤٦) فهم « سواء عليهم
أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » (٢ : ٦) فالفترة بين الرسل ، وفيها
فتور لبلاغ رسالاتهم لمكان التحريف والتجديف ، إن لها دوراً دائراً مائراً
في حُصالة العناد اللدود .

أم وفي غير الفترة كما بين نوح وإبراهيم وموسى وكما في آيات
يونس : « ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا
ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين . ثم بعثنا من
بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملأه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوماً
مجرمين » (١٠ : ٧٤ - ٧٥) .

« ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات
وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف في
الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون » (١٠ : ١٣) وآية الأنعام :
« ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم
يعمهون » (٦ : ١١٠) . فالفترة بين الرسل هي من الظروف القاسية
العاصية بطبيعة الحال ، لحقل التكذيب بالرسول ورسالاتهم ، فإذا جاء
بعدها فقد يواجهون من قبل هؤلاء الالذاء بتكذيبات وتعذيبات .

كما وإن لتكذيب الرسل في زمنهم دور قاس في ملاحقة التكذيب ،
علّه أقسى من دور الفترة ، فالعائش زمن الرسل برسالاتهم ، هو أنحس
نكراناً لهم ولها مبدئياً ، مهما كان العائش الفترة بين الرسل هو أنحس منه
نكراناً بطبيعة الحال ، وهما مشتركان في قساوة التكذيب ، مهما كان
البعض أقسى من الآخر لملاسات أخرى ، أم لنفس الدور رسولياً وفترة
بين الرسل .

« وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم
لفاسقين » (١٠٦) .

ذلك العهد هو عهد الفطرة كأول عهد ، ومن ثم عهد العقلية
الإنسانية والشرعة الربانية حيث يتلوانه ، و« أكثرهم » هنا لا تعني أكثر

المكذبين حيث التكذيب ولا سيما ذلك الصليب الصلت هو بنفسه ترك لمثلث العهود ، فقد تعني « أكثرهم » أكثر المكلفين ، و « إن » هنا مخففة عن « إن » فقد وجدنا أكثرهم لفاسقين ، خروجاً عن عهد الفطرة وعهد الشرعة ، فالخارج عن عهد الفطرة قبل إتيان الرسل هو خارج عن عهد الشرعة بعد إتيانهم بطبيعة الحال .

ثم و « أكثرهم » قد تعني كافة الناس في مثلث الزمان في وجدان علمي رباني ، وعدم وجدانه تعالى لشيء هو عدم وجود ذلك الشيء ، ولا تعني سلبية العهد أصله ، فإنهم يعيشون مثلث العهد ، وإنما هو إستمرارية ذلك العهد تطبيقاً له .

ثم « إن وجدنا أكثرهم لفاسقين » دون « كافرين » لكي يشمل كل تخلفة عن العهد إلحاداً أو إشراكاً أو كفراً كتابياً ، أم فسقاً في كل دركاته .

وقد تعني « من عهد » استئصال العهد لأكثرهم عن بكرته ، مهما كان عهداً معرفياً ، أو عقيدياً ، فضلاً عن العملي .

فقد تعني - إذاً - أكثرهم ، أكثر المكذبين بآيات الله ، فالعهد بين حالات ثلاث ، ^١ مستغرقة إيجابياً كما للرعييل الأعلى من المعصومين (عليهم السلام) ، ^٢ ومستغرقة سلبياً كما لأسفل سافلين من المكذبين ، ^٣ وعواناً بينهما تطبيقاً لعهد وتركاً لآخر ، فقد يوجد مكذبون لما تستأصل عهودهم عن بكرتها فهم قد يؤمنون أم - ولأقل تقدير - يتركون التكذيب ، ثم الأكثرية منهم يعيشون ترك عهودهم حتى الموت « فما وجدنا لأكثرهم من عهد » .

ففي مثلث العهود بدرجاتها ، يستبع الناس بدرجاتهم ، فمن واجد عهد الفطرة دون العقل ، أم واجد عهد العقل ناس عهد الفطرة ، أم واجد عهد الشرعة دون عهد الفطرة والعقل ، أم واجد لها كلها ، أم واجد لاثنتين منها ، فالواجد لها كلها هو القائم بها مهما كان درجات ، والواجد لواحد منها هو أضعف الواجدين ، ثم الواجد لاثنتين منها هو عوان بينهما ، كمن وجد عهد الفطرة والعقل ، أو العقل والشرعة ، أو الفطرة والشرعة ، ثم

التارك لها كلها هو المصدق الصادق لـ « ما وجدنا لأكثرهم من عهد » .
ذلك ، ولا يخلو أحد من عهد الفطرة مهما كان خلواً من العقل ،
كما لا يخلو أحد من المكلفين من عهد الشرعة مهما كان زمن الفترة .
فالصراط الوحيد إلى الله هو مثلث العهد فطرياً وعقلياً وشرعياً ، فإن
وسيط العقل بين الفطرة والشرعة هو صالح العقل والفطرة والشرعة .

كما أن الوهيد الوهيد هو ترك ذلك المثلث بأسره فـ « لم نجد له
عهداً » حيث لا منفذ - إذاً - له إلى الهدى .

ومن ثم نجد راحلة - مهما كانت مائلة ماحلة - في العوان بينهما ،
فالواجد لبعض منها التارك لبعض قد ينجو وينجح بما هو واجده ، فالفطرة
تدعوا إلى العقلية الصالحة وصالح الشرعة ، كما الشرعة تدعوا إلى الفطرة
والعقلية الصالحة ، والعقل الصالح يدعو إلى الفطرة والشرعة .

ذلك ، والفسق عن الفطرة يخلف الفسق عن العقلية ، كما الفسق
عن العقلية يفسق عن الشرعة . وهكذا الفسق عن الشرعة يفسق عن
الآخرين ، وكوجه عام وضابطة ، يخلف الفسق عن كل من هذه الثلاث
فسقاً عن الآخرين .

كما وأن صفاوة كل وحفاوته تؤثر في الآخرين ، فهي تتجاوب -
دوماً - سلبياً وإيجابياً في تعامل دائب .

لذلك نرى آية الفطرة تتبناها كأصل للدين ، وآيات العقل تجعله
كوسيط بين الأنفس والآفاق ، والشرعة الربانية تتبنى الفطرة كأصل والعقل
وسيطاً بين الأصليين .

ذلك ، فـ « من عهد » المستأصلة كل عهد ، لا تناسب إلا المكذبين
بآيات الله طول التاريخ ، فإن أكثرهم ليس لهم عهد ، ولأقلهم عهد هو
لأقل تقدير عهد الفطرة أو العقلية الإنسانية ، فقد يرجى اهتداءهم يوماً ما
إلى الحق .

فلا تعني « أكثرهم » كل المكلفين ، ولا المكذبين المطبوع على
قلوبهم ، حيث الأكثرية من المكلفين قاصرون أم مقصرون دون تكذيب
على علم وعهد ، أم ومهما كان عن علم وعمد فليس يُطبع على قلوب

أكثرهم ، بل هم القلة العنيدة العتيدة في التكذيب .
ولا المطبوع على قلوبهم لأنهم كلهم ليس لهم أي عهد ، إنما هم
مجموعة المكذبين ، فإن أكثرهم ليس لهم « من عهد » .
فسلبية العهد المستفرقة كل عهد تجعلهم كأن لا عهد لهم من
أصله ، بل هم أدنى ممن لم يخلق له عهد إذ يعارضون كل أحكام الفطرة
والعقل والشرعة .
ثم « إن وجدنا أكثرهم » المختوم على قلوبهم « لفاسقين » متخلفين
عن هذه العهود الثلاثة إلى أضدادها ، فـ « إن وجدنا . . » هي تفسير
لـ « ما وجدنا » تثبتاً لأصل العهود الثلاثة لهم ، ولكنهم عنها فاسقون
متخلفون ، ولم يقل « كافرون » لأن كل المكذبين بآيات الله كافرون ،
وإنما « لفاسقون » عناية إلى خروجهم عن هذه العهود .

ذلك ، وكما أن الشيطانات سبع دركات ، كذلك الرحمات سبع
درجات ، وكما الشيطان الأكبر هو الجامع لثالث : الشيطان - البقر -
النمر ، كذلك الإنسان الأكبر هو الذي يجمع بين هذه العهود الثلاثة ، تاركاً
لثالث الشيطانات .

ذلك ، ومن الآيات المحلقة على كل العهود : « ألم أعهد إليكم يا
بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين » (٣٦ : ٦٠) « وأوفوا
بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون » (٢ : ٤٠) « ومن أوفى بما عاهد
عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » (٤٨ : ١٠) .
ومن الخاصة بعهد الفطرة آيتا الذر والفطرة ، ومن عهد الشرعة
الأصيلة : « وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين
والعاكفين والركع السجود » (٢ : ١٢٥) « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل
فنسي ولم نجد له عزماً » (٢٠ : ١١٥) .

ومن عهدنا فرعياً ما نعاهد ربنا أو يعاهد بعضنا بعضاً : « وأوفوا بعهد
الله إذا عاهدتم » (٩١ : ١٦) « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » (٢ : ١٧٧) .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ

فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠١﴾
 وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ
 ﴿١٠٢﴾ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ فَدَعْكُمْ
 بَيْتَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٣﴾ قَالَ لَنْ كُنْتُ
 بِحُتِّ بَايَةٍ فَاتَّبِعْنِي إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٤﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ
 فَأَذَاهِ مُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٠٥﴾ وَزَرَعَ يَدَهُ فَأَذَاهِ بَيْضَاءُ
 لَنَاظِرِينَ ﴿١٠٦﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْ هَذَا السَّاحِرُ
 عَلِيمٌ ﴿١٠٧﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَذَانًا مَرُونُ
 ﴿١٠٨﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١٠٩﴾
 يَا تَوَكُّلْ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٠﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ
 قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١١﴾ قَالَ نَعَمْ
 وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا أَنْ لُلْقَى وَامْسَا
 أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْكَ ﴿١١٣﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ لِقَاءَ آلِهَتِكُمْ فَخَبَسُوا

أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١٢٧﴾ وَأَوْحَيْنَا
إِلَى مُوسَى أَنَا لَأُفْعَصَاكَ فَإِنَّا هِيَ تَلْفَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١٢٨﴾
فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ فَغُلِبُوا هُنَاكَ وَ
انْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١٣٠﴾ وَإِلَى السَّحَرَةِ سَاجِدِينَ ﴿١٣١﴾ قَالُوا آمَنَّا
بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٢﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٣٣﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ أَنَّمُ
بِهِ قَبْلَ أَنَا ذَنْ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُتُهُ فِي الْمَدِينَةِ الْفَرَجِ
مِنْهَا أَهْلُهَا مُنْقَرِعُونَ ﴿١٣٤﴾ لَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ
مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَا صَليَتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا
مُنْقَلِبُونَ ﴿١٣٦﴾ وَمَا نَنْفَعُ مِنَّا إِلَّا إِنَّا مَتَابَا يَا رَبَّنَا
جَاءَنَا رَبُّنَا فَأَوْفُ عَالَيْنَا صَبِرْ وَتَوَقَّئْنَا سُلَيْمَانَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالَ
الْمَلَائِكَةُ قَوْمٍ فِرْعَوْنًا نَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ
وَيَذَرُكَ وَالْعَمَلَ قَالُوا سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ

وَأَنَّا فُتِحُوا فَأَهْرُونَ ﴿١٣٨﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ
وَأَصْبِرُوا إِنَّا لَأَرْضُ اللَّهِ يُوْرِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٩﴾ قَالُوا أَوَذِيكَ مِنْ قَبْلُ إِنَّ نَازِيئَكَ وَمِنْ بَعْدِ مَا
جِئْنَا قَالَ عِيسَى رَبُّكُمْ أَن يَهْلِكَ عِزُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ
فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ وَلَهَذَا خَلَقْنَاهُ لَنُرِيَكُمْ
بِالْآيَاتِ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٤١﴾
فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا النَّاسُ هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ
يَطْفَرُوا يُومِنُونَ وَمَنْ مَعَهُ إِلَّا إِنَّمَا مَآئِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤٢﴾ وَقَالُوا مَهْلِكُنَا نَارُ الْيَتِيمِ وَالشَّجَرِ
بِهَافَاتِهِمْ لَسَ يُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ
وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ
فَاسْتَكَبرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٤٤﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ

الرَّجْرُقَا لَوْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِئَن تَكْشِفَ
عَنَّا الرَّجْرُقَ لِنُؤْمِنَ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴿١٣٦﴾ فَلَمَّا
كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْرُقَ إِلَى آجِلٍ هُم بِالْعِوَةِ إِذَا هُمْ يَنْكُفُونَ ﴿١٣٧﴾
فَأَنشَقْنَا مِنْهُمْ غَافِلِينَ فَاغْرَقْنَا هُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٨﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا
يُتَضَعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا
وَمَتَّ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَادَّ قُرْآنًا مَّا كَانَ
يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٩﴾ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي
إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَبْعَثُونَ عَلَىٰ أَصْنَامِهِمْ قَالُوا يَا مَوْسَىٰ
اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالِ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَبْجَلُونَ ﴿١٤٠﴾
إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم بِفِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾
قَالَ أَغِيثَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهُكُمْ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٢﴾

وَإِذْ أَخَذْنَاكُم مِّنَ الْفُرْعُونَ يَسُومُونَكُم سُوءَ الْعَذَابِ
يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ
مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٠٤﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثَ لَّيَالٍ وَأَتَمْنَا هَآ
بَشْرَفَتَهُ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَّيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ
اخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٥﴾
وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَكَلَّمَ رَبَّهُ قَالَ رَبِّ ارِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ
قَالَ لَن نَّرِيَّ وَلَكِن نَّظُرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ
فَسَوْفَ نَرِيَّ فَلَمَّا بَلَغَ رَبُّهُ الْجَبَلَ جَعَلَهُ دُكَّانًا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا
فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٦﴾

هنا درس فضل عن قصة موسى مع فرعون وملئه بين مواجهتهم إياه
بنكران ربوبية الله ، وإغراقهم أجمعين إلا من آمن منهم بالله ، وهي قصة
واسعة الأطراف لا مثيل لها بين قصص المرسلين اللهم إلا خاتم النبيين
(صلى الله عليه وآله وسلم) فانهما متماثلان في كثير من الميزات الرسولية
والرسالية .

يذكر « موسى » (١٣٦) مرة في (٣٤) سورة وأكثرها ذكراً له وأعرفها « الأعراف » فانه فيها يذكر (٢١) مرة مما يدل على أن ذكره فيها أكثر من غيرها .

ويذكر فرعون (٧٤) مرة في (٢٧) سورة ، أكثرها ذكراً له « الأعراف » و« على » الجملة نرى قصة موسى وفرعون أكثر القصص ذكراً وشرحاً في الذكر الحكيم ، اللهم إلا رسول القرآن فإنه المحور الأصيل بين الرسل والرسالات كلها ، وهنا بعد ذكرى رسالات منذ نوح حتى شعيب يأتي تفصيل القول حول موسى (عليه السلام) وحالاته الرسالية وحالاته مع فرعون وملئه .

ذلك القصص نص باهر في الغرض من سياقه ، فالقصة قاطعة إلى مشاهد حية تموج بالحركة والحوار ، زاخرة بالإنفعالات والسمات ، وتتخللها توجيهات إلى مواضع العبرة الواعظة الباهضة ، كاشفة عن طبيعة الحال للمعركة المتناحرة بين الحق والباطل ، منذ تشرد موسى من بأس الطاغية خائفاً يترقب ، حتى غرق الطاغية ، وإلى مستمر رسالته بواجهات أخرى .

﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ (١٠٣) .

هنا « بعثنا » متكلماً مع الغير يعني جمعية رسالية اجتمعت في شخص موسى الرسول وكأنه بنفسه رسل ، وهو حقاً رسل إذ جاء برسالة مفصلة منقطعة النظير بين الرسل كلهم إلا هذا البشير النذير .

ثم « بآياتنا » وهي الآيات الرسولية والرسالية جمعاً مستغرقاً للآيات الربانية ، قد تعني الجمع بين كافة الآيات المبصرة المبصرة، فهي كلها بصرية مشهودة للأبصار ، ولكن الآية الرسولية والرسالية المحمدية وهي القرآن وهي رسول القرآن ، إنها آية مستمرة خالدة مع الزمن ، متناسية

سورة الأعراف / آية ١٠٤ - ١٤٣ ٢٤٣

تلكم الآيات العابرة الغابرة ، متناسبة خلود الشرعة الأخيرة إلى يوم الدين
فإنها آية البصيرة على مدار الزمن ، لا بديل عنها ولا تبديل لها ، بل هي
تجري تجري الشمس في مشارق الأرض ومغاربها .

أم تعني جمعاً من الآيات التي تناسب الرسالة الموسوية لأنها بمفردها
جمعية رسالية ، فلا تعني طليق الإستغراق .

والرسالة الموسوية عالمية لا تختص بجمع دون آخرين كما كان نوح
وإبراهيم وعيسى ومحمد خاتم النبيين صلوات الله عليهم أجمعين ، ولا
تعني « إلى فرعون وملاه » هنا إلا المحط الأول لرسالته السامية سلباً
للفرعة الطاغية ، ثم المحط الإيجابي الأول هم بنو إسرائيل كما في
آيات ، كـ « وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل » (١٧ :
٢) ، ثم الثاني والأخير هم كل العالمين كما في أخرى : « قال يا موسى
إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي » (٧ : ١٤٤) - « وقال
موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد » (١٤ :
٨) - « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكرًا للمتقين » (٢١ :
٤٨) « إذا فليس » إلى مصر وحدها ! ^(١) .

ذلك ، ولأن أنحس المستكبرين الطغاة في زمنه هم فرعون وملاه
وأنحس المستضعفين هم بنو إسرائيل ، لذلك نراهما في مطلع الدعوة

(١) نور الثقلين ١ : ٥٤ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى محمد بن الفضل عن
أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر (عليه السلام) في حديث طويل يقول فيه : تم ان الله
تبارك وتعالى أرسل الأسباط اثني عشر بعد يوسف ثم موسى وهارون إلى فرعون وملاه إلى
مصر وحدها

أقول : هذا خلاف أممية الرسالة الموسوية إلا أن يأول إلى المحور الأول لرسالته ومنطلقها
كما تفسر الآيات القائلة أن محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) بعث إلى هؤلاء القوم
اللد « وتنذر به قوماً لداً » .

الموسوية سلباً لأنحس طغيان وإنجاء لأضعف المستضعفين في ذلك الزمان ، ومن ثم تتخطى هذه السلبية والإيجابية إلى كافة المستكبرين والمستضعفين في العالمين بالشرعة التوراتية حتى الإنجيل ، ومنها حتى القرآن العظيم .

ذلك وقد « ظلموا بها » حيث أنكروها وكذبوا بها شر تكذيب « فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » حيث التكذيب بآيات الله هو رأس الزاوية في هندسة الإفساد في الأرض .

﴿ وقال موسى يا فرعون . إني رسول من رب العالمين ﴾ (١٠٤) .

هنا « يا فرعون » دون ألقاب هي إلغاب زور وغرور لكل سلطان غرور كـ « يا مولاي » وما أشبه وإنما باسمه « فرعون » في أدب واعتزاز ليقرر له حقيقة أمره أنه فقط « فرعون » أمام « رب العالمين » وهو منهم خلاف زعمه : « أنا ربكم الأعلى » فهكذا يخاطب الرب الأعلى ! ليعرف موقفه في بداية الحوار قائلاً : « إني » متأكداً دون أية ريبة « رسول من رب العالمين » دون « الله » أو « الرب » أو « ربي » حتى لا يخيل إليه وإلى ملاه أنه يعنيه فيكذبه ويكذبونه إذ لم يرسله فرعون ، ثم وكيف يخبره وإياهم بما أرسله هو ؟ ! .

﴿ حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل ﴾ (١٠٥) .

ولأنني رسول رب العالمين ، إذا فـ « حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق » قضية صادق الرسالة الربانية ، ورسالة الله هذه وقول الحق على الله ليست دعوى فاضية ، بل هي فائضة فـ « قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل » : آية بينة ربانية لا جَوَل عنها ولا محيد، فالله من وراءها شهيد ، « فأرسل معي بني إسرائيل » - « ولا تعذبهم » (٢٠ : ٤٧) فقد يعني بذلك الإرسال إرسالهم عن أسرهم بأسرهم في إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، إذ كانوا لهم عبيداً أمعات لا يقدرون على شيء مما كسبوا لأنفسهم إلا ما يهواه فرعون وملاه ! .

ولماذا هنا « أقول على الله » دون « أقول عن الله » ؟ « على » هنا تعني العهدة ، وقول الرسول رسالة دون أصالة ليس إلّا على عهدة الله وبعهد الله ، كما و « على » في « حقيق على » هي للحيطرة والتحليق فـ « على » هو الحقيق دون « عن » حسب متواتر النص على مدار الزمن القرآني السامي .

و « حقيق » هنا حق ثابت لا حول عنه إذ لا يحق لرسول أن يقول على الله إلّا الحق « ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم نقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين » (٦٩ : ٤٧) . ذلك وكما في الأصل العبراني من التوراة .

ذلك ، والرسالة الربانية إلى أمثال فرعون وملأه تعني - أول ما تعني - إبطال كل شرعة مدّعاة لكل طاغوت يحكم محادداً لشرعة الله ، تبعيداً لهم عن تعبيد الناس إلى عبودية الله .

وإعلان الربوبية الوحيدة غير الوهيدة لله وحده ، إنه إعلان تحرير الإنسان عن عبودية أمثاله وكل معبود من دون الله .

ولأن هذه الدعوة تحمل قلب نظام الحكم الفرعوني ، لذلك يطالب موسى بكل مهانة وإهانة وإحالة أن يأتي بآية إن جاء بها ، زاعماً أنه كاذب حيث أخذته العزة بالإثم ، فلا يستقبل أي دعوى تناحر فرعنته وطغيانه ، إلّا بكل فرعنة ورعونة :

﴿ قال إن كنت جئت بآية فات بها إن كنت من الصادقين ﴾ (١٠٦) .

« قال » فرعون : « إن كنت جئت بآية » في رسالتك المدّعاة المدّعاة « فات بها » أمانا « إن كنت من الصادقين » وهنا « كنت » قبل « جئت » تعني إحالة هذه الكينونة بعمقها ، ثم « إن كنت من الصادقين » تهديد عتيد إن لم يأت بها فهو - إذا - من الكاذبين .

﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴾ (١٠٧) ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴿ (١٠٨) .

« ألقى عصاه » عُجالة دون إجابة ، عساه يهتدي بإجالة النظر في هذه الآية « فإذا هي ثعبان مبین » كونه ثعباناً حقيقياً دون أن يسحر أعين الناس فيرووا العصا ثعباناً ، ومن كونه مبيناً أنه هدد فرعون بصرحه لحد لمس العذاب حينه فقل منه خائفاً ذِعِراً^(١) .

ولا تعارض بين قلب العصا هنا ثعباناً مبيناً ، وقلبها « حية تسعى » (٢٠ : ٢٠) حيث « رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب » (٣٨ : ٣١) لاختلاف الموقفين ، فالحالة الثانية هي ليلة الطور لما رأى من جانب الطور ناراً ، والأولى هي عند فرعون .

ثم والطنطنة الغوغاء في قولة إستحالة المعجزات يحلّسها تقدّم العلم أن العناصر متشابهة في الجزيئات والذرات ، وإنما الاختلاف في فواصل وعديد الذرات ، فلخالق الذرات أن يبدل فواصلها وعديدها قفزةً طرفة عين ، وذلك سر الإعجاز أن ذلك التفاعل الذي يحتاج في تبدل عنصر إلى آخر إلى آلافات من السنين ، يحصل بالقدرة غير المحدودة الربانية في طرفة عين .

ثم زود آيته تلك بأخرى ، متصلة به بعد الأولى المنفصلة عنه ، إتماماً للحجة وإنارة للمحجة ، كيلا يقال إن ثعبان العصا ليس من إلقاءه ، بل هو صدفه عمياء ، وأما يده فلا يُظل عليها من ظلال ذلك الضلال : « وأضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى » (٢٠ : ٢٢) - « أسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء » (٢٨ : ٣٢) .

وهنا في ظلال هاتين الآيتين خرس فرعون متخوفاً ذاعراً ما يدري من

(١) نور الثقلين ٢ : ٥٤ في تفسير العياشي عن عاصم بن المصري رفعه - وذكر قصة مواجهه موسى فرعون إلى أن قال : - فألقى عصاه وكان له شفتان فإذا هي حية وقد وقع إحدى الشفتين في الأرض والشفة الأخرى في أعلى القبة ، قال فنظر فرعون في جوفها وهي تلتهب نيراناً قال : وأهوت إليه فأحدث وصاح : يا موسى خذها .

أين إلى أين ، ولذلك يتكلم ملأه تشيئاً له وتشجيعاً إياه وكما تفعله الهوامش الملكية بالملوك :

﴿ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ^(١٠٩) يريد أن يخرجكم من أرضكم فما ذا تأمرون ^(١١٠) .

هنا العصب الحساس يبرز بكل كيد وميد مضللاً من مضلي الملأ ، يخاطبون أنفسهم وآخرين ، بمن يرأسهم وهو فرعون ، إبتداءً بتزييف موقف موسى من آيته الكبرى : « إن هذا لساحر عليم » ثم وما عليه في سحره إذا كان في خدمة فرعون ، ولكنه « يريد أن يخرجكم من أرضكم » إخراجاً من السلطة الفرعونية ملكاً وملكاً فيجعلكم لا شيء بعد أن كنتم كل شيء .

فلو كان ما جاء به آية ربانية صادقة ما كان خطراً ذلك الخطر ، أم لو كان يريد أن يخرجكم من أرضكم دون آية ولا سحر فكذلك الأمر ، ولكنه جامع بين الأمرين الأمرين ، فإنه بسحره يريد قلب النظام وهذا ما لا يقبله أي مواطن فضلاً عن الملك وأصحاب السمو الملكي ، « فما ذا تأمرون » ، نحن الذين نعرف صالح أمر الحكم من طالحه .

هنا - بعد ما حصل فرعون على هذا الرأي - « قال أجبنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى . فلنأتينك بسحر مثله » (٢٠ : ٥٨) فقد تشاوروا أولاً : « فتنازعوا أمرهم بينهم وأمروا النجوى قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى » (٢٠ : ٦٣) ثم عرضوا عليه حُصالة هذا الرأي ثم « قال أجبنا .. » .

وهكذا أدرك فرعون وملأه خطوة هذه الدعوة التوحيدية وكما يدركها كافة الطواغيت المحاذين المشاقين الله ، وكما قيل لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حين أخذ يدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله : « هذا أمر تكرهه الملوك » ! و « إذن تحاربك العرب والعجم » حيث القائل عرف معنى لغة التوحيد أنها ثورة على الحاكمين بغير شرعة الله ، الطاغين على عباد الله ، فإن لتلك الشهادة الحق جديتها وفاعليتها ، وطبيعة الحال قاضية

الأ ملائمة بين « لا إله إلا الله » والوهة غير الله من آلهة الأرض والسماء .

فلذلك ينبرى الملأ من قوم فرعون ، الأخصائيون في تدبير أمور الملك قائلين « يريد أن يخرجكم من أرضكم » إخراجاً لكم عن كيانكم وعرضكم ، وقد حسم الموقف عجلة أنهم :

﴿ قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين ^(١١١) يأتوك بكل ساحر عليم ^(١١٢) .

.. وأبعث في المدائن حاشرين . يأتون بكل ساحر عليم » (٢٦ : ٣٧) فالقصد من « ساحر » هنا هو « ساحر » ويلمح له « عليم » وهنا يشير عليه ملأ المتآمرون ، بإمهالهما حتى حين « وأرسل في المدائن » المصرية « حاشرين » : جامعين « يأتوك بكل ساحر عليم » دون مجاهيلهم أو سقاطهم .

وهنا « أرجه » أمهله ، دون « أقتل - أو - أسجن » مما يدل على أن الطاغية كان أعدل من هؤلاء الطغاة الذي لا يمهلون مناوئهم ، حكماً بالإعدام أو السجن دون أمهال للمناورة !

ويروى أن عديد هؤلاء السحرة بين سبعين شخصاً إلى ثمانين ألف وبينهما متوسطات ^(١) ، ولقد كانت أرض مصر تموج بالكهنة الساحرين في شتى المعابد الكهنوتية ، يديرون أمورهم ، ويدبرون ، بكل سحر ومكيدة ، إذ ما كانوا يملكون حقائق الأمر الذي به يحكمون .

وهكذا يقتزن السحر والكهانة وسدانة الآلهة في كافة الوثنيات على مدار تاريخها ، وفرعون هذا بما يحمل من كل فرعة وطفيان ، لقد كان في إرجاءه موسى وأخاه أقل طغياناً من الطواغيت المتحضرة في القرن العشرين في مواجهة الدعاة إلى رب العالمين .

(١) وهي تسعمائة - اثني عشر ألفاً - خمسة عشر ألفاً - سبعة عشر ألفاً - تسعة عشر ألفاً - ثلاثون ألفاً - وسبعون ألفاً .

﴿ وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرأ إن كنا نحن الغالبين ^(١١٣) قال نعم وإنكم لمن المقربين ﴾ ^(١١٤) .

لقد استغلوا فرصة فريضة لهم فريضة ، حيث يحتاجهم فرعون في هذه الغائلة المجتاحة لعرشه وملكه ، فتطلبوا إليه أجرأ متميزاً عن سائر الأجر في الحالات العادية ، فوعدهم ذلك الأجر وزيادة « أنكم لمن المقربين » إلى البلاط الملكي أكثر مما كنتم من ذي قبل .

وهم على أية حال عملاء محترفون ، يحترفون السحر كما الكهانة على سواء ، والأجر هو هدف الإحتراف سواء في هذا أم في ذلك ، وهنا يعدهم الطاغية أجرأ أكثر من المأمول المعمول هو القريب منه زيادة في الإغراء، وهم كلهم جاهلون ذلك الموقف أنه موقف الآية الربانية التي لا يعالجها أي أجر وتقريب وإغراء .

وهنا « إن لنا لأجرأ » إخباراً دون إنشاء الاستدعاء ، مما يلوح بموقفهم المستعلي على فرعون لفاقته إليهم ، فقد فرضوا عليه في صيغة الإخبار الذي هو أكد من الإنشاء .

إذاً فهو إنشاء في صيغة الإخبار وكما الإنشاء في الشعراء : « أثن لنا لأجرأ .. » ^(١١٥) ، أم وهو إنشاء حذف أداته تلميحاً لأكد الإنشاء إذ هو بصيغة الإخبار .

﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين ^(١١٥) قال القوا فلما ألقوا سحروا أمين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾ ^(١١٦) .

هنا يُخير موسى بين تقديمه في إلقاءه وتأخره كتحدٍ جاهر في ذلك التخيير التحيير ، على تأدب ظاهر ، وهو يرجع تأخره عنهم لكي يأتوا بكل ما لديهم ثم يجتثه بأسره حيث يثق بنفسه كل الثقة مستهيناً بتحديدهم ، كما

هم كانوا واثقين لا يفرقون بين إلقاءهم أولاً وإلقائه ، ولو أنه تقدم ، ما كان هناك ظرف لما تقدمه أن يلقف ما يأفكون ، وهذه تكتيكة لصالح الحوار أن يتطلب صاحب الحق أن يتقدم محاوره بما عنده على البساط حتى يسهل له القضاء عليه ، تهديماً بكل صرحه ، وفصماً لكل طرحه ، وحسماً له عن بكرته ، فلذلك استهان بتحديثهم بكلمة واحدة تبدو فيها قلة مبالاته بهم : « قال ألقوا » ما عندكم من السحر « فلما ألقوا سحروا أعين الناس » دون عقولهم وقلوبهم العارفة أنها صورة دون حقيقة وسيرة « واسترهبوهم » طلباً لرهبتهم وهم لا يرهبون إلا ظاهرياً « وجاءوا بسحر عظيم » ما أعظمه بين مختلف ألوان السحر لحد « قالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون » (٢٦ : ٤٤) فما يصنع ساحر واحد مهما كان عظيماً أمام سحر هؤلاء العظماء من سحرة البلاد ١٩.

فأهم فاعليات السحر أن يسحر أعين الناس ويسترهبهم في المعاينة دون أي واقع وراء سحر الأعين ، وذلك من الفوارق العظيمة بين السحر والآية الربانية ، ولو استطاع ساحر أن يقلب واقعاً إلى آخر بسحرة لكانت السحرة المهرة الفرعونية تقلب التراب ذهباً دون طلب لأجر من فرعون ، أم ويقلبوا سلطان فرعون إلى سلطانهم فيتركوا عبوديته إلى حريتهم أنفسهم ، وقد أتينا بقول فصل حول الفوارق بين السحر والآية المعجزة في البقرة فراجع .

﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون ﴾ (١١٧) .

« ألق عصاك » إلغاء لما ألقوا من جبالهم وعصبيهم التي سحرت أعين الناس « فإذا هي تلقف » : أكلاً سريعاً حاذقاً خارقاً « ما يأفكون » دونما رجوع أو رجيع ، مما يؤكد أنها آية ربانية رسولية بعيدة عن حقل السحر ، حيث السحر يخيل - فقط - للأبصار ، والآية يحقق الحق للبصائر .

ذلك ، وحين تتغلب عصى موسى - وهي أدنى من آية القرآن بكثير - على ذلك السحر العظيم - وهو أعظم من أي سحر على الإطلاق - أفلا

يتغلب القرآن على أي سحر ؟

أجل وكما يروى أن قراءة مائة آية من أي القرآن شئت تبطل أي سحر كان وأيان ! .

ولقد كانت هذه جيئة فجیعة ومفاجئة مذهلة غير منتظرة للسحرة ، مما قلبهم ظهر بطن فما ملكوا أنفسهم إلا أن ألقوا ساجدين :

﴿ فوق الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴾^(١١٨) فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴿^(١١٩) .

أجل ، وان الباطل يتنفس قليلاً ثم يتنفس، ويسحر - فقط - العيون، وهو سحر عظيم ، يتنفس كالقنفذ وينطفئ كشعلة الهشيم تذرؤه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً .

أجل « فوق الحق » موقعة الباهر في ذلك المسرح العظيم أمام سحر عظيم « وبطل ما كانوا » هم أولاء الفرعونيون « يعملون » ويأملون إنكمماشاً بعد الزهو الذي سحر المليون وبهر أصحاب العيون « فغلبوا هنالك » أمام الجماهير المحشورة المحتشدة « وانقلبوا » إلى فرعون وعن حالتهم تلك الطاغية الباغية « صاغرين » : ذليلين، فأصبحوا صفر الكيان أمام هذه الآية الربانية العظيمة ، بكل صغار وهزيمة ، وقد حسم الموقف هنا :

﴿ وألقي السحرة ساجدين ﴾^(١٢٠) قالوا آمنا برب العالمين^(١٢١) رب موسى وهارون ﴿^(١٢٢) .

وتراهم من الذي ألغاهم فآلقاهم ساجدين لرب العالمين حيث النص « ألقى » مجهولاً دون « ألقوا أنفسهم » ؟ .

إنه هيئة الموقف الحق الباهر إذ عرفوا أنه ليس مما ألقوه، فالغاه موسى بما ألقاه ، فلم يتمالكوا أنفسهم إلا تساقطاً على الأرض سجّداً لله ، حيث الحق قد لمس عواطفهم ومس شغاف قلوبهم ، هزة مفاجئة أزالت عنهم كل ركامة عاشوها من ذي قبل ، فتحولوا بكل كيانهم إلى « ساجدين » ونطقت ألسنتهم كلمة الحق التي كانوا لها ناكسين فـ « قالوا آمنا برب

العالمين . وإنها صولة الحق الباهر في أعماق الضمائر والمشاعر ،
فالسحرة المهرة هم أعلم الناس بواقع فنههم غير الواقع ومدى ما بالإمكان
أن يبلغه من مبلغه ، وهم - أيضاً - أعرف الناس بالحق الذي جاء به
موسى ، والعالم في فنه هو أكثر الناس استعداداً لتقبل الحق ، وكما نرى
السحرة منقلبين من التحدي السافر الطليق إلى التسليم الظاهر الطليق
الحليق ، ما لا يزعه أي تهديد بليغ حقيق .

ولكي لا يخيل إلى الطاغية أنهم يعنونه بما قال : « أنا ربكم
الأعلى » واصفوه بـ « رب موسى وهارون » وهنا ينبري فرعون الطاغية
بتهديد شديد على السحرة الساجدين :

« قال فرعون ءآمتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في
المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون^(١٢٣) لأقطعن أيديكم وأرجلكم
من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين »^(١٢٤) .

« قال ءآمتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر
فسوف تعلمون، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين »
(٢٦ : ٥٩) .

ويكأن الإيمان أيضاً كسائر الأمور بحاجة إلى إذن ؟ وهو أمر قلبي !
فلأن ذلك البليد الطاغية هو الرب الأعلى بزعمه فلتكن أزمة القلوب طراً
بيده كما بيده سائر الأزمة .

هنا « ءآمتم به » تنديداً بنفس الإيمان ، وفي الشعراء « آمتم له »
تنديداً بشاكلة الإيمان ، أنه ليس إلا له ولصالحه، حسب المدبر المقرر
بينكم من مكر مكرتموه في المدينة .

وهنا يهرف بما يخرف أن ثعبان العصا « مكر مكرتموه في المدينة
لتخرجوا منها أهلها » تسمية للآية البينة الربانية سحراً لهدف قلب نظام
الحكم ، ولا يمكرون هكذا إلا إذا كان موسى معلمهم في السحر ، ومتى
كان معهم حتى يعلمهم السحر وهم كانوا سحرة قبل ولاده ؟ وحتى لو كان

معهم فهو متعلم منهم لأكثر تقدير ! .

ولأنه لمس منهم أنهم ليسوا ليغيروا مواقفهم بذلك التنديد أخذ في شديد التهديد : « لا قطعن . . » وهو عقوبة كانت تجري بأعصى العصاة البغاة ، ولو كان إيمانهم مكرراً لكانوا يتركون موسى إلى فرعون تائبين ، إذ لم تكن لموسى سلطة زمنية إلا هذه الآية ، فلو كانت سحراً لما كانوا يظلمون معه فيذلون ! .

فذلك الصمود رغم ذلك التهديد - وهم مهرة الفن - دليل قاطع لا مرد له أنهم أثبتوا دون ريبة أن الحق مع موسى الرسول ، فلا مرد لإيمانه به وله ولا تحويل ، ولكن الطاغية ليس ليدرك كيف يتسرب النور إلى القلب فيقلبه من علواء السوداء إلى علياءه البيضاء ، وهو يحسب القلب قالباً يتقلب بتقليبه ويتألب بتأليه ، وهو بين أصبعي الرحمن يقلبه كيف يشاء .

فيا ويلاه لفرعون صاحب العرش الروحي ! والزمني ، أن ينفلت من سلطة الكهنة السحرة الذين هم سناد الناس في التسليم لفرعته ، فماذا يصنع إذاً بالناس ولا حراس هنا بعدد عليهم لصالحه ولا إكتراس لأساس .

ذلك ومن دأب الفراعنة الذئاب أنهم يواجهون أندادهم بالتنكيل والتعذيب بعد ما كل دليلهم وعلل كليلهم فهم مفضوحون ، وهنا اليد السماوية تكسر اليد الأرضية حيث تنتصر في المسرح المصرع العقيدة الصالحة على كل زخرفات الحياة ، إحتقاراً للفناء الزائل البواء إلى جوار الخلود المقيم البقاء .

﴿ قالوا انا إلى ربنا منقلبون ﴾ (١٢٥) .

« منقلبون » إنقلاباً محتوماً مختوماً عن أي انغلاب ، لا يقلبنا عن ذلك الإيمان أي عامل قاس بأي مراس واكتراس ، حيث إن صاحب الإيمان السليم لا يفزع ولا يتزعزع أو يخضع ويخنع .

﴿ وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ (١٢٦) .

فنغمة النعمة ليست لمكر مكرناه ، إنما هي « أن آمنّا بآيات ربنا لما جاءتنا » فلا إيمان إلاّ به ، ولا ملجأ إلاّ إليه « ربنا أفرغ علينا صبراً » يشمّلنا ويغطّي علينا « وتوفنا مسلمين » صلّياً أم سواه .

وهنا يقف الطغيان حائراً ذعراً أمام صامد الإيمان ، أمام كامل الوعي والثقة والإطمئنان ، أمام القلوب التي خيل إلى الطاغية أنه يملكها كما يملك الأبدان ، وأنه موقف حاسم جاسم في تاريخ الإنسان يكرره القرآن بمختلف المجالات المؤاتية، فإنه يكرس انتصار الإنسان على الشيطان « فبأي آلاء ربكما تكذبان » ؟ .

فلقد أفلست المادية العمياء البكماء الصماء أمام الإيمان الصامد من هؤلاء السحرة المهرة الذين كانوا يسألون فرعون أجراً على عمالتهم ، حيث انقلبوا إلى مؤمنين مستعلين على الطاغية بكل جرأة واصطبار ، مستهينين بكل تهديد ووعيد ، صابرين على كل ألوان التنديد والتبديد ! .

وهنا يذهب التهديد هباءً ، ويتلاشى الوعيد سدىً ، ويمضي الإيمان الوضاء في طريقه الوضيء دون تفلّت ولا تلفت حيث لا يحيد والله من وراءهم رقيب عتيد^(١) .

وذلك درس لنا صائب أن ليس الكفر الحاضر دليلاً على سوء العاقبة كما الإيمان الحاضر لا يدل على حسن العاقبة ، فقد عاش سحرة فرعون كفراً « فرجعوا مؤمنين »^(٢) .

(١) راجع تفاصيل أكثر حول قصة موسى وفرعون إلى سورتي طه والشعراء .

(٢) نور الثقلين ٢ : ٥٦ في الكافي عن عبد الله بن القاسم عن أبي عبد الله (عليه السلام) عن أبيه عن جده (عليهما السلام) قال قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو- إلى أن قال - : « وخرجت سحرة فرعون يطلبون العزة بفرعون فرجعوا مؤمنين » وفيه عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ومن ذهب يرى أن له على الآخر فضلاً فهو من المستكبرين ، فقلت له : إنما يرى أن له عليه فضلاً بالعافية إذا رآه مرتكباً للمعاصي ، فقال : هيهات هيهات فلعله أن يكون غفر ما أتى وأنت موقوف تحاسب أما تلوت قصة سحرة موسى صلوات الله عليه ...

﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون ﴾ (١٢٧) .

علّ « الملأ » هنا هم « الملأ » هناك ، فاللأَم - إذاً - لعهد الذكر ، كما اللأَم في الأول للتعريف ، فهم ملأ معروفون بهذه الإستثمارات والشورآت العليا بشؤون الملك .

هنا لما خسروا صفقتهم تلك في إرجاء موسى لتلك المبارات الهامة ، لم يجدوا بداً من استئصال موسى والذين معه بدعوته ، وتساءلوا فرعون في شأنهم « أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض » ضد السلطة الروحية والزمنية الفرعونية « ويذرك » وأنت الرب الأعلى « وآلهتك » وهم أربابك المنتخبون « قال سنقتل أبناءهم » لكي يفنوا عن بكرتهم « ونستحيي نساءهم » إبقاء لهن أحياء وإزالة لحياءهن ، فماذا يبقى بعد لهم ؟ ثم « وإنا فوقهم قاهرون » برقابة قوية تامة طامة إياهم فلا يستطيعون حراكاً ولا عراكاً ضد سلطتنا .

وهذه سياسة مدروسة إبليسية لتضعيف ساعد الدين والدينين أن يقضى على المساعدين المناصرين للداعية ، فتخمد دعوته ، وتحمد دعايته ، فلا يقدر على تحريك ساكن أو إسكان متحرك .

وهذه مرحلة ثانية من مراحل القضاء الفرعوني على الدعوة الموسوية ، ومن ثم تصميم في الصميم ، خطوة ثالثة من الخطوات الإبليسية أن يقتل الداعية : « وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد » (٤٠ : ٢٦) .

وترى حين يدّعي « أنا ربكم الأعلى » فما هو موقف « آلهتك » ؟ قد تعني « آلهتك » الآلهة الفروع التي ادعى أنه ربهم الأعلى فهم الأذنون ، أم أن هذه الدعوى تأخرت عن هذا الموقف إلى موقف ثان وكما يلوح من آيتها : « فأراه الآية الكبرى ، فكذب وعصى . ثم أدبر يسعى . فحشش

فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى » (٧٩ : ٢٠ - ٢٥) .

فقول الملائكة : « وآلهتك » كان في الموقف الأول بعد خسارهم في المبارات ، وقوله : « أنا ربكم الأعلى » كان في حشر ثمان تجديداً للبيعة وقُبيل ما أخذه الله نكال الأولى حيث أغرقه وملاه .

وهكذا ترفع الطاغية الذي كان يحسبه في عداد سائر الآلهة أنه الرب الأعلى ، ثم خطوة ثالثة هي توحيد في ألوهيته : « وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري .. » (٢٨ : ٣٨) .

ولأنه في دعوى ربوبيته الأعلى ثم توحيد فيها يخاطب قومه ، فقد يعني أعلى الربوبيات وتوحيدها بين قومه فقط دون العالمين أجمعين ، وقد لا ينافي ذلك أن كانت لهم آلهة غيره ، حيث هو الأعلى وغيره الأدنى والأوسط ، وأنه الوحيد في الربوبية العليا .

وهنا الإفساد في الأرض المدعى على موسى لا يعني إلا الدعوة إلى توحيد الربوبية الذي يصادم ألوهة فرعون الأعلى وسواها ، وألوهة سائر الآلهة ، حيث التوحيد يعني - تلقائياً - بطلان شرعية الحكم الفرعوني وقلب نظامه عن بكرته .

فـ « لا إله إلا الله » تناقض تماماً « ما علمت لكم من إله غيري » فليقتض على كلمة التوحيد بداعييتها والذين معه استقلالاً للحكم الفرعوني فيبقى دون منازع ولا يند .

﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ (١٢٨) .

طمأننة بالغة من موسى الرسول لقومه المهتدين بتكرار العذاب المتواتر عليهم قبل أن يأتيهم ، وذلك على قواعد أربع يُبنى عليها صرح الإيمان والإطمئنان .

١ « استعينوا بالله » في هذه الورطة الحالكة الهالكة ٢ « واصبروا » في

الله على ما يصيبكم في سبيله ^٣ « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده »
وليس لأحد سواه ^٤ « والعاقبة » وهي الحياة العاقبة الصالحة هنا وفي
الأخرى « للمتقين » دون الطاغين ، والمصدق الأجل للحياة العاقبة هو
الدولة الأخيرة الموعودة لزمان القائم الموعود (ع) للمتقين ، كما في آيات
وروايات عدة ومنها ما يروى عن الإمام محمد بن علي الجواد
(عليه السلام) إجابة عن توبيخ هشام : « أيها الناس أين تذهبون وأين يراد
بكم ، بنا هدى الله أو لكم وينا يختم آخركم فإن يكن لكم ملك معجل فإن
لنا ملكاً مؤجلاً وليس بعد ملكنا ملك لأننا أهل العاقبة يقول الله عز وجل :
« والعاقبة للمتقين » .. » (١) .

فالاستعانة بالله في الهزاهز ، والصبر على المكروه وترك اللذائذ ،
هما مما يورثان أصحابها أرض الله وحسن العاقبة في الحياة ، ولكن قوم
موسى لم يكونوا بأقل شراسة ونحوسة من قوم فرعون حيث كانوا يواجهونه
بكل تاليب وتأنيب :

﴿ قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن
يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ (١٢٩) .

(١) نور الثقلين ٢ : ٥٧ في أصول الكافي عن أبي بكر الحضرمي قال : لما حمل أبو جعفر
إلى الشام إلى هشام بن عبد الملك وصار بيابه قال لأصحابه ومن كان بحضرته من بني
أمية : إذا رأيتموني قد وبخت محمد بن علي (عليهما السلام) ثم رأيتموني قد سكنت
فليقبل عليه كل رجل منكم فليؤذنه ، ثم أمر أن يؤذن له فلما دخل عليه أبو جعفر
(عليه السلام) قال بيده : السلام عليكم فعمهم جميعاً بالسلام ثم جلس فازداد هشام
عليه حقاً بتركه السلام عليه بالخلافة وجلسه بغير إذن فأقبل يؤذنه ويقول فيما يقول له :
يا محمد بن علي لا يزال الرجل منكم قد شق عصي المسلمين ودعى إلى نفسه وزعم أنه
الإمام سفهاً وقلة علم ويؤذنه بما أراد أن يؤذنه فلما سكنت أقبل عليه القول رجل بعد
رجل يؤذنه حتى انقضى آخرهم فلما سكنت القوم نهض (عليه السلام) قائماً ثم قال :
أيها الناس ... فأمر به إلى الحبس ...

فَجِئْتُكَ فجميعاً كما قبل جيشك ، فهما سواءاً لنا فما هي عائدتك وفائدتك حتى نطمئن بها ونؤمن لك ؟ » قال : « لا تستعجلوا ناظرين إلى عجلة الأمر ، مع أنها تبني إجالتكم حيث تغلبنا على فرعون في المباراة وذلك حاضرة جيئتي . وأما مستقبلها فـ « عسى ربكم أن يهلك عدوكم » على طوله وحوله وقوته وضعفكم ثم « ويستخلفكم في الأرض » بديله « فينظر كيف تعملون » بعد ما يعلم كيف تعملون .

ذلك « وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء » (٣ : ١٤٠) و « الدهر يومان لك ويوم عليك فإذا كان لك فلا تبطر وإذا كان عليك فاصبر فب كلاهما ستختبر » .

هذا ، ولقد بدأوا موسى الرسول (عليه السلام) بهذه القولة اللأذعة وهو يُطمئِنهم ويأمرهم ويرجئهم برحمة من الله . ولكن لا حياة لمن تنادي ، فإسرائيل هي إسرائيل صَلَّيْته صَلَّيْته وَفَقْحة !

وهنا بعد ما يعدهم موسى باستخلاف الأرض ينبههم أنه إبتلاء من الله دون فوزى جزاف ، وإدعاء أنهم أبناء الله وأحباؤه !

وترى « تعملون » تختص بعمل الجوارح ؟ إنه حين يقرن بقال أو حال ، يعني عمل الجوارح ، وهو الطليق عما سواه يعم مثلث الأعمال قالاً وحالاً وأعمالاً .

وقد روي عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الإجابة عن سؤال : أخبرني أي الأعمال أفضل عند الله ؟ قال : ما لا يقبل الله شيئاً إلا به ؟ قيل : وما هو ؟ قال : الإيمان بالله الذي لا إله إلا هو أعلى الأعمال درجة ، وأشرفها منزلة ، وأسنأها حظاً -

قيل : ألا تخبرني عن الإيمان أقول هو وعمل ، أم قول بلا عمل ؟ فقال : الإيمان عمل كله ، والقول بعض ذلك العمل بفرض من الله بين في كتابه ، واضح نوره ، ثابتة حجته ، يشهه له به الكتاب ويدعوه إليه -

قيل : صفه لي جعلت فداك حتى أفهمه ؟ قال : الإيمان حالات

ودرجات وطبقات ومنازل ، فمنه التام المنتهي تمامه ، ومنه الناقص البين نقصانه ، ومنه الراجح الزائد رجحانه -

قيل : إن الإيمان ليتم وينقص ويزيد ؟ قال : نعم ، قيل : كيف ذلك ؟ قال : لأن الله تبارك وتعالى فرض الإيمان على جوارح ابن آدم وقسمه عليها وفرقه فيها ، فليس من جوارحه جارحة إلا وقد وكلت من الإيمان بغير ما وكلت به أختها : فمنها قلبه الذي به يعقل ويفقه ويفهم ، وهو أمير بدنه الذي لا ترد الجوارح ولا تصدر إلا عن رأيه وأمره ، ومنها عيناه اللتان يبصر بهما ، وأذناه اللتان يسمع بهما ، ويداه اللتان يبطش بهما ، ورجلاه اللتان يمشي بهما ، وفرجه الذي البأه من قبله ، ولسانه الذي ينطق به ، ورأسه الذي فيه وجهه -

فليس من هذه جارحة إلا وقد وكلت من الإيمان بغير ما وكلت به أختها ، بفرض من الله تبارك اسمه ، ينطق به الكتاب لها ، ويشهد به عليها -

ففرض على القلب غير ما فرض على السمع ، وفرض على السمع غير ما فرض على العينين ، وفرض على العينين غير ما فرض على اللسان ، وفرض على اللسان غير ما فرض على اليدين ، وفرض على اليدين غير ما فرض على الرجلين ، ... فأما فرض القلب ... (١) .

﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾ (١٣٠) .

هذه الآية والخمس الآتية هي آيات ست لفرعون وملائه ، ثم وآيات تسع لبني إسرائيل وكما قال الله : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات . . . » (١٧ : ١٠١) والجمع بينها وبين هذه الست بيناه على ضوء الآية في الأسرى (٢) .

(١) الكافي ٢ : ٣٣ - ٣٧ وفيه تفاصيل وظائف الجوانح والجوارح .

(٢) ج ١٥ : ٣٦١ - ٣٦٣ فراجع .

ذلك من مشارف إهلاكهم كما وعد الله « عسى ربكم أن يهلك عدوكم » و « السنين » جمع السنة ولكنها هنا سنة الجذب فإنها هي من أخذة العذاب، دون أصل السنة الشامل لكل الكائنات ، ثم وهي الجذب المتراوح سنة دون سنة كسنين يوسف ، وكما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : « اللهم إجعلها عليهم سنيئاً كسنين يوسف » .

وسني الجذب والقحط في أرض مخصبة معطاء كمصر تبدو ظاهرة قاهرة تلفت الإنظار ، أنها الإنذار الداعي لليقظة بعد النوم والنبهة بعد الغفلة ، فلو أن فرعون هو الرب الأعلى فكيف عجز عن إستمرارية الجذب الذي هو قضية طبيعة الأرض المصرية ؟ .

ثم « ونقص من الثمرات » وعلها تجمع إلى ثمرات الزروع والأشجار وسائر الثمار التجارية والصناعية ، ثمرات الأولاد ، عكسية ماثلة بين أيديهم بما قتلوا أبناء بني إسرائيل واستحيوا نساءهم جزاءً وفاقاً . فأين إذا « ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي » (٤٣ : ٥١) وقد كان يعرضها بمعرض الناس دليلاً على رجاءه على موسى « أم أنا خير من هذا الذي هو مهين . ولا يكاد يبين » (٤٣ : ٥٢) .

هنا عجالة يأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات دون أن يستأصلهم بأسرهم ، إجابة للنظر في سنن الله بوعدته ووعيده ، ولكنهم لغفل حسهم وانقلاب فطرتهم وعقليتهم لم يكونوا ليتنبهوا إلى العلاقة الوطيدة بين كفرهم وطغيانهم وبين أخذهم بالسنين ونقص من الثمرات في مصر التي كانت ولا تزال تفيض بالخصب والعطاء، إلا ما كان زمن يوسف تذكيراً للسلطة الجبارة ، وفسحاً لمجال الدعوة الربانية ليوسف .

ذلك ، بل هم زادوا غباوة وطغياناً على ضوء السنين ونقص من الثمرات :

﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطَّيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ (١٣١) .

فمن « الحسنة » سنة الإخصاب وتعام الثمرة ، كما من « السيئة »

سنة الجذب ونقص من الثمرات ، فعند مجيء الحسنة « قالوا لنا هذه » حسنة مستحقة بكل جدارة ولباقة ، ثم عند مجيء السيئة « يطثروا بموسى ومن معه » أنه هو سبب السيئة « ألا » أيها النابهون « إنما طأثركم عند الله » يجازيهم به سيئةً بسيئة ، وهكذا كانوا يعللون مختلف الأحداث « حسنة وسيئة » تعليلاً عليلاً كليلاً خلواً عن الواقعية عقلية وعلمية وعقيدية وطبيعية ، فما هي القاعدة التي تحكم بأن الحسنات في الحياة هي مستحقة للجبارين الطالحين ، ثم السيئات فيها هي من مخلفات دعوات الصالحين ، اللهم إلا هياماً مع الخرافة في دروب ملتوية متفرقة لا تلتقي عند قاعدة ولا تجتمع وفق نظام ، فاللهم إلا الصدفة العمياء الفوضى الجزاف كما قاله خروشوف صاحب الاشتراكية العلمية عن معاكسات الطبيعة في تعليل نقص الثمرات والغلات ، ومع كل هؤلاء الذين يمشون مع هذه « العلمية » الجاهلية غابرة وفي القرن العشرين ، المدعاة في تعليل الحوادث بهذه النظرة القاصرة الباسرة : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » !

هكذا يتطير المجاهيل في تيارات الحوادث والكوارث أنها من نكبات حملة الدعوات الربانية ، فالحسنة التي تجيئهم هي من حسن حفظهم المستحق ، والسيئة هي من شؤم من يخالفهم في شهواتهم وحيواناتهم وإباحياتهم الطليقة ! .

وهكذا نجد كل طغاة التاريخ على مدار الرسائل الربانية ، ففي صالح لما « قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون »^(٤٦) قالوا آطئركم بك وبمن معك قال طأثركم عند الله بل

أنتم قوم تفتنون » (٢٧ : ٤٧) .

وفي رسل المسيح (عليه السلام) : « قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب اليم »^(٤٨) قالوا طأثركم معكم أئن =

ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون » (٣٦ : ١٩) .

فالقرآن يبين كلمة واحدة أن طائر كلٍ معه وعند الله ، معه بما عمل ويستحقه ، وعند الله بما يحققه علماً وجزاءً وفاقاً هنا وفي الأخرى « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . إقرء كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » (١٧ : ١٤) : « ولكن أكثرهم لا يعلمون » وأقلهم يعلمون ولكنهم على علمهم يجحدون ، و « لا يعلمون » هنا جهالة عن تقصير يندد بها كما يندد بالعالمين .

فالطائر هو العمل اعتباراً بطيرانه إلى الغير أم إلى القضاء كما يخيل إلى المجاهيل ، واعتباراً بطيرانه إلى نتائجه هنا وفي الأخرى لأنه لا يفنى ولا يطير إلى غير عامله ، كما يقول الله (١) .

فالتطير بالغير هو تخيل أن شؤم الغير بعمله يطير إلى غير عامله ، فلما كانوا يتشأمون بدعات الحق ، كانوا يحسبون كل سيئة تصلهم أنها من جرأ شؤم هؤلاء الأكارم ، وكل حسنة هي مستحقة لهم أنفسهم وهكذا زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين » .

ذلك ، ولم يكتفوا في هذه الخطوة الثانية الخاطئة - بعد رمي موسى بالسحر - إلا أن غالوا في عتوهم :

﴿ وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا فما لنا نحن لك بمؤمنين ﴾ (١٣٢) .

وهنا يسمون ما يأتي به موسى « آية » هزءً ومهانة بها حيث تعقبها « لتسحرنا بها » أم وإيقاناً بها حيث « جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً » (٢٧ : ١٤) فقد صدوا على أنفسهم كل منافذ النور والإيمان حيث

(١) وأصل التطير ما كان الجاهليون في وثنيتهن يزاولونه فقد كان منهم من إذا أراد أمراً جاء إلى عش طائر فهبجه عنه فإذا طار عن يمينه - وهو السانح - استبشر بذلك ومضى في الأمر الذي يريده وإذا طار الطائر عن شماله - وهو البارح - تشأم به ورجع عما عزم عليه فأبطل الإسلام هذا التفكير الخرافي وأصل محله التفكير العلمي الصحيح والعمل ، وقد شرحنا حول الطائر على ضوء آية الأسرى فراجع .

حلّقوا ذلك النكران على كل آية دونما إستثناء « فما نحن لك بمؤمنين » إعلاناً جاهراً بكفر طليق على آية حال ، إذاً فهنا إستحقاق عذاب الإستئصال دون إبقاء لأي مجال ، ولكن الله يمهّلهم - مع الوصف - حتى حين :

﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ (١٣٣) .

ففي خِصْمٍ خماسية هذه الآيات المفصلات خماسيتهم إستئصالاً لعلائهم أمامها حتى تطلّبوا إلى موسى أن يكشف عنهم الرجز فيؤمنوا ولكنهم ناكثون ! .

و « الطوفان » من الطوف ، ففعلانه طوف بالغ لا مرد عنه ، وهو يشمل طوفان الماء كما كان لقوم نوح ، وطوفان الريح الشديدة الحاملة لما تحمل من غبارات وقذارات ، فقد طاف بهم الطوفان فاستأصل كل رياحة عن حياتهم ، وهكذا سائر الخمسة من الرجز .

و « آيات مفصلات » قد تعني إلى فصل بعضها عن بعض دون وصل ، تفصيل كون كل واحدة منها آية مستقلة دون أن تكون لزاماً من خلفية الأخرى ، كما ولا صلة بين هذه الخمس في مظاهر عللها الطبيعية ، ومفصلات مبيّنات في الدلالة على كونها آيات الله .

ومن كونها مفصلات أن كلّ كانت تأتي بفصل خاص خطوة خطوة ، من دان إلى عال إلى أعلى ، فقد كان « الدم » أعلاها عذاباً و « الطوفان » أدناها، وبينهما متوسطات، كما هي طبيعة الحال في البلوى ليدكروا بها .

وما أنسبها خماسية العذابات هذه، خماسية اللعنات في هؤلاء الأنكاد ، فالطوفان المدمر لأنهم كانوا طوفاناً يدمّر الحق وأهله ، والجراد حيث يجرد الثمر ، إذ كانوا يجردون الحياة الإنسانية عن ثمرتها السامية ، والقمل حيث تمتص الدم وتؤذي صاحبه وهي تسكن مساكن القذارات ، وهم يمتصون دماء الحياة ويؤذون ذوي الحياة ، والضفادع إذ ضفدعوا : متقبضين منكمشين أمام الحق ، والدم إذ كانوا دماءً يسيلونها في سبيل الباطل : « آيات مفصلات » عن السحر ، مبيّنات لإحقاق الحق

« فاستكبروا » عن الخضوع لها « وكانوا قوماً مجرمين » يجرمون ثمرة الحياة قبل إيناعها ، نكراناً للآيات على إلتماعها .

هناك « أخذنا آل فرعون بالسنين » وهنا « أرسلنا عليهم الطوفان . . » تختصان هذه العذابات الست بهم دون بني إسرائيل على اختلاطهم بهم ، مما يدل على أن هذه لم تكن لهم عذاباً وإنما هي لهؤلاء ، فقد تصدق الرواية أن القبطي كان يأخذ الماء من النيل دماً أحمر له طعمه ولونه ، والإسرائيلي يأخذه منه ماءً فرائاً له طعمه ولونه ، وهكذا الطوفان والجراد والقمل والضفادع إذ لم تكن تؤذي الإسرائيليين ! ، وكانت تستأصل كل رياحه عن حياتهم أولئك اليومية، حتى اضطروا على فرعتهم وغرورهم أن يلتجئوا إلى موسى لما وقع عليهم ذلك الرجز العذاب الأليم ^(١) :

(١) نور الثقلين ٢ : ٥٨ علي بن إبراهيم بإسناده عن أبي جعفر وأبي عبد الله (عليهما السلام) - دخل حديث بعضهم في بعض - قالوا : لما آمنت السحرة فرجع فرعون مغلوباً وأبى هو وقومه إلا الإقامة على الكفر قال همام لفرعون : إن الناس قد آمنوا بموسى فانظر من دخل في دينه فاحبسه فحبس كل من آمن به من بني إسرائيل فتابع الله عليهم بالآيات وأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات ثم بعث عليهم الطوفان فخرّب دورهم ومساكنهم حتى خرجوا إلى البرية وضربوا الخيام وامتلات بيوت القبط ماءً ولم يدخل بيوت بني إسرائيل من الماء قطرة وقام الماء على وجه الأرض لا يقدرّون على أن يحرثوا فقالوا لموسى : ادع لنا ربك أن يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فكف عنهم الطوفان فلم يؤمنوا وقال همام لفرعون : لئن خليت بني إسرائيل غلبك موسى وأزال ملكك وانبت الله لهم في تلك السنة من الكلاء والتمر والزروع والتمر ما أعشبت به بلادهم واخصبت فقالوا : ما كان هذا الماء إلا نعمة علينا وعصياً فأنزل الله عليهم في السنة الثانية - أو في الشهر الثاني - الجراد فجردت زروعهم وأشجارهم حتى كانت تجرد شعورهم ولحاهم وتآكل الأبواب والثياب والأمتعة وكانت لا تدخل بيوت بني إسرائيل ولا يصيبهم من ذلك شيء فعجوا وضجوا وجزع فرعون من ذلك جزعاً شديداً وقال يا موسى ادع لنا ربك أن يكف عن الجراد حتى أخلي عن بني إسرائيل فدعى موسى ربه فكف عنه الجراد بعد ما أقام عليه سبعة أيام من السبت إلى السبت ، فأنزل الله عليهم في السنة الثالثة - أو الشهر الثالث - القمل وهو الجراد الصغير لا أجنحة له وهو شر ما يكون وأخبث فأتى على زروعهم كلها وأفناها من أصلها فذهبت زروعهم ولحس الأرض =

﴿ ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى أدع لنا ربك بما عهد عندك
لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل ﴾ (١٣٤) فلما
كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم يشكثون ﴿ (١٣٥) .

« الرجز » هنا هو الحياة البئيسة التعيسة النكدية النكبة من جراء
خماسية العذاب « قالوا يا موسى » وقضية الجمع أن يكون فرعون بماله

= كلها . . . وأخذت أشعارهم وأبشارهم وأشفار عيونهم وحواجيبهم ولزمت جلودهم كأنه
الجذري عليهم ومنعتهم النوم والقرار فصرخوا وصاحوا فقال فرعون لموسى : ادع لنا ربك
لئن كشفت عنا القمل لأكفن عن بني إسرائيل فدعا موسى (عليه السلام) حتى ذهب
القمل بعد ما أقام عندهم سبعة أيام من السبت إلى السبت فنكثوا فأنزل الله عليهم في
السنة الرابعة - أو الشهر الرابع - الضفادع فكانت يكون في طعامهم وشرابهم وامتلات منها
بيوتهم وآنياتهم فلا يكشف أحد ثوباً ولا إناء ولا طعاماً ولا شراباً إلا وجد فيه الضفادع
وكانت تثب في قدورهم فتفسد عليهم وكان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع وبهم أن
يتكلم فيشب الضفدع في فيه ويفتح فاه لأكله فيسبق الضفدع أكلته إلى فيه فلقوا منها أذىً
شديداً فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا إلى موسى (عليه السلام) وقالوا : هذه المرة نتوب ولا
نعود فداع الله أن يذهب عنا الضفادع فإنا نؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل فأعذ
عهودهم ومواثيقهم ثم دعا ربه فكشف عنهم الضفادع بعدما أقام عليهم سبعة من السبت
إلى السبت ثم نقضوا العهد وعادوا لكفرهم فلما كانت السنة الخامسة أرسل عليهم الدم
فقال ماء النيل عليهم دماً فكان القبطي يراه دماً والإسرائيلي يراه ماءً فإذا شربه الإسرائيلي
كان ماءً وإذا شربه القبطي كان دماً وكان القبطي يقول للإسرائيلي : خذ الماء في فيك
وصبه في في فكان إذا صبه في فم القبطي تحول دماً وإن فرعون اعتراه العطش حتى أنه
ليضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة فإذا مضغها يصير ماءها في فيه دماً فمكثوا في ذلك سبعة
أيام لا يأكلون إلا الدم ولا يشربون إلا الدم - قال زيد بن اسلم : الدم الذي سلط عليهم
كان كالرغاف - فأتوا موسى (عليه السلام) فقالوا : أدع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم
فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فلما دفع الله عنهم الدم لم يؤمنوا ولم يخلوا عن بني
إسرائيل ، أقول : والمقبول من هذه الرواية وأمثالها ما لا تخالف القرآن وإن لمحة
وإشارة ، فقد كثرت الإسرائيليات في أحاديثنا لحد ما نجى أى كتاب حديث وفقه وتفسير
عنها فلتتجرد لما يوحيه لنا القرآن ، ولنجرده عن التفسير التي تخالفه أم لا توافقه إذ لا
تواتر لنا إسلامياً يعلو القرآن أم يساميه ويوازيه ، فليطرح كل حديث يحدثننا بما لا يصدقه
القرآن .

معهم « ادع لنا ربك » وذلك سوء أدب معه أنه تعالى فقط ربه لا وربهم « بما عهد عندك » من إجابة الدعاء خارقة للعادة كما عودتنا « لئن كشفت عنا الرجز - بدعاءك - لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل » وعدان إثنان هما العصب الحساس ضد ما تعصبوا عليه من الكفر والإستعباد « فلما كشفنا عنهم الرجز » بدعاء موسى فالكاشف - إذاً - هو الله دون موسى ، وتلك كانت غلطة غليظة ، « لئن كشفت » كـ « ربك » ، « كشفنا .. إلى أجل هم بالغوه » ، وهو المهلة التي بلغوها ولمّا يؤمنوا « إذا هم ينكثون » ما عاهدوا ، وهذه المهلة هي بين ما أمهلهم موسى إياها أم هم أمهلوا أنفسهم فيها ، وعلى أية حال كان أجلاً هم بالغوه بطبيعة الحال وقبل أن يفرقوا عن آخرهم في تقدير الله .

ذلك وقد تحتل « بما عهد عندك » إلى عهد إجابة الدعاء ، أصل الرسالة التي هي عهد خاص من الله ، والباء بين سببية فد « ادع » بسبب الرسالة التي هي أزلف الزلفى إلى الله ، وقسم . فد : قسماً برسالتك من الله إن كنت رسولاً ، كما وأن « ما » تحتل الموصوفة إلى الموصولة ، فلقد كانوا يناقضون في أقوالهم بمختلف حالاتهم ، فتارة ينكرون رسالته وأخرى يتعلقون بها في قضاء حاجاتهم الضرورية ! .

فلقد كانوا يلجأون إلى موسى ، يتطلبون بإصرار تحت ضغط البلية الفاضحة الفادحة ، يعدونه الإيمان له وأن يرسلوا معه بني إسرائيل إذا أنجاهم منها بدعائه فد « إذا هم ينكثون » ! .

ذلك ، فلما إنتهى أمر الإبتلاء إلى ما لا منفذ فيهم بها من الذكرى فلم يبق مجال إلا إستئصالهم ، تطهيراً للأرض عن هؤلاء الأنكاد البعاد :

﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ (١٣٦) .

ذلك وليس انتقام الله منهم وممن سواهم عجزاً منه وتحسراً ودفاعاً عن نفسه ، إنما هو إصلاح للأرض بإزالة المفسدين الذين لا يرجى منهم أي خير إذ صدوا على أنفسهم كل منافذ النور والهدى .

فقد « كذبوا بآياتنا » كلها رسولية ورسالية ، آفاقية وأنفسية « و » الحال أنهم « كانوا عنها غافلين » عن عمد وتقصير ، فالغفلة العائدة العائدة ليست بالتى يُعفى عنها في شرعة العدل والحكمة ، إنما هي الغفلة القاصرة على قدر القصور فيها ، فهذه هي ضفة الكفر والنكران ، فإلى ضفة الشكر والإيمان :

﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ (١٣٧) .

إن « كلمة ربك الحسنى » شملت بني إسرائيل لإيمانهم وأنهم « القوم الذين كانوا يستضعفون » ثم « تمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا » فمثلث الإيمان المستضعف الصابر هي هندسة تمام كلمة ربك الحسنى ، فلذلك أورثناهم مشارق الأرض المقدسة ومغاربها التي باركنا فيها ، وفي الطرف المقابل للإيمان الاستكبار وعدم الإصطبار « دمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه » من صناعات « وما كانوا يعرشون » من بنايات وجنات معروشات مركز تحقيق كميون علم ربي

ذلك وبركات الأرض التي باركنا - وهي مصرُ القدس الكبير، وهو فلسطين الكبير بما فيه سوريا والأردن ولبنان - هي من ناحيتي القدسية الروحية والمادية ، فقد بعث أكثر المرسلين منها ودفنوا فيها ، ثم البركات المادية هواء وماء وكلاء وسائر الإخصاب نجدها فيها أكثر من غيرها .

صحيح أن الأرض المباركة والمقدسة هنا في القرآن هي فلسطين الكبير ، ولكن « أورثنا » هنا تشمل مصر حيث كان فيها فرعون وقومه ، فقد سيطرهم الله على مصر وما والاها وفلسطين وما والاها ولا سيما في زمن داود وسليمان .

وقد نحتمل قوياً أن يعنى من « مشارق الأرض ومغاربها » إلى محال وراثتهم محال استضعافهم .

إذاً فـ « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون » في مشارق الأرض

ومغاربيها « أورثناهم » مشارق الأرض ومغاربها ، فهم أورثوا نفس الأرض التي استضعفوا فيها وهي مصر ، ولأن « الأرض » طليقة هنا من حيث الإيراث مهما كانت مختصة بمصر من حيث الاستضعاف ، إذاً فمحل إيراثهم أوسع من محل استضعافهم ، ولكنها ليست كل الأرض لمكان « التي باركنا فيها » فهي الأرض المقدسة التي كتب الله لهم .

و« كلمة ربك الحسنی » هي التي قالها لهم موسى ، منها : « عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون » وقال من ذي قبل « ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين . ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » (٢٨ : ٦) مهما كانت الأرض هنا لأصحاب المهدي (عج) كل الأرض ، ولذلك أطلقت حتى تشملها ، فقد تمت هذه الكلمة الحسنی عليهم في إيراثهم بمصر أولاً ثم في الأرض المقدسة التي كتب الله لهم ، ولكن ليست بجدارة طليقة كيفما كان عملهم ، وإنما « فينظر كيف تعملون » وكان عملهم الأول كفراً وكفراناً لهذه الحسنی فقابلهم الله بمثل ما عملوا :

﴿ وجاوزنا بني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون » (١٣٨) .

« وجاوزنا بني إسرائيل البحر » وهو أليم الذي أغرق فيه آل فرعون إذ ضرب لهم موسى بأمر الله طريقاً يَساً حيث انفلت فكان كل فرقي كالطود العظيم ، وعلى أية حال « جاوزنا ... » .

« فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم » إذ كانوا من المشركين الرسميين « قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة » وهم موحدون حسب الدعوة الموسوية ، ولكنهم منحازون إلى المادة لحد رغبتهم في عبادة الأصنام « قال إنكم قوم تجهلون » تفعلون جهالة عريقة عميقة بعد ما رأيتم آيات الله البيّنات لكم على قوم فرعون .

فحين يقول بعض اليهود لعلي أمير المؤمنين (عليه السلام) : ما دفتم نبيكم حتى إختلفتم ؟ يقول له : إنما اختلفنا عنه لا فيه ، ولكنكم ما جفت أرجلكم من البحر حتى قلتم لنبيكم : إجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون !^(١) .

وذلك أول ما نظر الله كيف يعملون بعدما تمت كلمة ربك الحسنى عليهم بما صبروا ، وإلى أمثاله المسرودة مفصلاً في الذكر الحكيم بطيات آياتها .

لقد تمت مواجهة موسى آل فرعون بما أغرقوا ، فلا يواجه بعد اليوم طاغوت فرعون وملاه ، ولكنه تواجهه معركة أخرى مع أقرباءه بعد أغرباءه هي أشد منها وأقسى وأنكى منها وأشجى وأطول أمداً ، حيث يواجه بني إسرائيل برواسب الذل الذي أفسد سميتهم من ناحية ، ورواسب الوثنية التي أفسدتهم من أخرى ، وكذلك الإلتواء والقسوة والضعف والجبن عن حمل التبعات مع الذعر الدائم والتوقع القائم للبلاء .

ذلك رغم أنهم في الأصل على دين التوحيد، ولكنهم رغم ذلك كانوا قوماً ماديين يعيشون أصالة الحس والمادة دون عناية إلى ما وراءها إلا تشريعاً دون أصالة ، كهالة قدسية لتبدل إلى حالة عقيدية راسخة ، وكما هو الظاهر من التوراة المحرفة حيث حرفوا لاهوت الألوهية إلى شاكلة إنسان له ما لسائر الإنسان، ولكنه أقوى، أم وهو أضعف أحياناً من إنسان، كما في قصة فنوئيل حيث تقول صارعه يعقوب فصرعه فاقتضى منه بركة النبوة حتى يخلصه فتقبل فنجي .

وتراهم طلبوا إليه أن يجعل لهم إلهاً بديل الله هو كما الله ؟ والإله المجمعول لموسى ليس إلا من خلقه وإخلاقه فكيف يكون إله العالمين ! .

(١) نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) وفي تفسير البرهان عن محمد بن شهر آشوب أن رأس الجالوت قال لعلي (عليه السلام) : لم تلبثوا بعد نبيكم إلا ثلاثين سنة حتى ضرب بعضكم وجه بعض بالسيف ؟ فقال علي (عليه السلام) : وأنتم لم تجف أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم : إجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة .

القصد هنا هو ألوهية المعبودية تقرباً بالآلهة إلى الله زلفى كما يقولها سائر المشركين : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » فأجيبوا بـ « إنكم قوم تجهلون » المقاييس والموازن أن تعبدوا غير من خلقكم وفضلكم على العالمين ! .

فعملية إستصلاح نفوس بني إسرائيل من ذل الطاغوت الفرعوني هي التي سيواجهها موسى (عليه السلام) منذ الآن بعد خروجه ببني إسرائيل من مصر وتجاوزهم البحر ، وهذه النفوس البئيسة التعيسة ستواجه الحرية الحقبة بكل رواسب الذلة والمسكنة ، وتواجه الرسالة بكل رواسب الجاهلية بكل خلفياتها ، بل وأنحس منها ، فإن سحرة فرعون آمنوا بعدما رأوا آية ثعبان العصا واليد البيضاء وهم لم يؤمنوا بعدما رأوا كل الآيات الموسوية وهي بضع عشرة آية ، اللهم إلا قليل منهم وفي لرعاية الحق .

وما هم ما أن يجاوزوا البحر حتى تقع أبصارهم على قوم يعكفون على أصنام لهم ، وإذا هم يطلبون طلبهم ، ويغلبون أمام الأصنام غلبهم ، حيث يطلبون من موسى رسول التوحيد من رب العالمين أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة . طبيعة مخلخلة العزيمة ، سريعة الهزيمة ، ضعيفة الروح ، قوية الشكيمة ، ما تكاد تهتدي حتى تضل ، وما ظلت ترتفع وتزيد حتى تنحط وتقل ، فأين الدعوة التوحيدية الموسوية قرابة عشرين سنة أم تزيد ، فقد نسوا آياته الرسولية والرسالية ، وحتى التي أنجتهم في اللحظة الأخيرة إذ جاوز بهم البحر بعد ما أغرق فرعون وملأه ! ولو أنهم اتخذوا لأنفسهم إلهاً لكان أقل غرابة وعتامة من أن يطلبوا إلى رسول التوحيد أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة ! وما كان جوابهم المختصر المحتصر عجالة إلا « قال إنكم قوم تجهلون » تجهلون كافة المعالم الإنسانية والإيمانية ، فـ « تجهلون » من الجهالة ضد المعرفة ، ومن الحماقة ضد العقل ، ومن البلاهة ضد الشعور ، فما ذلك التقول التغول إلا من أحقق الحماقة وأعطق الجهالة والبلاهة إلى غير حدود ! .

ذلك وحق يقال إنهم أحقق وأعمق جهالة من آل فرعون المشركين إذ صمدوا على باطلهم ولم يهتدوا ولا مرة واحدة أن يوحدوا الله ، وهم أولاء .

الأنكاد البعاد عشيرة التوحيد وقد عاشرهم رسول التوحيد عشرين وما زاد ، ومن قبل كان منهم رسل التوحيد تترى ، ثم بلحظة ما عندما نجوا ، بدلاً أن يشكروا الله ويوطدوا توحيدهم تطلبوا إلى رسول التوحيد أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة ! .

ولقد استحقوا بذلك التطلب الهراء الخواء ثلوثاً من « تجهلون - إن هؤلاء متبر ما هم فيه - أغير الله أبغىكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين » وقد حفل سلباً لألوهة غير الله بالأوليين وإثباتاً لألوهة الله بالآخرين :

﴿ إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾ (١٣٩) .

جملة معترضة إعتضت بين قالتي موسى لهم ، تجمع في تنديدها بني إسرائيل إلى آل فرعون ، ف : يا بني إسرائيل « إن هؤلاء » الفرعونيين وسائر الوثنيين « متبر » منقطع « ما هم فيه » من عبادة آلهة دون الله « وباطل ما كانوا يعملون » .

وماكل من يسمع إلى هذه القصة « إن هؤلاء » من بني إسرائيل ... فهم قوم بوار تبار حيث تركوا عبادة الله الواحد القهار إلى عبادة خلقه الضعاف النحاف .

﴿ قال أغير الله أبغىكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين ﴾ (١٤٠) وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴿ (١٤١) .

فيا سبحان الله قوم أنجاهم الله من عبودية الطاغية ، وجاوز بهم البحر وأهلك عدوهم وأراهم الآيات العظام ثم سألوا رسول التوحيد الشرك دون فصل ! ولقد جاء من نظراءهم بصورة أخف من هذه الأمة حيث « خرجنا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل حنين فمررنا بسدة فقلت يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط ، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدة ويعكفون حولها - وكانت تعبد من دون الله - فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى : إجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ،

إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم» (١).

فيا أغبياء ! « أغير الله أبغي إلهاً » لكم « وهو » الذي « فضلكم على العالمين » بمكرمات « و » اذكر منها « إذ أنجيناكم من آل فرعون . . وفي ذلكم » السوم من العذاب « بلاء من ربكم عظيم » حيث إبتلاككم به لردح من الزمن ثم تمت كلمة ربك الحسنی على بني إسرائيل لينظر كيف يعملون .

هنا عرض لقصة المواعدة الموسوية وفي طه مثلها باختلاف يسير في التعبير ، وبينهما بعض الميزات الخاصة بكل فصلنا التي لـ « طه » فيها ، وهنا قول فصل حول آيته ما يخصها .

﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون آخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ (١٤٢).

هنا عديد المواعدة مذكور دون « طه » : « وواعدناكم جانب الطور » (٢٠ : ٨٠) ولكنها في البقرة : « وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » (٢ : ٥١) .

فـ « أربعين » هناك هي مجموع المواعدتين المتصلتين ، و « ثلاثين » هنا هي ظاهرة أولى للمواعدة دون حصر حيث « وأتممناها بعشر فتم ميقات

(١) الدر المنثور ٣ : ١١٤ عن أبي واقد الليثي قال : خرجنا . .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني من طريق كثير بن عبد الله بن عوف عن أبيه عن جده قال : غزونا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عام الفتح ونحن ألف ونيف ففتح الله له مكة وحينئذ حتى إذا كنا بين حنين والطائف أرض شجرة دنوا عظيمة سدر كان يناط بها السلاح فسميت ذات أنواط وكانت تعبد من دون الله فلما رآها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) صرف عنها في يوم طائف إلى ظل هو أدنى منها فقال له رجل : يا رسول الله إجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : إنها السنن قلتم ، والذي نفس محمد بيده كما قالت بنو إسرائيل : إجعل لنا إلهاً كما لهم إلهة .

ربه أربعين ليلة»^(١) فـ «ثلاثين» هي في صيغة التعبير كانت إمتحاناً لبني إسرائيل دون أن يعلموا «وأتممناها بعشر» إبتلاء بهذه المتممة هل هم بعد علي إنحرافهم الشرقي أم أصلحوا أنفسهم فلا يضلون ، ولكنهم ضلوا إلا قليل بفتنتي مزيد العشر على الثلاثين^(٢) وعجل السامري : « قال فإننا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري » (٢٠ : ٨٥) .

وترى لا يستدل بظاهر العدد - إذا - على ألا يُعنى أزيد منه كما لا يُعنى الأنقص ؟ إن الأنقص هو خلاف النص ، والأزيد قد يكون خلاف النص كما إذا كان العدد في مسرح الحصر فهو - إذا - مصرح الحصر، كأن تُسأل ما عندك من الدراهم ؟ فتقول : عندي عشرة ، فإنها - إذا - نص في العدد ينفي الأزيد كما ينفي الأنقص ، وأخرى ليس خلاف النص ، بل هو لأكثر تقدير ظاهر يقبل التحويل كأن تقول دون سؤال : عندي عشرة ، فليس ينافيها أكثر منها حيث الأقل هو تحت الأكثر ، وهكذا يعني قول الله : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر » فقد قال لهم موسى واعدني ربي ثلاثين ليلة ، قبل أن تلحقها المواعدة الثانية ، ومهما كانت الأولى ظاهرة في حصرها ولكن ليست بحيث يستدل بها على سلب مواعدة ثانية حتى إذا جاءت يقال : إن الأولى كاذبة ، فقد تكون الأولى - كما هنا -

(١) نور الثقلين ٢ : ٦١ عن أبي جعفر الباقر (عليهما السلام) أن موسى قال لقومه : إني أتأخر عنكم ثلاثين يوماً ليتسهل عليكم ثم زاد عليهم عشراً وليس في ذلك خلف لأنه إذا تأخر عنهم أربعين ليلة فقد تأخر ثلاثين قبلها ، وفيه عن الفضل بن يسار عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : قلت : لهذا الأمر وقت ؟ فقال : كذب الوقيتون كذب الوقيتون كذب الوقيتون أن موسى (عليه السلام) لما خرج وافداً إلى ربه واعدهم ثلاثين يوماً فلما زاده الله على الثلاثين عشراً قال قومه : قد أخلفنا موسى فصنعوا ما صنعوا فإذا حدثناكم الحديث فجاء على ما حدثناكم به فقولوا : صدق الله ، وإذا حدثناكم الحديث فجاء على خلاف ما حدثناكم به فقولوا : صدق الله تؤجروا مرتين .

وفي تفسير العياشي عن الفضيل بن يسار عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : إن موسى (عليه السلام) لما خرج وافداً إلى ربه واعدهم ثلاثين يوماً فلما زاده الله على الثلاثين عشراً قال قومه : أخلفنا موسى فصنعوا ما صنعوا .

لمصلحة تقتضيها ، فلا يحتج بها على سلب الأخرى ، مهما لا يحتج أيضاً على إيجابها ، فلنسكت عما وراء العدد إيجاباً وسلباً ، مهما يلمح بالسلب لما وراءه .

وهنا « ثلاثين ليلة » دورها دور السكوت عما وراءها ، فإذا تأخر موسى الرسول كان ذلك دليلاً على وعد آخر يتلوها قبل أن يخبرهم موسى ، ولا فرق - إذاً - بين « أتمناها بعشر » بعد « ثلاثين ليلة » دون فصل بطرح الوحي ، وبين ذلك الإتمام المستفاد من واقع التأخير لقوم موسى ، والوحي الثاني بحمله لموسى نفسه .

ذلك ، وحتى إذا كان العدد نصاً في الحصر ثم لحقته زيادة بنص آخر لا يكذب هذا الآخر فإن للنسخ مجالاً واسعاً حين نتأكد من النص الثاني ، فضلاً عما هنا حيث العدد ليس نصاً في الحصر ولا ظاهراً بيناً ، وإنما له لمحة الظهور .

وكضابطة في الأعداد وسائر القيود هي بين حالات ثلاث : ^١ أن تدل قرائن على الحصر ^٢ أم على سلبه ^٣ ، أم لا دلالة على الحصر إيجابياً ولا سلبياً ، وهنا « واعدنا موسى ثلاثين ليلة » من القبيل الثالث ، مهما كان ظاهراً طهوراً ما في الحصر ، احتمالاً راجحاً لحصر المواعدة في « ثلاثين » ولكنه ليس حجة على كذب موسى بما « واتمناها بعشر » أم كذب الله وعوداً بالله ، حيث الأدلة القاطعة على كمال الصدق وتماحه في قول الله وقول رسول الله ، المبرهن على رسالته بآيات من الله ، هذه الأدلة تجعل ذلك الإحتمال احتمالاً وفي بوتقة النسيان ، بل وحتى إذا ناقضت المواعدة الثانية الأولى فوجه النسخ موجه لا يدع مجالاً لفرية الكذب في الساحة الربانية والرسالية .

ذلك ، فالقول : إن إثبات الشيء لا ينفي ما عداه لا يصح إلا عند فقد القرائن على سلب أو إيجاب ، فليست ضابطة تحلق على كل إثبات انه لا ينفي ما عداه ، إنما هو الإثبات غير الحاصر حده بعده أو مداه .

ثم المواعدة الخفية عن قوم موسى هل كانت خفية على موسى نفسه كما هم، ثم أوحيت إليه بعد كمال الثلاثين، أم كان يعرفها عند المواعدة الأولى، دون سماح له أن يخبرهم بها؟ الظاهر أنه ما كان يعلمها كقسومه على سواء، وإلا لم تكن مواعدة ثانية، إنما هي مواعدة واحدة هي «أربعون ليلة».

إذاً فـ «أتممناها بعشر» بمواعدة ثانية بعد الثلاثين أم ضمنه، دون أن تكون أوحيت إليه مع الأولى، اللهم إلا بتأويل أن الله واعد له الأولى أن يخبر بها قومه، ثم بعدها الثانية دون فصل ألا يخبرهم بها ابتلاء لهم بما أثقلوا ببراہين الحق الحقيقي بالتصديق، وهم مكذبوه، فهي - إذا - من بلية الشر جزاء وفاقاً، وعدلاً بما أوتوا من تلكم البراهين.

هذا، ولأن المواعدة كانت تشملهم أجمع حسب الجمع في طه: «واعدناكم» و «وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أئري وعجلت إليك رب لترضى» فقد كانت المواعدة الأصيلة هي ثلاثين ليلة ثم «وأتممناها بعشر» إتماماً للعدة المعنية بذلك العدد المبارك وعشر ذي الحجة.

ذلك وللأربعين عديداً ومعدوداً منزلتها في مختلف الحقول تكويناً وتشريعاً فـ «ما أخلص عبد الإيمان بالله أربعين يوماً إلا زهده الله في الدنيا وبصره داءها ودواءها وأثبت الحكمة في قلبه وانطق بها لسانه...».

وهي هنا كما يروى ثلاثون ذي القعدة - حيث اتفقت هكذا حين المواعدة - وعشر من ذي الحجة، وما يروى سناداً إلى ثلاثين هذه أن ذا القعدة هي ثلاثون يوماً^(١) هي خلاف الواقع المكرور، كما وأن «ثلاثين»

(١) ثلاثون يوماً لقول الله عز وجل: «واعدنا موسى ثلاثين ليلة ومثله في الكافي عنه (عليه السلام)».

أقول: أمثال هذه التطرفات هي تذوقات غير مسنودة إلى دليل تفسري على المعصومين (عليهم السلام) !

في الآية لا تقرر نفس العدد لذي القعدة على مدار الزمن ! .

وإنما اختص ذكر « ليلة » دون « نهاراً » أو « أياماً » لـ « إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قبلاً » (٦ : ٧٣) فإن فيه اجتماعاً للحواس عن سائر التفرقات الحيوية المعيشية أكثر من النهار .

وبا للأربعين من موقف مشرف تكويناً وتشريعاً ، فمن التكوين أن كل رحلة من رحلات الجنين أربعون يوماً ، ثم وفي التشريع قد ابتعث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الأربعين من عمره ، وهكذا - كما يروى - سائر النبيين (عليهم السلام) « وليس صاحب هذا الأمر من جاز أربعين » أي في صورة من له أربعون ، و « من شرب الخمر لم تحتسب صلاته أربعين يوماً » و « من قرأ الحمد أربعين مرة في الماء ثم يصب على المحموم يشفيه الله » و « إن العبد لفي فسحة من أمره ما بينه وبين أربعين سنة فإذا بلغ أربعين سنة أوحى الله عز وجل إلى ملكيه اني قد عمرت عبدي عمراً فغلظاً وشدداً وتحفظاً واكتبا عليه قليل عمله وكثيره وصغيره وكبيره » و « إذا بلغ العبد ثلاثاً وثلاثين سنة فقد بلغ أشده وإذا بلغ أربعين سنة فقد بلغ منتهاه فإذا طعن في إحدى وأربعين فهو في النقصان وينبغي لصاحب الخمسين أن يكون كمن كان في الترع . . » « وأبناء الأربعين زرع قد دنى حصاده » و « إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح إبليس وجهه وقال : بأبي وجه لا يفلح » و « من حفظ من أمتي أربعين حديثاً مما يحتاجون إليه من أمر دينهم بعثه الله يوم القيامة فقيهاً عالماً » ^(١) وقد « بكى آدم أربعين صباحاً على الجنة » و « أنصب الماء زمن نوح من السماء أربعين صباحاً » « واحتبس الوحي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أربعين يوماً » « واعتزل (صلى الله عليه وآله وسلم) عن خديجة أربعين صباحاً لحملها بفاطمة (عليها السلام) وولادتها إياها » « وتاه قوم موسى في التيه أربعين سنة » « وأملئ الله لفرعون ما بين الكلمتين أربعين سنة ثم أخذه الله نكال الآخرة والأولى » و « إذا مات

(١) أربعين حديثاً يعم القرآن والسنة ، بل والقرآن أخرى أن يكون حديثاً : « فبأي حديث بعد »

= الله وآياته يؤمنون ، ثم ولا يعني « حفظ » فقط حفظاً عن ظهر القلب ، بل هو كامل الحفظ تعلماً وتخلقاً وتعليماً وتطبيقاً في الأصول الثلاثة وفي الفروع . عشرة في الفروع العشرة ، وثلاثين في الأصول الثلاثة ، فطالما الحفاظ كثير ولكنما الرعاية قليل .

وقد بروى « من بلغ أربعين ولم يتعص فقد عصى » فقد تعنى مثلث العصى لهندسة كمال الإنسان وهي عصى الفطرة والعقلية والشرعة ، استقامة على هذه العصى ليقوم في دين الله سليماً صالحاً .

ذلك وقد ورد « على أمتي » بديلاً عن « من أمتي » كما في البحار ٢ : ١٥٦ ح ٨ وفي العيون ٢ : ٣٧ ح ٩٩ عن الرضا (عليه السلام) وابن زهرة في الأربعين ٣٩ بالطريق الأول من السند رقم ٤٠ ورواه الشهيد الأول في مقدمة أربعين بالإسناد رقم ٦٤ وأخرجه كنز العمال ١٠ : ٤٢٥ ح ٢٩١٨٥ - أخرجه ابن الجوزي بلفظه عن علي (عليه السلام) والدارقطني في العلل عن ابن عباس بلفظ « من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من أمر دينها بعثه الله فقيهاً عالماً » ، وأخرجه ابن حبان في الضعفاء عنه وابن عدي وابن عساكر من طرق عن أبي هريرة وابن الجوزي أيضاً عن أنس وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة مرفوعاً ، وذكر في التخريج عدة من المحدثين المخرجين لهذا الحديث تركناه اختصاراً وكما يناسب موسوعتنا التفسيرية .

ومما يشهد على أن الحفظ لا يعني - فقط - حفظاً عن ظهر الغيب ، بل هو الحفاظ لأربعين على العامة في أمر الدين فردياً وجماعياً ، كنماذج من أصول الدين وفروعه ، ما رواه في الخصال بسند عن جعفر بن محمد عن أبيه عن أبيه الحسين بن علي (عليهم السلام) قال : إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أوصى إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) وكان فيما أوصى به أن قال له يا علي ! : من حفظ من أمتي أربعين حديثاً يطلب بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة حشرة الله يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . فقال علي (عليه السلام) يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أخبرني ما هذه الأحاديث ؟ فقال : أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، وتعبده ولا تعبد غيره ، وتقيم الصلاة بوضوء سابغ في مواقيتها ، ولا تؤخرها فإن في تأخيرها من غير علة غضب الله عز وجل ، وتؤدي الزكاة ، وتصوم شهر رمضان ، وتحتج البيت إذا كان لك مال وكنت مستطيعاً وأن لا تنق والدك ، ولا تأكل مال اليتيم ظلماً ، ولا تأكل الربا ، ولا تشرب الخمر ولا شيئاً من الأشربة المسكرة ، ولا تزني ، ولا تلوط ، ولا تمشي بالنميمة ، ولا تحلف بالله كاذباً ، ولا تسرق ، ولا تشهد شهادة الزور لأحد قريباً كان أو بعيداً ، وأن تقبل الحق ممن جاء به صغيراً كان أو كبيراً ، وأن لا تركن إلى ظالم وإن كان حميماً قريباً ، وأن لا تعمل بالهوى ، ولا تقذف المحضنة ، ولا ترائي =

المؤمن فحضر جنازته أربعون رجلاً من المؤمنين فقالوا : اللهم إنا لا نعلم منه إلا خيراً وأنت أعلم به منا ، قال الله تبارك وتعالى : قد أجزت شهادتكم وغفرت له ما علمت مما لا تعلمون « (١) .

= فإن أيسر الرياء شرك بالله عز وجل ، وأن لا تقول لقصير يا قصير ، ولا لطويل يا طويل تريد بذلك عيبه ، وأن لا تسخر من أحد من خلق الله ، وأن تصبر على البلاء والمصيبة ، وأن تشكر نعم الله التي أنعم بها عليك ، وأن لا تأمن عقاب الله على ذنب تصيبه ، وأن لا تقنط من رحمة الله ، وأن تتوب إلى الله عز وجل من ذنوبك فإن الثابت من ذنوبه كمن لا ذنب له ، وأن لا تصر على الذنوب مع الإستغفار فتكون كالمستهزئين بالله وآياته ورسله ، وأن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وأن لا تطلب سحق الخالق برضى المخلوق ، وأن لا تؤثر الدنيا على الآخرة ، لأن الدنيا فانية والآخرة باقية ، وأن لا تبخل على إخوانك بما تقدر عليه ، وأن تكون سريرتك كعلانيتك ، وأن لا تكون علانيتك وسريرتك قبيحة ، فإن فعلت ذلك كنت من المنافقين ، وأن لا تكذب ولا تخالط الكذابين ، وأن لا تغضب إذا سمعت حقاً ، وأن تؤدب نفسك وأهلك وولدك وجيرانك على حسب الطاقة ، وأن تعمل بما علمت ، ولا تعاملن أحداً من خلق الله عز وجل إلا بالحق ، وأن تكون سهلاً للقریب والبعيد ، وأن لا تكون جباراً عنيداً ، وأن تكثر من التسبيح والتهليل والدعاء وذكر الموت وما بعده من القيامة والجنة والنار ، وأن تكثر من قراءة القرآن ، وتعمل بما فيه ، وأن تستغنم البر والكرامة بالمؤمنين والمؤمنات ، وأن تنظر إلى كل ما لا ترضى فعله لنفسك فلا تفعله بأحد من المؤمنين ، وأن لا تعمل من فعل الخير ، ولا تثقل على أحد ، وأن لا تمن على أحد إذا أنعمت عليه ، وأن تكون الدنيا عندك سجنًا حتى يجعل الله لك جنة .

فهذه أربعون حديثاً من استقام وحفظها عني من أمتي دخل الجنة برحمة الله ، وكان من أفضل الناس وأحبهم إلى الله عز وجل بعد النبيين والصدّيقين ، وحشرة الله يوم القيامة مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

وفي الخصال عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) : « من حفظ من أمتي أربعين حديثاً من السنة كنت له شافعاً يوم القيامة » أقول : وأفضل السنة هو القرآن ، أصلاً لسائر السنة .

وفي صحيفة الرضا (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « من حفظ على أمتي أربعين حديثاً يتفقون بها بعثه الله تعالى يوم القيامة فقيهاً عالماً » (العوالم ٢ - ٣ : ٤٦٥ - ٤٦٨) .

(١) هذه كلها مروية عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وعترته (عليهم السلام) كما في سفينة البحار ١ : ٥٠٤ - ٥٠٥ .

هنا يقول « موسى لأخيه هارون أخلفني في قومي » وهو بطبيعة الحال بأمر الله ، وهكذا علي (عليه السلام) وبأحرى فأين ضرورة الخلافة في ثلاثين يوماً أو أربعين من الخلافة بعد موت خاتم النبيين (صلى الله عليه وآله وسلم) .

وكما يقول : « واختصني بوصيته واصطفاني بخلافته في أمته فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : - وقد حشده المهاجرون والأنصار وانغضت بهم المحافل - أيها الناس إن علياً مني كهار المؤمنين عن الله نطق الرسول إذ عرفوني أنني لست بأخيه لأبيه وأمه كما كان هارون أخاه لأبيه وأمه ، ولا كنت نبياً فأقتضي نبوة ، ولكن كان ذلك منه إستخلاقاً لي كما استخلف موسى هارون صلى الله عليهما حيث يقول : أخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين »^(٣٥) وهنا نتبين أنه كان في قومه مفسدون يحاولون أن يحولوه عن صالح المجموعة فيوصيه أن يراقب الأوضاع بكل حائطة فلا ينحرف بجارف في خلافته .

وهنا لهارون مثلث من زوايا الخلافة المؤقتة - مما تصلح أن تكون نموذجة كاملة عن المستمرة - هي قاعدة الخلافة : « أخلفني في قومي » ثم زاوية إيجابية هي الإصلاح : « وأصلح » ثم سلبية الإفساد : « ولا تتبع سبيل المفسدين » وهذان هما العمادان لكل داعية ربانية على درجاتهم .
وعلى « قومي » هنا دون « بني إسرائيل » لكون الشجرة المؤمنة أو جمع منهم كانوا فيهم .

ذلك موقف هارون (عليه السلام) في حقل « أخلفني في قومي » وأين هو من موقف علي (عليه السلام) من خلافة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد قال له : « أنت الخليفة من بعدي »^(١) حيث « في النبوة

(١) نور الثقلين ٢ : ٦٢ عن خطبة الوسيلة يقول فيها بعد ذكر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : واختصني .. وقد أوردنا قسماً من متواتر حديث المنزلة في الفرقان ١٦ : ٨١ - ٨٧ على ضوء آية الوزارة فلا نعيد .

وفي علي الخلافة»^(١) و«إن علياً خليفة الله وخليفتي»^(٢) أجل «هو خليفتي من بعدي»^(٣) كما «اثنى عشر خليفة»^(٤) فـ«إن لمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) من الخلفاء اثني عشر إماماً عدلاً لا يضرهم من خذلهم»^(٥) و«من نازع علياً الخلافة بعدي فهو كافر»^(٦) و«يا عمر هذا وصي وخليفتي من تقدم عليه كذب بنبوتي»^(٧).

﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني انظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾^(٨٣).

هنا «وكلمه ربه» من المتشابهات التي يخیل إلى جاهليها أنه كلام كسائر الكلام ، أو تكليم كسائر التكليم ، كلا إنه كلام مخلوق كسائر الخلق ، ولكنه متميز كما الخالق، عن كلام سائر الخلق ، وهو يكلم رسله بالوحي كما يعون ويستطيعون و«له قوة الألسن كلها»^(٨).

مركزية كريمة

- (١) المصدر ٤ : ٩٢ (٢) المصدر ٤ : ٢٩٧ ،
(٣) المصدر ٤ : ٢٩ ، ٥٥ ، ٦١ - ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٩ - ٨٣ ، ١٤٩ ، ١٩٤ ، ٢٧٧ ،
(٤) ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣٣ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٦ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٨٤ ،
٣٨٥ ، ٥٠ و ٤٢ : ٢٠ و ٣٣٨ - ٣٤٠ ، ٤٥٩ و ١٣ : ٦٧ - ٦٨ و ١٥ : ٢١٣ - ٢١٨ ،
١٩٧ - ٢١٢ و ٢٠ : ٣٣٨ - ٣٤٠ .
(٥) المصدر ١٣ : ١ - ٧٤ .
(٦) المصدر ٨ : ٢١٦ .
(٧) المصدر ٧ : ٣٣١ . (٨) المصدر ٤ : ٨١ .

(٨) الدر المنثور ٣ : ١١٥ - أخرج البزار وأبن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الأسماء والصفات عن جابر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لما كلم الله موسى يوم الطور كلمه بغير الكلام الذي كلمه يوم ناداه فقال له موسى : يا رب أهذا كلامك الذي كلمتني به ؟ قال : يا موسى إنما كلمتك بقوة عشر آلاف لساني ولي قوة الألسن كلها وأقوى من ذلك فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا يا موسى صف لنا كلام الرحمن ، فقال : لا يستطيعونه ، ألم تروا إلى أصوات الصواعق التي تقبل في =

ومن ميزات كلامه تعالى أنه ليس له جهة ثم هو يحتل كيان السامع من كل جهة ، فقد أصبح موسى كله سمعاً لذلك الكلام ، ما لا يمكن لأي متكلم غير الله أن يكلم دون جهة خاصة ويشمل كل جهات المستمع ! .

ذلك ، ومهما كانت المواعدة لهم أجمع ولكن سماع كلام الله يختصه قضية إختصاصه بالرسالة فلذلك « وكلمه ربه » دون « كلمهم » .

أترى موسى الرسول (عليه السلام) على محتده المعرفي الرسولي بربه يسأله أن يريه نفسه لينظر إليه نظر البصر ؟ وذلك طلب الجهلة السفهاء الظلمة من قومه : « وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » (٢ : ٥٦) - « وإخترنا موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاعفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين » (٧ : ١٥٥) - « فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم . . » (٤ : ١٥٣) و« وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً » (٢٥ : ٣١) .

= أحلى حلاوة سمعتموه فذاك قريب منه وليس به .

وفيه عن ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن الله تبارك وتعالى ناجى موسى (عليه السلام) بمائة ألف وأربعين ألف كلمة في ثلاثة أيام فلما سمع موسى كلام الأدميين مقتهم لما وقع في مسامعه من كلام الرب عز وجل فكان فيما ناجاه أن قال يا موسى انه لم يتصنع المتصنعون بمثل الزهد في الدنيا ولم يتقرب إلى المتقربون بمثل الورع عما حرمت عليهم ولم يتعبد المتعبدون بمثل البكاء من خشيتي فقال موسى يا رب ويا إله البرية كلها ويا مالك يوم الدين ويا ذا الجلال والإكرام ماذا أصددت لهم وماذا جزيتهم ؟ قال : أما الزاهدون في الدنيا فلإني أبيعهم جنتي حتى يتسوموا فيما حيث شاءوا ، وأما الورعون عما حرمت عليهم فلإذا كان يوم القيامة لم يبق عبد إلا ناقشته الحساب وفتشت عما في يديه إلا الورعون فلإني أستحيهم وأجلهم وأكرمهم وأدخلهم الجنة بغير حساب . وأما الباكون من خشيتي فأولئك لهم الرفيق الأعلى لا يشاركهم فيه أحد .

أترى العتو الكبير ، والسفاهة المغلظة التي تتطلب الصاعقة بظلمهم هي جامعة بين موسى الرسول وسفهاء ظالمين من قومه ؟ فماذا يبقى بعد هذه الرسالة السفيهية الظالمة المستكبرة العاتية عتواً كبيراً ، التي يبعد عنها بسطاء الموحدين ! فضلاً عن عظماء النبيين ! .

قد يكون موسى (عليه السلام) محملاً في ذلك السؤال من قبل قومه كما يبدو من « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » والصاعقة لم تأخذ إلا إياهم دون موسى (عليه السلام) فلو كان هو أيضاً سائلاً كما هم لكانت الصاعقة تأخذه كما أخذتهم ، وآيات البقرة والنساء والأعراف تقول : « أخذتكم . أخذتهم . أخذتهم » دون أخذه في هذه المجالة لموسى (عليه السلام) مما يدل على أن سؤال الروية كان لهم دونه (١) .

(١) نور الثقلين ٢ : ٦٤ في باب ذكر مجلس الرضا (عليه السلام) عند المأمون في عصمة الأنبياء (عليهم السلام) حدثنا تميم بن عبد الله بن تميم القرشي قال حدثني أبي عن حمدان بن سليمان النيسابوري عن علي بن محمد الجهم قال : حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا (عليه السلام) فقال له المأمون : يا ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أليس من قولك أن الأنبياء معصومون ؟ قال : بلى ، قال : فما معنى قول الله عز وجل : - إلى أن قال - : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني » كيف يجوز أن يكون كلم الله موسى بن عمران (عليه السلام) لا يعلم أن الله تعالى ذكره لا تجوز عليه الرؤية حتى يسأله هذا السؤال ؟ قال الرضا (عليه السلام) : ان كلم الله موسى بن عمران (عليه السلام) علم أن الله تعالى متزه عن أن يرى بالأبصار ولكنه لما كلمه الله عز وجل وقربه نجياً رجع إلى قومه فأخبرهم أن الله تعالى كلمه وقربه وناجاه فقالوا : لن نؤمن لك حتى نسمع كلامه كما سمعته وكان القوم سبعمائة ألف فاختر منهم سبعين ألفاً ثم اختار سبعة آلاف ثم اختار منهم سبعمائة ثم اختار منهم سبعين رجلاً لميقات ربه فخرج بهم إلى طور سيناء فأقامهم في سفح الجبل وصعد موسى (عليه السلام) إلى الطور وسأل الله عز وجل أن يكلمه ويسمعهم كلامه فكلّمه الله تعالى ذكره وسمعوا كلامه من فوق واسفل ويمين وشمال ووراء وأمام لأن الله أحدثه في الشجرة ثم جعله منبعثاً منها حتى يسمعه من جميع الوجوه فقالوا : لن نؤمن بأن هذا الذي سمعناه كلام الله حتى نرى الله جهرة فلما قالوا هذا القول العظيم واستكبروا وعتوا بعث الله عليهم صاعقة وأخذتهم الصاعقة بظلمهم فماتوا فقال موسى يا رب ما أقول لبني إسرائيل إذا =

فلما يسأل هو الرؤية ولا تأخذه الصاعقة ثم لا يسقه ولا ينسب إلى الظلم ، فقد يتبين من ذلك أن السؤال إن كان للرؤية البصرية فهو (عليه السلام) محمّل عليه منهم فيسألها ربه بعد إذنه تعالى إتماماً للحجة وإنارة للمحجة .

والقول إن : « أرني أنظر إليك » دون « أرهم ينظروا إليك » يرد ذلك التحميل ، يُردّ بأنه جائز على هامش قصده الأصيل من الرؤية القمة ، وأنه جمع في ذلك السؤال بين أمرين ثانيهما ما تطلبوه ولكنه خص نفسه ليظهر لهم أن استحالة رؤيتهم أخرى بعد استحالة رؤيته ، فقد قدم نفسه فيما حمّل تثبيتاً للسلبية الأخرى لهم في حقل الرؤية البصرية ، والقول بأنه كان عليه - إذاً - كرسول أن يوضح لهم بطلان سؤالهم ؟ مردود بأنه أبطله طول رسالته وهنا القصد إلى إبطاله عملياً حين تبطل رؤيته هو ربه على محتده الرسالي ! .

ثم الأظهر الأخرى أن الرؤية المسؤولة هي قمة المعرفة الممكنة بالله ، اللاتقة لأول العارفين والعابدين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث إن تجليه تعالى « للجبل » لا « في الجبل » دليل تجلي القدرة الربانية التي لا يتحملها الجبل إلا أن يندك ، ولا بد للمثال أن يشابه الممثل في

= رجعت إليهم وقالوا إنك ذهبت بهم فقتلتهم لأنك لم تكن صادقاً فيما إُدعيت في مناجاة الله عز وجل إياك ، فأجابه وبعثهم معه فقالوا إنك لو سألت الله أن يريك ننظر إليه لأجابه وكنت تخبرنا كيف هو ونعرفه حق معرفته ؟ فقال موسى (عليه السلام) : يا قوم ان الله تعالى لا يرى بالابصار ولا كيفية له ، وإنما يُعرف بآياته ويكلم بأعلامه ، فقالوا : لن نؤمن لك حتى تسأله ، فقال موسى (عليه السلام) يا رب إنك قد سمعت مقالة بني إسرائيل وأنت أعلم بصلاحتهم فأوحى الله تعالى إليه : يا موسى سلني ما سألك فلن آخذك بجهلهم فعند ذلك قال موسى (عليه السلام) : رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه وهو يهوي « فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل « بآية من آياته » جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال « سبحانك تبت إليك » يقول : رجعت إلى معرفتي بك عن جهل قومي « وأنا أول المؤمنين » منهم بأنك لا ترى ، فقال المأمون : لله درك يا أبا الحسن .

أهم مواضعه ، وهو هنا لو كانت الرؤية البصرية لله ، لكان تجليه تعالى نفسه في الجبل دون « تجلى ربه للجبل » .

ثم ما هي الصلة بين إمكانية رؤيته تعالى لموسى وبين أن يستقر الجبل مكانه في ذلك التجلي ، إلا أن يكون الجبل في ذلك التجلي مثلاً لموسى (عليه السلام) أنه لا يستطيع التجلي المعرفي القمة لله ما دام هو موسى الذي لم يبلغ مبلغ أول العارفين إلا أن يموت في ذلك التجلي ، ثم لا يفيد الموت أيضاً أن يتجلى له ربه في الحالة التجردية البرزخية ، وإنما ذلك مخصوص بأول العارفين وخاتم النبيين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) حين « دنى فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . . . ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى » (٥٣ : ١٢) ولو لم يكن مكلفاً باستمرارية هذه الرسالة التي تتطلب مواجهة الخلق لم يخرج عن هذه الحالة التجردية المعرفية القمة ، خارقة لكافة الحجب الظلمانية والنورانية بينه وبين الله ، حتى حجاب نفسه ، فلم يبق - إذاً - حجاب لتلك المعرفة ، إلا ذات الله التي لا ترتفع لأحد^(١) وهنا :

از آن دیدن که غفلت حاصلش بود دلش در چشم و چشمش در دلش بود
والتفصيل راجع إلى آيات الأسرى .

ذلك ، وعله سأل ربه بلفظة طلبية الرؤية التي ظاهرها طلبية قومه ، وهو يعني بها طلبته نفسه ، جمع جميل ما أجمله يجمع بين الأمرين الإمرين الأمرين ، فليس يؤنب موسى بالأول لأنه سؤالهم ، ولا بالثاني لأنه سؤاله قضية الشغف البالغ في سلك المعرفة الربانية (٢) .

(١) نور الثقلين ٢ : ٦٦ في كتاب التوحيد خطبة للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وفيها : فتجلى ، ومن خطبة الرضا (عليه السلام) : متجلى لا باستهلال رؤية ، أقول : وتفصيل البحث حول الرؤية مذكور على ضوء « لا تدركه الأبصار . . . فراجع .

(٢) وقد يساعد كون سؤاله عن الرؤية المعرفية ما رواه في العلل عن أبي طالب (عليه السلام) أنه مثل مما خلق الله عز وجل الذر الذي يدخل في كوة البيت ! فقال : ان موسى (عليه السلام) لما قال : « رب أرني أنظر إليك » قال الله عز وجل : ان استقر =

« رب أرني » نفسك « انظر إليك » في هذه الإراءة الربانية ،
فـ « رب » مما تلمح أنها رؤية معرفية بعناية ربانية .

وقد وردت الرؤية في العلم والمعرفة بغير البصر في آيات عدة ، بل
هي أقوى من رؤية البصر ، فـ « لولا أن رأى برهان ربه » (١٢ : ١٤)
ليوسف حيث منعه عن أن يهيم بها ، ليست إلا الرؤية المعرفية المعصومة
لساحة الرب .

كما أن « ما كذب الفؤاد ما رأى » (٥٣ : ١١) هي رؤية الفؤاد ،
وهو هنا القلب المتفقد بنور المعرفة التامة الطامة قلب العارف وكل كيانه ،
وهكذا « لقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى » (١) .

= الجبل لنوري فانك مستقوى على أن تنظر إلي وإن لم يستقر فلا تطبق إيصاري لضعفك ،
فلما تجلّى الله تبارك وتعالى للجبل تقطع ثلاث قطع فقطعة ارتفعت في السماء وقطعة
غاصت في تحت الأرض وقطعة بقيت فهذا الدر من ذلك الغبار غبار الجبل ، أقول : وإن
كان في ذيله شيء من الغرابة .

(١) في معاني الأخبار للصدوق بإسناده عن هشام قال : كنت عند الصادق جعفر بن محمد
(عليهما السلام) إذ دخل عليه معاوية بن وهب وعبد الملك بن أعين فقال له معاوية بن
وهب : يا ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما تقول في الخبر المروي : إن
رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) رأى ربه ؟ على أي صورة رآه ؟ وفي الخبر الذي
رواه أن المؤمنين يرون ربهم في الجنة ؟ على أي صورة يرونه ؟ فتبسم ثم قال :
يا معاوية ! ما أقيح بالرجل يأتي عليه سبعون سنة وثمانون سنة يعيش في ملك الله ويأكل
من نعمه ثم لا يعرف الله حق معرفته ثم قال : يا معاوية إن محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم)
لم ير الرب تبارك وتعالى بمشاهدة العيان وإن الرؤية على وجهين : رؤية القلب
ورؤية البصر فمن عني برؤية القلب فهو مصيب ومن عني برؤية البصر فقد كذب وكفر بالله
وآياته لقول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : من شبه الله بخلقه فقد كفر ، ولقد
حدثني أبي عن أبيه عن الحسين بن علي (عليهما السلام) قال : سئل أمير المؤمنين
(عليه السلام) فقيل له : يا أخا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هل رأيت ربك ؟
فقال : لم أعبد رباً لم أره ، لم تره العيون بمشاهدة العيان ولكن تراه القلوب بحقائق
الإيمان ، وإذا كان المؤمن يرى ربه بمشاهدة البصر فإن كل من جاز عليه البصر والرؤية
فهو مخلوق ولا بد للمخلوق من خالق فقد جعلته إذاً مخلوقاً ومن شبهه بخلقه فقد =

ومن رؤية العلم : « إني أراك وقومك في ضلال مبين » (٦ : ٧٤)
 « أراكم قوماً تجهلون » (١١ : ٢٩) « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم
 وهم ألوف حذر الموت » (٢ : ٢٤٣) « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب
 الفيل » (١٠٥ : ١) .

ومن رؤية المعرفة بالتدبر « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل » (٢٥ :
 ٤٥) - « ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض »
 (٢٢ : ١٨) - « ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير
 صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه » (٢٤ : ٤١) .

وهكذا نجد استعمال الرؤية في مثلث العلم ، والمعرفة بالتدبر ،
 والمعرفة بالجهد ، والأخيرة هي المعنية من رؤية الله ، ولأنها درجات
 حسب درجات العارفين فهنا الجواب لموسى :

« ... قال لن تراني » فـ « لن » تحيل الرؤية المطلوبة وهي بين
 إحالة أصلية فيما يراد رؤية البصر ، ورؤية نسبية في رؤية البصيرة - القمة -
 الخاصة بأول العارفين ، فأنت يا موسى « لن تراني » لا هنا ولا في الأخرى
 ما دمت أنت موسى المحدود بحدودك ، فلورقت إلى مرقى محمد (صلى
 الله عليه وآله وسلم) لكنت تراه كما راه هو بنور المعرفة القمة ، ولكن
 رؤية البصر مستحيلة على أية حال وبأي مجال .

إذ « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير »

= اتخذ مع الله شريكاً ، ويلهم ألم يسمعوا لقول الله تعالى : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك
 الأبصار وهو اللطيف الخبير » وقوله لموسى : « لن تراني ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر
 مكانه فسوف تراني فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكاً وخسر موسى صعباً » وإنما طلع من
 نوره على الجبل كضوء يخرج من سم الخياط فكدت الأرض وخسر موسى صعباً - أي
 ميتاً - فلما أفاق ورد عليه روحه قال سبحانه تبت إليك من قول من زعم أنك ترى
 ورجعت إلى معرفتي بك أن الأبصار لا تدركك « وأنا أول المؤمنين » بأنك ترى ولا ترى
 وأنت بالمنظر الأعلى .

أقول : غير المصدق من هذا الحديث هو موت موسى ثم حياته لمخالفة النص .

فألهرطقات الغائلة القائلة أن « وعده الله أن يقعد في موضع ليراه »^(١) وما أشبهه ، هي مضروبة عرض الحائط لمضاداتها نصوص الكتاب ودليل العقل والفطرة .

« ولكن أنظر إلى الجبل » جبل الطور وهو مهبط الوحي ومحطه « فان استقر مكانه » بتجلي الرب له في قدرة وقوة لا يتحملها « فسوف تراني » في تجلي المعرفة القمة التي لا تتحملها وهنا « سوف » في معاكسة الأمر تسلب تلك الرؤية في طليق المستقبل في الأولى والأخرى وإلا كان الصحيح « فستراني » أو « تراني » .

« فلما تجلى ربه للجبل » ما لا يتحمل « جعله دكاً »^(٢) لا يستقر مكانه حيث تمزق وتفرق أيادي سبا ، وبالنسبة « وخر موسى » من تلك الوقعة القارعة « صعقاً » إذ خر مغشياً عليه ولم يمت إذ ليست الصعقة هي الموت ثم هو الذي قال لما أخذتهم الرجفة « لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي »

(١) كما في نور الثقلين ٢ : ٦٣ عن تفسير العياشي عن أبي بصير قال سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول : إن موسى بن عمران (عليه السلام) لما سأل ربه النظر إليه وعده الله أن يقعد في موضع ثم أمر الملائكة أن تمر عليه موكباً موكباً بالبرق والرعد والرياح والصواعق فكلما مر به موكب من الموكب ارتعدت فرائضه فرفع رأسه فيسأل : أفبيكم ربي ؟ فيجاب : هو آت وقد سألت عظيماً يا بن عمران .

(٢) نور الثقلين ٢ : ٦٦ عن كتاب التوحيد حديث طويل عن أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول فيه - وقد سأله رجل عما أشبه عليه من الآيات - وسأل موسى (عليه السلام) وجرى على لسانه من حمد الله عز وجل : « رب أرني أنظر إليك » فكانت مسألته تلك أمراً عظيماً وسأل أمراً جسيماً فعوقب فقال الله تبارك وتعالى : لن تراني في الدنيا حتى تموت فتراني في الآخرة ولكن إن أردت أن تراني في الدنيا فأنظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني ، فأبدى الله سبحانه بعض آياته وتجلي ربنا للجبل فتقطع الجبل فصار رميماً وخر موسى صعقاً ثم أحياه الله وبعثه فقال (عليه السلام) : « سبحانه تبت إليك وأنا أول المؤمنين » يعني أول من آمن بك منهم أنه لن يراك ، أقول : هذا الحديث مخدوش في مواضع عدة منها « فعوقب » كأنه سأل الرؤية البصرية ، فلو سألها وكان عصياناً فكيف وعده أن يراه في الآخرة ؟ .

(٤ : ١٥٣) وذلك رغم أن التجلي كان للجبل دونه « فلما أفاق » عن صعقته، والإفاقة ليست إلا عن الغشوة والخروج عن الوعي دون الموت ، فمهما استعملت الصعقة أحياناً في الموت ولكنها هنا الغشوة دون الموت وكما قال : لو شئت أهلكتهم وإياي ، « قال سبحانه » أن ترى بعين البصر ، أم أن ترى بعين البصيرة فوق ما أتحمل « تبت إليك » عما سألت « وأنا أول المؤمنين » بك أنك لا ترى .

وهذه الأولوية ليست زمنية ، بل هي في المكانة الإيمانية - ولأقل تقدير - بالنسبة لمن يعيشهم ، ثم ومن قبله دون من بعده، إذ إن محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) هو « أول العابدين » على الإطلاق ، ولو كان موسى أول المؤمنين في مثلث الزمان لكان يُرى ربه نفسه في حقل المعرفة القمّة وأحرى من محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ولكن أين موسى (عليه السلام) من محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو الرسول إلى الرسل أجمعين .

فالله تعالى يتجلى بقدرته لخلقه قدر ما يتحملون ، فإن تجلى فوقه فذكاً ذكاً ، كما يتجلى بآياته وكما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : « فتجلى لخلقه من غير أن يكون يُرى وهو بالمنظر الأعلى » ^(١) : منظر البصر - فهو أعلى من أن يُنظر إليه على الإطلاق - ومنظر البصيرة الأعلى وهو المعرفة القمّة العليا الخاصة بمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ^(٢) .

أجل ، إن الله متجلٍ لخلقه قدر المقدور لهم والمقدر لباقه ولياقة في مسالك المعرفة ، ثم التجلي القمّة خاصة بمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وذويه من بعده .

ذلك ، فسؤال الرؤية البصرية لذات الله ليس إلا من أجهل المجاهيل

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٢٣١ روي عن ابن عباس .

(٢) التوحيد عن الإمام الصادق (عليه السلام) .

بكيان الالهية ، فالذي « ليس كمثله شيء » فـ « لا تدركه الأبصار » كيف بالإمكان أن يُرى نفسه للأبصار ، إلا بتحويل الآله المجرد عن كيانه إلى كيان خلقه ، أم تحويل خلقه إلى كيانه لتسنى الرؤية بتلك المماثلة .

وحين لا تُحس أية حاسة أي محسوس إلا ما يساميه أو يساويه في حقل الإحساس ، فلا يُحس الطعم باللامسة ولا يُلمس بالباصرة ولا يبصر بالسامعة ، ولا يُسمع بالباصرة ، فكيف يرجى أن يُحس أو يُمس أو يُجس غير المحسوس بأحد من الحواس الخمس ، في أي من عوالم الوجود .

ولأن المستحيل ذاتياً لا تتعلق به القدرة فلا يمكن أن يرى الله نفسه رؤية البصر ، اللهم إلا رؤية البصيرة المستطاعة لمن يبصر .

فرؤية الرب منها مستحيلة ذاتية هي بإبصار ذاته تعالى حيطة ببصر أم بصيرة ، إدراكاً إياه ، إذ « لا تدركه الأبصار » ، أم نسبية هي البصيرة معرفة بالقلب ، بمرتبة هي أعلى من محتد الرائي ، كما المعرفة القمة لموسى (عليه السلام) ، أم ممكنة مأمور بها وهي سائر درجات المعرفة الربانية لسائر الخلق أجمعين ، فعلى كل قدر مستطاعه من معرفة الله وعبوديته و « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » .

فمثل « وجوه يومئذ ناظرة . إلى ربها ناظرة » (٧٥ : ٢٣) موجهة إلى وجوه القلوب ، وكما تؤيده « ووجوه يومئذ باسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة » حيث الظن هو من أفعال القلوب .

فمهما يكن من شيء هنا ، من أقصى دلالة النص ، أن موسى تطلب الرؤية وهي بين مثلثها ، فلتفسر بمحكمات كـ « ليس كمثله شيء » « ولا تدركه الأبصار » وبجنبها محكمات أدلة العقول والفطر ، التي تحيل الرؤية بالبصر ، ثم رؤية المعرفة المستطاعة بحول العارف وقوته لا تحتاج إلى « أرني » كما وأن محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) « رآه نزلة أخرى » دون تطلب لها : « أرني » فلم تبق إلا الرؤية فوق المستطاعة ، الممكنة في ذاتها وهي المعرفة القمة ، وبجنبها نقل لتطلب قومه بما أذن الله . ذلك ، وليست الرؤية المعرفية تعني كل درجة منها ، وإنما البالغ

فيها ذروة من اليقين لحد يصح التعبير عنها بأنها رؤية فـ « اعبد ربك كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » فالرؤية الأولى هي محسوب بحساب الرؤية المعرفية البالغة ولها درجات أعلاها الرؤية المحمدية إذ « ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى » (٥٣ : ١٤) (١) .

فالحجاب عن الرب الممكن خرقه هو حجاب المعرفة برين القلوب : « كلاً بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » (٨٣ : ١٥) فتلك إذا هي رؤية القلب المحجوب برينه .

ذلك ، وموسى الرسول الذي لا تصعقه الآيات الكبرى الربانية إلا خوفاً ما لأول وهلة ، إنقلبت عصاه حية تسعى ، هذا الرسول يصعقه إندكاك الجبل بما تجلى له ربه ، حيث كانت سائر الآيات تجليات مستطاعة لما تجلى له مهما كانت خارقة العادة ، وهذه غير مستطاعة للجبل بذلك التجلي فوق الطاقة له .

هذا ، ويعاكس نص القرآن في استحالة الرؤية المطلوبة نص التوراة في واقعها كما في سفر الخروج ٢٣ : ٩ : ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل . ورأوا آله إسرائيل وتحت رجله شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل فرأوا الله وأكلوا وشربوا ! .

وحصيلة البحث في حقل الرؤية أنها - على أية حال - هي الوصول إلى المرئي بعين اليقين فوق علمه ، ثم وحق اليقين بمراتبها ، فإن كانت بالبصر فكما تناسبه ، وإن كانت بالبصيرة فكما تناسبها ، والرؤية الحيطه المعرفية بالله مستحيلة على من سوى الله في كافة النشآت إذ لا يحيط المحدود باللامحدود ، والمعرفة القمة العليا التي لا تساوى ولا تسامى هي

خاصة بأول العابدين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في كافة النشآت مهما كانت في الأولى أضيق دائرة قضية ضرورة المواجهة الرسالية مع المرسل إليهم ، ولا يشاركه (صلى الله عليه وآله وسلم) أي من السابقين والمقربين من جبريل الأمين والروح وسائر المعصومين عليهم سلام الله أجمعين ، وهذه هي التي تطلبها موسى من ربه - كما سمع الكلام فقطع في الرؤية - فأجيب بـ « لن تراني » المحيلة لتلك الرؤية له في الدنيا والآخرة ، والرؤية البصرية هي بديهية الإستحالة في كافة الموازين والمقاييس .

و « لن تراني » هي أظهر في إستحالة تلك الرؤية المطلوبة المعرفية من البصرية ، فإن كان القصد إلى الرؤية البصرية لكان النص « لا أرى » دون « لن تراني » و « لن » إذا تحيل تلك الرؤية الخاصة لموسى (عليه السلام) لأنه أدنى محتداً منها ، وحين لا تصل بصيرة المعرفة الربانية الموسوية إلى تلك القمة السامقة فهل يصل بصر المعايينة لقومه وأضرابهم إلى رؤية ذاته القدسية ؟ ! .

وعدم استقرار الجبل مكانه لما تجلّى ربه له يقرر الإستحالة النسبية لتلك الرؤية المعرفية لموسى (عليه السلام) . ومما يؤكد عناية الإستحالة لمدخول « لن » - « سبحانك » تنزيهاً لله أن يكون يُرى ، ولا تنقيد « سبحان » بزمان دون زمان وإلا فلا سبحان ، فـ « سبحان » في كل مجالاتها تنزيه لله عما يمس من كرامة ألوهيته وربوبيته ، كما و « تبت إليك - وأنا أول المؤمنين » هما الأخريان من آيات إستحالة تلك الرؤية بصرأ أم بصيرة .

ذلك ولقد حاول جمع بمختلف المحاولات أن يجعلوا هذه الرؤية التي تطلبها موسى إدراكاً بالبصر أم بالبصيرة ، دون إبقاء لكيان من المدرك إلا أن يدركه .

فمن قائل غايل إن الله لا يعجزه أمر لمكان قدرته الطليقة الحقيقية لإجابة أي أمر وسؤل ، فهنا « أرني أنظر إليك » له جانبان إثنان ، أرني

بترفعني إلى مكانة الرؤية ، أم تنزيلك إلى مكانتي في الرؤية ، وهما مستحيلان ذاتياً أو نسبياً ، ففي الرؤية البصرية يعني الترفع التجريد الطليق عن حالة الإمكان لكي يتمكن من رؤية المطلق ، ويعني التنزيل تجريده عن التجرد حتى تتسنى الرؤية قضية المجانسة في الجسمانية والمحدودية ، وفي الرؤية المعرفية القمة أن يترفع إلى تلك القمة أو ينزل ربنا إلى هذه المحدودية المعرفية ، فالأول مستحيل نسبياً ما دام موسى هو موسى ، والثاني مستحيل ذاتياً إذ لا يتغير ربنا سبحانه وتعالى بأي غيار وبأي معيار .

ذلك وكافة المحاولات الفلسفية أو العرفانية هي محاولات خرفانية إلا ما أشرنا إليه على ضوء الآية وما يفسرها من آيات .

وفي حقل المعرفة القمة التي هي مرغوبة لكل عارف « لن تراني » هي كلمة واحدة لكافة المقرئين إلا خاتم النبيين وأول العارفين والعابدين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد يروى أنه « لما قال موسى (عليه السلام) : « أرني أنظر إليك » كشف الحجاب وأبرز له الجبل وقال أنظر فنظر فإذا أمامه مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألف نبي محرمين ملبين كلهم يقول : « أرني أرني »^(٤٣) وفي الحديث « ما رأيت شيئاً إلا وقد رأيت الله قبله وبعده ومعه وفيه »^(٤٤) و « لم أعبد رباً لم أره » « لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رآته القلوب بحقائق الإيمان » . . . وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين تعالى الله عما يصفه المشبهون والملحدون^(٤٥) و « كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا نظر إلى ربه بقلبه جعله في نور مثل نور الحجب حتى يستبين له ما في الحجب »^(٤٦) .

ذلك ، وفي نظرة أخرى إلى الآية « قال رب » لمحة لاستدعاء ما لم يصل هو إليه وليس يصله بنفسه فاستدعاه تعالى أن يُنعم عليه في تلك الرؤية المعرفية بنعم .

ثم « أرني » دون متعلق من « نفسك وما أشبه » تحاش أدبي أمام ربه سبحانه ، وكأنه يستدعيه ما يراه صالحاً من درجات الرؤية غير الحاصلة له ، وكما يراه ربه .

بنظم
خرافة
ص : س

ومن ثم « أنظر إليك » رباً ، نظراً يناسب محتدك الربوبي ، فقد يقرب أنه كـ « ناظرة » في « وجوه يومئذٍ ناضرة . إلى ربها ناظرة » نظرة بوجه القلب الفؤاد .

وحين يؤنب نوح (عليه السلام) بعرضه : « رب إن إبني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين » عرضاً - ولما يسأل - بقوله تعالى : « إني أعظك أن تكون من الجاهلين » ولا يؤنب موسى بسؤاله الرؤية ، فقد نتأكد قطعياً أنه لم يكن سؤالاً محظوراً في أصله ، به مس من كرامة ربه ، وإنما سأل فوق قدره ، فأجيب بمثال فوق قدر للجبل .

ذلك ، والرؤية هي أعم من رؤية البصر ، بل البصيرة فيها أخرى لأنها أمكن وأقوى كـ « لولا أن رأى برهان ربه » (١٢ : ٢٤) و « ما كذب الفؤاد ما رأى » (٥٣ : ١١) « ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا » (٧ : ١٤٩) .

وعلى أية حال لأن الرؤية هي الإدراك أو ما دونه وهما يعلمان رؤية البصر والبصيرة ، لذلك ليست لتختص برؤية البصر ولا رؤية البصيرة اللهم إلا بكل بقرينة ، ولأن أفراد النص « أرني » دون « أرنا أو - أرهم » يرينا أن موسى (عليه السلام) إنما تطلب الرؤية لنفسه ، فقد نتأكد أنها كانت رؤية معرفية بصيرة ، دون المعاينة بصرًا ، إذ لو كانت بصرًا لكان يجمع : « أرنا » حيث الأصل في ذلك التطلبة الحمقاء هم قومه دونه ، أم وإذا شملت الرؤية البصرية فلماذا سألوها وأذن الله ، وإنما أفرد لكي يعرفوا بسلبيتها عن نفسه سلبها عنهم بأخرى ، ولقد كان سؤال الرؤية البصرية بإذن الله جملًا عليه ثقیلاً عله أثقل من حمل ابتلاء إبراهيم بذبح ولده إسماعيل .

ذلك ، وهنا « أرني » دون « أرنا - أو - أرهم » كما بينا ، تجعل الأصل في السؤال الرؤية الممكنة الصالحة وهي المعرفة القمة ، وعلى هامشها الرؤية المسؤولة الحمقاء ، فحين سمع - أم وسمعوا - : « لن تراني ولكن . . » تأكدوا من عدم إمكانية رؤيته المسؤولة لهم ، فحين لا

يستجاب موسى الرسول في تطلب هكذا رؤية فبأحرى هؤلاء البعيدون .

فقد جمع موسى في سؤاله بين مستحيل الرؤية بناء على طلبهم بإذن الله ، وبين الرؤية الممكنة لمن سوى الله في قمتها ، فلم يستقل في سؤاله كلاً منهما لوحدها ، تحاشياً عن محذور ، ولكنه هيماناً لمعرفة عليا ، وتطبيقاً لأمره تعالى بسؤاله الرؤية المقترحة ، يقول : « رب أرني أنظر إليك » فإن فيه جماع الأمرين الإمرين ، ثانيهما أمر من الأول لأنه سؤال الجاهلين ، وأولهما يحمل رجاءً إذ لم يرهو من نفسه أن يصل بجهداه وجهوده إلى المعرفة القمة المحمدية ، فتطلب من ربه أن « أرني » فجاء الجواب كلمة واحدة « لن تراني » أنت كموسى على محتدك المحدد بالمعرفة الموسوية ، ولا هم أياً كانوا بالرؤية البصرية .

وقد ترسم رؤية الرب في مربع : ^١ مستحيلة ذاتياً ببصر العين المعاينة ^٢ أم ببصيرة مدركة محيطية بالرب ، ^٣ أو مستحيلة نسبياً كالرؤية المعرفية ما فوق الطاقة والمقدرة المقررة لمن دون المعصومين (عليهم السلام) . ^٤ ثم ممكنة مأمور بها كأصل المعرفة ، وقد تطلب موسى لنفسه الرؤية القمة التي هي فوق كيانه المعرفي ، وعلى هامشها الرؤية البصرية المقترحة من قومه فجاء الجواب « لن تراني » والأصل رؤيته الخاصة ، وهي المناسبة لـ « ولكن انظر إلى الجبل . . » دون المستحيلة ، فانها مبرهنة البطلان والإستحالة دون حاجة إلى برهنة حسية .

ذلك ، فلا موقع لعرفانيات خرفانيات وفلسفيات تتعدى عن طور المعرفة الصالحة إلى خرافة الحلول ، أو الوحدة الحقيقية للوجود خالفاً ومخلوقاً وما أشبه من هذه الهرطقات البعيدة عن العقلية والفطرة السليمة ، وعن نصوص الكتاب والسنة . فتالوث الصلاحيات المنطقية والفلسفية والعرفانية ، هي خارجة عن دور معرفة الله الصالحة (١) .

(١) من قبيلاتهم القبيلات الويلات « بسيط الحقيقة كل الأشياء » توحيداً بين الحقيقة البسيطة الإلهية وكافة المركبات الخلقية ! =

بسط
خرافات
بسط
اص

ذلك ، فليس التدلي المعرفي إنمحاء الذات المحمدية عن بكرتها أو إتحادها بذات الله ، أو تبدلها بها ، فإن تبدل الممكن بالواجب قوساً صعودياً ، كتبدل الواجب بالممكن قوساً نزولياً ، كل منهما تجافٍ عن كيانه ممكناً أو واجباً ، والتجافي غير التبدل ، والتبدل تناقض حين يراد منه التحول على حالته إلى الحالة الأخرى وانمحاء حيث يراد زوال كل وحدوث الآخر .

إنما هي غاية المعرفة الممكنة بإزالة كافة الحجابات تفاضلاً دون إزالة حقيقية ، فحين يتغافل الإنسان عن كل شيء يتجلى له ربه كما يصح ويمكن .

فلا يتصاعد الخلق إلى كيان الخالق ، وكما لا يتنازل الخالق إلى كيان الخلق . وكل ما في الدور هنا تقرب الخلق إلى الخالق معرفة وعبودية ، دون وصول أو إتصال أو فناء حقيقي ، اللهم إلا التناقل القاصد عن كافة الحجابات الممكنة الزوال .

ذلك ، وعلى رغم البراهين الفطرية والعقلية ونصوص الكتاب والسنة

= ويقول ابن العربي : « سبحانه من أظهر الأشياء وهو عينها » اعتباراً انه التوحيد الحقيقي وكما يعتبر الثالوث عند المسيحيين هو التوحيد الحقيقي المعبر عنه بتوحيد التثليث ويقول : « فإن قلت بالتشبيه كنت مشبهاً وإن قلت بالتنزيه كنت معطلاً وإن قلت بالأميرين كنت مسوداً وكنت إماماً في المعارف سيّداً .

ويقول صدر الدين القونوي : « فقل الله وما سواه عدم بحث » وعلى ضوء وحدة حقيقة الوجود والموجود يقولون ما يعنيه : « اگر مسلم بدانستی که بت چیست یعنی کردی که دین در بت پرستی است .

ويقول ابن العربي « إن الله شاء أن يُعبد في كل صورة » وقال في قوله تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » بأن : « هذه قضاوة تكوينية ، أي واقع الأمر كذلك ، فعبدة الأوثان والأصنام عبدة الله » وقال أيضاً : إن فرعون قد غرق في بحر التوحيد ، وقال في الفص الهاروني من كتاب فصوص الحكم : إن غضب موسى على هارون إنما كان لأجل منع هارون بني إسرائيل عن عبادة العجل ، وعن إلقاء التفريق بينهم حيث كانوا عبدة الله ، فلهذا أخذ موسى بلحية هارون ! .

نرى مختلفات توراتية - هي من مصادر روايات الرؤية البصرية - تقول : « إن الله خلق آدم على صورته كما في (التكوين ٥ : ١ : ٣) » هذا كتاب مواليد آدم . يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عمله . ذكراً أو أنثى خلقه وباركه ودعا إسم آدم يوم خلقه .

وما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : « إن الله خلق آدم على صورته » هي بين مقطعة ومأولة^(١)

ذلك ، والرؤية البصرية - إضافة إلى جسمانية المرئي - هي بحاجة إلى فاصل الهواء ، وكما يروى عن أبي الحسن الثالث (عليه السلام) قوله : « لا تجوز الرؤية ما لم تكن بين الراي والمرئي هواء ينفذه البصر ، فإذا انقطع الهواء وعُدم الضياء بين الراي والمرئي لم تصح الرؤية وكان في ذلك الإشتباه ، لأن الراي متى ساوى المرئي في السبب الموجب بينهما في الرؤية وجب الإشتباه وكان في ذلك التشبيه ، لأن الأسباب لا بد من إتصالها بالمسببات »^(٢) .

(١) ففي التوحيد والعيون بإسناده عن الحسين بن خالد قال قلت للرضا (عليه السلام) يا بن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ! إن الناس يروون أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : إن الله خلق آدم على صورته ! فقال (عليه السلام) : قاتلهم الله لقد حذفوا أول الحديث ، إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مرَّ برجلين يستأبان فسمع أحدهما يقول لصاحبه : قبح الله وجهك ووجه من يشبهك ، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : « يا عبد الله لا تقل هذا لأخيك فإن الله عز وجل خلق آدم على صورته » وفيه عن علي (عليه السلام) مثله ، وروى الزهري عن الحسن أنه كان يقول : مر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) برجل من الأنصار وهو يضرب وجه غلام له ويقول : « قبح الله وجهك ووجه من يشبهك » ، فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : « بش ما قلت ، فإن الله خلق آدم على صورته » .

ذلك ومن تأويله ما رواه الصدوق في التوحيد عن محمد بن مسلم قال سألت أبا جعفر (عليهما السلام) عما يروون أن الله عز وجل خلق آدم على صورته ؟ قال : هي صورة محدثة مخلوقة اصطفاه الله واختارها على سائر الصور المختلفة فأضافها إلى نفسه كما أضاف الكعبة إلى نفسه والروح إلى نفسه . . .

(٢) مشكلات الأخبار (١ : ١٩٨) للسيد عبد الله شبر .

قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي
 فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي
 الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا
 بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا سَارِكِينَ قَارَأْنَا لَهَا سَمْعَيْنِ
 ﴿١٤٥﴾ سَاوَرَفُ عَنْ آيَاتِنَا الَّذِينَ يَتُكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
 الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةٍ لَا يَأْمُرُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ
 الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْفِتَنِ يَتَّخِذُوهُ

سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا
غَافِلِينَ ﴿١٤٧﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٨﴾ وَاتَّخَذَ
قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَيقِهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمَرُّوْا
أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا
ظَالِمِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا
قَالُوا الَّذِينَ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥٠﴾
وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي
مِنْ بَعْدِي أَيَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَالْوَيْ لَآلِوَاهِ وَأَخَذَ بِرَأْسِ
أَنفِهِ يَخْرُؤُ إِلَيْهِ قَالَ أَتُنَادِمُ إِنَّا الْقَوْمُ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا
يَقْتُلُونَنِي فَلَا تَنْتِفِ فِي الْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ
﴿١٥١﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوِي وَادْخُلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ

أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥٦﴾ إِنَّا الَّذِينَ نَخَذُوا مِنَ الْجِبِلِّ سِينًا لَهُمْ
 غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي
 الْمُفْضِرِينَ ﴿١٥٧﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا
 وَآمَنُوا أَنَّ رَبَّهُمْ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٨﴾ وَلَمَّا سَكَتَ
 عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسخِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ
 لِلَّذِينَ هُمْ لِربِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٩﴾ وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ
 رَجُلًا مُبِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ
 أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ
 مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ
 أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٦٠﴾
 وَكُتِبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا
 هُنَا إِلَيْكَ قَالِ عَنَابِي أُصِيبُ بِرِشَاءٍ وَرَحْمَةٍ وَسِعَتْ

كُلُّ شَيْءٍ فَنَاكِبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ

﴿ قال يا موسى اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾ (١٤٤)

هنا طمأنة لخاطر موسى المحروم عن الرؤية القمية المعرفية بـ « اني اصطفيتك على الناس » لا على المرسلين ككل « برسالاتي » التي تحملها إلى الناس « وبكلامي » إياك ، وذلك حدك الذي حددته لك « فخذ ما آتيتك » دون ما ليس لك « وكن من الشاكرين » ما آتيتك من الرزق المقسوم ، فلا تحزن ولا يضيّق صدرك بحرمانك عن تلك الرؤية القمية ، واكتف بما أعطيت ، وكن من الشاكرين الله عليه .

« اصطفيتك على الناس .. » لـ « اني قلبت عبادي ظهوراً لبطن فلم أجد فيهم أحداً أذل لي نفساً منك .. » (١) .

(١) نور الثقلين ٢ : ٦٧ في أصول الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : أوحى الله عز وجل إلى موسى (عليه السلام) أن يا موسى أتدري لما اصطفيتك بكلامي دون خلقي ؟ قال : يا رب ولم ذلك ؟ قال : فأوحى الله تبارك وتعالى إليه يا موسى ... يا موسى إنك إذا صليت وضعت خدك على التراب - أو قال - على الأرض ، وفيه عن علل الشرايع باسناده إلى محمد بن سنان عن إسحاق بن عمار قال سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول : إن موسى (عليه السلام) احتبس عنه الوحي أربعين أو ثلاثين صباحاً ، قال : فصعد على جبل بالشام يقال له : أريحا فقال : يا رب إن كنت حبست =

والإصطفاء هو إستخلاص الصفوة الصالحة بين الناس ومن أشبه ، وهكذا يكون كل رسل الله أنهم مصطفون على كل الناس الذين هم أرسلوا إليهم ، من مرسلين ككل مثل خاتم النبيين (صلى الله عليه وآله وسلم) أم نبيين إسرائيليين ومن سواهم من المكلفين أجمعين كموسى (عليه السلام) .

﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين ﴾ (١٤٥) .

« الألواح » هنا هي ألواح التوراة ، ثم « وكتبنا » هي كتابة ربانية كما الكلام رباني ، فلم يكن هنا وهناك وسيط غير رباني في الكتابة والكلام ، فقد « كلمه ربه » وكتب « في الألواح » وفيه « من كل شيء » تحتاجه الأمة التوراتية من شرعة « موعظة » هي جانب العظة التوراتية « وتفصيلاً لكل شيء » من الأحكام وسائر المعارف الربانية لدور الشرعة التوراتية « فخذها » ما كتبناها « بقوة » إيمانية رسولية ورسالية علمية وعقيدية وعملية « وأمر قومك يأخذوا بأحسنها » وكلها الحسنى لروح الزمن الرسالي التوراتي « سأوريكم دار الفاسقين » هنا ويوم الدين ، والفاسقون هنا هم المتخلفون عن التوراة ، المستكبرون أمامها ، وترى كيف « يأخذوا بأحسنها » ؟ وهي كلها الحسنى ! .

هنا « أحسنها » قد تعني أحسن قوة ، أن خذوها بأحسن قوة فإنها أقرب مرجعاً وأصلح معنى ، وهنا « أحسنها » دون موسى فإنها له « بقوة » فإن قواتهم كانت مادية ناحية منحى الشهوات ، وأما موسى فـ « بقوة » رسولية ورسالية عاصمة عن كل زلة وعلة .

= عني وحيك وكلامك لذنوب بني إسرائيل فغفرانك القديم ، قال : فأوحى الله عز وجل إليه : يا موسى بن عمران أتدري لما اصطفتك لوحيي وكلامي دون خلقي ؟ فقال : لا علم لي يا رب ، فقال : يا موسى اني اطلعت إلى خلقي لإطلاعة فلم أجد في خلقي أشد تواضعاً لي منك فمن ثم خصصتك بوحيي وكلامي من بين خلقي حال : وكان موسى (عليه السلام) إذا صلى لم يتنفل حتى يلصق خده الأيمن بالأرض والأيسر .

أم تعني أحسن أخذة ، دون أن يأخذوها علمياً ويتركوها بغيره ، أم يأخذوها عقيدياً ويتركوها عملياً ، فهي إذاً أخذة شاملة كاملة تحلّق على كل واجهات التوراة علمياً وعقيدياً وتطبيقياً ودعائياً .

هذا ومن « أحسنها » هو أحراها بالأخذ في دوران الأمر ، ففي الواجبات أوجبها ، وفي المندوبات أندبها ، ثم في المحرمات تركاً لها أشدها وكذا في المرجوحات ، ومن ثم فيما يتقرب به إلى الله على ضوء شرعة الله يأخذوا بأشقها فإن أفضل الأعمال أحمرها .

وباحتمال خامس القصد من أحسنها كلها ، لأن كلها هي الحسنى فهي من إضافة الشيء إلى نفسه، فموعظة التوراة وتفصيلها لكل شيء ، هما أحسن مما في سواها من كتابات الوحي على مدار الرسائل حتى اختتام شرعة التوراة .

ثم الأحسن المطلق هو وحي القرآن : « واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون » (٣٩ : ٥٥) .

ومن الفوارق بين التوراة والقرآن أن التوراة « من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء » : بعضاً منهما، والقرآن « تبياناً لكل شيء » كما أن رسول القرآن هو شهيد الشهداء رسولياً ورسالياً : « ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجثنا بك على هؤلاء شهيداً ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » (١٦ : ٨٩) ف « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذي يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً » (١٧ : ٩) وكما يذكر بعد التوراة والإنجيل مهيمناً عليها : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه » (١) .

(١) نور الثقلين ٢ : ٦٨ في كتاب الاحتجاج عن عبد الله بن الوليد السمان قال قال أبو عبد الله (عليه السلام) : ما يقول الناس في أولي العزم وصاحبكم أمير المؤمنين

ثم اللوح هو صحيفة معدة لأن يكتب فيها ، لائحة ظاهرة لمن يقرؤها ، من لاح البرق إذا لمع ، إذا فاللوح الألواح هنا هو لوح قلب موسى (عليه السلام) له ولمن يقرء الرسالة التوراتية من قاله وحاله وأعماله ، ثم هو لوح التوراة حيث كتبه الله بيده ، ومن ثم ألواح صدور وقلوب المؤمنين بها ، وألواح قالاتهم وفعالاتهم ، فالكتابة هنا - إذا - تعم أصلها من الله ، وفصلها من أهل الله رسلاً ومرسلاً إليهم .

ذلك ، وأما ما هي نوعية الألواح المكتوب فيها التوراة ؟ فقد أجمل عنها القرآن ، فلا علينا أن نعرف ماهية ؟ بعدما نعرف التوراة التي هي الأصل فيها ، وقد وردت فيها آثار مستغربة وأخرى مستغربة إلى التصديق (١) .

ثم « دار الفاسقين » الموعودة إراءته لهم قد تعني إلى دور الفسوق هنا (٢) والدار الدنيا لأهلها الفسقة وفي الأخرى ، تعني الأرض المقدسة التي كتب الله لهم ، وقد كانت دار الفاسقين من العمالقة المشركين .

(عليه السلام) ؟ قال قلت : ما يقدمون على أولي العزم أحدا ، قال فقال أبو عبد الله (عليه السلام) : إن الله تبارك وتعالى قال لموسى (عليه السلام) : وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة . . . ولم يقل : كل شيء ، وقال لعيسى (عليه السلام) : ولأبين لكم بعض الذين تختلفون فيه ولم يقل : كل شيء وقال لصاحبكم أمير المؤمنين (عليه السلام) : قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب وقال الله عز وجل : « ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » وعلم الكتاب عنده .

(١) كما في الدر المنثور ٣ : ١٣٠ - أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : الألواح التي أنزلت على موسى كانت من سدر الجنة كان طول اللوح اثني عشر ذراعاً .

(٢) نور الثقلين ٢ : ٧٠ في تفسير العياشي عن محمد بن سابق بن طلحة الأنصاري قال : كان مما قال هارون لأبي الحسن موسى (عليه السلام) حين دخل عليه : ما هذه الدار ؟ قال : هذه دار الفاسقين ، قال : وقرأ هذه الآية ، فقال له هارون : فدار من هي ؟ قال : هي لشيعتنا قرة ولغيرهم فتنة قال : فما بال صاحب الدار لا يأخذها ؟ قال : أخذت منهم عامرة ولا يأخذها إلا معمورة .

ذلك ، وفي نظرة أخرى إلى الآية « من كل شيء » لا تعني « كل شيء » على الإطلاق ، ولا كل شيء من دين الله الموزع على الشرائع الخمس ، بل هو « من كل شيء » تصلح للشرعة التوراتية لزمناها ، فـ « كل شيء » في حقل شرعة الله تعني الدين كله ، و « من » هنا تعني بعضاً منه يختص بالدور التوراتي وكما تعنيه « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه .. » (٤٢ : ١٣) .

ثم « موعظة » تلييناً لهم بعد بالغ الحجة التي تحويها هذه الألواح ، ومن ثم « تفصيلاً لكل شيء » تخص الشرعة التوراتية ، دون كل شيء « كما القرآن ، المهيم على ما بين يديه من كتاب ، الحاوي لزيادة عليه يحتاجها المكلفون إلى يوم الدين .

« فخذها بقوة » في بعدي العصمة البشرية التي حصلت عليها قبل العصمة الرسالية ، وهذه العصمة الرسالية ، تكريساً لكل قوائك لأخذ الألواح علمياً وعقيدياً وعملياً رسولياً ورسالياً .

« وأمر قومك ياخذوا بأحسنها » وهنا مفعول « ياخذوا » محذوف معروف من ذي قبل وهو الألواح ، فالباء في « بأحسنها » لا تعني التعدية ، فهي في مثلث العناية : ابتداء ومصاحبة وسببة ، أن يكون بازغ أمرهم « أحسنها » مصاحبين إياه ومتسببين به إلى كل خير .

و « أحسنها » كما اسلفناه هو أحسن أخذة وأحسن قوة ، وأحسن نفسية ونفاسة حيث الألواح كلها أحسن ، ثم وأحسن عند دوران الأمر بين المهم والأهم فيها ، أم والأخذ بالأحسن هو أقل تقدير في تلك الأخذة بالقوة ، دون وخزة .

فيقرب خماسية بأحسنها في مثلث معاني الباء تصبح المحتملات خمسة عشر احتمالاً : أخذاً بأحسن أخذة ابتداءً ومصاحبة وسببية ، وبأحسن قوة كأخذه ، وبأحسنها ككل ، ابتداءً بالكل ومصاحبة للكل وتسبباً

سورة الأعراف / آية ١٤٤ - ١٥٦ ٣٠٥

بالكل ، وبأحسنها عند دوران الأمر ، ابتداءً به ومصاحبة وتسبباً ، وبأحسنها نسبياً .

والمحتملات الخمسة عشر كلها صالحة للعناية من « بأحسنها » أدبياً ومعنوياً .

وإذا كان الأخذ بأحسنها فريضة توراتية ، فبأحرى الفريضة القرآنية ، يجب أخذها بأحسن أخذة وأحسن قوة وسائر الأحسن دون أي فتور . إستقطاباً وتكريساً لكافة الطاقات الحاضرة والمستحصلة لتحقيق حقيق بالقرآن بكل حقوله الدراسية والعقيدية والعملية والدعائية .

وأيّن هذا مما تعيشه الحوزات الإسلامية من رفض القرآن ، مهما خيل إليها أنه أول الأدلة الشرعية ، ولكنك لا تجده وُجداً صالحاً في العلوم الحوزوية عن بكرتها ! .

وهنا « ساوريكم دار الفاسقين » - وهي الجحيم بدركاتها - تهديد مديد بهؤلاء الذين لا يأخذونها بأحسنها ، تركاً لأية أخذة بأية قوة ، أم أخذة بوخزة .

ومن المسائل المستفادة هنا أن الأمر هو برهان الفرض ، فإن تاركي هذه الأخذة التوراتية مهددون بدار الفاسقين ، الذين يفسقون عن أمر الله بلسان رسوله ، وأن الأمر بالأمر كما الأمر من أدلة الفرض .

﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ (١٤٦) .

« سأصرف عن آياتي » كلها ، رسولية ورسالية ، تكوينية وتشريعية ، صرفاً عن نقضها أو النقص منها ، وصرفاً عن الإيمان بها قضية إستكبارهم في الأرض بغير الحق .

فهنا صرف عن آيات الله حفاظاً عليها من دوائر المتكبرين ، وصرف

لهم عنها ألا يؤمنوا بها حيث عاشوا تكذيبها والتغافل عنها ، جزاءً وفاقاً .
فالمتكبر في الأرض بغير الحق - وكل تكبر في الأرض هو بغير الحق
وليس التكبر مع المتكبر تكبراً في الأرض بل هو خاص بحقله الخاص - هو
مصروف عن آيات الله ، ومن منتجات ثاني الصرفين - الذي هو من
منتجات « إنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » بعد تكبرهم في الأرض
وقضيته - إن منها « وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها » كرأس الزاوية من ثالث
منتجاتهم « وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلاً » رغم رؤيتهم « إن يروا
سبيل الغي يتخذوه سبيلاً » جبلة تجنح عن سبيل الرشدا حيثما رآته ،
وتجنح إلى سبيل الغي حيثما لاح لها .

إذاً فهي جبلة الغي والضلال إذ هي تُعكس الحق إلى الباطل
والباطل إلى الحق : « قل هل تثكم بالآخرين أعمالاً الذين ضل سعيهم
في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (١٨ : ١٠٤) .

فهنا سبيلان إثنان تلو بعض ، ونتيجة بعضها البعض ، هما
« يتكبرون - كذبوا . . » وهما الموجبان لصرفهم عن آيات الله ، ولشاني
الصرفين ثالث « لا يؤمنوا بها - لا يتخذوه - يتخذوه » .

هذا ، وذلك تهديد شديد بما يحاوله المتكبرون من نقض
القرآن ونقصه أو نقده ، ولحد الآن ما استطاعوا على شيء من ذلك ولن ،
وكذلك يهددون أن يصرفوا عن تفهم القرآن كما يحق نتيجة تكذيبهم به ،
فهم في ريبهم يترددون .

ذلك وهنالك صروف أخرى « عن آياتي » أن يصبحوا فاضي الأيدي
والأبصار عن آيات الله البيّنات بكل حصائلها ووسائلها ، صرفاً عن بيناتها ،
وزياداتها ، ونقضها ، والنقص فيها ، والصد عنها ، ثم واجتياحهم
واصطلامهم صدأ عن كل ما يريدون من دوائر السوء بها ، فتصبح الآيات
النافعة لمن يبصرون إليها وبها ، اليافعة لهما في الأولى والأخرى ، تصبح
لهم ضارة فيهما .

﴿ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا

ما كانوا يعلمون» (١٤٧) .

أولئك « حبطت أعمالهم » الصالحة عن آثارها الأخروية مهما كانوا موحدين فضلاً عن المشركين والملحدين حيث الحبط في مقام العقوبة ليس إلا في حقل الحسنات ، فتمحض الأعمال في السيئات، وأصل الحبط من قولهم : حبطت الناقة إذا رعت نباتاً ساماً فانتفخ بطنها ثم نفقت ، فهؤلاء الأنكاد يتنفخون ويتنفجون بمظاهر من زخرفات الحياة ، فيحسبهم الجاهل على شيء من القوة والمكانة ، ثم يُنفقون كما تنفق الناقة التي رعت ذلك النبات السام ، فالتكذيب بآيات الله يعم مثلث التخلف في حقل الإلحاد^١ تكذيباً بالله ،^٢ والإشراك تكذيباً بتوحيد الله ،^٣ والتوحيد تكذيباً بشرعة الله المحكّمة .

ثم « ولقاء الآخرة » تكذيباً لأصل لقاءها ، أم حق لقاءها إلى باطله كمن يخيل إليهم أن الله لا يحاسب عباده يوم لقاءها أم يعفو عنهم جميعاً ، أماذا من الضلال تصوراً خاطئاً عن لقاء الآخرة .

« هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » فإن حبط أعمالهم في الأخرى هو نفسه حبطها في الأولى ، لحبطها بفراغها عن الإيمان الصالح ، إذاً فالجزاء هو نفس العمل دون مغايرة بينهما أو زيادة ، وهذه الضابطة برهان لا مردّ له على أن لا جزاء بمجرد النية في حقل العقوبة ، مهما كان الجزاء بصالح النية ، فإنه قضية فضله تعالى ، وذاك قضية عدله ، فلا جزاء في قسطاس العدل لمجرد النية الطالحة إلا مجرد النية الطالحة دون أية عملية عقوبية ، فالقصد من العمل هو الحالة الفعلية من قالة أو عقيدة أو عملية ، وليست النية بالنسبة لها إلا حالة شأنية ، إذاً فقضية العدل هي فعلية بفعالية وشأنية بشائية ، اللهم إلا في نية الخير فإن فعلية الثواب لها هي من قضايا فضله تعالى .

أجل ، قد يصح القول إن نية سوء محرمة فيما إذا أدت إلى فعل السوء لأنها - إذاً - من الإثم - وهو كل ما يبطىء عن الثواب - ، ولكن الجزاء هنا يختص بواقع السوء .

فحتى لو شملت « ما كانوا يعملون » النية الطالحة فـ « هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » تقرر الجزاء بظهور نفس النية مظهر العذاب النفسي دون واقع له آخر خارج عن نفس النية .

فذلك الإستنكار يستنكر القول : إن المخلدين في النار مؤبدون فيها لغير نهاية مهما كانت أعمالهم محدودة ، إذ كان من نيتهم سوء أن لو ظلوا أحياء لغير النهاية لاستمروا في سوء أعمالهم ؟ حيث تدلنا هذه الآية وأضرابها أن لا دور للنية الطالحة في حقل العقوبة العملية قضية العدالة مهما كان للنية الصالحة دور في حقل المثوبة بفضل من الله ورحمة ! .

وهنا احتمال آخر في « ما كانوا يعملون » هو أن الجزاء حسناً وسيئاً ليس إلا بالعمل ، فلما حبطت حسناتهم فلم تبق لهم إلا سيئات فهم - إذا - مجزيون - فقط - بسيئات حيث « قدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً » (٢٥ : ٢٣) .

وترى أن حصر الجزاء فيما كانوا يعملون كما ينفي العقاب عن نية السوء ، كذلك ينفيه عن ترك الواجب لأنه ليس عملاً ، فيختص بفعل الواجب والحرام دون تركهما ؟

كلًا حيث العمل يشمل الإيجاب والسلب ، فكما أن فعل الواجب عمل كذلك تركه لأنه باختيار ، وهكذا فعل الحرام وتركه ، فالمعنى من العمل في موقف الثواب والعقاب هو الفعل والترك ، اللذان هما بالفعل فعل إذ لا يتحققان إلا باختيار الواقع فعلاً وتركاً .

ولو أن العمل يختص بالموجب دون المنفي فقد تكفي الآيات المهددة لترك الواجبات والمرغبة إلى ترك المحرمات ، تكفي توسعة في حقل الجزاء من العمل إلى تركه .

وبوجه ثالث قد تعني هنا « بما تعملون » فقط الحسنات بقريئة الإحباط ، فالذين تحبط حسناتهم فبماذا يثابون وليست لهم حسنات ، فإنما يعاقبون عقاباً خالصاً بعد فإلس الحسنات وكالسها ، بما فعلوا من عصيانات وتركوا من واجبات .

﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا جسدًا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلًا اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾ (١٤٨).

قصة العجل الجسد الذي له خوار مفصلة بحذافيرها في « طه » (١) فلا نعيدها ، ولا نعيد هنا إلا قصة الحلبي المذكور هناك بصيغة « زينة القوم » أنها كانت من حليهم دون حلبي آل فرعون ، لمكان « حليهم » .

وهنا « جسدًا » وصفًا متميزًا لـ « عجلًا » تُخرجه عن كونه حيًا ، فإن « عجلًا » تكفي لكونه حيًا ، فلا دور إذا لـ « جسدًا » إلا تجسيد العجل الذهبي ذهبيًا كما « أخرج لهم السامري » ولأن السامري لم يكن ليُخرج لهم إلا ما أخرج ، دون معجزة تحويله إلى عظام ولحم ، فضلًا عن إحياء كسائر العجل التي يخلقها الله ، فقد نتأكد بهذا أو ذاك أن العجل لم يتحول عن البنية الذهبية إلى غيرها بحياة وغير حياة ، وأما « له خوار » فلأن « خوار » هو صوت العجل الحقيقي فليكن خواره الحقيقي ، إلا أن « جسدًا » يفصل عن ذلك .

ولأن « له خوار » دون « للسامري فيه خوار » أم بجري الرياح من دبره إلى فمه خوار ، لذلك فليس - إذا - خواره إلا بما أثار الله من صوت العجل الحي في العجل الجسد ، وهذه هي أقل فتنة شر لهؤلاء الأنكاد البعاد ، ولتعلموا من هم أولاء في حقل المعرفة الربانية ، بعد تواتر الآيات البيّنات التي رأوها منذ الرسالة الموسوية .

أجل « له خوار » بما الله أثار (٢) فتنة لهم وابتلاء بما يستحقون وكما قاله موسى (عليه السلام) : « إن هي إلا فتنتك تفضل بها من تشاء وتهدي

(١) الفرقان ١٦ : ١٦٧ - ١٨٥ ، فيه تفصيل مشبع عن تمام القصة بتمامها .

(٢) نور الثقلين ٢ : ٧٠ في تفسير العياشي عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية فقال موسى : يا رب ومن أثار الصنم ؟ فقال الله : يا موسى أنا أثارته فقال موسى : إن هي إلا فتنتك . . . وفيه عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال : إن فيما ناجى الله موسى (عليه السلام) أن قال : يا رب هذا السامري صنع العجل فالخوار من صنعه ؟ قال : فأوحى الله إليه يا موسى أن تلك فتنة فلا تفضخص عنها .

من تشاء « (٧ : ١٥٥) .

فهى - إذا - فتنة شر للشريرين وكما افتننوا بها وتبلبلوا، وفتنة خير للخيرين كما نجحوا فيها حيث تبلور الإيمان ولم يتبلبل ، كما « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » .

« ألم يروا أنه لا يكلمهم » ولو كان إلهاً لكلمهم ليهديهم سبيلاً « ولا يهديهم سبيلاً » فهل هو بعدُ إله يُعبد على كونه ميتاً ليس له صوت حتى صوته، فضلاً عن صوت يهدي سبيلاً « إتخذوه » إلهاً « وكانوا ظالمين » أنفسهم إذ ضلوا دونما حجة ، وإنما لجساجاً أوقعهم في لجة ، فكانوا صراحاً ، إذ لا يقبل الإشراك بالله إلا أنه ظلم غير قاصر ولا معذور ، فحتى الحشرة تميز بين الفاضل والمفضول في حقل معرفتها ، وهذا الإنسان الذي جعل نفسه في أسفل سافلين إنقلب إلى أدنى من الحشرة حيث يترك خالق الكون أجمع ويعبد عجلاً جسداً له خوار ! .

وإنما ذكر هنا من شؤون الألوهية التكليم والهداية ، دون شؤون أخرى لها كالتجرد واللامحدودية والحياة وما أشبه ؟ لأن حصيلة الألوهية الصالحة للمألوهين هي التكليم بما يسعدهم ، والهدى بما يتبعونه ، فحتى إذا وُجد كائن له كافة ميزات الألوهية دون هداية فهى - إذا - ألوهية خاوية غاوية ! .

لست أقول : إن كل من كلم وهدى هو إله ، إنما أقول : من لا يكلم ولا يهدي ليس إلهاً ، فللألوهية ميزات أبرزها في حقل الربوبية التكليم بما يُرشد ويهدي المألوهين ، فالربوبية لزامها التكليم بالهدى وليس هو لزامه الربوبية لأن لها ميزات أخرى معها ، كان تكون هدىً طليقة لا يخلطها خطأ فضلاً عن أن تخلص في خطأ، وترى « قوم موسى » هم كلهم في اتخاذ العجل إلهاً ؟ عله نعم لإطلاق القوم عليهم كلهم ، وأن دعاءه إختصه وأخاه : « رب اغفر لي ولأخي » ! ولكنه لا ، حيث القوم لا يدل على الإستغراق ، وموقف الدعاء هنا خاص بمنزلة الرسول وخليفته ، ثم « من قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » (٧ : ١٥٩) تبعض قومه

إلى صالحين مصلحين وإلى طالحين مفسدين .

﴿ ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ﴾ (١٤٩) .

هنا لا نعرف من آية الأعراف كيف « سقط في أيديهم » إنما هي آية طه : « وانظر إلى آل هالك الذي ظلت عليه عاكفاً لتحرقنه ثم لنسفته في أليم نسفاً » (٢٠ : ٩٧) فقد سقط محروقاً أمامهم ثم نسف في أليم نسفاً ، إحراقاً ونسفاً له ولضلالهم المبين فـ « رأوا أنهم قد ضلوا » بأم أعينهم حسياً ، بعدما كانوا يرونهم ضلالاً فطرياً وعقلياً وشرعياً ، ولكنهم ما أمروا بضلالهم إلا على ضوء الحس وكما عبدوا العجل الجسد قضية أصالة الحس .

ذلك ، وعند ضلالهم بحاضر الإحساس « قالوا لئن لم يرحمنا ربنا » فغضب علينا بما ضللنا « و » لم « يغفر لنا » خطايانا « لنكونن من الخاسرين » الذين خسروا أنفسهم إذ ماتوا عطاشاً يوم أليم الزاخر من دلالات آيات ربنا البينات .

ذلك ، فقد سقط كثير من الوجوه المذكورة في المفصلات لـ « سقط في أيديهم » في أيديهم، حيث الساقط البين هنا هو العجل الذهبي الآله بزعمهم ، إذ أحرق ونسف في أليم نسفاً .

وقد يُعنى معه « سُقط » ذلك الإتيان في أيديهم المحاولة لأخذه إلهاً بما بينه موسى بلسان الوحي ، وبما أحرق ونسف في أليم نسفاً .

وثالثة لما ندموا بأشده وأشدّه حيث يقال لمن ندم « سقط في يده » إذ نفّض يده عما كان يرجوه ، ففند ونفد ما كان يرجوه .

ورابعة بمعنى وقع في يده السقيط كالسقاطاة والنفاية ، فقد كانت ألوهة العجل سقاطاة مقيّنة ونفاية منفية في كافة الموازين المعنية ولكنها لما سقطت في أيديهم بحقل الإحساس حين أحرق ونسف رأوا أنهم قد ضلوا .

وعلى أية حال « سقط » العجل « في أيديهم » حرقاً ونسفاً أمامهم ، فسقط ما بأيديهم من زعم ألوهته ورأوا أنهم قد ضلوا .

أجل ، هذا العجل الذهبي الذي عبده لأنه له خوار ومن الذهب الذي هو معبود إسرائيل على طول الخط ، هذا العجل سقط في أيديهم فسقط ما اتخذوه إلهاً عن ألوهته أمامهم .

﴿ ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بشما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين ﴾ (١٥٠) .

« . . قال فإنا فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري » فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي » (٢٠ : ٨٦) .

« رجع غضبان » على ما حصل « أسفاً » لماذا حصل ؟ أم وأسفاً مما عنهم أعجل « قال بشما خلفتموني من بعدي » من الخلف دون الخلف حيث الخلف هو المخالفة أن يجعل خلفه أمامه : وخلفتم إياي إذ أخلفتم موعدي فما تبتموني إلى الطور ، ثم لما ظللتكم في خلفكم ضللتم بخلفي في شرعة التوحيد ، خلفاً في تخلفين إثنين ثانيهما أخلف ، ولماذا أخلفتموني هكذا ؟ .

« أعجلتم أمر ربكم » من وعده الذي وعدكم من إنزال التوراة بمواعدة الثلاثين المتممة بعشرة ، ومن وعده « أن يحل عليكم غضب من ربكم » « فأخلفتم موعدي » ؟ وهما ينتظمان هكذا في « أمر ربكم » .

« وألقى الألواح » بما ألغوها فيما خلفوا من بعده وخالفوه ، وقضية الغضب والأسف على ما حصل ، حيث القصد منها هداهم وهم قد عبدوا العجل الجسد ! .

« وأخذ برأس أخيه يجره إليه » غضبان أسفاً من خلفية هذه الخلافة
« ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أف عصيت أمري » « قال يا ابن أم
« لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل
ولم ترقب قلبي » (٢٠ : ٩٤) .

« قال ابن أم إن القوم استضعفوني » بكشرتهم وقتلي « وكادوا
يقتلونني » لماذا أمنعهم ولا أتبعهم فيما ضلوا وظلوا عليه عاكفين « فلا
تشتت بي الأعداء » الذين « استضعفوني وكادوا يقتلونني » أن يروني
مذلاً بين يديك « ولا تجعلني » في ذلك التأنيب الشديد « مع القوم
الظالمين » .

هنا « ابن أم » وقد كانت « أمه » لمكان الفتح، وليستجيش في نفس
موسى الغضبان الأسف عاطفة الأخوة الرحيمة من ناحية الأم الحنونة - مهما
كان هناك والد^(١) واحد أم إنسان^(٢) فهذا النداء الرقيق الرفيق ، وتلك
الوشيجة الرحيمة الحميمة يريد التخفيف عن هياجه واندفاعه أمام ذلك
الواقع الجلل المرير .

فلقد تهدرت أعصاب موسى (عليه السلام) بهذه الجيئة الفجيعة إذ

(١) في خطبة الوسيلة لعلي (عليه السلام) : كان هارون أخاه لأبيه وأمه .

(٢) نور الثقلين ٢ : ٧٢ في العلل بإسناده إلى علي بن سالم أخبرني عن هارون لم قال
لموسى : يا ابن أم . . ؟ ولم يقل : يا ابن أبي ؟ فقال (عليه السلام) : ان العداوات بين
الأخوة أكثرها يكون إذا كانوا بني علات ومتى كانوا بني أم قلت العداوة بينهم إلا أن ينزغ
الشیطان بينهم فيطعموه فقال هارون لأخيه موسى (عليهما السلام) يا أخي الذي ولدته
أمي ولم تلدني غير أمه لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ولم يقل يا ابن أبي لأن بني الأب إذا
كانت أمهاتهم شتى لم تستبعد العداوة بينهم إلا من عصمة الله منهم وإنما تستبعد العداوة
بين بني أم واحدة ، قال قلت له : فلم أخذ برأس أخيه يجره إليه وبلحيتيه ولم يكن في
اتخاذهم العجل وعبادته له ذنب ؟ فقال : إنما فعل ذلك به لأنه لم يفارقهم لما فعلوا ذلك
ولم يلحق بموسى وكان إذا فارقهم ينزل بهم العذاب ألا ترى أنه قال لهارون : « ما منعك
إذا رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أف عصيت أمري » قال هارون : لو فعلت ذلك لفترقوا « واني
خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قلبي » .

رأى تهدرت كل دعواته الرسالية في قومه ، فلم يتمالك نفسه ، إلا أن يفعل ما فعل ، وهو قضية الموقف المحتار ، وعله هكذا فعل بأخيه المختار من باب إياك أعني وإسمعي يا جار ، أنه إذا كان دوره مع خليفته المعصوم العزيز الحفيظ هكذا ، فما هو دوره - إذا - مع هؤلاء الذين ضلوا واستضعفوه وكادوا يقتلونه ، تعبيراً لجو التأنيب الشديد بهم وأمرهم بالإمر أن « أقتلوا أنفسكم .. » .

ذلك ، وليعلموا أن شرعة العدل لا تعرف قرابة وأصرة إلا قرابة الإيمان وأصرته ، وحين يؤنب أخاه البريء هكذا فماذا هو فاعل بهم وهم خونة مجرمون ؟ .

ذلك وقد يعني من أخذه رأس أخيه يجره إليه معذلك التخفيف عن غضب أخيه والتحبب إليه ، ولذا « يجره إليه » دون أن « يبعده عنه » فلذلك الجر معنيان اثنان ، تأنيب من باب « إياك أعني وإسمعي يا جاره » وتحبيب أنه - فقط - « إليه » في هذه المعركة الصاخبة ، فقد هذموا بعبادتهم العجل الثقلين ، وعمل من غايات ذلك الإلقاء والأخذ هو بيان ذلك التهديد الحذير .

وقد يضرب الإنسان على وجهه نفسه ورأسه ويعض على يديه عند الغضب والأسف وليس له ذنب فيما حصل ، وهكذا فعل موسى بأخيه إعتباراً له أنه نفسه تحسراً وغضباً على ما حصل ، ولكنه على أية حال لا يخلو من تأنيب بهارون كما يعرف من جوابه .

ذلك وقد يوجه ما فعل موسى (عليه السلام) بالثقلين : الألواح وأخيه ، بأنه رأى أنهما ألغيا في رأس الزاوية لهما وهو التوحيد ، فآلقاهما تأشيراً أنهنم ألغوهما ، ثم أخذ الألواح واستغفر لنفسه ولأخيه إعادة لكيانهما استمراراً للدعوة التوحيدية في قومه (١)

ذلك ، وهذه المواجهة المرة في ظاهر الحال مع هارون

(١) تجد التفصيل على ضوء الآيات في طه من الفرقان ١٦ : ١٧٣ - ١٧٨ .

(عليه السلام) كانت : ^١ أن ملكه الغضب إذ رأى أن رسالته كلها تهدرت في تلك الفترة الفتيرة القصيرة وفيهم هارون أخوه وخليفته ! ^٢ وأن هذه بعناية قاصدة بإيالك أعني واسمعي يا جاره لكي يعلم بنو إسرائيل ماذا عليهم من عقوبات بفعلتهم القاصدة الحمقاء العاندة ، حين يواجه هارون بتلك المواجهة المرة وكما يخاطب الله محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) بخطابات قاسية تعني ما تعنيه ك : « لئن أشركت ليحبطن عملك » - « يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين » « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً » وما أشبه ، والمقصود غيره ، والزاوية الثانية - وهي غير معنية - أنه هتك أخاه كأنه قصّر فيما حمّل من خلافته الرسالية ، فأعذر نفسه من هذه الزاوية ، لكي يعلموا أنه ليس هو المقصود بالمهانة .

ذلك ، وعلى أية حال ، كما ملكت النبوة موسى (عليه السلام) بكل كيانه وشرائره كونه ، كذلك يملكه الغضب حين يرى نبوته ودعوته الطائفة ساقطة بين يديه من هؤلاء الذين عبدوا العجل ، إذاً فحق له أن يلقي الألواح - دون إلغاء - وإنما إلقاء لقاء ما رأى نبهة لهم أنكم القيتموها إلغاءً ، وحق له أن يأخذ برأس أخيه يجره إليه - دون أن يبعدة عنه - حين لا يرى حاصلًا صالحًا لكونه فيهم حيث استضعفوه وكادوا يقتلونه .

وحق لهارون أيضاً أن يدافع عن نفسه تبيناً لموقفه المرير أمام ذلك الواقع الشرير .

ولما أعذر هارون نفسه من هذه المزرقة المضللة : « إن القوم استضعفوني » فلم يكن لي عليهم من سلطان حتى أمنعهم عما ضلوا ، بل قد أبلغت خلافتي الرسالية لمنتهاها ، وحتى « وكادوا يقتلونني » ، عذره موسى ودعا له ولنفسه (١) .

(١) نور الثقلين ٢ : ٧١ في تفسير العياشي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : إن الله تبارك وتعالى لما أخبر موسى (عليه السلام) أن قومه اتخذوا عجلاً له خوار فلم يقع منه موقع العيان فلما رأهم اشتد غضبه فألقى الألواح من يده وللرؤية فضل على الخبر .

﴿ قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم
الراحمين ﴾ (١٥١) .

« اغفر لي » ما عجلت عن قومي وما صاحبتهم إلى الميعاد فحصل ما
حصل ، و « أغفر لي » ما فعلت بأخي حيث لم يستحق ذلك التائب
الشديد ، واغفر « لأخي » إذ لم يستطع أن يخلفني كما يجب قصوراً ولا
تقصيراً إذ قدم ما قدم بطوعه وقوته على ضعفه : « ولقد قال لهم هارون
إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري . قالوا لن نبرح
عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى » (٢٠ : ٩٠ - ٩١) مما يلمح إلى
مدى عذره بدوره خليفة الرسول بغيابه ، « وأدخلنا في رحمتك » الخاصة
بعد ما خرجنا منها فترة الابتلاء « وأنت أرحم الراحمين » .

فقد نرى أن هارون لم يقصّر في خلافته ، اللهم إلا قصوراً
باستضعافه وخوف قتله ، إلا أن واقع الحال يتطلب تلك الظاهرة الغضبية
الأسفة من موسى (عليه السلام) بهارون ، ورغم أنهم استضعفوه وعظمهم
وندد بهم : « إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن . . . » حتى كادوا ليقتلوه ،
وقتل الداعية قد يُسمح له في سبيل الدعوة إن أثر في تحقيقها أم في مزيد
الحجة وإنارة المحجة ، ولكن بني إسرائيل المعروفين بقتل النبيين لم
يكونوا ليتأثروا بقتل هارون إلا حظوه لهم في خطوتهم الخاطئة هذه ، إزالة
لمن يصددهم عنها ، وتقليلاً لمساعد الداعية ومساعدته ، فتعريض هارون
نفسه للقتل - إذا - لم يكن إلا تعريضاً للرسالة التوراتية إلى الخمول بفقد
وزيرها الحريز العزيز ودونما فائدة وعائدة إلا لعمق الضلال وحمقه
لهؤلاء الأنكاد الأوغاد .

تري ولماذا لم يلق الألواح في الطور إذ قال له ربه « فأصلهم
السامري » ولم يغضب غضبه إلا هناك بعدما رجع إلى قومه ؟ لأنه لم يقع
هناك موقع العيان وللرؤية فضل على الخبر^(١) ثم والقاء الألواح وأخذ
برأس أخيه هما ظاهرتان دعائيتان أمام القوم فلم يكن لهما موقع في الطور

(١) المصدر عن المجمع روي أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : . . وفي الدر
المشور ٣ : ١٢٧ عن ابن عباس قال قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يرحم الله

إلا باطن الغضب .

وفيما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) « رحم الله أخي موسى (عليه السلام) ليس المخبر كالمعاین ، لقد أخبره الله بفتنة قومه وقد علم أن ما أخبره ربه حق وأنه على ذلك لمتمسك بما في يديه فرجع إلى قومه ورأهم فغضب وألقى الألواح (١) .

موسى ليس المعاین كالمخبر أخبره ربه تبارك وتعالى أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح فلما رأهم وعاینهم ألقى الألواح فتكسر منها ما تكسر ، أقول : مثل هذا الإلقاء إلغاء لكتاب الله فلا يصتق على رسول الله ، وإنما ألقى الألواح بكل حرمة ورعاية تدليلاً على أنهم ألغوها في غيابه برأس الزاوية التوحيدية فيها .

وفي المصدر في بصائر الدرجات عن رجل عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : دخل رجل من أهل بلخ عليه فقال له : يا خوزستاني تعرف وادي كذا وكذا ؟ قال : نعم قال : من ذلك الصدع يخرج الدجال قال ثم دخل عليه رجل من أهل اليمن فقال : يا يمانی تعرف شعب كذا وكذا ؟ قال : نعم . قال له : تعرف شجرة في الشعب من صفتها كذا وكذا ؟ قال : نعم قال له تعرف صخرة تحت الشجرة ؟ قال : نعم قال : تلك الصخرة التي حفظت ألواح موسى على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وفي آخر عنه (عليه السلام) قال لي أبو جعفر يا أبا الفضل تلك الصخرة التي حين غضب موسى (عليه السلام) فألقى الألواح فما ذهب من التورية النعمته الصخرة فلما بعث الله رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) أدته إليه وهي عندنا . أقول : ألم تكن تلك التي النعمته تحمل شرعة توراتية ، فكيف ظلت في الصخرة فما أدته إلى موسى ولا المسيح (عليهما السلام) وهي تحمل شرعتهما ، ثم أدتها إلى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا تحمل شرعته ؟ ١٩ .

(١) نور الثقلين ٢ : ٧٤ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى سلمان الفارسي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حديث طويل يقول فيه لعلي (عليه السلام) : ... وفيه عن روضة الكافي خطبة لعلي (عليه السلام) وهي الخطبة الطالوتية وفي آخرها : ثم خرج من المسجد فمر بصبرة فيها نحو من ثلاثين شاة فقال : والله لو أن رجلاً ينصحوكم الله عز وجل ولرسوله بعدد هذه الأشياء لأزلت ابن آكلة الذباب - جمع ذباب - عن ملكه فلما أمسى بايعه ثلاثمائة وستون رجلاً على الموت فقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : أغدوا بنا إلى أحجار الزيت محلقي وحلق أمير المؤمنين (عليه السلام) فما والي القوم محلقة إلا أبو ذر والمقداد وحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر وجاء سلمان في آخر القوم فرفع يده

أجل فحينما يملك الغضب موسى (عليه السلام) لحد يلقي ألواح التوراة فهلا يأخذ - إذا - برأس أخيه ، حيث يرى سحقاً ومحققاً للرسالة والرسول في تلك الفترة القصيرة الفتيرة ، فأين الرسالة - إذا - وأين الرسول ؟ ! .

فكما أن إلقاء الألواح لا يعني إهانة لها ، كذلك أخذه برأس أخيه لا يعني مهانة ، إنما هو هو الغضب الذي لا يتمالك صاحبه نفسه فضلاً عن

إلى السماء فقال : إن القوم استضعفوني كما استضعفت بنو إسرائيل هارون (عليه السلام) ، وفيه عن الإحتجاج في رواية سليم بن قيس الهلالي عن سلمان الفارسي حديث طويل وفيه قال قال أمير المؤمنين (عليه السلام) لأبي بكر وأصحابه : « أما والله لو أن أولئك الأربعين الرجل الذين بايعوني وفوا لي لجاهدتكم في الله حق جهاده ، أما والله لا ينالها أحد من عقبكم إلى يوم القيامة ثم نادى قبل أن يبايع : يا ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني » .

وفيه باسناده إلى محمد بن علي الباقر (عليهما السلام) قال : لما حج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من المدينة وبلغ من حج مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من أهل المدينة وأهل الأطراف والأعراب سبعين ألف إنسان أو يزيدون على نحو عدد أصحاب موسى السبعين ألفاً الذين أخذ عليهم البيعة هارون (عليه السلام) فنكثوا واتبعوا العجل والسامري ، وكذلك أخذ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) البيعة لعلي (عليه السلام) بالخلافة على عدد أصحاب موسى (عليه السلام) فنكثوا البيعة واتبعوا العجل والسامري سنة بسنة ومثلاً بمثل ...

وفيه عن العلل باسناده إلى ابن مسعود قال : إحتجوا في مسجد الكوفة فقالوا : ما لأمر المؤمنين (عليه السلام) لم ينزع الثلاثة كما نازع طلحة والزبير وعائشة ومعاوية ؟ فبلغ ذلك علياً (عليه السلام) فأمر أن ينادى الصلاة جامعة فلما اجتمعوا صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : معاشر الناس انه بلغني عنكم كذا وكذا ؟ قالوا : صدق أمير المؤمنين (عليه السلام) قد قلنا ذلك ، قال : إن لي بسنة الأنبياء أسوة فيما فعلت قال الله تعالى في محكم كتابه « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » قالوا : ومن هم يا أمير المؤمنين (عليه السلام) ؟ قال : أولهم إبراهيم (عليه السلام) - إلى أن قال - : ولي أخي هارون (عليه السلام) أسوة إذ قال لأخيه : « يا ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني » فان قلت : لم يستضعفوه ولم يشرفوا على قتله فقد كفرتم ، وإن قلت : استضعفوه واشرفوا على قتله فلذلك سكت عنهم فالوصي أعذر .

سواء ، ولا سيما الغضب في الله حيث يراه يُشْرِكُ به ! ، وإن كان عن غير تقصير من الداعية الرسولية ، إنما ذلك لواقع الأمر الإمر .

وفي نظرة أخرى إلى مسرح الآيات التي تستعرض قصة موسى وهارون هنا وفي طه لا نجد أية لمحة مركزة إلى تقصير لموسى وأخيه (عليهما السلام) .

ففي طه « قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أف عصيت أمري » (٩٣) لا يعني ذلك السؤال إلا كما يعنيه لأبراهيم : « رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي . . » (٢ : ٦٠) حيث يعني معرفة الجواب من إبراهيم حتى لا يخيل إلى أحد أنه سأل لكونه لم يؤمن .

فقد يسأل موسى أخاه حتى يبين موقفه المعصوم السليم في خلافته لهؤلاء الأنكاد ، ولمن قد يخيل إليه من أتباعه أنه عصى موسى إذ لم يتبعه ، فجاء الجواب : « إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي » (٩٤) .

فقد تفرقوا في حقل عبادة العجل بين ثلاث ، عابدة له وتاركة للنهي عنه ، وناهية عنه ، وهو من خلفيات الدعوة الهارونية وكما تخلفه كافة الدعوات الرسالية .

فإذا اختلفوا هكذا بغياب موسى وحضور هارون والذين معه ، فقد يتوسع خلافهم بغياب الداعية الرسولية والذين معه ، إكباباً أكثر من رؤوس زوايا الضلال والإضلال ، والتحاقاً بهم للمتردة بين الأمرين حيث لا يلتحقون بهارون والذين معه ، وتوانياً قد يحصل للبعض من الذين معه ، فيخلو الجو - إذاً - لتوسع الضلال من السامري بعجله ، والذي عبده أو كاد أم يكاد .

وذلك التفريق بين بني إسرائيل ليس إلا باتباع هارون موسى أن يلتحقه في ذلك الجو المخرج المخرج عن الهدى ، وما كانت وصية موسى لهارون إلا « أصلح ولا تتبع سبيل المفسدين » وخروجه عنهم لإفساد واتباع

٣٢٠ الجزء التاسع

لسبيل المفسدين الذين يحبون تخلية الجو وتصفيته عن الداعية الرسولية والرسالية .

ذلك ، ثم وليس في آيات الأعراف آية مزرعة بموسى وهارون ، إلا بياناً لعصمتها وبراءة هارون عن أي تخلف فإن تلك المواجهة الموسوية لهارون أوجبت بيان البراءة التي لم تكن باهرة للكل انهم « استضعفوني وكادوا يقتلونني » ! .

﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين ﴾ (١٥٢) والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴿ (١٥٣) .

« الذين اتخذوا العجل » عنوان مشر يشير إلى هؤلاء اليهود ، ورأس زاوية الضلال فيهم هو العنوان الذي يشير إليهم - اتخذوا العجل - بما لهم من كافة السيئات والنكبات بدءاً ختم .

إذاً فـ « سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا » ليست لتنافي توبتهم عما عبدوا العجل : « وإذا قال موسى لقومه إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم » (٢ : ٥٤) .

إذ إن توبتهم هذه مهما كانت مقبولة فليست لتردع عن حاضِر الغضب والذلة في الحياة الدنيا ، لعنق الجريمة المحتاجة إلى كفارة كمثل « أقتلوا أنفسكم » ولسائر الجرائم المتواصلة منهم من تكذيب آيات الله ، وتقتيل أنبياء الله ، وقلب وتحريف أحكام الله .

إذاً فقد « ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » (٢ : ٦١) و « ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يقتلون الأنبياء » (٣ : ١١٢) . كما « وإذا تأذن ربك ليعثن عليهم إلى يوم القيامة

من يسومهم سوء العذاب « (٧ : ١٦٧)

ذلك ، والعذاب قد يكون مثناه دنياً وعقبى ، أم في الأول دون الأخرى أم في الأخرى دون الأولى ، أم لا عذاب فيهما ، وأقل العذاب للذين اتخذوا العجل هو غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا .

أجل « إن الذين اتخذوا العجل » هم مغضوب عليهم في الدنيا والآخرة إن لم يتوبوا عن عبادة العجل ، أم تابوا ولكنهم استمروا في سائر الضلال والإضلال ، ولا أقل من أنهم « سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا » فانهم تختصهم اللعنة بين سائر الملعونين : « من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت » (٥ : ٦٠) ولقد « باءوا بغضب على غضب » (٢ : ٩٠) أن كذبوا بما كانوا به يستفتحون على الذين كفروا : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » (٢ : ٨٩) .

ذلك ، وبوجه آخر قد تعني « إن الذين اتخذوا ... » حكاية حال الماضي أنه تعالى قرر وقدر عليهم نيل الغضب والذلة ، وكما نراهما مستمرين عليهم منذ بداية تأريخهم المنحوس المركوس .

فمن نيل الغضب « أقتلوا أنفسكم .. » إذا فمن : « الذين اتخذوا العجل » عنواناً خاصاً لبني إسرائيل ، ثم من « لو أننا كتبنا عليهم أن أقتلوا أنفسكم أو أخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم .. » (٤ : ٦٦) ومن ثم سكوت الآيات بحق المرتدين عن هكذا قتل قضية الارتداد ، من هذه الزوايا الثلاث نتأكد أنه ليس إلا حكماً توراتياً يختص ببني إسرائيل ، فلا يشمل المسيحيين فضلاً عن المسلمين .

إذا فـ « سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا » قد تعني مثني الغضب « أقتلوا أنفسكم » وسائر الغضب والذلة السائران عليهم طول حياتهم الدنيا ، مستمراً إلى يوم القيامة من المجاهدين الأحرار على هؤلاء الأشرار ، لا فقط لأنهم عبدوا العجل ، بل ولا استمرارهم في كل إفساد

لحد يشمل العالم مرتين ، وفي خلالهما هم أفسد المفسدين في الأرض ، فهم بتخلفاتهم وإفساداتهم الدائمة يختزنون النعمة في قلوب الشعوب ، ويهيئون الرصيد الوصيد الذي يدمرهم - أخيراً - عن بكرتهم .

ذلك ، وليست سلطاتهم منذ بدأت واستمرت بإحتلال القدس وفلسطين إلا لغيوبة المسلمين المحليين وسواهم عن السلاح الوحيد الإسلامي والراية الوحيدة الوطيدة ، وهي فترة الغيبة بحكم السموم التي بثتها الصهيونية والصليبية العالمية ، ولكن سوف تجيء الصحوة من هذه الغفلة والغيوبة وكما وعد الله في آيات الأسرى : « فإذا جاء وعد أولاهما .. وإذا جاء وعد الآخرة » فراجع .

فهؤلاء هم اليهود ، المعركة في عقولهم المخبولة المدخولة ، وقلوبهم المقلوبة ، فكرة التجسد الرباني ، فإن لم يستطيعوا أن يرووا الله بأم أعينهم فليتحولوا إلى « عجلًا جسداً له خوار » وليأولوا قصة الميعاد عن أصلها إلى مَعاكس فيه من كرامة الله - خلافاً للقرآن : وهكذا نراهم يحرفون التوراة حسب المزاعم المادية ، كما في (سفر الخروج ٢٤ : ٩ - ١٨) : « ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل ورأوا آله إسرائيل وتحت رجله شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة . ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل فرأوا الله وأكلوا وشربوا . وقال الرب لموسى إصعد إلى الجبل ، وكن هناك فأعطيك لوحَي الحجارة والشرعة والوصية التي كتبتها . فقام موسى ويشوع خادمه . وصعد موسى إلى جبل الله . وأما الشيوخ فقال لهم : إجلسوا ههنا حتى نرجع إليكم . وهوذا هارون وحور معكم . فمن كان صاحب دعوى فليقدم إليهما . فصعد موسى إلى الجبل . فغطى السحاب الجبل . وحل مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب ستة أيام -

وفي اليوم السابع دعى موسى من وسط الحجاب . وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بني إسرائيل . ودخل موسى

في وسط الحجاب وصعد إلى الجبل . وكان موسى في الجبل أربعين يوماً وأربعين ليلة .

ثم في الفصل (٢٥) أن « مما كلم الرب موسى أن كلم بني إسرائيل يصنعوا لي مقدساً من ذهب وفضة وكأس وأسمانجونى وأرجوان وقرمز وبوص وشعر معزى وجلود كباش محمرة وجلود تحش وخشب سنط وزيت للمنارة وأطياب لدهن المسحة والبخور العطر وحجارة جزع وحجارة ترصيع للرداء والصدر فيصنعون لي مقدساً لأسكن في وسطهم ، وتصنع غطاء من ذهب . . وأنا أجتمع بك هناك وأتكلم معك من على الغطاء من الكرّدين للذين على تابوت الشهادة بكل ما أوصيك به إلى بني إسرائيل » !!! .

ذلك ، ولئن استضعف بنو إسرائيل خليفة موسى في تغيّبه ، فقد استضعف المسلمون خليفة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد موته وانطبق عليه كما هو : « لتركين طبقاً عن طبق » وكما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله لعلي (عليه السلام) : يا أخي أنت سيفي بعدي وستلقى من قريش ومن نظايرهم عليك وظلمهم لك ، فإن وجدت عليهم أعواناً فجاهدهم وقاتل من خالفك بمن وافقك ، وإن لم تجد أعواناً فاصبر وكف يدك ولا تلق بها إلى التهلكة فإنك مني بمنزلة هارون من موسى (عليهما السلام) ولك بهارون أسوة إذ استضعفه قومه وكادوا يقتلونه فاصبر لظلم قريش وتظاهروا عليك فإنك بمنزلة هارون ومن تبعه وهم بمنزلة العجل ومن تبعه .

﴿ ولما سكّت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾ (١٥٤) .

هنا « سكّت عن موسى الغضب » دون « سكّت موسى عن الغضب » شاهد صدق على بالغ ذلك الغضب حيث ملك موسى فلم يملكه موسى حتى ألقي الألواح وأخذ برأس أجنة يجره إليه ، وذلك لأنه ملكه التوحيد بعد أن ملك هو التوحيد ، فلم يستطع أن يتمالك نفسه إذ رأى القوم قد ضلوا ضلالاً بعيداً ، فذلك التعبير العبير يشخص آماذ الغضب وأبعاده لحد

يملك موسى رسول الله في الله .

ثم «أخذ الألواح» واللام للعهد ، تعني نفس الألواح التي ألقاها دون أن تتكسر أو بعضها ، ودون أن يرفع بعضها ، خلافاً لمختلفات الروايات ، وعلى أية حال «أخذ الألواح» التي ألقاها ، «وفي نسختها» وهي زبرها وخطها «هدى ورحمة» هما نفس «موعظة وتفصيلاً لكل شيء» إذ لم يكن الله ليلغي نسخة «هدى ورحمة» يلقيها موسى غضباً لله وأسفاً على الإشراك بالله .

«هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون» فهما واقع «هدى ورحمة» حيث هما من أصول الحصائل «للذين هم لربهم يرهبون» وأما الذين لربهم لا يرهبون فهما - فقط - دلالة هدى ورحمة دون واقعهما ، فهنا واقع بواقع وشأن بشأن ، واقع «هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون» وشأن للذين لا يرهبون ولهم شأن الإهتداء والإسترحام ولكن لا حياة لمن تنادي .
وهنا «لربهم يرهبون» دون «يرهبون ربهم» للتأشير إلى واجب حصر الرهبة لربهم فلا يرهبون سواه إلا فيه ، ثم وهم يرهبونه لأنه ربهم لا لطوارئ أخرى مصلحة الحفاظ على ما يعنون .

ذلك ، وإلى مشهد جديد في تفصيله هو مديد لمشهد سؤال الرؤية حيث هما واحد :

﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾ (١٥٥) .

لقد تطلبوا إليه أن يروا الله جهرة : «وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون» (٢ : ٥٦) .

وهنا يختار موسى سبعين رجلاً لميقات ربه بعدما سألوه الرؤية جهرة

ولكن خيبرته لم تكن خيرة إذ لم تكن بإختيار الله ، إذا فكيف يكون أمر خيرة الأمة الإمر في انتخاب صاحب الأمر بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ كما يروى عن صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف (١) .

وهنا الرجفة ليست إلا لما اختاره هؤلاء المختارون من إقتراح هارف جارف هو سؤال الرؤية كما في آية البقرة ، والآية من آية النساء أنه كان قبل إتخاذهم العجل : « فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعدما جاءتهم البينات » (١٥٣) وهذه المجاهرة في « أرنا الله جهرة » بعد « لن نؤمن لك » كما في البقرة ، كانت قريبة الصلة بأمر الوحي المكاملة ، أن لن نؤمن لك ، أن الله هو الذي كلمك ، إلا أن نرى الله جهرة .

(١) نور الثقلين ٢ : ٧٦ في كتاب كمال الدين وتسام النعمة بإسناده إلى سعد بن عبد الله القمي عن الحجة القائم (عليه السلام) حديث طويل وفيه : قلت : فأخبرني يا بن مولاي عن العلة التي تمنع القوم من اختيار الامام لأنفسهم ؟ قال : مصلح أو مفسد ؟ قلت : مصلح ، قال : فهل يجوز أن تقع خيرتهم على المفسد بعد أن لا يعلم أحد ما يخطر ببال غيره من صلاح أو فساد ؟ قلت : بلى ، قال : فهي العلة وأوردتها لك ببرهان ينقاد لك عقلك ، ثم قال : أخبرني عن الرسل الذين اصطفاهم الله عز وجل وأنزل عليهم الكتب وأيدهم بالوحي والعصمة وهم أعلام الأمم وأهدى إلى الإختيار منهم مثل موسى وعيسى (عليهما السلام) هل يجوز مع وفور عقلهما وكمال علمهما إذ هما بالإختيار أن تقع خيرتهما على المنافق وهما يظنان أنه مؤمن ؟ قلت : لا ، قال : هذا موسى كلم الله مع وفور عقله وكمال علمه ونزول الوحي عليه اختار من أعيان قومه ووجوه عسكره لميقات ربه عز وجل سبعين رجلاً ممن لا يشك في إيمانهم وإخلاصهم فوقع خيبرته على المنافقين قال الله عز وجل : « واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا » إلى قوله « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم » فلما وجدنا إختيار من قد اصطفاه الله عز وجل للنبوّة واقعاً على الأفسد دون الأصلح وهو يظن أنه الأصلح دون الأفسد علمنا أن الإختيار لا يجوز إلا لمن يعلم ما تخفي الصدور وما تكن الضمائر ويتصرف عليه السرائر وان لا خطر لاختيار المهاجرين والأنصار بعد وقوع خيرة الأنبياء على ذوي الفساد لما أرادوا الصلاح .

فقد يكون السبعون المختارون المصعقون من ضمن هؤلاء الذين اتخذوا العجل ، وكأنه بديل عن رؤية الله جهرة ! .

« فلما أخذتهم الرجفة » المهلكة إياهم « قال » موسى رب « لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي » كيلا يحتج علي الباكون أنك أهلكتهم بديلاً عن إجابتهم في سؤالهم « أتهلكنا بما فعل السفهاء منا » (١) .

وترى السبعين المصعقين لم يكونوا من السفهاء لثلا يستحقوا الإهلاك ؟ وهم السائلون : « أرنا الله جهرة » ! أم تعني السفاهة هنا عبادة العجل ؟ وقد تأخرت عنها حسب آية النساء ! .

« منا » هنا تعني من السبعين المختارين وسائر السائلين ، مع موسى (عليه السلام) ، و « السفهاء » جمعاً تدل أن السفاهة هنا حصلت من جمع من الثلاث لا كلهم ، فلم يكن سؤال الرؤية إلا من الجبل دون الكل ، إذاً « أتهلكنا بما فعل السفهاء منا » وارد مورد السائلين منهم الرؤية أن كيف تهلك غير السفهاء معهم بما هم دونهم « من قبل » الميعاد وحاضر السؤال فيه .

وهنا « من قبل » ثم من قبلها « لو » إضافة إلى « منا » هي زوايا ثلاث في هندسة القصة تدل على أن القصد ليس هو الإهلاك الواقع ، بل هو

(١) بحار الأنوار ١٣ : ٢١٧ - ١٠ في أسئلة الزنديق عن الصادق (عليه السلام) قال : إن الله أمات قوماً خرجوا مع موسى (عليه السلام) حين توجه إلى الله فقالوا : أرنا الله جهرة فأماتهم الله ثم أحياهم .

وفي نور الثقلين ٢ : ٧٦ في كتاب التوحيد في باب مجلس الرضا (عليه السلام) مع أصحاب المقالات والأديان قال (عليه السلام) : . . ثم موسى بن عمران (عليه السلام) وأصحابه السبعون الذين اختارهم وصاروا معه إلى الجبل فقالوا له : إنك قد رأيت الله فأرنا سبحانه كما رأيته فقال لهم : إني لم أره فقالوا : « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة » واحترقوا عن آخرهم وبقي موسى وحيداً فقال : يا رب اخترت سبعين رجلاً من بني إسرائيل فجئت بهم وأرجع وحدي فكيف يصدقني قومي بما أخبرتهم به ؟ فلو شئت أهلكتهم وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ .

المستدعي أن يكون « من قبل » حضور الميعاد ، أو « من قبل » سؤال الرؤية فيه بعد ما سألوه مرة أولى ، وهنا « لو » تحيل هذه المشية ، ثم « أتهلكنا » متفرع على تلك المشية المستحيلة ، فـ « بما فعل السفهاء » تعني السفهاء الذين يستحقون الإهلاك وهم الذين سألوا الرؤية ، دون سائر السفهاء في ذلك الحقل ، من الذين سكتوا عن النهي عن المنكر ، والذين سألوها نيابة عن الباقيين السائلين ، « أتهلكنا » جميعاً الشامل لموسى و « من قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » والذين سكتوا والذين سألوا نيابة « بما فعل السفهاء منا » وهم السائلون الرؤية ، أم والقائلون لما نجوا عن البحر « يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون » (٧ : ١٣٨) .

فلو أن هناك عذاباً من ذي قبل لم يكن على سواء بالنسبة للسفهاء ، فضلاً عن أن يشمل غيرهم بمن فيهم موسى نفسه .

وكما في قصة السبت « فأنجينا الذين ينهون عن السوء » فلم ينج التاركون للنهي عن السوء كما الفاعلين للسوء مهما تفارقا في نوعية العذاب ، حيث إختص « كونوا قردة خاسئين » بالذين صادوا يوم السبت بإحتيال ، وللذين تركوا النهي عنه دون ذلك .

أجل إن هي : « الرجفة » الواقعة - أم والمتوقعة بـ « لو » - الشاملة المزمجرة « إلا فتنك » إمتحاناً لمن سكت وإمتهاناً لمن سفه ، وعبرة لمن غاب ، وتذكرة لأولي الألباب .

فسماحه سبحانه لذلك السؤال ، وأخذهم جميعاً سائلين وسواهم بالرجفة ، هذا وذاك فتنة ربانية « تضل بها من تشاء » إضلاله وهو الذي يشاء الضلال « وتهدي من تشاء » هداه وهو الذي يشاء الهدى، وترى كيف حذفت الباء في تهدي ؟ علّه لأن الهداية أعم مورداً من مثل هذه الفتنة الصعبة وسواها ، وأما الإضلال فهي بصعاب الفتن كما يستحقها أهلها .

« أنت ولينا » فيما تفتننا « فاغفر لنا » ذنوبنا سؤالاً وسكوتاً ، « وارحمنا وأنت خير الراحمين » .

ذلك ، وقد يتبين هنا أن الساكتين هنا - غير السائلين - ما كانوا من الذين عبدوا العجل بعد ذلك ، وذلك بأحرى لمن لا يسأل الرؤية الذي هو أخف من عبادة العجل ، ألا يعبدوا العجل ، فقد كان بين هؤلاء المختارين من سألوا الرؤية وعبدوا العجل ، وسواهم الذين لم يسألوا ولم يعبدوا ولكنهم سكتوا عما حصل فوصلهم - إذأ - ما وصل .

وغريب من هؤلاء المجاهيل المغافيل أن يتخذوا العجل بعد سؤال الرؤية وأخذة الرجفة بالصاعقة ، كيف لم ينتبهوا فدخلوا فيما هو أقضح من سؤال الرؤية وهو عبادة العجل ، ثالث تصاعدي سجله عليهم تاريخهم المنحوس ، إعلاناً بعد التوراة في هذه الإذاعة القرآنية كثالوث النصارى فلقد تشابهت قلوبهم المقلوبة في ذلك الانحراف الانجراف السحيق المحيق ! .

ذلك ، وقد أحياهم الله بعد موتهم بدعائه (عليه السلام) وكما في آية البقرة : « ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » (٥٦) ولكنهم كفروا أكفر مما كفروا بديل أن يشكروا إذ « ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات » (٤ : ١٥٣) .

وذلك البعث بعد الموت برهان لا مرد له على البعث يوم القيامة الكبرى ، والبعث يوم الرجفة وهي القيامة الصغرى ، والحياة البرزخية وهي القيامة الوسطى .

وفي رجعة أخرى إلى آية الاختيار أدبياً ومعنوياً ، ترى كيف اختارت « إختار » مفعولين اثنين وليس لها إلا مفعول واحد ؟ والحل أن « سبعين » عطف بيان للمفعول وليس مفعولاً ثانياً أو بدلاً .

ثم ولا يصح أنه ثاني المفعولين اللهم إلا بديل البعض من الكل ، أم بديل فإن قضيته أن قومه كانوا - فقط - سبعين رجلاً ، وإنما « إختار قومه » والمختارون منهم سبعون كما هو قضية الاختيار .

ولأن عبادة العجل كانت بغياب موسى (عليه السلام) حين أعجل

عن قومه إلى الميقات ، وسؤال الرؤية كان قبل إتخاذ العجل ، إذا فهما ميقاتان إثنان لأمرين إثنين أولهما هذا الذي أخذتهم فيه الرجفة ، والأخرى ما أعجل موسى فيه عن قومه فعبدوا العجل بعد ، وهذا مما يبرر ذكرى كل لحاله وعلى حدة ، مهما صح فصل قسم من قصة لمناسبة عن قسم آخر تقديماً للمؤخر أو تأخيراً للمقدم ، كما تقتضيه المصلحة البلاغية قضية الملابس المؤاتية ، وهنا تأخر المقدم وتقدم المؤخر في العرض ، لأن المؤخر كان أخزى وأمرأ .

ثم ترى « أتهلكنا بما فعل السفهاء منا » إعتراض على الله أنه أهلك غير المستحقين له ؟ كلاً ! وإنما هو إستمعلام يبينه « إن هي إلا فتنتك » أن ذلك الإهلاك فتنة لكل من هؤلاء الثلاث : السائلين الرؤية، والساكيتين عن النهي ، والغائبين عن المسرح المنتظرين للنتيجة ، فلقد أجاب موسى نفسه عن سؤاله بإجمال ، إجمالاً عن التفصيل الذي علّه بين له دوننا ، والقول أن « فعل » الظاهر في العمل لا يشمل قول السفهاء ، إذا فهي سفاهة أخرى غير قوله الرؤية ، مردود بأن الفعل أعم من العمل ، فهو يشمل مثلث فعل اللسان والقلب والأركان سلباً وإيجاباً ، وفعل السفهاء هنا هو قولهم : أرنا الله جهرة ، وترك جمع منهم النهي عن المنكر ، ونقل ثالث سؤال الرؤية .

ذلك ، وقد أضل الله بهذه الرجفة والإحياء بعدها جمعاً من هؤلاء وهم الذين أصروا على الضلال بعد سؤال الرؤية « ثم إتخذوا العجل من بعدما جاءتهم البينات » (٤ : ١٥٣) وهدى آخرين لم يسألوها أم سألوها وتابوا فلم يتخذوا العجل ، أم ونهوا عن ذلك السؤال وما أشبه ، والآخرين هم من المعنيين في « من قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » (٧ : ١٥٩) .

هذا ، وفي « لو شئت أهلكتهم وإياي » من أدب السؤال ما لا قبل له لمكان « لو » المحيلة تلك المشية غير الصالحة ، فإن موسى (عليه السلام) لم يكن يستحق معهم الهلاك ، ولكنه قد يترجاه حفاظاً على رسالته من الهلاك بتكذيب رفاق هؤلاء الهلكي ، ثم « أتهلكنا »

إستبعاد لإهلاكه معهم إذ لم يكن يستحقه أبداً ، ثم استعلام لإهلاك غير السائلين ، التاركين للنهي عن المنكر ، وقد أجاب عنه نفسه « إن هي إلا فتنتك » .

وأخيراً يستسلم في دعاءه لله قائلاً : « أنت ولينا » لا سواك ، فأنت تفعل بنا ما تشاء ولا تسأل عما تفعل وهم يُسألون ، وما ذلك السؤال العضال إلا إستعلاماً وإسترحاماً ، فإذا « أنت ولينا فاغفر لنا » لمن سأل ولمن سكت « وارحمنا » برحمتك « وأنت خير الغافرين » عن الذنوب .

واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة إنا هدنا إليك .
« قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » (١٥٦) .

« حسنة » فيها تعني حياة حسنة ، ولماذا « اكتب لنا » ؟ لـ « إنا هدنا إليك » ، وذلك لموسى (عليه السلام) وقومه ، ثم ولنا « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » (٢ : ٢٠١) .

و « هدنا » من اليهود ، وهو الرجوع برفق ، والقصد من الجمع في « هدنا » طائفة من السبعين الراجعين إلى الله من سؤالهم أو سكوتهم أما أشبه من تقصير أو قصور مع موسى نفسه و « أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » و « يهود » هي مضارعة « هاد » تعني ترجع برفق ، فقد سميت اليهود هوداً ويهوداً بتلك المناسبة ، ثم عمت في أهل التوراة ككل ، ومما يوجه التعميم أن الراجعين إلى الله هادوا إليه ، والراجعين منهم عن الله هادوا عنه ، فهم هود ويهود بإحدى الوجهتين .

ولقد أجيب موسى (عليه السلام) بتفصيل هو « قال عذابي .. ورحمتي .. » : فـ « ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم » (٤ : ١٤٧) - « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد » (١٤ : ٧) .

ورغم أن موسى (عليه السلام) دعا لخصوص قومه قضية أن المجال

مجالهم ، نجد الله يجيبه بخاصة العذاب وعمامة الرحمة دون إختصاص بقومه ، وإنما « من أشاء - و - كل شيء - وللذين يتقون و . . » .

فقد « كتب على نفسه الرحمة » طليقة ، ولم يكتب على نفسه العذاب إلا إذا لزم الأمر في ميزان العدل وكما وعد ، فقد استجاب الله هنا لموساه دعائه وزيادة كما استجاب لإبراهيمه مقيدة حيث « قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين » (٣ : ١٢٤) واستجاب له أوسع مما طلب « وأرزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير » (٢ : ١٢٦) وهكذا يؤدب الله أنبياءه من خلال طلباتهم وسواها من حاجيات ودعوات .

وانما حذفت هنا « حسنة » للآخرة ، وذكرت هنا في دعاء المؤمنين « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة » لأن بني إسرائيل ما كانوا يستحقون تأكيد الحسنة في الآخرة ، والمؤمنون بهذه الرسالة يستحقونها ، وهذا من أسباب الفرق بين الدعائين ، وما أشبه .

فمن آداب الدعاء تعميمه لمن يحتاجه ويصلح له وهم كافة المكلفين إلا لمن تبين أنه من أصحاب الجحيم ، فقد « قام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الصلاة فقال أعرابي وهو في الصلاة : اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً ، فلما سلم (صلى الله عليه وآله وسلم) قال للأعرابي : لقد تحجرت واسعاً ، يريد رحمة الله عز وجل »^(١) .

و « أوحى الله إلى داوود (عليه السلام) يا داوود كما لا يضيق

(١) نور الثقلين ٢ : ٧٧ عن المجمع في الحديث أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ... أورده البخاري في الصحيح ، وفي الدر المنثور ٣ : ١٢٠ - أخرج أحمد وأبو داود عن جندب بن عبد الله البجلي قال جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم عقلا ثم صلى خلف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم نادى : اللهم ارحمني ومحمداً ولا تشرك في رحمتنا أحداً فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لقد حظرت رحمة واسعة إن الله خلق مائة رحمة فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جنبها وإنسها وبهائمها وعنده تسعة وتسعون .

الشمس على من جلس فيها كذلك لا تضيق رحمتي على من دخل فيها»^(١).

وهنا خاصة العذاب وعامة الرحمة مما يدل على سبق رحمته غضبه وأنها هي الأصل ، ما كان إليها سبيل ، ولم تكن خلاف العدل والحكمة الربانية ، فـ «عذابي» هنا وفي الآخرة «أصيب به من أشاء» وهو من يشاء الضلالة ويصر عليها «ورحمتي وسعت كل شيء» مكتوبة.

وفي رجعة أخرى إلى الآية «عذابي أصيب» يسع النشأت الثلاث رغم اختصاصه بـ «من أشاء» وهو الذي يستحقه ولا سبيل عدلاً للعفو عنه .

وأما «رحمتي وسعت كل شيء» فلا ريب أنها الرحمة الرحمانية العامة في كل النشأت ، حيث الرحيمية لا تسع كل شيء لا سيما وانها كالصيغة الماضية، وأما «فسأكتبها» فهنا لمرجع الضمير المؤنث إستخدام يعني سأكتب الرحمة الرحيمية للذين . فالمكتوبة هنا هي حصيلة رحمة الشريعة المصدقة المطبقة «للذين» .

فالمكلفون بشريعة الله مكلفون برحمة خاصة رحيمية من الله ، فإن آمنوا بها في مثلث «يتقون ويؤتون الزكوة والذين هم بآياتنا يؤمنون» «فسأكتبها» تبيناً لخلفية التصديق والتطبيق لهذه الرحمة ، وإلا فلا تكتب عليهم إلا العذاب .

وترى بعد «الذين يتبعون ..» نزلت بمعناها على موسى ضمن ما أوحى إليه إجابة عن دعائه «قال عذابي ..» ؟ ولما ينزل الإنجيل بعد حتى يجلوه فيه ! ، فقد تكون هذه التهمة زيادة قرآنية على ما أجيب به موسى (عليه السلام) إعلاماً حاضراً لأهل الكتاب أجمع ؟ أم وبضمنها إشارة توراتية إلى نزول الإنجيل بعدها ، وكما نجد على هامش البشارات القرآنية في التوراة بشارات إنجيلية ، فصلناها في «البشارات» .

(١) نور الثقلين ٢ : ٧٧ في روضة الساعطين قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : .. وفيه عن أبي سعيد الخدري أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : أفتخرت الجنة والنار فقالت النار يا رب يدخلني الجبابرة والملوك والأشراف وقالت الجنة : يا رب يدخلني الفقراء والضعفاء والمساكين فقال الله للنار : أنت عذابي أصيب بك من أشاء وقال للجنة : أنت رحمتي وسعت كل شيء ولكل واحدة منكما ملؤها .

ثم « والذين هم بآياتنا يؤمنون » يشمل صالح الإيمان أيًا كان ومن أي كان وأيان ، ولزامه بعد نزول القرآن هو الإيمان بالشرعة القرآنية .
وهنا « يؤمنون » دون « آمنوا » توسيع لدائرة الإيمان لتشمل هؤلاء الذين يفتشون عن آيات الإيمان ولما يصلوا إليها ، فإن وصلوا إليها آمنوا ، وإلا فهم مؤمنون وإن لم يصلوا وماتوا غير حاصلين على آيات الإيمان الملحق بإيمانهم الحالي ، أم بأصل إيمانهم بشرعة ربانية ، وإنما الأصل حالة « يؤمنون » وإن لم يصلوا إلى حالته، وغير مكتوبة ، ومن الثانية ما تشمل المذنبين غير المعاندين أو المصيرين على الضلال ، حيث الرحمة العامة الرحمانية تغمرهم ، ثم الرحيمية الموجهة إليهم دلالة الطريق تعمهم وهم رافضوها « فساكنوها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » ومن أبرزهم :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ
النَّبِيَّ الَّذِي يَخْلُفُ فِي النَّوْبَةِ
وَالْإِنْجِيلِ بَأْمَرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ
لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ
وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ
وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾
﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا
الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ

فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلَامِهِ
وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٍ

يَهْتَدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿٣٩﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ
أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذَا اسْتَشْفَعُ قَوْمُهُ أَنْ
أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانجَحْتَ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَ عِمْنًا

مَدَّعَلِمَ كُلُّ نَاسٍ شَرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا
عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طِيبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
وَمَا ظَلَمُوا نَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ وَإِذْ قِيلَ
لَهُمْ اسْكُونُوا هَذِهِ الْأَرْضَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ
وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَعْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ
سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٤١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ

الَّذِي فِي لَهْمٍ فَارَسَكُنَّا عَلَيْهِمْ رِجَالًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ (١٥٧) .

فذلك الرسول النبي الأمي هو الرحمة الواسعة الربانية حيث « سأكتبها » فطليق الرحمة مكتوبة لكافة المتقين المؤتقين الزكاة ، المؤمنين بالآيات ، ثم الرحمة الطليقة مكتوبة مستقبلة لـ « الذين يتبعون »

فهنا عذاب مكتوب للمعاندين على طول الخط ، ورحمة واسعة مكتوبة للمتقين المؤتقين الزكاة المؤمنين بالآيات المتبعين هذا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ورحمة غير واسعة لهؤلاء المتقين غير المتبعين له (صلى الله عليه وآله وسلم) قصوراً دون عناد وتكذيب ، إذ « ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين » (٣ : ١١٣ - ١١٥) .

فهؤلاء هم من المتقين مهما لم يتبعوا هذا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قصوراً دون تقصير أم بتقصير يسير مُسامح ، وتلك الرحمة الواسعة تسع كل شيء واقعا رحمانية ، وتسع من لا يرفضها رحيمية ، فليس النقص - إذا - في فاعلية الرحمة الرحيمية ، إنما هو في القابلية ، فمن استقبل لها وقبلها فهي له قدر الاستقبال والقبول ، والقصد هنا إلى الرحيمية لمكان « فسأكتبها للذين يتقون و . . . » حيث الرحمانية مكتوبة لكافة الكائنات دون إبقاء وإستثناء .

وهنا « والذين آمنوا » تعم الإيمان بدرجاته العالية من القمة السامقة العلوية ، وهكذا يكون علي (عليه السلام) رأساً وقائداً وشريفاً وأميراً ، في خطابات الإيمان بآياتها كما أصفق عليه الفريقان (١) وترى « يجدونه » تعني وجدانه بمواصفاته الثمان ثلاث متقدمة وخمس متأخرة عدد أبواب الجنة ؟ الظاهر نعم حيث الضمير الغائب في « يجدونه » راجع إلى « الرسول النبي الأمي » ثم « يأمرهم .. » حال للموصوف .

وهنا « الرسول النبي » وهناك في مريم لموسى : « واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً » (٥١) ولإسماعيل : « واذكر في الكتاب إسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً » (٥٤) وكذلك « ما أرسلنا من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى .. » (٢٢ : ٥٢) إضافة إلى أن عديد الرسول والرسول في القرآن أكثر بكثير من النبي والأنبياء ، كل ذلك

(١) في ملحقات إحقاق الحق (٣ : ٤٧٦ - ٤٧٩) عن ابن عباس عن أربعة عشر من فطحل العامة قوله : « ما في القرآن آية إلا وعلي رأسها وقائدها ، هو أحدهم : أحمد بن حنبل في فضائل الصحابة (١٨٦) بسند عن ابن عباس يقول : « ليس من آية في القرآن « يا أيها الذين آمنوا » إلا وعلي رأسها وأميرها وشريفها ولقد عاتب الله أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في القرآن وما ذكر علياً إلا بخير » وأبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء (١ : ٦٤) بسند عنه قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « ما أنزل الله آية فيها « يا أيها الذين آمنوا » إلا وعلي رأسها وأميرها ، وهكذا محب الدين الطبري في ذخائر المعنى (٨٩) والرياض النضرة (٢٠٧) والكنجي الشافعي في كفاية الطالب (٥٤) والشبوط ابن الجوزي في التذكرة (١٩) والشبلنجي في نور الأبصار (١٠٥) وغيث الدين بن همام خزانة المير في جيب السير (٢ : ١٣) وصاحب المناقب المرتضوي (٣١) والهيتمي في الصواعق المحرقة (٣٨) و (١٢٥) والسيوطي في تاريخ الخلفاء (١١٦) والقندوزي في ينابيع المودة (١٢٥) والقاسم بن حماد في البحار (٩ : ٦٧) وأحمد في مسنده كما في مناقب الكاشي - المخطوط - والمناوي في الكواكب الدرية (٣٩) .

وهكذا ما نزل في أحد من كتاب الله ما نزل في علي (عليه السلام) إلا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كما رواه السيوطي في تاريخ الخلفاء (١١٧) والهيتمي في الصواعق (١٢٥) والمناوي في الكواكب الدرية (٣٩) كلهم روه عن ابن عباس .

يدل على أن النبي هو الرسول الرفيع المنزلة بين الرسل ، كما النبي هو من النبوة : الرفعة .

فالنبي بمشتقاته يذكر في ثمانين موضعاً بميزات فوق الرسالة ، حال أن الرسول بمشتقاته يذكر زهاء (٤٠٠) مرة دون هذه الميزات ، اللهم إلا لرسول نبي . ففي مثلث النبوة والرسالة والنبوة ، الأولى هي نبوة الوحي وإن لم يرسل صاحبها ، والثانية هي الرسالة بالوحي كيفما كانت درجته ، والثالثة هي الرسالة الرفيعة ، ولم يأت « النبي » معرّفاً في القرآن إلا لنبينا (صلى الله عليه وآله وسلم) مما يبرهن على نبوته الرفيعة بين الأنبياء أجمعين .

ذلك ، وقد أفردنا مؤلفاً حول البشارات الواردة بحق هذا الرسول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في كتب السماء^(١) وإليك نماذج منها :
ومن ميزات النبيين اجمع - على درجاتهم - أنهم أصحاب الكتاب ، فـ « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب .. » (٢ : ٢١٣) « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة .. » (٣ : ٨٢) ، فنبينا أفضل أولي العزم ، وهم أفضل النبيين ، ثم أصحاب الكتاب هم أفضل المرسلين ، وفي كل درجات أعلاها لخاتم النبيين (صلى الله عليه وآله وسلم) .

ذلك ، وأمية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هي من ميزات الرسولية والرسالية ، إذ لم يتلون طول حياته قبل الرسالة بألوان الثقافات البشرية المدخولة أو الناقصة ، ومنذ رسالته أخذ يدرس في مدرسة الوحي الرباني ، فلأنه مدرس العالمين ومربيهم ، لا بد له أن يدرس - فقط - عند رب العالمين ، حتى يصلح مربياً للعالمين لمن شاء منهم أن يستقيم .

فقد يشير إلى الثلاث الأول قوله تعالى في التوراة حسب النص العبراني صوتياً :

(١) هو « رسول الإسلام في الكتب السماوية » بالعربية و « بشارات عهدين » بالفارسية .

« يَدْعُو يِسْرَائِيلُ إِوَابِيلَ خَتَانِي مَشُوكَاغَ إِيشَ هَارُوحَ عَلَ رُوبَ عَوْنُخَا
وَرَبَاهُ مَسْطَمَاهُ » -

« بنو إسرائيل يعلمون ويعرفون أن الرسول الأمي المصروع رجل
صاحب روح إلهامي وصاحب وحي » وهنا « المصروع » إشارة إلى ما
يصفونه به : « ويقولون إنه لمجنون وما هو إلا ذكر العالمين » (٦٨ : ٥١)
وفي كتاب هوشيع النبي (عليه السلام) (الفصل ٩ الآية ٦) بعد التصريح
باسمه المبارك « محمد لكسفام » : محمد لفضتهم ، إشارة إلى الجزية
التي يأخذها منهم ، يقول باختلاف يسير في التعبير : « لأن النبي الأمي
المصروع وصاحب الروح بسبب كثرة العصيان والبغض أصبح مجنوناً »
يعني بحسبانهم هؤلاء العصاة المبغضين ، ومن حنقهم وبغضهم إياه إن
أرادوا أن يسموا بعض أولاهم محمداً ليخيلوا إلى البسطاء أنه هو محمد
المبشر به في التوراة فهددهم الله في (هوشيع ٩ : ١٦) بقوله : « وَهَمْتِي
مَحْمُودِي بِيْطْنَامَ » : « أَقْتُلْ مُحَمَّدًا فِي الْبَطُونِ » مهما حرفوا « محمداً » هذا
إلى « مشتبهات بطونهم » كما حرفوه في « محمد لكسفام » حيث حرفوها
إلى مشتبهاتهم ومرغوباتهم في « هوشيع ٩ : ٥ » .

وإشارة إلى أميته بمعنى أنه لم يدرس إلا عند الله يقول في كتاب
أشعيا (عليه السلام) (٢٨ : ٩) :

« إِثْ مِي يُورِه دِعَاةَ وَاتْ مِي يَا بَيْنَ شِمُوعَاةَ غِغْمُولِي مُحَالَابِ
عَتِيْمِي مِثَادَايِمَ » -

« لمن تسرى يعلم العلم ولمن يفقه في الخطاب اللمفطومين عن
اللبن ، للمفصولين عن الثدي » ثم يستمر في قرآن ذلك المفصول عن
الثدي بمواصفات (١) .

وإشارة إلى أميته نسبة إلى أم القرى انه نبي من « فاران - حري » :
كما في التوراة (تث ٣٣ : ١ - ٢) :

(١) راجع الفرقان ١ : ٣٦١ ورسول الإسلام في الكتب السماوية .

« وَرُئِيتَ هَبْرَاخَاهُ أَشْرُ بِرَخْ مُوشِيَةً إِيشَ هَا إِلْوَهِيمَ إِتْ بِنِي إِسْرَائِيلَ
لِفْنِي مُوتُو وَيُوبِرْ^١ يَهُوَاهُ مِسِينِي بَابُو زَارَخْ مَسِيرَ لَامُو هَوَفِيْعَ مَهْرَ فَارَانَ
وَأَنَاهُ مِرْبِيْتٌ قِدْشَ مِي مِينُو إِشْ دَاتْ لَامُو^٢ » - :

« وهذه بركة باركها موسى رجل الله بني إسرائيل وقت موته وقال الله
جاء من سيناء تجلي من ساعير وتلعلع من جبل فاران (حرى) ورد مع
آلاف المقدسين ، ظهرت من يمينه الشريعة النارية » .

وهنا مضي التعبير لتجلي الرب بالرسالة المحمدية من فاران إعتباراً
بقاطع وقوعه مستقبلاً ، وكما في كتاب حَبَقُوقِ النَّبِيِّ (عليه السلام) (٣) :

« إِلْوَهَ مِتِيمَانَ يَابُو وَقَادُوشَ مَهْرَ فَارَانَ سِلَاةَ شَامِيمَ هُوُدَدَ وَتَهْلَاتُو مَالِثَاهُ
هَآرِضَ » - :

« الله يأتي من تيمان - وهو ساعير جنوبي القدس - والقدوس يأتي من
فاران (حرى) إلى الأبد ، يغطي جلاله السماوات وثنائه الأرض » .

ولقد يوجد اسمه (صلى الله عليه وآله وسلم) : محمد - أحمد -
وميزاته في التوراة والإنجيل وملحقاتهما كما فصلناه في البشارات وبطيات
آياتها المناسبة في هذا الفرقان فلا نعيد .

هنا يصرح القرآن أن أهل الكتاب يجدونه (صلى الله عليه وآله وسلم)
مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، ولو لم يكن له ذكر فيهما عند
نزول القرآن - ورغم تحريف الكتابين - لكفى تكذيباً منهم بهذه الرسالة ،
ولم يؤثر ولا مرة يتيمة من أحد من معاصريه (صلى الله عليه وآله وسلم)
أن يكذبه في هذه الدعوى ، بل نجد التصديق الرفيق من صالحهم^(١) .

(١) نور الثقلين ٢ : ٧٩ في الخرائج والبراجع عن الرضا (عليه السلام) حديث طويل وفيه :
فقال الرضا (عليه السلام) : أنت يا جاثليق آمن في ذمة الله وذمة رسوله لا يبدئك مناشيء
نكره مما تخافه وتحذره ، فقال : أما إذا أمنتني فإن هذا النبي الذي اسمه محمد (صلى
الله عليه وآله وسلم) وهذا الوصي الذي اسمه علي وهذه البنت التي اسمها فاطمة وهذان =

= السبطان اللذان اسمهما الحسن والحسين (عليهما السلام) في التوراة والإنجيل والزبور . وفيه عن كتاب التوحيد في باب مجلس الرضا (عليه السلام) مع أصحاب الملل والمقالات قال الرضا (عليه السلام) لرأس الجالوت : تسألني أو أسألك ؟ قال : بل أسألك ولست أقبل منك حجة إلا من التوراة أو من الإنجيل أو من زبور داود أو بما في صحف إبراهيم وموسى (عليهما السلام) ، قال الرضا (عليه السلام) لا تقبل مني حجة إلا ما نطق به التوراة على لسان موسى بن عمران (عليه السلام) والإنجيل على لسان عيسى بن مريم (عليهما السلام) والزبور على لسان داود (عليه السلام) فقال رأس الجالوت : أين ابن ثبت نبوة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ قال الرضا (عليه السلام) : شهد بنبوته موسى بن عمران وعيسى بن مريم وداود خليفة الله في الأرض (عليهما السلام) ، فقال له ثبت قول موسى بن عمران (عليه السلام) قال الرضا (عليه السلام) : هل تعلم يا يهودي أن موسى أوصى بني إسرائيل فقال لهم : انه سيأتيكم نبي هو من إخوانكم فيه فصلدقوا ومنه فاسمعوا فهل تعلم أن نبي إسرائيل إخوة غير ولد إسماعيل إن كنت تعرف قرابة إسرائيل من إسماعيل أو السبب الذي بينهما من قبل إبراهيم (عليه السلام) فقال رأس الجالوت : هذا قول موسى لا ندفعه فقال له الرضا (عليه السلام) : هل جاءكم من إخوة نبي إسرائيل غير محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ قال : لا ، قال الرضا (عليه السلام) : أفليس قد صح هذا عنكم ؟ قال : نعم ، ولكنني أحب أن تصحيحه لي من التوراة ، فقال له الرضا (عليه السلام) : هل تذكر أن التوراة يقول : جاءكم النور من جبل طور سيناء وأضاء لنا من جبل ساعير واستعلن علينا من جبل فاران ؟ قال رأس الجالوت : أعرف هذه الكلمات وما أعلم تفسيرها ، قال الرضا (عليه السلام) : أنا أخبرك به ، أما قوله : جاء النور من جبل طور سيناء فذلك وحي الله تبارك وتعالى الذي أنزله على موسى على جبل طور سيناء ، وأما قوله : وأضاء لنا من جبل ساعير ، فهو الجبل الذي أوحى الله تعالى إلى عيسى بن مريم (عليهما السلام) وهو عليه ، وأما قوله : واستعلن علينا من جبل فاران ، فذلك جبل من جبال مكة بينه وبينها يوم ، وقال شعيا النبي (عليه السلام) : فيما تقول أنت وأصحابك في التوراة : رأيت راكبين أضاء لهما الأرض أحدهما على حمار والآخر على جمل فمن راكب الحمار ومن راكب الجمل ؟ قال رأس الجالوت : لا أعرفهما فأخبرني بهما ، قال : أما راكب الحمار فعيسى (عليه السلام) وأما راكب الجمل فمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أنتكر هذا من التوراة ؟ قال : لا ما أنكره ثم قال الرضا (عليه السلام) : هل تعرف حيقوق النبي (عليه السلام) قال : نعم إني أعرف به قال : فإنه قال - وكتابكم ينطق به - : جاء الله بالبينات من جبل فاران وامتلات السماوات من تسيح أحمد وأمنه =

= يحمل خيله في البحر كما يحمل في البر يأتينا بكتاب جديد بعد خراب بيت المقدس يعني بالكتاب القرآن أتعرف هذا وتؤمن به ؟ قال رأس الجالوت : قد قال ذلك حيقوق ولا ننكر قوله ، قال الرضا (عليه السلام) : وقد قال داود في زبوره وأنت تقرأ : اللهم ابعث مقيم السنة بعد الفترة ، فهل تعرف نبياً أقام السنة بعد الفترة غير محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ قال رأس الجالوت : هذا قول داود نعرفه ولا ننكره ولكن عنى بذلك عيسى (عليه السلام) وأيامه هي الفترة ، قال الرضا (عليه السلام) : جهلت ، إن عيسى لم يخالف السنة وقد كان موافقاً لسنة تورا حتى رفعه الله إليه ، وفي الإنجيل مكتوب أن ابن البرة ذاهب والفار قليط جاء من بعده وهو الذي يحقق الأخبار ويفسر لكم كل شيء وشهد لي كما شهدت له أنا جئتكم بالأمثال وهو يأتاكم بالتأويل ، أتؤمن بهذا في الإنجيل ؟ قال : نعم لا أنكره ! .

وفي الدر المنثور ٣ : ١٣١ - أخرج ابن سعد وأحمد عن رجل من الأعراب قال جلبت حلوية إلى المدينة في حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فلما فرغت من بيعي قلت لالقين هذا الرجل ولا سمعن منه فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون فتبعتهما حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرأها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأحسن الفتيان وأجمله فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنشدك بالذي أنزل التوراة هل تجدني في كتابك ذا صفتي ومخرجي ؟ فقال برأسه هكذا - أي : لا فقال إنه أي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : أقيموا اليهودي عن أخيك ثم ولي كفته والصلاة عليه .

وفيه عن ابن مسعود قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : صفني أحمد المتوكل مولده بمكة ومهاجره إلى طيبة لبس بفض ولا غليظ بجزي بالحسنة الحسنة ولا يكافئ بالسيرة أمته الحمادون يأتزرون على أنصافهم ويوضوون أطرافهم أنا جيلهم في صدورهم يصفون للصلاة كما يصفون للقتال قربانهم الذي يتقربون به إلى دمائهم رهبان بالليل ليوث بالنهار .

وفيه أخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل عن علي بن أبي طالب أن يهودياً كان له على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) دنائير فتقاضى النبي فقال له : ما عندي ما أعطيك ، قال : فإني لا أفارقك يا محمد حتى تعطيني قال : إذن أجلس معك يا محمد فجلس معه صلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الظهر والعصر والمغرب والعشاء والغداة وكان أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يتهجدون اليهودي ويتوعدونه فقالوا : يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يهودي يجلسك ؟ قال : منعني ربي أن =

ذلك ، وقد يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله : « أنا محمد النبي الأمي أنا محمد النبي الأمي أنا محمد النبي الأمي ولا نبي بعدي أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه وعلمت خزنة النار وحملة العرش فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم فإذا ذهب بي فعليكم كتاب الله أحلوا حلاله وحرموا حرامه » (١) .

ثم « الذين يتبعون » لها صلة بـ « هم بآياتنا يؤمنون » أكثر من الصلة بما قبلها ، فإن ذلك الإتيان يتبع الإيمان « بآياتنا » التي منها البشارات المودوعة في التوراة والإنجيل ، مهما كان لـ « يتقون » أصلاً ولـ « يؤتون الزكاة » فرعاً ، صلة تحضيرية للإيمان « بآياتنا » فإن الذي لا يتقي الله ليس ليؤمن بآيات الله .

وليس « يتبعون » تختص بالعائشين زمن الرسالة المحمدية (صلى الله عليه وآله وسلم) ليحرم عن رحمتها الشاملة هؤلاء الذي ماتوا قبلها، بل هم الذين حضروا أنفسهم لذلك الإتيان - إن عرفوه - عملياً إن أدركوها ، وهم متبعوها علمياً وعقيدياً مهما لم يدركوها ، إذا فالإتيان يشمل كلا الفعلية والشأنية علمياً وعقيدياً وتطبيقياً ، فالأولان حاضران على أية حال ويبقى الثالث لدوره الواقعي وهو منذ ابتعث هذا الرسول النبي الأمي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهنا بشارة بنزول الإنجيل بعد التوراة في واجب ذلك الإتيان كما ونجدها في التوراة في عدة آيات تبشر بظهور الرب من ساعير وما أشبه .

ذلك ، وترى الخمسة الباقية من الثمانية هي من ميزات هذا الرسول

= أظلم معاهداً ولا غيره فلما ترحل النهار أسلم اليهودي وقال : شطر مالي في سبيل الله ، أما والله ما فعلت الذي فعلت بك إلا لأنظر إلى نعمتك في التوراة : محمد بن عبد الله مولده بمكة ومهاجره بطيبة وملكه بالشام ليس بفظ ولا غليظ ولا صحاب في الأسواق ولا متزين بالفحشاء ولا قوال للحنأ .

(١) الدر المنثور ٣ : ١٢١ - أخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال : خرج علينا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوماً كالمودع فقال : أنا ...

(صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ وما هي إلا هيه لسائر الرسل
(عليهم السلام) ! .

ليست هذه الثمانية إلا « الأمي » وقسم آخر ، هي من اختصاصاته
(صلى الله عليه وآله وسلم) ، فإنما القصد من سردها تبين انه مذكور بها
في التوراة والإنجيل فليتبعوه إتباعاً لأمر الله فيهما وانه من نفس النمط
الرسالي المعروف عند الرساليين ، فليس - إذاً - بدعاً من الرسل ، ثم فيه
مزيد من هذه قضية ختم الرسالة والنبوة به كما يعرف تماماً من المقارنة بين
هذا الرسول ورسالته وبين سائر الرسل برسالاتهم : « وإن كنتم في ريب
مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهدائكم من دون الله إن
كنتم صادقين » .

ثم « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر » تبلور في « كنتم خير
أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو
آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » (٣ :
١١٠) .

وقد نجده في التورات والإنجيل والقرآن أمراً ناهياً ، نفخت شرعته
في واجب الأمر والنهي كل ما يشعه من الروحية الحيوية الشاملة ، وإلى
درجات متعاليات لطليق الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس وكل
النفائس حفاظاً على الأدب الإسلامي السامي في المجموعة المسلمة
ككل ، ونموذجاً من التوراة ما في كتاب هوشيع النبي (عليه السلام)
(١٦ : ٩) حسب النص العبراني الصوتي :

« سَوْفَ إِفْرَيمَ عَمَ الْوَهائِ نَابِيءُ فُحْ ياقوش عُلْ كَالْ دِرَاخايُو مَسْطِمْاه
بَيُوتِ الْوَهائِي » (٩) - :

« افرأيم منتظر عند إلهي . النبي فح صياد على جميع طرقه . حقد
في بيت إلهه . وقد توغلوا وأفسدوا كأيام جبعة . سيذكر إثمهم . سيعاقب
خطاياهم » (٩) .

فالقصد من « النبي » هنا هو « محمد » المذكور في الآية (٦) « ... » .

محمد لكسقام ... : محمد لفضتهم ، حيث تعني الجزية التي يأخذها منهم ، وقد رموه بالجنون والحمق كما في الآية (٧) : « .. النبي أحقق . إنسان الروح مجنون من كثرة إثمك وكثرة الحقد » وكما مضى من ذي قبل .

فقد برز محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) المحقود في بيت إسرائيل ، المرمي بالحمق والجنون ، وهو الموصوف بالنبي الأمي صاحب الروح والوحي ، برز أنه « فخ صياد في جميع طرقه » وهي طرق الدعوة الرسالية ، برز هادياً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله وسراجاً منيراً ، فخ للشاردين ، صياد للواردين ، أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر^(١) .

ثم « يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث » كما أحلت أو حرمت في سائر شرائع الله ، ولكنه إحلال وتحريم أبديان لا يتغيران أو يتطوران ، وقد كان في الشريعة التوراتية تحريمات إبتلائية أم عقوبة مؤقنة وتحليلات ، مما أصبح من ميزات الشريعة الإنجيلية تحليل بعض ما حرم عليهم : « ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم .. » (٣ : ٥٠) ومن « الطيبات » التي يحلها هي المحرمة على الذين هادوا عقوبة ، ومن الخبائث التي يحرمها هي التي حللوها كالخمر وما أشبه ، ثم يقر سائر الخبائث على تحريمها وسائر الطيبات على إحلالها ، فليس بدعاً من الرسل يخالف خط الرسالة وسنتها الشاملة .

ثم « ويضع عنهم أصرهم والأغلال التي كانت عليهم » فقد أشير إليهما في (أشعيا ٢٨ : ١٢) بخلال التعريف بالقرآن :
« أشير أمر إليهم زُتْ هَمُنُوحَاهُ هَابِنُحُو لِعَابِيفٍ وَزُتْ هِمْرَجَمَاهُ وَلَا
أَبُوهُ شَمُوعُ »^(١) - :

« الذين قال لهم هذه هي الراحة فأريحوا الرااح وهذه هي الرفاهية

(١) راجع « رسول الإسلام في الكتب السماوية » و « الفرقان ١ : ٣٦١ تجد تفصيل هذه البشارة .

فأبوا أن يسمعوا» (١٢) قال لهم رسول هذا القرآن « هذه » الشرعة القرآنية « هي الراحة فأريحوا الرأزح » عن أسره وإصره ، وحلوه عن غله وغله .

هذا « فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون » وهذه زوايا أربع لقاعدة إتباعه : « الذين يتبعون . . » إيماناً به كما هو ، وتعزيراً له : دفاعاً عنه ، وهو الحالة السلبية تجاهه ذوداً عنه ما يمس كرامته ، ونصرة إياه ، وهو الحالة الإيجابية تجاهه ، تحقيقاً حقيقاً لكلمة الإخلاص : « لا إله إلا الله » سلباً وإيجاباً عملياً ، بعد الإيمان به قلبياً ، وهذه الثلاثة تكرر في الزاوية الرابعة : « واتبعوا النور الذي أنزل معه » وهو القرآن ، إتباعاً في كل حقوله في كل الحقول ، لا إتباعاً في خيال خاوا زواي ، دون أن يظهر في حال وفعال ، أو يخطر خطر له ببال .

« أولئك هم المفلحون » في كل معتركات الحياة ، المفلحون كل دوائر السوء المتربصة بهذه الرسالة السامية .

وإنما « أنزل معه » دون « أنزل عليه » لنعرف المعية بين القرآن ورسول القرآن فهما فرقدان لا يتفارقان وكل دليل على صاحبه ، فكما إتباع النور الذي أنزل معه مفروض ، كذلك إتباعه في سنته الجامعة غير المفارقة ، فهما نوران متواتيان متواليان مهما كان نور القرآن أطول أمداً وأبقى أبداً فإنه الثقل الأكبر .

وهنا مثلث « آمنوا به وعزروه ونصروه » يتوحد في « واتبعوا النور الذي أنزل معه » فإنه إمامه حيث هو أمامه في كل رسالاته ، وهذا النور المتبع هو الذي يأمرنا باتباعه كما موم أول لذلك الإمام ، فلنصطف وراءه إقتداءً بالقرآن الإمام ، لكي نفلح كما هو أفلح ، ونفلج خصومنا كما هو أفلج .

تمه فيها إشارات إلى بشارات
كما في تصريحات آيات كهذه وفي روايات الاحتجاجات للرسول

(صلى الله عليه وآله وسلم) وعترته المعصومين (عليهم السلام) ، وبعد مضي زمن طويل بيننا وبين هذه التصريحات ، نجد في التوراة والأنجيل - على تحرفهما ولا سيما في البشارات - نجد تصريحات لا حول عنها لهذا الرسول النبي الأمي (صلى الله عليه وآله وسلم) وإليكم نماذج أخرى تصديقاً لاحتجاجات .

مما أشار إليه الإمام الرضا من البشارات آية « الثنية ١٨ : ١٧ » ونصها بالعبراني الصوتي :

« نَابِيءٌ أَقِيمْ لَهُمْ مَقَرَّبٌ إِجِيحْمُ وَنَاتِي دِبَارِي يَفِيؤُ وَدَبِرَ إِلَيْهِمْ إِنْ كَالِ أَشِيرُ أَصُونُو » (١٧) - :

« بني أقيم لهم من أقرباء أخيهام كموسى وأضع كلامي في فيه لكي يقول لهم كلما أمره » (١٨) فطالما حرفت أقلام الزور والغرور ذلك النبي المبشر عن بيت إسماعيل إلى بيت إسرائيل ، ولكنه بعد النص « مَقَرَّبٌ إِجِيحْمُ » : من أقرباء أخي بني إسرائيل ، لا منهم ، وقد تسمى التوراة أبناء الأعمام إخوة ، فد عيص ، وهو أخو يعقوب ، يصبح بنوه إخوة بني إسرائيل كما في « تث ٢٨ : ٨ - ١٠ » « ومرا القوم وقل لهم إنكم على حد إخوانكم بني عيص . . . » وعيص هذا هو صهر إسماعيل بن إبراهيم ومن أولاد بنت إسماعيل ، إذا فولد إسماعيل هم أخوال بني عيص ، فأقرباء بني إسرائيل هنا هم من بني إسماعيل ، ولم يظهر نبي من بنيه إلا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ذلك وقد مضى نص التورات وحقوق النبي بمطلع النور القدسي المحمدي من « پاران » : حرى، فلا نعيد .

وفي « نبوءت هيلد » : وحي الطفل : لُحمان حطوفاه، بحرف الميم من سلسلة مقالاته حول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حسب حروف الحساب :

« مُحَمَّدٌ كَايَا إِغَا بَايَا دِيْطَمَعُ هُوِيَا وَيْهِي كَلِيلِيَا » - :

وهي حسب مختلف التراجم اليهودية : « محمد عظيم قدسير . الشجرة الطيبة البارزة . المأمول المغبوط المرتجى . الذي يخمد . ويُفني

ما مضى . هو الجمع والكل . هو التاج . وهو الكلُّ »

وفي أناشيد سليمان النبي (عليه السلام) (٥ : ١٦) :

« حِكِّمُوا مَنَاقِبَهُمْ وَكُفُّوا مَحَمَدٍ يَمُّ زَوْجِ دَاوُدَ وَزَوْجِ رِيعِ بَنَاتِ
يَرْشَلِيمَ » ^(١) .

« فمه حلو - وكله محمد - هذا محبوبي - وهذا نصري - يا بنات
أورشليم ! » .

وذلك بعد مواصفات عدة لمحبوب له لا يسميه ، فخيَّل إلى بنات
أورشليم أنه يعني واحدة منهن حتى صرح بإسمه وسمته أخيراً بما
صرح ! .

وفي كتاب أشعيا النبي (عليه السلام) بشارات عدة أشار إلى
بعضها الإمام الرضا (عليه السلام) في حوارهِ وإليكم بعضاً آخر ، ففي
(٤١ : ١ - ٢٥) : مواصفات دون تصريح بالوصوف بها ، وهي لا
تنطبق بالضبط إلا على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث يقول الله
فيها : ^١ هوذا عبدي الذي أعفده . مختاري الذي سررت به نفسي .
وضعت روحي عليه فيخرج الحق للآمم ^٢ لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في
الشارع صوته . ^٣ قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة خامدة لا يطفئ . إلى
الآمان يخرج الحق ^٤ لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض وتنتظر
الجزائر شريعته .

^٥ هكذا يقول الله الرب خالق السماوات وناشرها باسط الأرض
وتناجها، معطي الشعب عليها نسمةً وساكنين فيها روحاً ^٦ أنا الرب قد
دعوتك بالبر فأمسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهداً للشعب ونوراً للآمم
^٧ لتفتح عيون العمي لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن

(١) للتفصيل راجع « رسول الإسلام في الكتب السماوية » ووحى الطفل عرض نموذجي
عن كيان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وحياته الرسالي وميزاته نقلناه عن كتاب
منقول الرضائي للحبر العظيم اليهودي الذي أسلم وألف هذا الكتاب رداً على اليهود .

الجالسين في الظلمة -

^٨ أنا الرب هذا إسمي ومجدي لا أعطيه لآخر ولا تسبيحي للمنحوتات ^٩ هوذا الأوليات قد أنت والحديثات أنا مخبر بها . قبل أن تثبت أعلمكم بها ^{١٠} غنوا للرب أغنية جديدة تسبيحه من أقصى الأرض . أيها المنحدرون في البحر وملؤه والجزائر وسكانها ^{١١} لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التي سكنها « قيذار » لتسرنم سكان سالف من رؤوس الجبال ليهتفوا ^{١٢} ليعطوا الرب مجدداً ويخبروا بتسبيحه في الجزائر ^{١٣} الرب كالجبار يخرج . كرجل حروب ينهض غيرته . يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه .

^{١٤} قد صحت منذ الدهر سكنت تجللت . كالوالدة أصبح . أنفخ وانخر معاً ^{١٥} أخرب الجبال والأكام وأجفف كل عُشبها وأجعل الأنهار يسا وأنشف الأجسام ^{١٦} وأسير العمي في طريق لم يعرفوها . في مسالك لم يدروها أمشيهم . أجعل الظلمة أمامهم نوراً والمعوجات مستقيمة . هذه الأمور أفعلمها ولا أتركهم ^{١٧} قد ارتدوا إلى الوراء . يخزي خزي المتكلمون على المنحوتات القائلون للمسبوكات أنتن آلهتنا .

^{١٨} أيها الصم اسمعوا . أيها العمي أنظروا لتبصروا ^{١٩} من هو أعمى إلا عبدي وأصم كرسولي الذي أرسله . من هو أعمى كالكمال وأعمى كعبد الرب ^{٢٠} ناظر كثيراً ولا تلاحظ . مفتوح الأذنين ولا يسمع ^{٢١} الرب قد سر من أجل برّه . يعظم الشريعة ويكرمها ^{٢٢} ولكنه شعب منهوب ومسلوب قد اصطيد في الحفر كله وفي بيوت الجوس اختبأوا . صاروا نهباً ولا منقذ وسلباً وليس من يقول ردّ .

^{٢٣} من منكم يسمع هذا . يصغي ويسمع لما بعد ^{٢٤} من دفع يعقوب إلى السلب وإسرائيل إلى الناهبين . أليس الرب الذي أخطأنا إليه ولم يشاءوا أن يسلكوا في طرقه ولم يسمعوا لشريعته ^{٢٥} فسكب عليه حمو غضبه وشدة الحرب فأوقدته من كل ناحية ولم يعرف وأحرقته ولم يضع في قلبه .

هذه الآيات البينات تبشر بولي عظيم من أولي العزم من الرسل

(عليهم السلام) ليس ليصدق على المسيح (عليه السلام) الآتي بعد أشعياء اللهم إلا على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) خاتم الأنبياء .

فالآيات (١ - ٣ - ٤ - ١٠) تبشر بولاية عزمه وأنه صاحب شرعة مستقلة جديدة ، وشرعة المسيح حسب نصوص من الإنجيل إضافة إلى خلوه عن أحكام ، هي شرعة التوراة إلا في قليل هو تحليل البعض من المحرمات العقوبية .

والآيات (١ - ٢ - ٣ - ٤ - ٦) تصرح بأهمية شرعته العالمية وأنه (صلى الله عليه وآله وسلم) هدى ونور لقاطبة الملل ، والآيتان (٤ - ١٠) تقول إن كافة الأمم تنتظر مجيئه وهي مأمورة بالدخول في شرعته ، وهو يكسر الأصنام ويزيل عبادة الأصنام (٨ - ١٧) .

ومبدء ظهوره وانتشار شرعته البلاد المسكونة لـ « قيدار »^(١) - وهو الولد الثاني لإسماعيل (تكوين ١٣ : ٢٥) وهو جد محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وأعظم معبد لأمته في هذه البلاد حيث المستطيعون يقصدونه من مشارق الأرض ومغاربها وترفع البرية ومدنها وصوتها الديار التي يسكنها قيدار ، ترنماً بتسبيح الله من على رؤوس الجبال (١١ - ١٢) .

وقد تعني « مختاري » في^(١) المصطفى حيث حُرِفَ بالمعنى وكما يؤيده الآية (١٠) كما ترجمها القسيس أو سكان الأرمني^(٢) : « يسبحون »

(١) لقد ذكر « قيدار » في (أشعياء ٦٠ : ٧) أيضاً كما يقول في بشارة أخرى في آيات عدة تعريفاً بصاحب هذه الشرعة المبشر بها : « كل غنم قيدار تجتمع إليك . كباش نبايوت تخدمك . تصعد مقبولة على مذبحي وازين بيت جمالي » وللإطلاع على تفصيل بشارات أشعياء راجع (رسول الإسلام) .

(٢) هذه الترجمة كتبها هذا القسيس على كتاب أشعياء في ١٤٧٣٣ وقد طبعت في مطبعة (أنتوني بورتولي) .

الرب تسبيحاً جديداً وأثر سلطانه يكون بعده وإسمه « أحمد » .

هذه نماذج من البشائر بحق هذا الرسول النبي الأمي ، ولكن ترى ماذا كانت المواجهة اليهودية والنصرانية لهذا الرسول ولرسالته ؟ لقد كانوا أنحس وأنعس من المشركين وسائر الملحدين لحد يندد الله بفعلتهم قائلاً : « ولا تكونوا أول كافر به » (٢ : ٤١) .

ذلك وعلى طول الخط نرى دوائر السوء في كافة الحلقات مستخدمة من الصهيونية والصليبية ضد الكيان الإسلامي ، حيث تعالج - بزعمها - إزالة هذا الدين من الوجود .

فهل يبقى هنا مجال التعاون بيننا وبين اليهود والنصارى في وجه التيار المادي وسائر الإلحاد وهؤلاء وهم أهل كتاب أخطر وأضر على الكيان الإسلامي من كافة الكفرة والملحدين ! .

ذلك ، هو « الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل » .

« فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون » أركان أربعة للإفلاح ابتداءً من الإيمان به كما يصح ، ثم « وعزروه » توقيراً ثقیلاً قدر ما وقره الله ، فليس الإيمان به كسائر الإيمان بسائر الرسل ، إنما هو الإيمان بمن يحمل الرسالات كلها ، فليوقر كما توقر الرسل كلهم وزيادة هي رمز الخلود .

ثم وليس الإيمان والتوقير - فقط - في زوايا القلب ، بل وهناك ترسيم للإيمان الموقر في صحيفة العمل ، فيه نفسه : « ونصروه » في حمل هذه الرسالة تطبيقاً إياها ودعاية لها ، وفي كتابه « واتبعوا النور الذي أنزل معه » وهو رأس الزاوية من نصرته .

فقد تلخصت هذه الزوايا الأربع في الرابعة « واتبعوا النور الذي أنزل معه » وإذا ف « أولئك هم المفلحون » في معارك الحياة وملتوياتها ومنحنياتها .

﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ (١٥٨) .

هنا في هذه الإذاعة القرآنية مجاهرة صارخة صارخة بأهمية هذه الرسالة السامية حيث تحلّق على الناس كل الناس ، فكما الله هو « الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو » كذلك هذه الرسالة الأخيرة تدبر أمر الشرعة العالمية في السماوات والأرض ، دون إبقاء لمكلف في الكون إلا وهي تشمله .

« فآمنوا » أيها الناس هوداً ونصارى وسائر الكتابيين وغيرهم من المكلفين ملحددين ومشركين « آمنوا بالله ورسوله . . . » كما وهو « يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » ، « آمنوا بالله » - « الذي له ملك السماوات والأرض . . . » « ورسوله » الذي مُلِّك الدعوة الربانية لمن في السماوات والأرض ، وكما الله يحيي الأموات ويميت الأحياء ، كذلك يسلب الرسالة عن قوم ويرسلها إلى آخرين ، وذلك رغم المزعمة الإسرائيلية أن رسالة الله خاصة بهم

« آمنوا بالله ورسوله النبي الأمي » المبشّر به في كتاباتكم « الذي يؤمن بالله وكلماته » فآمنوا أنتم بالله وكلماته ، ومنها هذا الرسول نفسه بكلماته .

ولأن السورة مكية وهذه الآية دعوة للناس كافة ، وقد كان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في العهد المكي يعيش تحت كافة الضغوط المشركة ما يؤس صاحب الدعوة عن تأثيرها حتى في بلده فضلاً عن العالمين ، من هنا نعرف أن هذه الرسالة بدأت عالمية ، رغم الزعم الفاسد الكاسد أن محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن يخلد بخلده أن يمد بصره بهذه الرسالة إلى غير مكة ، وإنما بدء يفكر في توسعتها العالمية بعد أن أغراه النجاح الذي ساقته إليه الظروف المدنية .

كلّاً يا هؤلاء الأغبياء ! إن هذه الرسالة خُتِمت بما بدأت وبدأت كما

خُتِمت في صيغة وصياغة واحدة وفي قوة التعبير والتدبير ومسالك الدعوة والدعاية .

فما هؤلاء المجاهيل من المبشرين الإنجيليين المدَّعين - لأكثر تقدير - أن الرسالة القرآنية خاصة بالعرب لإشارات آيات يزعمونها ، ما هؤلاء بناس ، حيث الدعوة القرآنية تحلق على كل الناس ، فإن كانوا هم من الناس فلتشملهم هذه الدعوة ، وإن كانوا من النسناس فأني لهم أن يتحدثوا عن شرعة الناس ؟ ! .

فـ « ما أرسلناك إلا كافة للناس » (٣٤ : ٢٨) و « لتنذر أم القرى ومن حولها » (٦ : ٩٢) و « ما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٢١ : ١٠٧) وما أشبه ، هي القواعد الأصيلة لأمية هذه الدعوة ، مما تفسر الآيات التي تخيل إختصاص الدعوة بالعرب ، وإجتثاثها عن غير العرب ، تفسر أنهم هم المبدء الأول لهذه الدعوة لكون الداعية منهم وفيهم ، وكما في سائر أولي العزم من الرسل سلام الله عليهم أجمعين .

أجل ، وهذه الجمعية الرسولية والرسالية العالمية هي حقيقة بهذا الرسول النبي الأمي المعروف الشهير حيث « أرسله بالدين المشهور ، والعلم المأثور ، والكتاب المسطور ، والنور الساطع ، والضياء اللامع ، والأمر الصادع ، إزاحة للشبهات ، وإحتجاجاً بالبينات ، وتحذيراً بالآيات ، وتخويفاً بالمثالات ، والناس في فتن إنجذم فيها حبل الدين ، وتزعزعت سوارى اليقين ، واختلف النجر ، وتشتت الأمر ، وضاق المخرج ، وعمي المصدر ، فالهدي خامل ، والعمى شامل ، عُصي الرحمان ، ونُصر الشيطان ، وخُذِل الإيمان ، فانهارت دعائمه ، وتنكرت معالمه ، ودرست سبله ، وعفت شُرُكُه ، أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكة ، ووردوا مناهله ، بهم سارت أعلامه ، وقام لوائه ، في فتن داستهم بأخفافها ، ووطئتهم بأظلافها ، وقامت على سناكبها ، فهم فيها تائهون حائرون جاهلون مفتونون ، في خير دار وشر جيران ، نومهم سهود ، وكحلهم دموع ، بأرض عالمها ملجَم ، وجاهلها مكْرَم » (الخطبة ٢) .

وفي وصف الأنبياء وخاتمهم (صلى الله عليه وآله وسلم) نراه
أكرمهم وأعزهم حيث « استودعهم في أفضل مستودع ، وأقرهم في خير
مستقر ، تناسختهم كرائم الأصلاب إلى مطهرات الأرحام ، كلما مضى
منهم سلف قام منهم بدين الله خَلَف -

حتى أفضت كرامة الله سبحانه إلى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)
فأخرجه من أفضل المعادن مَنِيئاً ، وأعز الأرومات مَغْرِساً ، من
الشجرة التي صدع منها أنبيائه ، وانتخب منها أمناؤه -

عترته خير العتر ، وأسرته خير الأسر ، وشجرته خير الشجر ، نبث
في حرم ، وبسقت في كرم ، لها فروع طوال ، وثمره لا تُنال -

فهو إمام من اتقى ، وبصيرة من اهتدى ، سراج لَمَعَ ضوؤه ،
وشهاب سطع نوره ، وزُنْدٌ بَرَقَ لَمْعُهُ -

سيرته القصد ، وسنته الرشد ، وكلامه الفصل ، وحُكمه العدل -

أرسله على فترة من الرسل ، وهفوة عن العمل ، وغباوة من الأمم
إلى دار السلام ، وأنتم في دار مستعتب على مهل وفراغ ، والصحف
منشورة ، والأقلام جارية ، والأبدان صحيحة ، والأنسن مطلقة ، والتوبة
مسموعة ، والأعمال مقبولة » (الخطبة ٩٣) .

« مستقرة خير مستقر ، ومَنِيئته أشرف مَنِيئ ، في معادن الكرامة ،
ومعاهد السلامة ، قد صرفت نحوه أفئدة الأبرار ، وثبتت إليه أزيمة
الآبصار ، دفن الله به الضغائن ، وأطفأ به النواثر ، أَلَفَ به إخواناً ، وفَرَّقَ
أقراناً ، أعزَّ به الذلة ، وأذل به العزة ، كَلَامُهُ بيان ، وصُمتُه لسان »
(الخطبة ٩٥) .

« اختاره من شجرة الأنبياء ومشكاة الضياء ، وذؤابة العلّياء ، وسرة
البطحاء ، ومصابيح الظلمة ، وينابيع الحكمة -

طبيب دوار بطبه ، قد أحكم مراهمه ، وأحمى مواسمه ، يضع من
ذلك حيث الحاجة إليه ، من قلوب عُمي ، وأذان صُم ، والسنة بكم ،
متبوع بدواءه مواضع الغفلة ، ومواطن الخيرة ، لم يستضيئوا بأضواء

الحكمة ، ولم يقدحوا بزناد العلوم الثاقبة ، فهم في ذلك كالأنعام السائمة ، والصخور القاسية ، قد إنجابت السرائر لأهل البصائر ، ووضحت محجة الحق لخابطها ، وأسفرت الساعة عن وجهها ، وظهرت العلامة لمتوسمها -

مالي أراكم أشباحاً بلا أرواح ، وأرواحاً لا أشباح ، ونساکاً بلا صلاح ، وتجاراً بلا أرباح ، وأيقاظاً نوماً ، وشهوداً غيباً ، وناظرة عمياء ، وسامقة صماء ، وناطقه بكماء (الخطبة ١٠٧) .

ذلك ! وترى كيف لا يُضمن هنا الإهداء بذلك الإيمان والإتباع وقد كتب الله رحمته لهؤلاء المؤمنين المتبعين ؟ لأن مجرد بادية الإيمان والإتباع أيّاً كان لا يضمن دائب الإهداء ، وإنما هو الإستمرار فيها بشروطهما بعون الله وفضله ، فرب مؤمن به متبع له سوف يكفر ، ورب كافر به ناكِر له سوف يؤمن ، فلنسأل الله حسن العاقبة والخاتمة كما نسأله حسن البداية .

﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ (١٥٩) .

هنا « من قوم موسى أمة » وفي أخرى « ممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » (٧ : ١٨١) وفي ثالثة « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصده وكثير منهم ساء ما يعملون » (٦٦ :) .

فالأولى خاصة بقوم موسى ومثلها : « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » (٣٢ : ٢٤) وهنا ما تختص بالذكر من هؤلاء الأئمة الهادية كإبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » (٢١ : ٧٣) .

ثم الثالثة تعمهم إلى قوم عيسى ، وآية الأنبياء تعمها إلى قوم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) مما يدل على أن هذه الأمة الهادية بالحق العادلة به هي الأئمة من كل أمة ، معصومين كأصول ، وعلماء ربانيين كفروع لهم .

فـ « يهدون بالحق » هي الهداية بمصاحبة الحق وبسببه ، وهو حق الوحي كتاباً وسنة ، ثم « وبه يعدلون » هو العدل بالحق والعدل عن الباطل بالحق ، فالحق هو الذريعة الوحيدة في العدل والهدى ليس إلا ، دون مصلحيات هاوية وقياسات خاوية غاوية وما أشبهها من دون الحق الحقيقي بالإتباع .

ذلك ، « أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي فما لكم كيف تحكمون » (٣٥:١٠) - « ولم يخل أرضه من عالم بما يحتاج الخليفة إليه ، ومتعلم على سبيل نجاة ، أولئك هم الأقلون عدداً ، وقد بين الله ذلك من أمم الأنبياء وجعلهم مثلاً لمن تأخر مثل قوله فيمن آمن من قوم موسى : « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » . فرأس الزاوية في مثلث الهداية هو رسول كل أمة ، ثم الأئمة من قومه ، ومن ثم ربانيوا الأمة وقد يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله : « معاشر الناس أنا الصراط المستقيم الذي أمرتم بإتباعه ثم علي من بعدي ثم ولدي من صلبه أئمة يهدون بالحق وبه يعدلون »^(١) .

ذلك ، ولأن « يهدون » مضارعة تشمل الحال إلى المستقبل ، فالأصل فيهم بالنسبة لزمن نزول القرآن هؤلاء الذين آمنوا به ودعوا له وهدوا

(١) نور الثقلين ٢ : ٨٦ في كتاب الإحتجاج بإسناده إلى الإمام محمد بن علي الباقر (عليهما السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في خطبة الغدير : . . وفيه في الكافي عن مسعدة بن صدقة سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول يسأل عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو واجب هو على الأمة جميعاً ؟ فقال : لا فقل له : قال : إنما هو على القوى المطاع العالم بالمعروف من المنكر لا على الضعيف الذي لا يهتدي سبيلاً إلى أي من أي والدليل على ذلك كتاب الله تعالى قوله : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » فهذا خاص غير عام كما قال الله : « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » ولم يقل على أمة موسى ولا على كل قومه وهم يومئذ أمة مختلفة والأمة واحدة فصاعداً كما قال الله سبحانه وتعالى : « إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله » يقول : مطيعاً لله تعالى .

إليه ، وقد سبقهم نبيون وربانيون ومؤمنون إسرائيليون كانوا ينتظرون تشریف هذه الرسالة السامية .

وعلى أية حال فـ « أمة » هنا تضم من « قوم موسى » كل من « يهدون بالحق وبه يعدلون » وقضية احتمال الواو أنها حالية ، أن « ومن قوم موسى » بيان حال الماضية ، كما أن قضية احتمال العطف بيان الحال الحالية ، والجمع أجمل وأجمع ، لأن أمة الحق بين الأمم الرسالية لا يختصون بزمان دون زمان ، والآية طليقة في هؤلاء الأكارم .

وفي أحاديثنا أن هذه الأمة من قوم موسى هم ممن يرجعون في دولة المهدي عجل الله تعالى فرجه وسهل مخرجه .

﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً وأوحينا إلى موسى إذ استسقاء قومه أن يضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (١٦٠) .

آية وحيدة في بيان عديد الأسباط ، بعد آيات أربع تذكرهم دون عديدهم ، وهم هنا « أمماً » بعد كونهم أمة واحدة في شرعتهم .

وترى كيف هنا « أسباطاً أمماً » وتميز ما فوق العشرة مفرد ؟ ، إنه قد لا يكون تمييزاً ، بل هو بدل يعني قطعناهم أسباطاً أمماً هم اثنتي عشرة ، أم ان « أسباطاً أمماً » حالان لـ « هم » فإن واقع عديد الأسباط لا يقبل التقطيع لأنه تحصيل للحاصل ، وإنما « قطعناهم » تفريقاً بينهم حالكونهم أسباطاً أمماً ، أم لأن تمييز ما فوق العشرة لا يختص بالافراد ، فقد يجمع كما هنا ، وأخرى يفرد كـ « عينا » تمييزاً لـ « اثنتا عشرة » والقاعدة الأدبية المخالفة لأدب القرآن هي خارجة عن الأدب البارع .

ذلك ، فتقدير تمييز مفرد حفاظاً على الأدب المزعوم تغدير على أدب القرآن ، ولا يصلح تمييزاً لـ « اثني عشر » إلا « أسباطاً » .

وترى هذا التقطيع لهم رحمة ؟ وهو زحمة قضية الاختلاف ! إنه

زحمة كأصل حيث الوحدة هي الرحمة « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » (١١ : ١١٩) ثم هو رحمة في غير أصل حين لا تعايش سلمياً بين مختلف الأسباب ، وهكذا كانوا مختلفين لا يتعايشون فقطعهم الله حتى يتخلصوا عن أعباء الخلافات ، قطعناهم لحد « أوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن يضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم . . » وكما « بعثنا منهم اثني عشر نقيباً » (٥ : ١٢) .

ذلك ، وسائر مواضع الآية مفسرة مفصلة على ضوء آيات البقرة اللهم إلا « وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » وكما في البقرة « وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن أنفسهم يظلمون » (٥٧) .

وهذه حقيقة هي حقيقة بالإتباع أن الله لا يُظلم كما لا يُظلم حيث الظلم هو الإنتقاص ولا ينتقص من ربنا في واقع كيانه بشيء وكل شيء غيره قابل للإنتقاص .

ولقد ظلمت هذه الآية فيما ظلمت أي أخرى من القرآن بما اختلقت من رواية تروى لقلة الفهم وسوء التفهم أنها نزلت « وما ظلمناهم . . » (١) .

(١) نور الثقلين (٢ : ٨٧) في أصول الكافي عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الماضي (عليه السلام) في الآية قال : ان الله أعز وأمنع من أن يظلم وإن ينسب نفسه إلى الظلم ولكن الله خلطنا بنفسه فجعل ظلمنا ظلمه وولايتنا ولايته ثم أنزل بذلك قرآناً على نبيه فقال : « وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » قلت : هذا تنزيل ؟ قال : نعم ، وفيه مثله عن أبي جعفر (عليهما السلام) ، وفيه ما يعارضهما عن الإحتجاج عن أمير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل : وأما قوله « وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » فهو تبارك اسمه أجل وأعز من أن يظلم ولكنه قرن أمناه على خلقه بنفسه وهو عرّف الخليقة جلاله قدرهم عنده وإن ظلمهم ظلمه بقوله : « وما ظلمونا » ببغضهم أوليائنا ومعونة أعدائهم عليهم « ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » إذ حرموها الجنة وأوجبوا عليها دخول النار . أقول : وفي خلط أوليائه بنفسه خلط لا يناسب شرعة التوحيد ! .

﴿ وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين ﴾ (١٦١) .

لقد مضى قول فصل حول مغزى الآية على ضوء نظيرتها وهما (٢ : ٥٨ و ٤ : ١٥٤) مهما كان بين هذه الثلاث تقديم وتأخير في التعبير ، ومثلث العرض في القرآن لهذه الذكرى هو قضية مثلث الملابس البيانية في الذكر الحكيم .

﴿ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فارسلنا عليهم رجلاً من السماء بما كانوا يظلمون ﴾ (١٦٢) .

ولها ثانية باختلاف يسير في التعبير هي : « فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجلاً من السماء بما كانوا يفسقون » (٢ : ٥٩) .



وَسَلَّمَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً أَلْحَرُ
إِذْ يَسْأَلُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ
شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ
بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦١﴾ وَإِذْ قَالَتِ امْئَمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْبُدُونَ
قَوْمًا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مَهْلِكُكُمْ هُمْ وَمُعَذِّبُهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ أَلَا أَمْعَدَنَّ
إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٢﴾ فَلَا تَسْأَلُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ

انجينا الذين ينهون عن السوء واخذنا الذين ظلموا بعذاب
 بئس بما كانوا يفعلون ﴿١٦٣﴾ فلما عتوا عن ما نهوا عنه
 قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴿١٦٤﴾ واذا نادى ربك ليبعثن
 عليهم الى يوم القيمة من سيومهم سوء العذاب ان ربك
 سريع العقاب وانه لفور رحيم ﴿١٦٥﴾ وقطعناهم في
 الارض اسماء منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم
 بالحسنى والسيئات لعلهم يرجعون ﴿١٦٦﴾ فخلقناهم
 بعد ذلك خلف ورتنا الكتاب ياخذون عرض هذا
 الاذن ويقولون سيغفر لنا وان ياتهم عرض مثله
 ياخذوه الا يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ان لا يقولوا
 على الله الا الحق ودرسوا ما فيه والدار الاخرة خير
 للذين يتقون فلا تعقلون ﴿١٦٧﴾

﴿ وسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيتهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيتهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ (١٦٣) .

وهنا عرض منقطع النظر عن حيلة شرعية ! لهؤلاء المحتالين الأنكاد البعاد تبين مدى غيلتهم على شرعة الله تحويلاً لمحرمات إلى محلات وكان شرعة الله مبنية على الحيلة حتى تقبل حيلة تحولها إلى ما يشتهون ، وكما تفعله جماعة من المسيحيين والمسلمين المجاهيل مستندين إلى مختلقات زور زعم أنها حيل شرعية ! قررهما صاحب الشرع للقضاء على شرعته ! .

و « القرية التي كانت حاضرة البحر » هي ليست حاضرة الإسم ، إذ القصد هنا هو واقع الإحتيال ، دون مكانه الخاص وأشخاصه الخصوص ، ومهما اختلفت الروايات في أنها : إيلة أو طبرية أو مدين ، فنحن نسكت عما سكت الله عنه دون محاولة للحصول على إسم القرية .

وهنا « يعدون في السبت » تعني - فيما تعني - صيد الحيتان يوم السبت بحيلة أم غيلة لمكان « إذ تأتيتهم ... » والسبت هو القطع ، حالة اليقظة عن أفعال إختيارية بالإرادة ، وحالة النوم ، سبتاً عنها دون إرادة ، ف « جعلنا نومكم سباتاً » (٧٨ : ٩) تعني ثاني القطعين من قطاع السبت ، فإنه فيه الراحة والدعة ، فقد يمتن الله بالسبت كما في النوم لما فيه لنا من المنفعة والراحة ، لأن التهويم والنوم الغرار لا يكسبان شيئاً من الراحة ، بل يصبحهما في الأكثر القلق والإنزعاج والهموم التي تقلل النوم وتنزّره ، وفراغ القلب ورخاء البال يكون معهما غزارة النوم وامتداد ، وهذا هو النوم السبات ، دون سائر النوم غير السبات .

ويقابل سبات النوم سائر النوم ، وكذلك السبت الذي يصد عن منافع معنية معينة في الحياة كما فعل باليهود يوم السبت .

فلقد كان يوم السبت يوم السبت : القطع عن الأعمال غير الضرورية ، ومنها صيد الحيتان ، ولكنهم عدوا فيه ، ولم يكن يُقصد من

الصيد - فقط - عمله يوم السبت حتى يكونوا أحراراً في سائر المحاولات
حول صيد السبت .

فكما « حرم عليكم صيد البر ما دتم حرمًا » (٥ : ٩٦) تحرّم كافة المحاولات حول الصيد حالة الإحرام ، إشارة وأخذاً وبيعاً وشراءً وأكلًا وإيكالًا وما أشبهه في حقل الإحرام ، كذلك السبت كان إحراماً على هؤلاء ، إذ حرم عليهم فيه - فيما حرم - : صيد الحيتان ، فكل المحاولات يوم السبت حول الصيد محرمة ، أخذاً فيه ، أو حصراً ليأخذوه بعده ، أم أكلاً مما أخذ يوم السبت أو سواء من قضايا الصيد من تقدمات ونتائج وأية ولائح في حقل صيد السبت .

وقد اختص الصيد هنا بالذكر من بين كل مسبوت فيه يوم السبت ، لأنه كان أفيد من كافة الأعمال ، ولا سيما أن حيتانهم كانت تأتيهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك « الصعب الملتوي » نبلوهم « مثل هذه البلوى الشديدة » بما كانوا « طول حياتهم النحيسة » يفسقون « عن شرعة الله أصولاً وفروعاً » .

« وسألهم » سؤال تنديد وتبكيت عن ماضي تأريخهم الأسود ، المستمر على طول الخط بمختلف ألوان فسوقهم عن شرعة الله « إذ يعدون في السبت » عدواً معتدياً متعدياً على شرعة الله « إذ تأتيهم »

فتراهم كيف عدوا فيه ؟ هل صادوا فيه الحيتان جهاراً ودون ستار ؟ والعصيان الجاهر هو دأبهم الدائب في المحرمات الأصلية ، والسبت عن العمل يوم السبت كان ابتلاءً لهم لردح محدد من الزمن ! سبتاً عن مختلف تخلفاتهم النحيسة عن شرعة الله ، وليس مجرد الصيد في أصله مما يُستحق به غليظ العذاب : « كونوا قردة خاسئين » .

أم احتالوا في صيدهم إذ لم يصيدوها يوم السبت ، وإنما سدوا عليها منافذ الفرار فصادوها بعد السبت ؟ أم تأولوا محرم الصيد يوم سبتهم أن القصد منه حرمة أكل الصيد يوم السبت دون مجرد صيده ؟ وهذا أنحس وانكي لأنه يضم إلى محرم العمل محرم الحيلة الغيلة في حكم الله ،

تحليلاً لما حرمه الله بتلك الحيلة ، أم افترقوا في عدوهم إلى هذه الفرق الثلاث ؟ قد تحملها كلها « إذ يعدون » فإن مجرد الصيد يوم سبتهم كان محرماً عليهم سواء أصادوا ولم يأكلوا ، أم وأكلوا ، أم لم يصيدوا في نفس اليوم وإنما سدوا عليها طرق الفرار (١) .

(١) نور الثقلين ٢ : ٨٨ في تفسير القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن علي بن رثاب عن أبي عبيدة عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال : وجدنا في كتاب علي بن أبي طالب صلوات الله عليه أن قوماً من أهل ليلة - وهي مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام - أو آخر الحجاز وأول الشام - من قوم ثمود وأن الحيتان كانت سبقت إليهم يوم السبت ليختبر الله طاعتهم في ذلك فشرعت إليهم يوم سبتهم في ناديهم وقدام أبوابهم في أنهارهم وسواقيهم فيأندروا إليها فأخذوا يصطادونها فلبثوا في ذلك ما شاء الله لا ينهأهم عنها الأبحار ولا يمنهم العلماء من صيدها ، ثم إن الشيطان أوحى إلى طائفة منهم إنما نهيتم عن أكلها يوم السبت ولم تنهوا عن صيدها فاصطادوها يوم السبت وأكلوها فيما سوى ذلك من الأيام فقالت طائفة منهم : الآن نصطادها فعتت وانحازت طائفة أخرى منهم ذات اليمين فقالوا : نهاكم عن عقوبة الله أن تتعرضوا لخلاف أمره ، واعتزلت طائفة أخرى منهم ذات اليسار فسكتت فلم تعظمهم فقالت للطائفة التي وعظتهم : « لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً » فقالت الطائفة التي وعظتهم : « معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون » قال : فقال الله عز وجل : « فلما نسوا ما ذكروا به » بعد لما تركوا ما وعظوا به مضوا على الخطيئة فقالت الطائفة التي وعظتهم : لا والله لا نأتيكم هذه الليلة في مدينتكم هذه التي عصيتكم الله مخافة أن ينزل بكم البلاء فيعذبنا معكم ، قال : فخرجوا عنهم من المدينة مخافة أن تصيبهم البلاء فنزلوا قريباً من المدينة فباتوا تحت السماء فلما أصبحوا أولياء الله المطيعون لأمر الله غدوا لينظروا ما حال أهل المعصية فأتوا باب المدينة فإذا هو مصمت فدقوه فلم يجابوا ولم يسمعو منها حس أحد فوضعوا سلماً على سور المدينة ثم اصعدوا رجلاً منهم فأشرف على المدينة فنظر فإذا هو بالقوم قردة يتعاونون فقال الرجل لأصحابه : يا قوم أرى والله عجبا ، قالوا : وما ترى ؟ قال : أرى القوم قد صاروا قردة يتعاونون لها أذناب ، فكسروا الباب ، قال : فعرفت القردة أنسابها من الإنس ولم تعرف الإنس أنسابها من القردة فقال القوم للقردة : ألم ننهكم ؟ فقال علي (عليه السلام) : والله الذي فلق الحبة وبرأ النسمة إني لأعرف أنسابها من هذه الأمة لا يتكرونها ولا يغيرون بل تركوا ما أمروا به ففترقوا وقد قال الله : « فبعداً للقوم الظالمين » وقال الله : « أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس بما كانوا يفسقون » .

ففي صيد الحيتان وأكلها يوم السبت ثالوث من المحظور فإنه عمل وصيد وأكل منه وكلها ممنوعة فيه ، وفي صيدها فيه - فقط - دون أكل محظوران إثنان ، ثم في سد طريقها دون صيد يومه ولا أكل محظور واحد ، ولكنه مع الثاني قد يكون أشد من ثالثهم لمكان الحيلة على شرعة الله ، فرية وقحة على الله كأنه سن في شرعته حيلة وغيلة وهما من قضايا الجهالة والضعف ! .

وهنا « إذ تأتيهم . . » دليل أنهم كانوا لا يصيدون يوم السبت لفترة ، ثم لما رأوا « تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً » ويوم لا يسبتون لا تأتيهم « أخذوا يعدون في السبت في حقل هذه الثلاث .

أجل ، ولأن الحيتان كانت متعودة على حررتها يوم السبت ، لذلك جعلت تترائي لهم على الساحل ، كثيرة الورود ، قرية المأخذ ، سهلة الصيد ، فكانت تفوتهم متقلة من أيديهم يوم سبتهم وقطعهم الصيد فيه ، ثم « يوم لا يسبتون » وهو غير السبت من أيام الأسبوع « لا تأتيهم » .

وتراها تشاورت في أمرها فعاكست إتيانها في معاكسة السبت مع سائر الأيام ، وذلك الترتيب الرتيب هو منقطع النظير في السواحل ، فليكن بخارقة ربانية إذ « كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون » نبلوهم بسبتهم يوم السبت ، ويسبت حيتانهم في غير السبت « إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً » بوفرة وكثرة شارعة هارعة إلى الساحل وكأنها تسخر من هؤلاء المسبوتين ، فلم يتحمل فريق منهم هذه السخرية فأخذوا يصطادون جهاراً ، وراح آخرون يحتالون على السبت ، يقيمون الحواجز على الحيتان يخطون عليها يوم سبتهم حتى إذا جاء الأحد سارعوا إليها واصطادوها زاعمين أنهم لم يصطادوا في السبت إذ كانت في الماء وراء الحواجز غير مصيدة ، وقد يروى عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في ذلك المضمار قوله : « لا تتركبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل »^(١) فليست الحيلة لتغيير واقع المحظور حين

(١) الدر المنثور ٣ : ١٣٩ - أخرج ابن بطة عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ..

يكون المحظور واقعاً من الأمور .

وراح ثالث يصيدونها في يوم السبت ولا يأكلونها في نفس اليوم تأويل أن المحرم هو أكلها يوم السبت ، رغم أن الأكل لم يكن بنفسه من ضمن السبت : القطع ، إنما هو العمل صيداً أم صيداً للصيد أما شبه من أعمال غير ضرورية يومية .

وترى كيف كانت حالة الباقيين الذين لم يعدوا في السبت تجاه الذين عدوا فيه ؟ إنهم اقتسموا قسمين اثنين ، قسم نهوا عن سوء ، وآخرون سكتوا عنه ونهوا هؤلاء عن نهيههم عن سوء ، أم وثالث سكتوا عن النهيين ، نهى الناهيين ونهى العاصين .

﴿ وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون ﴾ (١٦٤) .

فهنا عظة للذين كانوا يعدون في السبت من أمة منهم « يهدون بالحق وبه يعدلون » ، وأمة أخرى لا تعظ العادين ، وإنما تعظ هؤلاء الواعظين : « لم تعظون ... » تنديداً بهم كأنهم أتوا بمنكر في نهيههم عن المنكر ، « قالوا معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون » وهما دعامتان في حقل الأمر والنهي للحافظين حدود الله وكما يقول الله : « فالملقىات ذكراً . عذراً أو نذراً » (٧٧ : ٦) .

فعلى الداعية مواصلة الدعوة بإلقاء الذكر ، فإن لم يؤثر فـ « عذراً » عند الله أنني بلغت ، ولكيلا يكون في تركه حجة للمتخلفين ، وإن أثر فـ « نذراً » فـ « إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم » (٣٦ : ١١) إنذاراً مؤثراً .

فالإنذار بكل بنوده هو واجب الداعية في كافة الحقول . سواء لهؤلاء الذين « سواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » (٣٦ : ١٠) فإنه « سواء عليهم » لا عليك « وإنما عليك البلاغ » (٣ : ٢٠) .

أم « من اتبع الذكر » : « إنما تنذر من اتبع الذكر . . . » . إذا فليس احتمال التأثير في باب الأمر والنهي مما يحتمله هذان الفرضان الإلهيان ، وإنما « عذراً » : « معذرة إلى ربكم » أو « نذراً » : « ولعلهم يتقون » وهنا « ربكم » في موقف التنديد بهؤلاء الذين تركوا واجب التربية بذلك النهي وإنحازوا إلى النهي عن ذلك النهي .

ثم من عظيم الفائدة فيمن تعلم أنه لا يتأثر بالفعل ، أنه لعله يتأثر بتكرار العظة وتواترها ، أم - ولأقل تقدير - تكون العظة حجة عليه كيلا يقول الذي لا يتأثر : إن وعظت تأثرت ، أو إن كررت لاتعظت ، فتواتر العظة البالغة - إذا - حجة بالغة على طول الخط ، وقد تؤثر في قوم لئد : « لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لئداً » (١٩ : ٩٧) - « لتنذر قوماً ما أنذر آبائهم فهم غافلون » (٣٦ : ٦) - « لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون » (٣٢ : ٣) فالنهي فرض رباني نؤديه على أية حال لنبلغ إلى ربنا عذرنا بما أديننا من واجبنا ، ثم لعل النصيح يؤثر في تلك القلوب العاصية القاسية الجاسية فيثير فيها جراس التقوى بعد مراس الطغوى .

ذلك ، فكل من « معذرة إلى ربكم » و « لعلهم يتقون » موجب بنفسه واجب الأمر والنهي على أية حال ، وإشترط احتمال التأثير في فرض الأمر والنهي لا يعدو الخيال مهما أفتى به جموع من هؤلاء الذين لا تهمهم النصوص القرآنية ، ماشين وراء الشهرة والإجماعات مهما خالفت نصوص الكتاب ! ، ولا يفلت عن واجب الأمر والنهي إلا في ظروف الحفاظ على الأهم القاطع الناصح ، وما سواها على سواء في فرضهما ، سواء أيقن بالتأثير ، أم ظن أو شك أو احتمل أو لم يحتمل ، فإن الواقع أوسع من احتماله ، وعلى فرض العلم بالواقع فهما حجة على الخاطئين لكيلا يقولوا علنا نتأثر بمرور العظة البالغة .

والقول : إن الجمع بين الأمرين هو الذي يفرض النهي ، دون كل واحد منهما ، مردود بأن « لعلهم يتقون » - إذا - كاف ، فإن النهي عنده عذر كاف ، فليكن كل منهما مستقلاً في فرض النهي ، والأصل العام هو

« معذرة إلى ربكم » فيما لا يؤثر أو نعلم ألا تأثير ، إذ لا نحيط علماً بواقع الأمر . ثم « لعلهم يتقون » حين نحتمل التأثير أم أثر مهما نعلم ألا تأثير . ومما يبين استقلال كل واحد من الأمرين « عذراً أو نذراً » فـ « عذراً » هو « معذرة إلى ربكم » و « نذراً » هو « لعلهم يتقون » .

ومما يبين أن ظاهر الحال ما كان يشير إلى احتمال التأثير قول هؤلاء لهم : « لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً » فذلك التعبير القاطع يدل على أنه لم يكن هناك دور حاضر لاحتمال التأثير .

فإجابة عن حال عدم الاحتمال « معذرة إلى ربكم » وأخرى مشيرة إلى واقع الحال « ولعلهم يتقون » فلا يظنون ، فلا دور هنا لترجي التقى إلا فيما وراء الاحتمال الحاضر ، رعاية الواقع الذي هو أوسع من ظاهر الحال .

ومن عظيم فرض النهي عن السوء فيما لا يحتمل التأثير أن الله لم ينج من عذابه البئس إلا الذين ينهون عن السوء ، حيث شمل هؤلاء الذين لم ينهوا عن السوء هناك بل ونهوا الناهين عن السوء كأنهم أتوا بسوء . وهكذا الساكتين عن كلا النهين حيث يختص الإنجاء بالذين ينهون عن السوء :

﴿ فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس بما كانوا يفسقون ﴾ (١٦٥) .

فلما لم يجد النصيح ولم تنفع العظة وسدر السادرون في غيهم حقت كلمة العذاب عليهم وتحققت نذره ، فإذا الذين كانوا ينهون عن السوء في نجوة من السوء ثم الآخرون أخذهم عذاب بئس بما كانوا يفسقون ، إقترافاً للفسق الأصيل ، أم تركاً للنهي عنه ، فضلاً عن نهى الناهين عن السوء « لم تعظون » ؟ .

ذلك ، ومما يلحق له ذلك العذاب البئس أن الجهل بذلك الحكم غير معذور لأنه جهل مقصر من هؤلاء الذين عاشوا رسالة الله المذكرة إياهم بواجب الأمر والنهي وحدودهما ، أم أن العذاب موجه إلى الذين ظلموا على جهلهم جهالة بواجب النهي فلم ينهوا ، وهذا أولى وأحرى .

« فلما نسوا » الذين عدوا في السبت « ما ذكروا به » من عظة الواعظين ، كما « لما نسوا » التاركون للنهي عن سوء ، الناهين عن ذلك النهي وسواهم « ما ذكروا به » من « معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون » - « أنجينا الذين ينهون عن سوء » سواء الأولين ، أم التاركين للنهي المتعظين بالعظة فاصبحوا معهم من الناهين « وأخذ الذين ظلموا » وهم كلا العادين في السبت ، والتاركين للنهي عنه نسياناً معمداً لتلك العظة « بعذاب بئس بما كانوا يفسقون » .

فيا لذكرى الرب من حامية حائلة على الإنسان النسيان ، ولو أننا ذكرنا وعلمنا واقع حالاتنا المزرية المخجلة لما رفعنا رؤوسنا إحتجالاً ، وكما يقول إمام الذاكرين للغافلين : « ولو تعلمون ما أعلم مما طوي عنكم غيبه إذا لخرجتم إلى الصُّعَدَات تَبْكُونَ على أعمالكم ، وتلتذمون على أنفسكم ، ولتركتكم أموالكم لا حارس لها ولا خالِفَ عليها ، ولَهَمَّت كل امرئٍ منهم نفسه لا يلتفت إلى غيرها ، ولكنكم نسيتم ما ذُكرتم ، وأمتتم ما حذرتم ، فتاه عنكم رأيكم ، وتشتت عليكم أمركم .. » (من الخطبة ١١٥) .

ولأن العذاب البئس دركات حسب دركات السوء والفسق ، فقد اختص العاتون عما نهوا عنه بآتعهه :

﴿ فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ (١٦٦) .

فقد نجت فرقه وهي الناهية عن سوء أولاً أو أخيراً ، ثم الذين ظلموا عاتين أم تاركين لنهيهم عن سوء أخذهم عذاب بئس ، وقد أجمل عن عذاب الآخرين تصريحاً بعذاب الأولين أن : « قلنا لهم كونوا قردة خاسئين » .

أجل فقد « افترق القوم ثلاث فرق : فرقة نهت واعتزلت ، وفرقة أقامت ولم تقارف الذنوب ، وفرقة قارفت الذنوب ، فلم ينجو من العذاب إلا من نهى .. » (١) .

(١) نور الثقلين ٢ : ٩٠ عن تفسير العياشي عن طلحة بن زيد عن جعفر بن محمد عن أبيه

فهم إذا « صنف أثمرروا وأمروا فنجوا ، وصنف أثمرروا ولم يأمروا فمسخوا ذراً وصنف لم يأثمروا ولم يأمروا فهلكوا » (١) وهؤلاء الآخرون هم الذين « قلنا لهم كونوا قردة خاسئين » وهذا جزاء وفاق أنكم كما جعلتم أنفسكم قرداً خاسئة فلتكن أبدانكم كأنفسكم ، مسخاً عن صورة الإنسانية كما مسختم عن سيرتها ، فقد انتكسوا إلى عالم الحيوان حين تخلوا عن خصائص الإنسان ، ف قيل لهم قيلة التكوين : كونوا حيث صنعتم بأنفسكم ، كذلك بأبدانكم إنتكاساً إلى هوان الحيوان .

كما وأن الساكتين مسخوا ذراً إذ كان موقفهم موقف الذر حيث كانوا سكوتاً عن النهي في ذلك المسرح القاحل المتعاضل .

وهنا « خاسئين » وصفاً لـ « قردة » تميزهم عن سائر القردة ، حيث القردة الحيوان ليست خاسئة بعيدة عن رحمة الله لأنها خلقت قردة فما ذنبها إذا حتى تخساً ؟ .

ولكن هؤلاء الخاسئين إنما خسثوا بكونهم خاطئين فتحولهم إلى قردة - إذا - عذاب لهم في الأولى فلتكن أرواحهم كما هي ، والتحول يخص أبدانهم حتى يدركوا عذاب ذلك التحول ، فهم ليس لهم نسل ولا بقاء ، ولا يجانسون سائر القردة في سائر الميزات حتى ينسلوا ، وكما يروى عن رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) « إن الله لم يمسخ شيئاً فجعل له نسلًا وعقباً » (٢) ذلك وقد دلت على ما تنبهناه روايات مضت ومنها ما لم ننقلها .

(عليهما السلام) في الآية قال : أفترق ... قال قلت لأبي جعفر (عليه السلام) : ما صنع بالذين أقاموا ولم يقارفوا الذنوب ؟ قال : بلغني أنهم صاروا ذراً .

(١) المصدر عن روضة الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : أقول : الذين أثمروا وأمروا هم الذي لم يعدوا ولم يكسثوا فنجوا ، والذين أثمروا ولم يأمروا هم الذين سكتوا ، والآخرون الذين لم يأثمروا ولم يأمروا هم الذين عدوا .

(٢) المصدر عن مجمع البيان وردت الرواية عن ابن مسعود قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : وفي الفقيه قد روي أن المسوخ لم تبق أكثر من ثلاثة أيام وأن هذه مثل لها فنهى الله عز وجل عن أكلها .

ذلك خزي لهم في الحياة كأشخاص خصوص ، ومن ثم خزي لهم يشملهم ما هم متخلفون عن شرعة الله :

﴿ وإذ تأذن ربك ليعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وانه لغفور رحيم ﴾ (١٦٧) .

والتأذن هو التكلف بأذان : النداء الإعلان الإعلام ، وهو مأول لساحة الربوبية بكثرة النداء ومبالغته ، وهنا « ربك » لمحة إلى مدى ذلك التأذن للمحفاظ على هذه الشرعة الربانية الخاصة التي تعاديبها الصهيونية العالمية ، وتربص بها كل دوائر سوء .

كلام حول الحيلة - الشرعية ! .

الحيلة - كيفما كانت - لا دور لها في أحكام الله ، وكيف يحتال الله في حكمه أم يسمح بحيلة تحول بين حكمه وتحقيقه ، وما هي الحاجة إلى الحيلة في أحكام الله ، والله هو الحاكم يحكم كيف يشاء ؟ !

فحين يقول « وحرم الربا » لا يعني إلّا واقع الأكل بالباطل لواقع الاختلال المعيشي فيه ، حيث الربا هو الزيادة عن المستحق فهو باطل عاطل ، فهل الحيل الربوية تحول الأكل بالباطل إلى الحق ، بحيلة لفظية أو عملية ، والمحرم هو واقع الربا دون لفظته وصيغته .

وترى هنا فارقاً في واقع الأكل بالباطل بين من يربي ماله بقدر قدر زمن القرض ، بألف ، وبين من يبيع عشرة آلاف مع ستم الخياط بإحدى عشر ألفاً بنفس القدر ؟ وليس يباع عشرة آلاف بإحدى عشر ألفاً ، ولا سم الخياط بألف ! إلا سفاهة وحمافة هي تبطل المعاملة قبل كونها أكلاً بالباطل .

ولو استحلت الحيلة الشرعية في هذه الأمور التي هي محظورة بواقعها ، لحلت كل المحرمات الواقعية بهذه الحيل ، وأصبح شارع الشرعة بواقعها ، هادماً لها بالحيل التي تحول دون تحقيق الحق فيها ، ولأمكن تحليل كل ألوان المعاملات الربوية بيعاً وقرضاً وما أشبه .

وهنا الروايات المتعارضة في حيل الربا معروضة على « وحرّم الربا » حيث إن واقع الربا لا يزول بهذه المحاولات المزاولات^(١) .

ذلك ، وهنا يجدر ذكرى إمام المتقين علي (عليه السلام) حيث

(١) للإطلاع الواسع على أحكام الربا ومواضعها ومواضعها راجع هنا الفرقان (٤ : ٣٠٧ - ٣٦٠) .

ومما يمنع عن أمثال هذه الحيل ما في النهج عن علي (عليه السلام) أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال له : يا عليّ إن القوم سيفتنون بأموالهم .. ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية فيستحلوا الخمر بالنبيذ والسحت بالهدية والربا بالبيع .

وفي الدر المنثور ١ : ٣٦٧ - أخرج أبو داود وابن ماجه والبيهقي في سننه عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « لئتين على الناس زمان لا يبقى أحد إلا أكل الربا فمن لم يأكله أصابه من غباره » .

وعن الإمام الرضا (عليه السلام) في حكمة حرمة الربا : « .. لأن الإنسان إذا اشتري الدرهم بالدرهمين كان ثمن الدرهم درهماً وثمن الآخر باطلاً ، فبيع الربا وشراءه وكس على كل حال على المشتري وعلى البائع » (الوسائل ١٢ : ٤٢٤) .

وتقابل هذه النصوص ، روايات أخرى تحاول تحليل الحيل في حقل الربا ، كما في التهذيب ٢ : ١٤٦ صحيح البجلي قال : سأله عن الصرف فقلت له : أشتري ألف درهم وديناراً بألفي درهم ؟ فقال : لا بأس بذلك ، إن أبي كان أجراً أهل المدينة مني وكان يقول هذا فيقولون : إنما هذا الفرار ، لو جاء رجل بدينار لم يعط ألف درهم ولو جاء بألف درهم لم يعط ألف دينار ، وكان يقول : « نعم الشيء الفرار من المحرام إلى الحلال » .

وفي المصدر صحيح آخر عنه قال : كان محمد بن المنكدر يقول لأبي جعفر (عليهما السلام) يا أبا جعفر رحمك الله والله إنا لنعلم أنك لو أخذت ديناراً والصرف ثمانية عشر فزرت المدينة على أن تجد من يعطيك عشرين ما وجدته وما هذا الفرار ؟ وكان أبي يقول : « صدقت والله لكنه فرار من الباطل إلى الحق » .

وفي ثالث عنه : « لا بأس بألف درهم ودرهم بألف درهم ودينارين ، إذا دخل فيها ديناران أو أقل أو أكثر فلا بأس » (التهذيب ٢ : ١٤٥) .

فرغم صحة أسناد هذه الثلاثة ، هي مضروبة عرض الحائط لأنها تحلل الأكل بالباطل بهذه الحيلة الغيلة ، وكلاهما محرمان بآيات تحرم الأكل بالباطل وتحرم الربا وتحرم الحيلة كآية « يعملون في البيت » .

يحفظ عن أحاديث تخالف القرآن يتبعونها ويخالفون كتاب الله بقوله :
« اعزم على كل من كان عنده كتاب إلا رجع فمجاهد ، وإنما هلك الناس
حيث اتبعوا أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربهم »^(١) .

كلام حول حدود الأمر والنهي :

كما أن نطاق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واسع بالنسبة
للمأمور والمنهي ، فلا يشترط حاضره التأثير ولا جوازه ، وإنما هما « عذراً
أو نذراً » .

كذلك الأمر والنهي لا يشترط فيهما الإلتزام بكل أمر والإنتهاء عن
كل نهى ، وإلا لم يحصل كفاح وكفاف في حق الأمر والنهي ، وإنما
الشرط هنا إلتزام الأمر بما يأمر به وإنتهاء النهي عما ينهى عنه ، فالتارك
للمأمور به والمقترف للمنهي عنه ، ولا سيما المتجاهر ، ليس له الأمر
والنهي كما تدل عليه آيات وروايات مسرودة في باب بصيرة مفصلة^(٢) .

فالأمر والنهي ما لم يحمل ضرراً هما أهم من تركهما على الأمر
والنهي ، أو من فعلهما على المأمور والمنهي ، هما مفروضان ، فما لم
يُحمل المأمور بأمره على تصليه في ترك الواجب ، أو يحمل المنهي بنهيه
على تصليه في ترك المحرم ، فهما واجبان على سائر شروطهما .

إذاً ، فقد يجب على تارك المعروف وفاعل المنكر خفية أن يأمر
وينهى ، ويحرم على الجاهر أن يأمر وينهى ، قضية الهدف الأسمى من
الأمر والنهي ، فكل مؤمن له - على أية حال - مسئوليتان اثنتان ، تبني شخصه
مؤمناً ، وتبني الآخرين ، بصورة مترتبة أو متوازية ، ما لم يضر في تبني
الآخرين بأصل الهدف .

(١) رجال الكشي ص ٢٢ عن جابر بن عبد الله عن عبد الله بن يسار سمعت علياً
(عليه السلام) يقول : .. وفيه عن سلمان الفارسي : « هربتم من القرآن إلى
الأحاديث ، وجدتم كتاباً دقيقاً حوسبتم فيه على النقيير والقطمير والفتيل وجة خردل فضاقت
بكم وهربتم إلى الأحاديث التي اتسعت عليكم ! » .

(٢) هي في تفسير آية البقرة « أئامرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم .. » .

ولأن الشريعة القرآنية عالمية أممية أبدية لصالح كل الأمم ، فليُذَرَّبْنَا عندما يُمسُّ من كرامتها من قبل الصهيونية العالمية بذلك البعث البعث البعث : « ليعثن عليهم إلى يوم القيامة » منذ بداية تاريخ الإفساد العالمي منهم « من يسومهم » إضطراراً دون قرار « سوء العذاب » المتواصل له « إن ربك سريع العقاب » وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة « وإنه لغفور رحيم » وأرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة .

لذلك نراهم طول تاريخهم المنحوس شذراً مذموراً ، متفرقين أيادي سبا دون أية دولة لهم خاصة ، اللهم إلا دولة العصابات حيث احتلت فلسطين والقدس بمساعدة كل سواعد الكفر والاستكبار شرقاً وغرباً ، وحتى القيادات العربية التي فسحت المجال لذلك التجوال والإعتداء ، أم وساعدتها على ذلك ، ولكنها ما ظلت آمنة مطمئنة من بأس مبعوثي الله من مؤمنين وكافرين ، فالبعثة الإيمانية عليهم هي الخاصة المبشرين بها لمرتبتها في آيات الأسرى : « فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً .. فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا » (١٧ : ٧)

ثم البعثة الإيمانية المستمرة من قبل الفدائيين المسلمين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي . ومن ثم البعثة الكافرة كالهتلرية وما أشبه ، التي دمرتهم ، فكما « إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً » (١٩ : ٨٣) « وقيضنا لهم قرناء فوينا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم » (٤١ : ٢٥) كذلك « ليعثن .. » قد تعم كلا البعثين حيث الشيطنة الإسرائيلية تعم في إفسادها كل ربوع العالمين مؤمنين وكافرين ، فلتستمر - إذا - تلك البعثة المختلطة عليهم إلى يوم القيامة .

فذلك التأذن بتواتر سوء العذاب منذ صدوره على ضوء ذلك البعث المستمر ، يختص بالصهيونية العالمية في فترات متلاحقة من الزمن إذ يبعث الله عليهم بين آونة وأخرى من يسومهم سوء العذاب ، وكلما انتعشوا وانتفشوا وطفوا في الأرض وبغوا أكثر ، جاءتهم الضربة كما هم ضاربون ،

وليست دولة العصابات وتغلّبها على أراضٍ وبلاد إسلامية إلا في فترات عارضة غير فارضة ، هي من قضايا تهاون المسلمين عن جهادهم وجهودهم المتواصلين .

ثم وهذه البعثة الربانية المنبثة بين بعثي الكفر والإيمان ، هي بين تكوينية وتشريعية ، وليست السيطرة الصهيونية في فترات كهذه التي طالت سنين ، إلا من وراء وجراء فترة المبعوثين المؤمنين توانيا عن تحقيق واجبهم الإيماني في الدفاع عن حوزة الإيمان . و « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (١٣ : ١١) .

ذلك ، فهم أولاء الأنكاد يعيشون سوء العذاب بصورتها : المستمرة ، والمرتين في إفساد العالمين .

ذلك ، وقد تبلغ بهم الحال العضال لحد « تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر » (١) .

﴿ وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ (١٦٨) .

هنا « أمماً » قد تعني إلى أمم مذهبية تحت قيادات روحية ، أمماً تحت قيادات زمنية أنهم هم مقطعون أمماً بين هذين وكما نجدهم أمماً حتى الآن رغم تأسيس دولة العصابات ، فمنهم من يرفضها فلا ينحو نحوها ، ومنهم من يرفضها فينضم إليها ، ومنهم عوان بين ذلك ، فالصالحون منهم بين من يؤمن ومن هو قاصر فلا يؤمن ، ومنهم دون ذلك بمختلف دركات الدون ، وأنحسها الصهيونية التي قد لا تحسب بحساب الأمة الدينية حيث تغلبت عليها السياسة الإبليسية فنسيت أنها أمة دينية كتابية .

ذلك « وبلوناهم بالحسنات » المرغوبة لديهم في الحياة « والسيئات » غير المرغوبة « لعلهم يرجعون » ويهودون إلى الله بعدما هادوا عن الله ، فمن الناس من يرجعه إلى الله الحسنة ، ومنهم من ترجعه السيئة ، ومنهم

(١) الإطلاع الواسع على تفاصيل آيات الأسرى راجع ج ١٥ : ٣٧ - ٧٠ من هذا الفرقان .

من لا يرجع إلى الله بحسنة ولا سيئة ، والمتابعة بالإبتلاء رحمة ربانية وقاية من النسيان المؤدي إلى الإغترار والبوار والطغيان .

ذلك ، وقد يصدق المروي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن « الناس لنا فيه تبع اليهود غداً والنصارى بعد غد » فقد يُعنى من الغد آخر الزمن قبل ظهور المهدي (عج) و« بعد الغد » زمنه (عج) راجع تفسير آيات الأسرى .

وكل هذه البلايا المتواصلة ضدهم لأنهم عارٌ وبوار على الإنسانية كلها ، لا فقط على المسلمين ، أم والمسيحيين فحسب ، حيث يرونهم أنفسهم فقط شعب الله المختار وأبناء الله الإخصاء ، وهم الإنسان فقط دون سائر الناس ، وإنما خلقوا بصورة الإنسان ليصلحوا خداماً لشعب الله .

لذلك فهم يظلمون النسل الإنساني غير الإسرائيلي ويفسدونهم كما يستطيعون ، ومن بالغ تزمّتهم وتمسكهم بقوميتهم أن ليست لهم أية دعاية لجذب سائر الناس إلى شريعتهم إختصاصاً لهم بذلك الإختيار ، واجتثاً له عمن سواهم من غير الشعب المختار !

إذا فليست لهم إيجابيات الدعوة الإسرائيلية لغيرهم ، بل هم سلبيات تنحو منحى إفساد كل الشعوب عن بكرتها ، عن عقيدتها وفكرتها وإقتصادياتها وسياساتها وعن كل الميزات لإنسانيتها ، ولكي تصدق تحيّلهم العمياء والحمقاء أنهم إنما خلقوا بصورة الناس ، وليسوا من الناس ! .

﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾ (١٦٩) .

« فخلف من بعدهم » أولاء المتخلفين الأنكاد البعاد « خلف ورثوا

الكتاب « وهم علماءهم العملاء حيث « يأخذون عَرَضَ هذا الأدنى » في متجر الكتاب ، فيشترون به ثمناً قليلاً بكلِّ غِرَّةٍ حيث « ويقولون سيفقر لنا » ويكأن الله ضمن لهم مغفرة متواصلة متأصلة دونما شرط ، فأصبحوا إباحيين رغم أنهم « ورثوا الكتاب » ثم « إن يأتهم عَرَضٌ مثله يأخذوه » حيث الأخذ بهكذا ونخز أصبح من جبلتهم ، فهم تجار فجار في حقل الكتاب وهم دارسوه ، يقولون على الله غير الحق بغية أخذ هذا الأدنى ، فليست دراسة في الكتاب وحدها تكفل تطبيقه حيث الإيمان هو الركن الركين المكين ، فقد لا يدرس الكتاب لأنه أُمِّي وهو مؤمن ، ولكنه يطبقه تقليداً صالحاً من الربانيين الدارسين له ، وقد لا يدرس ولا هو مؤمن ، فهو فاقد الجناحين ، ولكن الذي يدرسه ولا يؤمن هو أخطر في هذا البين ، فكم من دارسين الكتاب وهم عنه بعاد ، إذ يدرسون ليتأولوه ويحتالوا فيه ويحرفوا الكلم عن مواضعه ، ناسين حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم .

أجل ، يدرسونه ليجدوا المخارج لفتاواهم الحارفة الهارفة الخارفة ، ويريدون ليزينوا بالكتاب هذه الفتاوى النكاوى تدجيلاً على السذج البسطاء ، فهم أخطر آفة على الدين والدينين ، فإن غير الدارس للكتاب لا يستطيع أن يحرف الكتاب أو يأوله كما يهواه ، فذلك الدارس للكتاب هو كارث على الكتاب حيث لا يتقي الله ! .

ومخترعوا المذاهب المختلفة المتخلفة عن شرائع الله هم كلهم ممن درسوا في الكتاب فحولوه إلى ما يهون ، وكأن الكتاب خادماً لهم غير محذوم ، فلا تجد عندهم سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته ، ولا أغلى منه إذا حرف عن جهات أشراعه .

ذلك ، ولأن كل ما دون الكتاب هو عَرَضُ هذا الأدنى ، إذاً فالأخذ بغير الكتاب برفض الكتاب ، إنه من عَرَضُ هذا الأدنى ، بل وأدنى من كل أدنى .

فرفض الكتاب بأخذ مال أو أي منال رفض ، ورفضه بأخذ كتاب آخر تقديماً له عليه رفض ، وأين رفض من رفض ؟ ! .

فيا للحوزات الرافضة للقرآن من بأس وبؤس ، تفسح كافة المجالات لأقلام سائمة تمس من كرامته بسند آياته نفسه كما تهوى .

هؤلاء ورثوا الكتاب بظلم إذ لم يحرسوا الكتاب ، فحرسه الكتاب بحق هم - فقط - ورثة الكتاب ، كما « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير » (٣٥ : ٣٢) .

فهم أولاء الأكارم ورثة الكتاب بالحق المطلق وكما يروى عن رسول الكتاب (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله : « علي وارثي »^(١) كما هو « وارث علم النبيين »^(٢) و « مستودع موارث الأنبياء »^(٣) و « أنت وصيي ووارثي »^(٤) .

« أفلا تعقلون ؟ »

أفلا تستعملون عقولكم التي هباكم الله إياها لتعقلوا الحق فتفرضوه ، وتعقلوا الباطل فترفضوه ؟ « عجبت لمن يتفكر في ماكوله كيف لا يتفكر في معقوله ، فيجنب بطنه ما يؤذيه ، ويسودع صدره ما يرويه » « ألا ومثل العقل في القلب كمثل السراج في وسط البيت »^(٥) وقد « خلق الله

(١) ملحقات احقاق الحق ٤ : ٦٩ ، ٧١ - ٧٥ ، ٧٩ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٦٠ ، ١٧٢ ، ١٧٨ ، ٢٢٧ ، ٢٧٧ ، ٣٥٧ و ٥ : ٣٥ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٥١ ، ٢٧٧ ، ٣٥٧ و ١٥ : ١٩١ - ١٩٥ و ٧ : ٤١٤ و ٢٠ : ٢٢٠ ، ٤٤٥ - ٤٤٦ .

(٢) المصدر ٤ : ١٢٢ .

(٣) المصدر ٤ : ١٧٠ و ٢٠ : ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٤٠٧ .

(٤) المصدر ٤ : ٨٢ ، ١٦٠ و ٢٠ : ٢٣٠ .

(٥) العوالم (٢ - ٣) عن العلل عن أمير المؤمنين عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « سئل مما خلق الله عز وجل العقل ؟ قال : خلقه ملك له رؤوس بعد الخلائق ، من خلق ومن خلق إلى يوم القيامة ، ولكل رأس وجه ، ولكل آدمي رأس من رؤوس العقل ، واسم ذلك الإنسان على وجه ذلك الرأس مكتوب ، وعلى كل وجه ستر ملقى لا يكشف ذلك الستر من ذلك الوجه حتى يولد هذا المولد ، ويبلغ حد الرجال أو حد »

تعالى العقل من أربعة أشياء : من العلم والقدرة والنور والمشيئة بالأمر ، فجعله قائماً بالعلم ، دائماً في الملكوت » وللعقل مراتب ودرجات قضية الحكمة الربانية (١)

« ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق » وهم ورثة الكتاب ودرسته حيث « ورثوا الكتاب .. ودرسوا ما فيه » ؟ تفضيلاً للدنيا على الآخرة « والدار الآخرة خير للذين يتقون » الدنيا المناخرة لها ، المنافية إياها « أفلا تعقلون » ؟ .

ذلك « ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه ، ولن تمسكوا به حتى تعرفوا الذي نبذه ، فالتمسوا ذلك من عند أهله فإنهم عيش العلم وموت الجهل ، هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم ، وصمتهم عن منطقهم ، وظاهرهم عن باطنهم ، لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه ، فهو بينهم شاهد صادق وصامت ناطق » (٢) .

وهنا « سيفغر لنا » طليقة دون تقيد بتوبة ، وتحتيماً دون قرن برجاء ، إنه دليل أنهم كانوا يحتمون على الله الغفران رغم مواصلة العصيان ، وذلك من أنحس العصيان ! فما دأبهم ؟ وما دواءهم ؟ وما بالهم يقولون « سيفغر لنا » متهافتين على عرض هذا الأدنى ، وكأنه هو الذي يحتم الغفر على الله ، فهم أولاء يبررون لأنفسهم ذلك بتقول تغول على الله أنه « سيفغر

النساء ، فإذا بلغ كشف ذلك السر ، فيقع في قلب هذا الإنسان نور ، فيفهم الفريضة والسنة ، والجيد والردى ، ألا ... » .

(١) المصدر ٤٢ عن العلل عن إسحاق بن خالد قال : قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) : الزجل آتية أكلمه ببعض كلامي فيعرف كله ، ومنهم من آتية فأكلمه بالكلام فيستوفي كلامي كله ثم يرده عليّ كما كلمته ، ومنهم من آتية فأكلمه فيقول : أعد عليّ ؟ فقال : يا إسحاق ! أرما تدري لم هذا ؟ قلت : لا ، قال : الذي تكلمه ببعض كلامك فيعرف كله فذاك من عجنت نطقه بعقله ، وأما الذي تكلمه فيستوفي كلامك ثم يجيبك على كلامك فذاك الذي ركب عقله في بطن أمه ، وأما الذي تكلمه بالكلام فيقول : أعد عليّ فذاك الذي ركب عقله فيه بعد ما كبر فهو يقول : أعد عليّ .

(٢) المصدر عن الاختصاص للمفيد عن الصادق (عليه السلام) .

لنا « وهم بدراستهم للكتاب يعلمون أن الله لا يغفر إلا للتائب حقاً توبة نصوحاً ، دون هؤلاء المصيرين الذين « إن يأتهم عرض مثله يأخذوه » إصراراً وتكراراً للذنب ! .

ذلك وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب في مجالات عدة منها الآتية في « إذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » (١٧١) ولكنهم رغم أنهم ورثوا الكتاب ودرسوا ما فيه أخذوا يأخذون بديله عرض هذا الأدنى ، وكلما يؤخذ ثمناً عن الكتاب ، هو عرض أدنى من كل دان لأنه فان ، والآخر خير وأبقى للذين آمنوا وكانوا يتقون « أفلا تعقلون » ؟ .

وللعقل - ككل - جنود بمشتقاته هي كلها عقال للنفس بجنودها ، وكما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : « إن العقل عقال من الجهل ، والنفس مثل أخبث الدواب فإن لم تعقل جارت ، فالعقل عقال من الجهل ، وإن الله خلق العقل فقال له : أقبل فأقبل ، وقال له : أدبر فأدبر ، فقال الله تبارك وتعالى : وعزني وجلالي ما خلقت خلقاً أعظم منك ، ولا أطوع منك ، بك أبدأ وبك أعيد وعليك العقاب ، فتشعب من العقل^١ الحلم ، ومن الحلم^٢ العلم ، ومن العلم^٣ الرشد ، ومن الرشد^٤ العفاف ، ومن العفاف^٥ الصيانة ، ومن الصيانة^٦ الحياء ، ومن الحياء^٧ الرزانة ، ومن الرزانة^٨ المداومة على الخير ، ومن المداومة على الخير^٩ كراهية الشر ، ومن كراهية الشر^{١٠} طاعة الناصح - فهذه عشرة أوصاف من أنواع الخير ، ولكل واحد من هذه العشرة الأصناف عشرة أنواع -

فأما الحلم فمنه^١ ركوب الجميل ،^٢ وصحبة الأبرار ،^٣ ورفع من الضعة ، ورفع من الخساسة ، وتشهي الخير ، ويقرب صاحبه من معالي الدرجات ، والعفو والمهل ، والمعروف والصمت ، فهذا ما يتشعب للعقل بحلمه -

وأما العلم فيتشعب منه الغنى وإن كان فقيراً ، والجود وإن كان
بخيلاً ، والمهابة وإن كان هيناً ، والسلامة وإن كان سقيماً ، والقرب وإن
كان قصياً ، والحياء وإن كان صلفاً ، والرفقة وإن كان ضيعاً ، والشرف
وإن كان رذلاً ، والحكمة ، والحظوة ، فهذا ما يتشعب للعاقل لعلمه
فطوبى لمن عقل وعلم -

وأما الرشد فيتشعب منه السداد ، والهدى ، والبر ، والتقوى ،
والمناة ، والقصد ، والإقتصاد ، والثواب ، والكرم ، والمعرفة بدين الله ،
فهذا ما أصاب العاقل بالرشد ، فطوبى لمن أقام به على منهاج الطريق -

وأما العفاف فيتشعب منه : الرضا ، والإستطانة ، والحظ ،
والراحة ، والتفقد ، والخشوع ، والتذكر ، والتفكر ، والجود ، والسخاء ،
فهذا ما يتشعب للعاقل بعفافة رضي بالله بقسمه ، وأما الصيانة فيتشعب
منها : الصلاح ، والتواضع ، والإنابة ، والفهم ، والأدب ، والإحسان ،
والتحب ، والخير ، واجتناب الشر ، فهذا ما أصاب العاقل بالصيانة ،
فطوبى لمن أكرمه مولاه بالصيانة -

وأما الحياء فيتشعب منه : اللين ، والرافة ، والمراقبة لله في السر
والعلانية ، والسلامة ، واجتناب الشر ، والبشاشة ، والسماحة ، والظفر ،
وحسن الثناء على المرء في الناس ، فهذا ما أصاب العاقل بالحياء ،
فطوبى لمن قبل نصيحة الله وخاف فضيحته -

وأما الرزانة فيتشعب منها : اللطف ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ،
وصدق اللسان ، وتحصين الفرج ، واستصلاح المال ، والإستعداد للعدو ،
والنهي عن المنكر ، وترك السفه ، فهذا ما أصاب العاقل بالرزانة فطوبى
لمن توقر ولمن لم تكن له خفة ولا جاهلية وعفا وصفح .

وأما المداومة على الخير فيتشعب منه : ترك الفواحش ، والبعد من
الغيش ، والتحرُّج ، واليقين ، وحب النجاة ، وطاعة الرحمن ، وتعظيم
البرهان ، واجتناب الشيطان ، والإجابة للعدل ، وقول الحق ، فهذا ما
أصاب العاقل بمداومة الخير ، فطوبى لمن ذكر أمامه ، وذكر قيامه ، واعتبر
بالفناء -

وأما كراهية الشر فيتشعب منه : الوقار ، والصبر ، والنصر ،
والإستقامة على المنهاج ، والمداومة على الرشاد ، والإيمان بالله ،
والتوقر ، والإخلاص ، وترك ما لا يعنيه ، والمحافظة على ما ينفعه ، فهذا
ما أصاب العاقل بالكراهية للشر ، فطوبى لمن أقام الحق لله وتمسك بعري
سبيل الله -

وأما طاعة الناصح فيتشعب منها : الزيادة في العقل ، وكمال اللب ،
ومهارة العواقب ، والنجاة من اللوم ، والقبول ، والمودة ، والإسراج ،
والإنصاف ، والتقدم في الأمور ، والقوة على طاعة الله ، فطوبى لمن أسلم
من مصارع الهوى ، فهذه الخصال كلها تشعب من العقل -

قال شمعون : فأخبرني عن أعلام الجاهل فقال رسول الله (صلى
الله عليه وآله وسلم) : إن صحبته عنك ، وإن اعتزلته شتمك ، وإن أعطاك
من عليك ، وإن أعطيته كفرك ، وإن أسررت إليه خائنتك ، وإن أسر إليك
إتهمك ، وإن استغنى بطر ، وكان فضاً غليظاً ، وإن إفتقر جحد نعمة الله
ولم يتحرج ، وإن فرح أسرف وطفى ، وإن حزن آيس ، وإن ضحك
فحق ، وإن بكى خسر ، يقع في الأسرار ، ولا يحب الله ، ولا يراقبه ، ولا
يستحي من الله ، ولا يذكره ، إن أرضيته مدحك وقال فيك من الحسن ما
ليس فيك ، وإن سخط عليك ذهبت مدحته ووقع فيك من السوء ما ليس
فيك ، فهذا مجرى الجاهل (١) .

وعن الصادق (عليه السلام) : العاقل من كان ذللاً عند إجابة
الحق ، منصفاً بقوله ، جموحاً عند الباطل ، خصيماً بقوله ، يترك دنياه ولا
يترك دينه ، ودليل العاقل شيثان : صدق القول ، وصواب الفعل ، والعاقل

(١) المصدر (٥٤) تحف العقول قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في جواب شمعون بن
لاوي ابن يهودا من حوارى عيسى (عليه السلام) حيث قال : أخبرني عن العقل ما هو ؟
وكيف هو ؟ وما يتشعب منه وما لا يتشعب ؟ وصف لي طوائفه كلها فقال (صلى الله عليه
وآله وسلم) : إن العقل عقال ...

لا يتحدث بما ينكره العقل ، ولا يتعرض للتهمة ، ولا يدع مداراة من ابتلي به ، ويكون العلم دليلاً في أعماله ، والحلم رفيقاً في أحواله ، والمعرفة تعينه في مذهب ، والهوى عدو العقل ، ومخالف الحق ، وقرين الباطل ، وقوة الهوى من الشهوة ، وأصل علامات الشهوة أكل الحرام ، والغفلة عن الفرائض ، والإستهانة بالسنة ، والخوض في الملامح (١) .

وعنه (عليه السلام) : « الجهل صورة ركبت في بني آدم ، إقبالها ظلمة ، وإدبارها نور ، والعبد متقلب معها كتقلب الظل مع الشمس ، ألا ترى إلى الإنسان تارة تجده جاهلاً بخصال نفسه ، حامداً لها ، عارفاً بعييها ، في غيره ساعطاً ، وتارة تجده عالماً بطباعه ، ساعطاً لها ، حامداً لها في غيره ، فهو متقلب بين العصمة والخذلان ، فإن قابَلَتْه العصمة أصاب ، وإن قابَلَتْه الخذلان أخطأ ، ومفتاح الجهل الرضا ، والإعتقاد به ، ومفتاح العلم الاستبدال مع إصابة موافقة التوفيق ، وأدنى صفة الجاهل دعواه العلم بلا استحقاق ، وأوسطه جهله بالجهل ، وأقصاه جحوده العلم ، وليس شيء إثباته حقيقة نفيه إلا الجهل والدنيا والحرص ، فالكل منهم كواحد ، والواحد منهم كالكل (٢) »

ومن وصية موسى بن جعفر (عليهما السلام) لهشام بن الحكم ملتقطات منها تالية :

« يا هشام من سلط ثلاثاً على ثلاث كأنما أعان هواه على هدم عقله : من أظلم نور فكره بطول أمله ، ومحا طرائف حكمته بفضول كلامه ، واطفأ نور عبرته بشهوات نفسه ، فكأنما أعان هواه على هدم عقله ، ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه -

يا هشام ! كيف يزكو عند الله عملك وأنت قد شغلت عقلك عن أمر ربك ، وأطعت هواك على غلبة عقلك -

(١) المصدر (٧٠) عن مصباح الشريعة .

(٢) المصدر (٧٢) عن مصباح الشريعة .

يا هشام ! الصبر على الوحدة علامة قوة العقل ، فمن عقل عن الله تبارك وتعالى إعتزل أهل الدنيا والراغبين فيها ، ورغب فيما عند ربه ، وكان الله أنسه في الوحشة ، وصاحبه في الوحدة، وغناه في العيلة ، ومعزّة في غير عشيرة « (١) .

وهناك قصار من الكلمات حول العقل هي طوال في معناه ومغزاه ك : « العقل مركب العلم » « الإنسان بعقله » « الإنسان عقل وصورة ، فمن أخطأه العقل ولزمته الصورة لم يكن كاملاً ، وكان بمنزلة من لا روح فيه » « العقل رسول الحق » « العقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة القلوب والقلوب أئمة الحواس ، والحواس أئمة الأعضاء » « العقل أقوى أساس » « العقل حسام قاطع » « ثمرة العقل لزوم الحق » « ثمرة العقل الإستقامة » « العقل حيث كان ألف مألوف » (٢) .



مركز تحقيق كتاب توحيد علوم إسلامي

(١) المصدر (٨٤ - ١٠٦) .

(٢) والعناوين على الترتيب غرر الحكم ٢٠ - ١٤ - البحار ٧/٧٨ عن كتاب مطالب المؤول - غرر الحكم ١٥ - مستدرک النهج - الغرر ٣١ - الغرر ٣١ - الغرر ٢٠ - الغرر ١٥٨ - الغرر ١٥٨ - الغرر ٢٧ .

الفهرس

الموضوع _____ الصفحة

كيف ينهى الرسول عن الحرج بإنزال الكتاب عليه ؟	١٠.....
واجب إتباع القرآن ؟	١٠..... ٢٤
موازن الأعمال ؟	٣٦ - ٣٩.....
السجود لآدم وإبليس ؟ إنظاره إلى	٤٢ - ٥٠.....
هندسة الإتيانات الإبلسية ؟ وسوس لها الشيطان .. ؟	٥١ - ٦٤.....
الدراء المسافر الباري بالحياة الأرضية بين .. وتكاليفها ؟	٦٤ - ٦٩.....
الملابس الإنسانية ؟	٦٩ - ٧٣.....
هندسة الزينة والأكل والشرب ؟	٨١ - ٩٦.....
ضابطة كافة المحرمات في آية	٩٦ - ١١٠.....
عديد الأجال ؟	١١١ - ١١٨.....
حتى يلج الحمل في سم الخياط ؟	١٢٧ - ١٢٩.....
مؤذن الأعراف ؟	١٣٦ - ١٣٩.....
رجال الأعراف ؟	١٤١ - ١٥٥.....
« ألا له الخلق والأمر » تعني أمر الخلق دون عالم المجردات !	
كلام حول العرش	١٦٨ - ١٧٨.....
كيف « أولتعودن في ملتنا » في شعيب ؟	٢١٤ - ٢٢٠.....

- ٣٨٤
- قصة طلب الرؤية من موسى بقول فصل في مختلف زواياها . . ٢٨٠ - ٢٩٢
- شطححات حول الرؤية ٢٩٢ - ٢٩٦
- من أثار العجل الجسد ؟ وكيف ألقى الألواح وفيها من كل شيء
- عجلاً جسداً له حوار . . بمخلفاته ؟ ٣٠٩ - ٣٢٤
- « . . سبعين رجلاً لميقاتنا . . » باختيار موسى فكيف اختيار
- المسلمين لخليفة بعد النبي (ص) ؟ ٣٢٤ - ٣٣٢
- النبي الأمي في بشارات بمواصفات . . . برسالة شرعية ؟ . . ٣٣٥ - ٣٥٦
- حيل شرعية يهودية اماهية ؟ هي شريرة باسم الشرعة الربانية
- حول العقل ؟ ٣٦٠ - ٣٧٤



مركز تحقيق كتاب توير علوم اسلامی

